فقه الشعائر الدينية

النهج الإلهي لإبقاء الدين وإحياء الأمة

الجزء الثاني

الشعائر الحسينية

الشيخ

فاضل الصفار

فقه الشعائر الدينية

النهج الإلهي لإبقاء الدين وإحياء الأمة

٢



الطبعة الأولى

طبع في لبنان

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م



شارع قبلة الإمام الحسين عليه السلام

هاتف: ٠٧٨٠١٥٨٨٧٠٧

٠٧٨٠١٥٥٨٩٤٢

e-mail:
owayde110@gmail.com

فقه الشعائر الدينية

النهج الإلهي لإبقاء الدين وإحياء الأمة

الجزء الثاني

الشعائر الحسينية

آية الله الشيخ
فاضل الصفار

مكتبة العلامة
ابن فهد الحلي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين

والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين محمّد

وآله الطيّبين الطاهرين

واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين

من الجنّ والإنس إلى قيام يوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

عن النبي المصطفىٰ ﷺ :

« إنّ إبليس يطير فرحاً يوم عـاشوراء ويـخاطب شـياطينه : يامعاشر الشياطين قد أدركتم من ذرّية آدم الطلبة وبلغنا في هـلاكـهم الغـاية ، وأورثـناهم النـار إلّا مـن اعـتصم بـهذه العصابة ، فاجعلوا شغلكم بتشكيك الناس فـيهم وحـملهم على عداوتهم وإغرائهم بهم وأوليائهم حتّى تستحكم ضلالة الخلق وكفرهم ولا ينجو منهم ناج » .

كامل الزيارات : ص٤٤٨ ، ح١

بحار الأنوار : ج٢٨ ، ص٦٠ ، ح٢٢٣

الباب الثاني

في تنقيح صغرىٰ فقه الشعائر الدينيّة

وفيه مبحث تمهيدي وأربعة فصول :

المبحث التمهيدي

في دواعي البحث ومشروعيته ورسالته و تاريخه

ويتضمّن أربعة مطالب :

المطلب الأوّل : في دواعي البحث في الشعائر الحسينية

المطلب الثاني : تعظيم الشعائر في المنظور الاجتماعي والقانوني

المطلب الثالث : في رسالة البحث (كلمة لمحبّي الحسين عليه السلام وأنصاره)

المطلب الرابع : في السير التاريخي للشعائر الحسينية

المطلب الأوّل

في دواعي البحث في الشعائر الحسينيّة

هناك أكثر من داع مهم عقلاً وشرعاً يستدعي البحث في الشعائر الحسينية من باب أنّها المصداق الأجلى والأعظم لقاعدة تعظيم الشعائر الدينية ، وذلك لأنّها تحظى بقدسية خاصّة عند الموالين والمناصرين للحسين عليه السلام من أي فرقة أو دين كانوا ، كما أنّها من المراسم المستمرّة عبر الأجيال منذ قديم الأيّام إلى يومنا هذا ، وستبقى هذه القضية تعتمر في قلوب المؤمنين حتّى عصر الظهور ، بل المستفاد من الأخبار الشريفة أنّ ولي الله الأعظم حينما يظهر يطلب بثأر الحسين عليه السلام وشعاره « يالثارات الحسين » وينادي : « ألا ياأهل العالم إنّ جدّي الحسين قتلوه عطشاناً »[1] وإنّه ينحدر إلى قبر الحسين عليه السلام ويزوره ويبكي عند قبره ، ويطالب بدمه ، ثمّ يقيم عاصمته وحكومته في الكوفة وكربلاء بعد أن تتّصل دورهما

---

(١) أُنظر شجرة طوبى : ج٢ ، ص٣٩٨ .

وقصورهما على ما يستفاد من بعض الأخبار(١).

والملحوظ أيضاً أنّ تعظيم الشعائر الحسينية أوسع مراسم يشترك فيها عموم الناس من رؤسائهم وأُمرائهم إلى علمائهم واغنيائهم وفقرائهم ورجالهم ونسائهم وكبارهم وصغارهم ، فهي الشعائر الإلهية الوحيدة التي تحظى بهذه الميزة ؛ إذ لا يشترط في إحيائها بلوغ ولا تكليف ، ولا غنى أو فقر ، ولا عالي المستوى ، ولا عادي المستوى . الجميع مهما كان مستواه ومكانته ومهما كانت قوميّته أو بلده أو معتقده يتشرّف بالمشاركة في عزاء الحسين عليه السلام وإحياء مراسمه ، ويتقرّب به إلى الله سبحانه .

والخلاصة : هي أعظم الشعائر الدينية التي تحييها عموم الأُمّة ، وهي الجامع المشترك الذي يوحّد الجميع تحت رايته ، ويجمع المتفرّقين في شكله وغايته . هذا من جهة .

ومن جهة أُخرى نلاحظ أنّ هذه الشعائر قوبلت وعلى مدى التأريخ بالكثير من المحاربة والعداء من قبل الحكومات والأنظمة السياسية الفاسدة والتيارات الظالمة المنحرفة المتأثّرة بالفكر المادّي ، والداعية إلى الفساد والتخلّي عن الهوية الإسلامية وتقليد الغرب وثقافته المادّية في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وقد اتّبعت هذه الجهات أساليب عديدة لمحاربتها

(١) أُنظر بحار الأنوار : ج٥٣ ، ص١٢ .

كان من أبرزها سياسة التشكيك فيها والانتقاص من مكانتها ، وتضعيف دورها في الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمع المسلم ، وهي دعوات اتّخذت شكلاً فكرياً تختفي وراءه أهداف سياسية كما سنرى . هذا من الناحية السياسية .

ومن الناحية الفكرية والفقهية فقد وجّهت بعض الإشكالات الفقهية ولا زالت في أيّام محرّم الحرام تثار من قبل البعض ، وهي تتلخّص في التشكيك في شرعية تعظيم الشعائر كلّها أو بعضها ، وتبحث عن المنشأ الشرعي لها ، والأدلّة التي استند إليها الفقهاء قديماً وحديثاً في فتواهم باستحباب تعظيمها ، وحثّهم المؤمنين على إقامتها وتوسيعها كمّاً وكيفاً على أحسن الوجوه وأتمّها ومشاركتهم فيها .

والظاهر أنّ التشكيك الحاصل من البعض يرجع إلى سببين :

السبب الأوّل : عدم إحاطتهم بالأدلّة الشرعية وبالاستدلال الفقهي في استنباط الفتوى ؛ إذ لا شكّ أنّ الفقهاء لا يفتون بشيء من دون دليل وحجّة معتبرة تبرئ ذمّتهم في مقام التنجيز والإعذار ، إلّا أنّ عدم إحاطة المشكّكين بالأدلّة يجعلهم في حيرة أو مخالفة ، وهذا خطأ كبير ؛ لأنّ المؤمن إذا كان مقلّداً فإنّه مكلّف باتّباع فتوى المجتهد الجامع للشرائط ، ولا يجوز له الردّ على فتواه ، بل الردّ عليه يوقعه في محذورين عظيمين يتوقّاهما كلّ

مؤمن هما :

١ ـ الردّ على من جعله الشرع حجّة عليه وهو الفقيه الجامع للشرائط بمفاد قوله عليه السلام « فإنّهم حجّتي عليكم »[١] وقوله عليه السلام : « فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فإنّما بحكم الله استخفّ ، وعلينا ردّ ، والرادّ علينا رادّ على الله وهو على حدّ الشرك بالله »[٢].

٢ ـ الإفتاء بغير علم ، وقد نصّت الآيات والروايات على أنّه من الذنوب الكبيرة التي عقابها النار ؛ إذ تواتر في الأخبار : « من قال عليّ ما لم أقل فليتبوّأ مقعده من النار »[٣] و : « من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السماء وملائكة الأرض »[٤] وتضافر في الروايات أنّ كلّ قول ينسب إلى الدين في أُصوله أو فروعه ينشأ من الظنون الشخصية يعدّ من الافتراء على الله سبحانه ، وأنّه من اتباع الظنّ ، وأنّ مصير المفتري على الله سبحانه هو النار ، فمثل الفقيه والمقلّد كمثل الطبيب والمريض ، فإنّ المريض الجاهل بضوابط الطب وأسرار الأمراض ومعالجاتها يجب عليه أن يستمع إلى قول

---

(١) الاحتجاج : ج ٢ ، ص ٢٨٣ ؛ الخرائج والجرائح : ج ٣ ، ص ١١١٤ ؛ الفصول المهمّة : ج ١ ، ص ٥٩٢ ، ح ٩٢٠ .

(٢) عوالي اللآلئ : ج ٣ ، ص ١٩٢ ، ح ٣٧ .

(٣) من لا يحضره الفقيه : ج ٣ ، ص ٥٦٩ ، ح ٤٩٤٢ .

(٤) دعائم الإسلام : ج ٢ ، ص ٥٢٨ ، ح ١٨٧٧ .

الطبيب ، ويطيعه فيما يشخص له من أمراض ، ويصف له من أدوية ؛ لأنّه عالم وخبير بالطب ، فلابدّ للمريض من أن يستمع له ويستجيب لتعاليمه .

ولو افترضنا أنّ المرض كان خطراً بتشخيص الطبيب ولم يستمع المريض له ولم يتّبع تعاليمه فمات كان عمله محرّماً ، ويحاسب عليه في الآخرة ؛ لأنّ تكليف المريض كان الاستماع إلى قول الطبيب ، والأمر ذاته يجري في مراجعة الجاهلين إلى العالمين الخبراء في كلّ علم وفن .

فقول الخبير في الموضوعات الخفية والمستنبطة حجّة على الجاهل في مقام التنجيز والإعذار ، وعليه جرت السيرة العقلائية في الخارج ، وكلّ أمر يتوقّف على العلم والخبرة لا يسمح العقلاء بتدخّل غير العالمين به وإعطاء الرأي فيه ، أو التشكيك فيه ، أو نسبة الرأي إلى عدم الصواب ما داموا لا يفهمون دليل الخبير ولا كيفية الاستدلال .

وكذلك الأمر بالنسبة لفتاوى الفقهاء ، فإنّ أدلّة التقليد تلزم الجاهلين بالأحكام الشرعية بالرجوع إلى الفقهاء العالمين بها ، فإذا أفتى الفقهاء بحكم فإنّه لا يجوز للمقلّدين التشكيك في صوابية هذا الحكم ، أو الردّ على الفقيه فيه ؛ لأنّ التشكيك والردّ يستدعي تحريم الحلال وتحليل الحرام ، وهو من الفتوى بغير علم .

السبب الثاني : عدم وجود دراسات كافية تتصدّى لتنقيح موضوع الشعائر الحسينية وبيان أحكامها وأدلّتها بشكل وافٍ ينفع العلماء

والفضلاء ، وترفع الغموض والالتباس الحاصل فيها ، فإنّ الفقهاء الذين أفتوا بجواز تعظيم الشعائر أو استحبابها اكتفوا ببيان الفتوى ، ولم يتعرّضوا للدليل ، نظراً للحاجة أو لجواب المستفتي ، والبعض ذكر بعض الأدلّة بنحو الإشارة السريعة من دون الوقوف على وجوه الاستدلال العلمي ومناقشة الإشكالات التي ربما تعترض الأدلّة من حيث السند ، أو من حيث الدلالة ، وذلك لأنّه ليس في مقام بيان التفاصيل ، لا سيّما وأنّ البعض قد يجد هناك بعض التعارض في أدلّة الشعائر أو التزاحم بين ملاكات أحكامها ، أو التزاحم في مقام العمل والامتثال بما يوجب الغموض والالتباس في الموضوع ، فيبدي رأياً قد لا يتوافق مع نهج الاستدلال الصحيح ، ومن الواضح أنّ تشخيص الموضوع من أهمّ الأركان التي تعتمد عليها عملية الاستنباط .

والخلاصة : أنّ البحث في الشعائر الحسينية وتحديد موضوعاتها وأحكامها يعدّ من الضرورات الاجتماعية والسياسية والفقهية ، بل هو من الضرورات التي يقوم عليها إحياء الدين وإبقاء نهجه في المجتمع المسلم ، كما إنّنا في بحثها وتنقيح موضوعاتها نكون قد شاركنا في احياء أمرهم عليهم السلام ونصرتهم والذبّ عنهم والدفاع عن معتقدهم ؛ إذ إنّها أعظم مصداق تنطبق عليها قاعدة تعظيم الشعائر الدينية . لهذه الجهات ولغيرها استدعى الأمر أن نبحثها في سياق البحث عن كبرى القاعدة المذكورة .

المطلب الثاني

تعظيم الشعائر في المنظور الاجتماعي والقانوني

يعدّ تعظيم الشعائر الدينية ـ والحسينية منها ـ واحترامها من الحقوق الأوّلية للمجتمع البشري في جميع القوانين والأنظمة ، كما يعدّها علماء الاجتماع من أقوى مظاهر إنسانية الإنسان الكاشفة عن صدقه وإخلاصه لفكره ووطنه ؛ لأنّها التعبير الرمزي عن المشاعر والاتّجاهات والقيم والمعتقدات عن طريق أفعال وممارسات منظّمة تعمل على تقوية المعتقد نفسه والتضامن مع مبادئه وغاياته[1].

ولا تقتصر أهميّة الشعائر على الفرد ، بل تمتدّ لتشمل المجتمع ؛ لأنّها أداة لتأكيد القيم في نفوس الناس ، كما هي وسيلة الارتباط والتضامن والتماسك والاتّفاق على محوريتها وغاياتها ، ويرتقي بها بعض علماء الاجتماع

---

(١) الظاهرة الدينية ـ الدين والتديّن ـ من منظور الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، العدد ٣٠ عام ٢٠٠٨ : ص١٥٧ .

ويعدّها غاية في نفسها وليست وسيلة ؛ إذ لا يطلب من ورائها سوى التعبير عن المعتقد وترسيخه في النفوس[١].

وتمدّ الشعائر الأفراد بالشعور بالأمان والطمأنينة ، وتوحي بالتغلّب على أزمات الحياة ، ومن هنا ينشدّ إليها الناس أكثر في المناسبات الفردية الخاصّة كالميلاد والخطبة والزواج والوفاة والسفر ، وفي المناسبات العامّة كالأعياد والزيارات والأحزان والأفراح الدينية .

واتّفقت كلمة الباحثين في هذا المجال على أنّ الشعائر عموماً والدينية منها بالخصوص تشدّ من أواصر الترابط والتماسك والتكامل الاجتماعي ، حيث تقوّي التفاف الأفراد وتمركزهم حول بؤرة معتقداتهم وتقاليدهم وتراثهم الثقافي[٢].

ومن هنا أقرّت جميع القوانين الدولية والمحلّية على الإقرار بأهمّيّة الشعائر في حياة الأفراد والأُمم ، ونصّت على أنّ ممارستها حقّ من حقوق الإنسان يرتبط بالحرّيات الشخصية ، ويتكفّل القانون بحمايته ورعايته .

وقد وضعوا لها نصوصاً خاصّة متميّزة ، ففي نصّ الإعلام العالمي لحقوق الإنسان في المادّة (١٨) ورد : (لكلّ شخص الحقّ في حرية التفكير

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

والدين ... وحرّية الإعراب عنها بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر) ونصّت المادّة (١٨) من الاتّفاقية الدولية للحقوق المدنية والسياسية على الشعائر ؛ إذ جاء فيها : (... وفي أن يعبّر منفرداً أو مع جماعة ... عن دياناته أو عقيدته ... عن طريق العبادة أو الممارسة أو التعليم) وبمثل هذا المضمون نصّت الاتّفاقية الأُوربية لحماية حقوق الإنسان في مادّتها التاسعة .

كما نصّت المادّة التاسعة عشرة من الدستور الايطالي على : (الحقّ في المجاهرة الحرّة للمعتقد الديني بأيّ شكل فردي أو جماعي ، والدعاية له وممارسة شعائره سرّاً أو علانية) .

وتضمّنت الاتّفاقية المتعلّقة بالحقوق المدنية والسياسية التابعة للجمعية العامّة لمنظّمة الأُمم المتّحدة والتي دخلت في حيّز التنفيذ في عام (١٩٧٦م) النصّ الواضح في ذلك ؛ إذ جاء في المادّة (١٨) : (لكلّ إنسان حقّ في حرّية الفكر والوجدان والدين ، ويشمل ذلك حرّيته في أن يدين بدين ما ... وحرّيته في إظهار دينه أو معتقده بالتعبّد وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم بمفرده أو مع جماعة وأمام الملأ أو على حدة) .

وقريب منه ورد في المادّة (١٢) من الاتّفاقية الامريكية لحقوق الإنسان ، وفي الدساتير الحاكمة في الدول العربية والإسلامية جاءت نصوص صريحة وواضحة بهذا الشأن ، ففي الدستور الجزائري ـ مثلاً ـ

جاء في المادّة (٤٠) : الإسلام هو دين الدولة ، وتضمن الجمهورية لكلّ فرد احترام آرائه ومعتقداته والممارسة الحرّة للشعائر الدينية[١].

وقريب منه ورد في الدستور السوري[٢] واللبناني[٣] والپاكستاني ، وفي الدستور المصري نصّ في المادّة (٤٦) منه (تكفل الدولة حرّية العقيدة وحرّية ممارسة الشعائر الدينية) وفي الدستور الأردني نصّ على فرض عقوبات على كلّ من يعتدي على حرّية ممارسة الشعائر الدينية[٤]، والدستور العراقي الصادر عام (٢٠٠٥م) تضمّن حرّية ممارسة الشعائر الدينية بما فيها الشعائر الحسينية وكفالة الدولة حمايتها وحماية أماكنها[٥].

ولا يخفى ما في لفظ (الإعراب) و (أن يعبّر) و (ممارسة) ونحوها من دلالة واسعة على اختيار الناس لطريقة التعبير وأُسلوبه . نعم قيّدته بعض القوانين بأن لا يتنافى مع الآداب العامّة وعدم الإخلال بالأمن العام .

ونلاحظ أنّ القوانين تنظر إلى حرّية ممارسة الشعائر الدينية والتعبير

---

(١) أُنظر المادّة ٤٠ من دستور ١٩٦٣ ؛ والمادّة ٣٦ من التعديل الدستوري لعام ١٩٩٦م .

(٢) أُنظر المادّة ٣٥ من الدستور السوري لعام ١٩٧٣م .

(٣) أُنظر المادّة ٩ من الدستور اللبناني لعام ١٩٤٦م .

(٤) أُنظر المادّة ١٤ لعام ١٩٥٢ .

(٥) أُنظر الدستور العراقي المادّة (٧ ـ أ) عام ٢٠٠٥م .

عنها على أنّها مظهر من مظاهر الحرّية الشخصية في أبعاد عدّة كحرّية المعتقد وحرّية التعبير وحرّية الاجتماع وحرّية التعليم والتي تجتمع تحت جامع عنواني واحد وهو حرّية الفكر ، فكما أنّ للشخص الحرّية التامّة في اختيار دينه ومعتقده وفكره فله أيضاً الحرّية التامّة في مزاولة ما يقتضيه دينه ومعتقده من شعائر ومراسم وطقوس وأعمال ، فلا يمكن أن يقرّ القانون بالحرّية الشخصية للفرد ويمنع من حرّية الاعتقاد أو حرّية إظهاره وإعلانه .

ويستمدّ القانون فهمه واحترامه للشعائر من الحقائق العلمية التي تؤكّد على أهميّة الدين ودوره الإيجابي الكبير في إصلاح الإنسان وتكميله والتي هي أهمّ غاية للقوانين ـ كما يقولون ـ وقد أقرّ الكثير من العلماء والباحثين هذه الحقيقة ، وأشاروا إلى ضرورة تديّن الناس لأجل ضمان الحياة الأفضل . وقد نصّ جمع من الباحثين الغربيين : بأنّهم لاحظوا أنّ من اعتنق ديناً يتمتّع بشخصية أقوى وأفضل ممّن لا دين له[1].

ومن الواضح أنّ لحرّية التعبير بعدين هما شخصي واجتماعي ، وتظهر أهميّة الأوّل في أنّه يتيح للفرد استكمال عناصر الخير والقوّة في شخصيته ، وذلك من خلال التعبير عن نفسه وإظهار ما يعتقده ، وأمّا أهميّة الثاني

---

(١) الإسلام والمعتقدات الدينية : ص ٧٧ ـ ٧٨ .

فتظهر في أنّه يخلق من الإنسان ومن خلال المشاركة الاجتماعية والانضمام إلى الجماعات الشعور بالمسؤولية والتضامن والتعاون ، ولهذا اعتبرت هذه الحرّية إحدى الدعائم الأساسية للفكر وللنظام الديمقراطيين ـ كما يعبّرون ـ(١).

ونتوصّل من كلّ هذه النصوص والمبادئ إلى ثلاث حقائق :

الحقيقة الأُولى : أنّ مسألة تعظيم الشعائر مهما كان شكلها وأُسلوبها تعدّ حقّاً طبيعياً مكفولاً للجميع ، فما يذهب إليه البعض من أنّها توجب الاستهزاء أو تشويه سمعة الدين أو المذهب لا يستند إلى أساس علمي ولا قانوني صحيح .

الحقيقة الثانية : أنّ الدول والمجتمعات التي تعدّ اليوم متحضّرة ـ بحسب المفهوم الدارج ـ تؤمن بالشعائر وتحميها وتعدّها أُسلوباً حضارياً نابعاً من احترام الإنسان وحرّيته في معتقده وحقّه في إظهار شعائره وطقوسه .

ومن هنا صارت حرّية تعظيم الشعائر وممارستها على المستويين الفردي والاجتماعي من علائم المجتمع الصالح الذي يتمسّك بقيمه ، ويحترم تأريخه ومبادئه في نظر علم الاجتماع والقانون ، بخلاف المجتمع الذي يتخلّى

---

(١) أُنظر العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية : المادّة ١٨ ـ ١ .

عن هذا النهج فإنّه يعدّ فارغاً لا يشتمل على عناصر القـوّة الذاتـية التي تستحقّ الاحترام .

الحقيقة الثالثة : أنّ ممارسة الشعائر وإحياءها في الأُمّـة مـن أبـرز دعائم الحرّية السياسية والفكرية في أي بلد وأُمّة ؛ لأنّها الوسيلة الصريحة التي تحمي حرّية الرأي ، وتنمّي في الناس قوّة التعبير عنها في الوقت الذي تحترم فيها آراء الآخرين وحرّيتهم في ممارسة شعائرهم وطقوسهم ، ومن هنا كانت الشعائر ولا زالت من أبرز عناصر التوحّد والتماسك الاجتماعي ؛ لأنّها تقوم على أساس الاعتقاد والإيمان بحرّية الإنسان واحترام اختياراته .

المطلب الثالث

في رسالة البحث

(كلمة لمحبّي الحسين عليه السلام وأنصاره)

إنّ الاعتقاد بالإمام الحسين عليه السلام وبما يتعلّق به من مراسم عـاشورية والمشاركة في إحيائها وتعظيمها يتجاوز مسألة العقيدة العـلمية التي تـقوم على الإيمان بالحسين عليه السلام كإمام منصوب سماوياً ومفترض الطـاعة بحسب الأدلّة والبراهين الكلامية والفلسفية ، أو بحسب الأدلّة النـقلية ، كـما أنّـه يتجاوز مسألة الفكر والنظرة التحليلية الإقناعية للأُمور ، وهي اللغة التي غالباً ما يستعملها الباحثون لأجل إقناع الآخـرين بآرائـهم وأفكـارهم ، ويتجاوز السلوك الطبيعي في البشر الذي يواجه الكثير من القضايا فيقابلها بالقبول أو الرفض ، كما يتعامل الإنسان لدى لقاء عزيز أو فـقدانـه ؛ لأنّ قضية الإمام الحسين عليه السلام وعلاقة المؤمنين به تتعلّق بالحبّ ، وقضايا الحبّ فوق العقل والبراهين ، كما هي فوق المنطق والتحليلات العلمية ، وأوسـع من السلوك الطبيعي للبشر ؛ لأنّ الحبّ يرتبط بالقلب والروح والشعور ،

ولا يمكن أن يتحدّد القلب ببرهان ، أو يتقيّد بفكر أو بنظام سلوكي ، ومن هنا قال أهل المعرفة بأنّ العقل يقيّده البرهان ، والفكر يقيّده الميزان ، وكذا السلوك الإنساني ، وأمّا القلب فهو المنطقة الحرّة التي لا تتقيّد بشيء ، وليس معنى ذلك أنّ القلب لا ينضبط في فعله بحكمة أو ميزان ، بل إنّ السلوك القلبي يدوس في كثير من الأحيان على المصالح والمنافع التي يجدها العقل والمنطق ضابطة للسلوك ، ويضحّي بها لأجل موقف نبيل أو قضية عادلة ، كما يلحظ ذلك في المخلصين والشهداء وأهل النفوس الكبيرة الذين يأخذون بالإيثار ويقدمونه على حساب المصالح .

ولذا نجد أنّ الأُمّ المحبّة لولدها تفديه بروحها ، والوالد الشفيق يضحّي بكلّ ما يملك لأجل سلامة أولاده ، والمحبّ لدينه ووطنه يجود بنفسه لأجلهما ، ولو استجابت عاطفة الأُمّ ورحمة الأب وحبّ الشهيد إلى نداء العقل والفكر لما ضحّوا ، ولا بذلوا ، ولطلبوا في مقابل ما يبذلون المقابل ، ولكن لا يملك المحب إلّا أن يعطي ويجود ، ولا يملك العقل أو المنطق إلّا أن يستسلما للقلب ويخضعا لسلطانه . هذه الحقيقة من القضايا الوجدانية البديهية التي لا تحتاج إلى مزيد بيان أو إقامة برهان ، وعليها قامت أُصول الحياة البشرية في مختلف مجالات الحياة ، فالذي يدير عجلة الحياة والتكامل الإنساني في سائر الشؤون هو الحبّ والعلاقة الروحية ، فلولا

الحبّ لما زرع الفلّاح أرضه ، ولا درس الطالب وتعلّم ، ولا تزوّج رجل ، ولا أنجبت امرأة ، ولولا الحبّ لله والشوق للقائه لما آمن عبد ولا صلّى ولا صام .

ومن هنا جعل الباري عزّوجلّ المودّة للنبي ﷺ والقربى محور الإيمان والتوحيد ، وفسّر النبي ﷺ والأئمّة عليهم السلام الدين بالحبّ ، ولأجل هذا الحبّ ضحّى سيّد الشهداء عليه السلام وتحمّل الأذى والضرّ ، وهذا ما يؤكّد مضمونه الشعر المشهور في مخاطبة الباري تبارك وتعالى :

إلهي تركت الخلق طرّاً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطّعتني في الحبّ إرباً لما حنّ الفؤاد إلى سواكا[1]

وبدافع هذا الحب حملت السيّدة زينب عليها السلام في ليلة الحادي عشر من المحرّم جسد الإمام الحسين عليه السلام المقطّع ، وناجت ربّها : **تقبّل منّا هذا القربان**[2]، وبدافع هذا الحب أجاب أصحاب الإمام الحسين عليه السلام سيّدهم ـ حينما أنبأهم بوقوع القتل عليهم إن وقفوا معه ، وأخلى لهم السبيل ، وأسقط عنهم حرج البيعة ـ فقالوا : (الحمد لله الذي شرّفنا بالقتل معك ، ولو كانت الدنيا باقية

(١) تاريخ مدينة دمشق : ج٦ ، ص٣٠٦ ؛ التحفة السنية : ص٢٦٢ ، (مخطوط) .

(٢) شجرة طوبى : ج٢ ، ص٣٩٣ ؛ حياة الإمام الحسين عليه السلام : ص٣٠١ .

وكنّا فيها مخلّدين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها)[1] وأظهروا مواقف من البطولة والفداء ما يعجز عن وصفها اللسان ، ويكلّ عن ثقلها الميزان كما هو معروف مشهور .

فالحب إذا استولى على القلب وتحكّم في الروح يفوق في أثره وسموّه البرهان الفلسفي أو التحليل الفكري ، كما لا يتحدّد بالسلوك الطبعي أو الطبيعي ، والفعل الذي يصدر بدافع الحب يصيّر الأمر الصعب سهلاً ، والألم لذّة ، والتعب راحة ، والكد والكدح عبادة ورياضة ، وفي حديث الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام : « إنّ أصحاب جدّي الحسين لم يجدوا ألم مسّ الحديد »[2].

وعدم الشعور هذا ناشئ من شدّة الحب والشوق إلى الشهادة ولقاء الله سبحانه كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في بيان معناه[3]، ولا غرابة في ذلك ، فإنّ هذه حالة المحب الواله في مقابل محبوبه ، وقد روى المؤرّخون أنّ كثيراً الشاعر كان في خبائه يبري سهاماً له ، فلمّا دخلت عليه عزّة ونظر إليها

---

(١) الخرائج والجرائح : ص١٣٨ ؛ مقتل المقرّم : ص٦٨ ؛ اللهوف على قتلى الطفوف : ص٤٨ ؛ لواعج الأشجان : ص١٠١ ؛ العوالم (الإمام الحسين عليه السلام) : ص٢٣٢ .

(٢) الخرائج والجرائح : ص١٣٨ ؛ مقتل المقرّم : ص٦٨ .

(٣) أُنظر مقتل المقرّم : ص٧١ .

أدهشته الحال فأخذ يبري أصابعه ، وسالت الدماء وهو لا يحسّ بالألم[١]، وقد أكّد القرآن هذه الحقيقة في قصّة يوسف عليه السلام مع النسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ ، فلمّا أعدّت امرأة العزيز لهنّ متّكأً وأتت كلّ واحدة منهنّ سكّيناً وقدّمت لهنّ الفاكهة على ما تقتضيه أُصول الضيافة ، قالت ليوسف : أُخرج عليهنّ ، فلمّا رأينه أكبرنه وتحيّرنّ في جماله وجلاله وقطعن أيديهنّ بتلك السكاكين على جهة الخطأ بدل قطع الفواكه ، فما أحسسن إلّا بالدم ولم يشعرن بألم القطع لانشغال قلوبهنّ بيوسف عليه السلام[٢]. هذا ما كان في حبّ الدنيا ومظاهرها فما بالك بحبّ الله والآخرة ؟

هذه الحقيقة هي التي تحكم في مراسم عاشوراء وإحياء الشعائر الحسينية لدى الكثير من الناس ، فلذا تجدهم يسهرون الليالي ، ويمشون آلاف الكيلومترات لأجل زيارة الإمام الحسين عليه السلام ، ويهجرون بيوتهم وأهلهم في أيّام عاشوراء انشغالاً في إقامة العزاء ونصب المآتم ، ويبذلون أموالهم وبعضهم فقير معوز ، وبعضهم يبذلون دماءهم وأرواحهم لأجل التعبير عن هذا الحب ، وإحياء الذكرى ، إخلاصاً للإمام الحسين عليه السلام ، وتخليداً لذكره .

---

(١) مقتل المقرّم : ص٧١.

(٢) أُنظر مجمع البيان : ج١٢ ، ص٣٩٦ ، تفسير الآية ٣١ من سورة يوسف .

بهذا الشعور والإيمان يحيي الكثير من المؤمنين الموالين الشعائر الحسينية ، وفي ضوء هذا الميزان والضابطة ينبغي أن تقاس أعمالهم ، وتقاس وتوصف الشعائر التي يحيونها لا بميزان الدليل والمنطق الجامد ، فإنّ الشخص الذي لم يكتو بحبّ الإمام الحسين عليه السلام ولم تتولّه روحه باسمه وذكره قد يجد أنّ البكاء عليه أمر صعب ، والذي لم يحترق قلبه لعطش الإمام الحسين عليه السلام ودمائه ودموعه يجد أنّ مواساته بالدم خروج عن المنطق ، ولذا قد يعترض على بعض المؤمنين إذا سهروا ومشوا وواسوا بدمائهم ودموعهم لأنّه لم يشعر بشعورهم ، ولم يحترق قلبه كاحتراقهم ، ولم يتحسّس ما تحسّسوه .

وبالتالي لم يشغفه حبّ الحسين عليه السلام ومنذ قديم الأيّام قالت العرب : ليست الثكلى كالمستأجرة[1]، فالمستأجرة لا تبكي بكاء الثكلى ؛ لأنّ قلبها لم يحترق ، ولا روحها اكتوت بحبّ فقيدها .

ومن هنا نؤكّد أنّ تقويم الشعائر والحكم على أهلها لا ينبغي أن يكون بمنظار البرهان الفلسفي ، أو التحليل الفكري ، أو المنطق السياسي ، فيقال هذا أُسلوب عصري أو حضاري وذاك لا ، وهذا يتوافق مع ثقافة الزمان وذاك لا ؛ لأنّ هذا المنطق منطق من نظر إلى الإمام

---

(١) أحاديث عائشة : ج١ ، ص٣٨٥ ؛ ج٢ ، ص١٢ .

الحسين عليه السلام بعدسة الفلسفة والرأي ، لا بعدسة القلب والشعور ، فإنّ الذي أحبّ الإمام الحسين عليه السلام وتولّه به يجد كلّ ما يبذل في سبيله قليلاً ولو بذل مهجته في سبيله لم يف بحقّه ، وفي مثل هذا المنظور يبطل البرهان ، ولا يملك المنطق سوى التسليم والإذعان ، ومن هنا قال بعض الأجلّاء من أهل المعرفة : لا ينبغي لأحد أن يعترض على ما لا يعرفه من عاشوراء ؛ لأنّها لا تنخرط في سلك ما نعرفه[1]. هذا من جهة .

ومن جهة أُخرى فإنّ الذين أحبّوا الحسين عليه السلام وتولّهوا في نهجه ونذروا أنفسهم وأموالهم لأجل إحياء أمره وتعظيم شعائره لا ينبغي أن يقصروا نظرهم في إحياء شعائره على الممارسات والمظاهر فقط ، بل عليهم أن يعرفوا الحسين عليه السلام معرفة أعمق ، ويلتحموا بأفكاره ومبادئه وقيمه ، فيعيشوا الحسين عليه السلام فكراً وعقيدة وسلوكاً كما يعيشونه حزناً ومصيبة فإنّ الحسين عليه السلام نهض لأجل الإصلاح في أُمّة جدّه ، وهو شهيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الظلم والفساد ، فلا يصحّ للمؤمن أن يدّعي نصرة الحسين عليه السلام ويحيي شعائره من دون أن يصلح نفسه ومجتمعه ، ويجدّ ويجتهد لأجل تقويم شخصيته من الفساد وتصحيح أفكاره من الجهل وتنظيف قلبه من الرذائل .

---

(١) الخصائص الحسينية : ص١١٤ .

فإنّ لشعائر الإمام الحسين عليه السلام وجهين ناصعين ، وجه هو المظهر والشكل الذي به تخلّد الذكرى ، ووجه آخر هو هدف الذكرى وغايتها والقيم المعنوية التي تنطوي عليها ، وكلاهما مطلوب ومحبوب على نحو الملازمة ولا ينبغي للمؤمن أن يكتفي بواحد على حساب الآخر ، فكما لا يصحّ أن يقتصر المؤمن على أن يعيش قيم الحسين عليه السلام ونهجه الإصلاحي في قلبه من دون إظهار ذلك على جوارحه ، ويمارسه في حياته اليومية من مشاركة في زيارته وإحياء ذكره بإقامة العزاء والمآتم والمشاركة فيها ، لا يصحّ أيضاً أن يقتصر على إحياء ذكره وتعظيم شعائره من دون أن يتحلّى بقيم الحسين عليه السلام ، ويقتدي بنهجه الفكري والأخلاقي .

وهذا ما يشير إليه قول أبي عبدالله عليه السلام : « من أراد الله به الخير قذف في قلبه حبّ الحسين »[1] بداهة أنّ الحبّ صفة القلب ، ولا يمكن أن يكون الحبّ حبّاً بالمعنى الصحيح ما لم ينعكس على الجوارح والسلوك الخارجي ، كما أنّ التمظهر بمظاهر الحبّ في الجوارح لا يعكس حقيقة الحبّ من دون أن يتطابق مع الجوانح ؛ لأنّ الأوّل من مراتب الكذب والثاني من مراتب النفاق ، فعلو المراتب وبلوغ الغايات الإلهية لا يتمّ إلّا بتوافق القلب والجسد والقول والعمل .

---

(١) كامل الزيارات : ص٢٦٩ ، ح٣ .

فالذي يدّعي الحبّ من دون أن يقتدي بحبيبه ويتّصف بصفاته خارج عن ضوابط الحبّ ، وهذا ما يؤكّده قول الصادق عليه السلام : « خرجت أنا وأبي حتّى إذا كنّا بين القبر والمنبر إذا هو بأُناس من الشيعة فسلّم عليهم ، ثمّ قال : إنّي والله لأُحبّ رياحكم وأرواحكم فأعينوني على ذلك بورع واجتهاد ، واعلموا أنّ ولايتنا لا تنال إلّا بالورع والاجتهاد ، من ائتمّ منكم بعبد فليعمل بعمله »(١).

ولا يخفى ما فيه من لطف الدلالة وعمقها على العلاقة الروحية بين الأئمّة عليهم السلام وبين شيعتهم ، وإنّهم عليهم السلام ليحبّون من الشيعة حتّى رياحهم وأرواحهم ، والمراد من الرياح أعمال الخير ؛ لأنّها بصيغة الجمع تطلق في الاستعمال القرآني على موارد الخير والبركة .

وأمّا حبّهم عليهم السلام لأرواحهم فلأنّهم خلقوا من فاضل طينتهم ، فهم أصلهم تكويناً ، كما أنّهم كذلك تشريعاً وأخلاقاً وسلوكاً باعتبارهم أئمّة لهم ، إلّا أنّ الإمام عليه السلام يطلب من شيعته إعانته على حبّهم والعناية بهم ، وجعل شرطاً لذلك هو أنّ يوفّروا في نفوسهم الاستعداد والاستحقاق لهذا الحبّ والعناية ، وذلك بالورع عن المحارم ، والاجتهاد في التهذيب والعمل الصالح ، ثمّ نفى ولايتهم عن غير الورعين المجتهدين ، ووضع الميزان الذي

---

(١) الكافي : ج٨ ، ص٢١٢ ـ ٢١٣ ، ح٢٥٩ .

يمكن لكلّ واحد من الناس أن يعرف نفسه ويوزن أعماله وتصرّفاته به ، وهو أن يكون المأموم تابعاً لإمامه في العمل ، فإذا ادّعى أنّه يأتمّ بـه ولا يعمل بعمله كان ادّعاؤه كاذباً ، والأشد كذباً منه من يدّعي إمامته ويتّصف بأخلاق أعدائه .

وهذا ما نصّ عليه الرضا عليه السلام في رواية الحسين بن خالد حيث قال : « شيعتنا المسلّمون لأمرنا ، الآخذون بقولنا ، المخالفون لأعدائنا ، فمن لم يكن كذلك فليس منّا »[1].

بداهة أنّ للخير والشرّ والحقّ والباطل والنور والظلمة طريقين متغايرين لا يجتمعان ، فكلّ خير يرجع إلى الأئمّة عليهم السلام لأنّهم نور ، وكلّ شرّ يرجع إلى أعدائهم لأنّهم ظلمة ، فإذا كان الموالي يحبّهم بقلبه ولا يطابق عمله عملهم ولا يتّصف بصفاتهم كان آخذاً بطريقة أعدائهم ؛ لأنّ العلاقة بينهما هي الضدّية التي لا يوجد ضدّ ثالث يتوسّط بينهما ، فبمقدار ما يتّصف الموالي من صفات الشرّ يكون أقرب إلى أعدائهم ، وبمقدار ما يتحلّى من صفات الخير يكون أقرب إليهم عليهم السلام ، فينبغي للمؤمن أن ينظر إلى معرفته وعمله ومواساته لإمامه وتعظيمه لشعائره فلا يكتفي بالمظهر ويستغني عن اللب والجوهر ، وفي عين الحال لا يستغني بالجوهر عن المظهر ؛ لأنّ الشرع

---

(١) وسائل الشيعة : ج٢٧ ، الباب ٩ من أبواب صفات القاضي ، ص١١٧ ، ح٢٥ .

يريد الاثنين منه .

بهذا المفهوم والضابطة يكون المؤمن في المراتب العالية من أهل الإيمان الذين يحظون بحبّ الأئمّة عليهم السلام ، ويفوز بدرجة شيعتهم وخواصّهم الذين تنالهم ألطافهم وبركاتهم ، وهذا ما يستفاد من رواية ابن مسكان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « نحن أصل كلّ خير ، ومن فروعنا كلّ برّ ... وعدوّنا أصل كلّ شرّ ، ومن فروعهم كلّ قبيح وفاحشة »[1].

وفي ذلك حجّة تامّة على الذين يحبّون الحسين عليه السلام ويعظّمون شعائره ويشاطرونه في أحزانه وآلامه ، فإنّهم إذا أرادوا أن يرتقوا في المراتب العالية وينالوا شرف الولاية التامّة والاختصاص بالأئمّة عليهم السلام فيعدّوهم من خواصّهم وأوليائهم فوق شرف النصرة والمواساة والحزن على أحزانهم والفرح لأفراحهم أن يتحلّوا بكلّ صفات الخير ، ويجتنبوا كلّ نوازع الشرّ ، فيتّخذوا من تعظيم الشعائر الحسينية نهجاً للإصلاح النفسي والاجتماعي فيأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، ويصلحوا ذات البين ، ويتحلّوا بالعلم والمعرفة والحلم والجود والكرم وحسن الأخلاق وطيب المعاشرة وأداء الفرائض واجتناب المحرّمات ، وينزّهوا أعمالهم وممارساتهم من عزاء وبكاء ولطم وزيارة وإدماء وإطعام التي هي عند الله سبحانه من أفضل

---

(١) الكافي : ج٨ ، ص٢٤٢ ـ ٢٤٣ ، ح٣٣٦ .

القربات ، وبواسطتها يرتقي الأولياء والصالحون إلى مراتب عالية من المعرفة الإلهية عن الاختلاف والتفرقة والتنازع وحبّ الظهور وغيرها من مظاهر لا تنسجم مع نهج الحسين عليه السلام ، ولا تستقي من نوره .

ولعلّ من هنا ورد في بعض زياراته الشريفة ما يؤكّد هذه الحقيقة ، ويزيد عليها مضامين لو التفت إليها أنصار الحسين عليه السلام ومحبّوه لبلغوا الذروة في المعرفة والمواساة والنصرة ، وكانوا من طبقة أنصار الحسين عليه السلام الذين بذلوا مهجهم دونه وإن لم يضربوا بسيف ، أو يطعنوا برمح ، ولم يتعفّروا بتراب الشهادة ، فقد سأل جماعة من أصحاب الصادق عليه السلام وكانوا من أجلّاء أصحابه وأعلام أهل الحقّ عمّا يقوله الزائر عند دخوله على الحسين عليه السلام ، فأجابهم الإمام عليه السلام بجواب مفصّل نكتفي ببعض فقراته . قال : « امش حافياً فإنّك في حرم من حرم الله ورسوله بالتكبير والتهليل والتمجيد والتعظيم لله كثيراً ، والصلاة على محمّد صلى الله عليه وآله وأهل بيته .. وتقول : أنا عبد الله ومولاك وفي طاعتك والوافد إليك ألتمس كمال المنزلة عند الله وثبات القدم في الهجرة إليك »[١].

ونلاحظ أنّ الإمام عليه السلام ألفت أنظار الزوّار والأنصار على مختلف مستوياتهم وطبقاتهم إلى أربع غايات ينبغي أن يستشعروها وهم في طريق

---

(١) كامل الزيارات : ص٣٦٣ ـ ٣٦٥ ، ح٢ ؛ وانظر بحار الأنوار : ج١٠١ ، ص١٥٢ ، ح٣.

زيارته وتعظيم شعائره ، ولا ينبغي أن يغفلوا عنها :

الأُولى : أنّهم عباد لله سبحانه ، وعباد الله يستشعرون الفقر والتواضع والخضوع لله سبحانه ؛ لأنّهم أيقنوا بأنّهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولا يملكون من أمرهم شيئاً .

الثـانية : أنّهم موالون للحسين عليه السلام وفي طاعته ، وينطبق على المولى هنا جلّ معاني الولي كالمحبّ والصديق والناصر وغيرها ، ولكن لا يكون الموالي موالياً بالمعنى الصحيح للولاية إلّا أن يكون في طاعة الحسين عليه السلام ، ولا شكّ في أنّ إطاعة الحسين هي إطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله هي إطاعة الله تعالى ؛ إذ قال سبحانه : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾**(١) وقال سبحانه : **﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾**(٢) وواضح لدى الجميع أنّ العبد لا يكون مطيعاً للحسين عليه السلام إلّا إذا كان ملتزماً بنهجه وسيرته مجهداً نفسه على حسن الخُلُق وإصلاح ذات البين وهداية الخَلْق وإصلاحهم .

الثالثة : أنّهم وافدون إلى الحسين عليه السلام لأجل الوصول إلى كمال المنزلة عند الله سبحانه ، وهذه المنزلة هي العبودية لله سبحانه والكون في طاعته

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

(٢) سورة النساء : الآية ٨٠ .

ورضاه ، ولا يخفى ما في هذه الفقرة الشريفة من دلالة لطيفة على الملازمة بين الارتقاء المعنوي وبلوغ الكمال عند الله سبحانه وبين حبّ الحسين عليه السلام وزيارته وتعظيم شعائره ، وسيمرّ عليك أنّ أنبياء الله سبحانه عظّموا مصيبه الحسين عليه السلام ، وبكوا عليها طويلاً ؛ لأنّهم وجدوا أنّها أقرب الطرق إلى الله سبحانه ، وبها يختصر ذوو اللب والمعرفة طريق الكمال وإدراك غاياته .

الرابعة : أنّهم بحبّهم وخدمتهم في شعائر الحسين عليه السلام يهاجرون إلى الحسين عليه السلام ، وحيث إنّ هذه الهجرة مسيرة صعبة وعسيرة تحتاج إلى عزم وإرادة وصبر وتجاوز للكثير من العقبات فإنّهم يطلبون من الله سبحانه ثبات القدم عليها ، وهنا نلفت النظر إلى أنّ المعنى المنصرف من الهجرة هو المتداول على الألسنة أي ترك الأوطان والتغرّب عنها ، إلّا أنّ في زيارة الحسين عليه السلام أُشير إلى وجود هجرة أُخرى هي أرقى مرتبة من الأُولى ، وهي الهجرة إلى الحسين عليه السلام ، وهذا يتوافق مع معنى الهجرة في اللغة إذ عرّفوها بمفارقة الغير بالبدن أو باللسان أو بالقلب[١].

فهجران الكفر والنفاق لا يتحقّق إلّا إذا فارقهما الإنسان ببدنه وبلسانه وقلبه ، ونلاحظ أنّ الفقرة الشريفة لم تتعدّ بعن بل بإلى فقال : « التمس بذلك كمال المنزلة عند الله وثبات القدم في الهجرة إليك » ومفادها أنّ الهجرة

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص٨٣٣ ، (هجر) .

تكون للحسين عليه‌السلام ، وهي لا تتحقّق إلّا إذا تحلّى الزائر بصفاته وتخلّق بأخلاقه ، فيكون عنده ببدنه ، ويذكره بلسانه ، ويعيشه في فكره ويخلّده في قلبه ، وواضح أنّ لكلّ واحدة من هذه الأربع هجرة خاصّة به وفضل خاصّ ، فليس بالضرورة أن تجتمع جميع المراتب الأربع ، بل قد يكون المؤمن مهاجراً إلى الحسين عليه‌السلام ببدنه ، وهذه أدنى المراتب ، ولذا يشترك فيها جميع المؤمنين الذين يزورون الحسين عليه‌السلام ويعظّمون شعائره .

وربّما يتجاوز ذلك ليبلغ الهجرة بالقول ثمّ بالفكر ، وهما أعلى رتبة من الأُولى ، ولا ينالهما إلّا من اقتصر في فكره ومعتقده وثقافته على الحسين عليه‌السلام فلم يأخذ من مخالفيه وأعدائه ، وربّما يتجاوز هذه الرتبة إلى رتبة رابعة أعلى في الفضل وأسمى في الدرجات ، وهي الهجرة إليه بالقلب والمشاعر ، ولا تتحقّق إلّا إذا تعلّق قلبه بالحسين عليه‌السلام ، فلا يحبّ إلّا الحسين وما يرتبط به من أفكار وغايات ومراسم ، فإذا كان المؤمن محبّاً للحسين عليه‌السلام ومحبّاً للدنيا أو لنفسه وأنانياته أو كان محبّاً لمخالفي الحسين عليه‌السلام فليعرف أنّ هجرته ناقصة ؛ إذ لا يبلغ العبد درجة الناصر والموالي للحسين عليه‌السلام الذي يحظى بكمال المنزلة إلّا باستيفاء كلّ مراتب الهجرة .

وبذلك يتّضح أنّ تعظيم الشعائر الحسينية هو الأصل العام الذي

يشترك فيه عموم المؤمنين ، إلّا أنّ مراتب التعظيم وآثاره تختلف بحسب مستويات المعرفة والأخلاق والعمل ، فالبعض يعظّم شعائر الحسين عليه السلام ببدنه ، وبعضهم يعظّمها بلسانه وفكره أيضاً ، وبعضهم يعظّمها بقلبه ومشاعره كذلك ، ولكلّ واحد من هذه المستويات فضل وأثر ، إلّا أنّ الأثر التامّ الذي يحظى صاحبه بمقام ناصر الحسين عليه السلام والمطالب بثأره والفائز بكمال المنزلة عند الله سبحانه هو الذي يجمع المراتب الأربع .

هذا هو نهج المحبّين الذين ارتقوا إلى مستوى الحبّ الحقيقي الذي يجعلهم في مصاف الأنصار والشهداء الذين لهم الوجاهة عند الله سبحانه ، وهو ما يتضمّن البحث رسم بعض معالمه ومقاماته وأحكامه .

المطلب الرابع

السير التاريخي للشعائر الحسينية

يتساءل البعض عن تأريخ الحزن والشعائر الحسينية ، والبعض يذهب إلى أنّها من القضايا المستحدثة التي نشأت كلاً أو بعضاً في الأزمنة المتأخّرة ، إلّا أنّ المصادر التأريخية وما وصلنا عن أهل البيت عليهم السلام من الأخبار المعتبرة يدلّان على أنّ الأمر يتجاوز ما ذكر بكثير ، بل المتتبّع للأخبار يجزم بأنّ قضية عاشوراء وأحداثها وإظهار الحزن والعزاء عليها سبق وقوعها بقرون عديدة ؛ لأنّ الله سبحانه حكاها لملائكته وأنبيائه عليهم السلام منذ آدم إلى الخاتم ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نقل أحداثها وبكى عليها قبل ولادة صاحبها وسيّدها وأصحابه وأنصاره عليهم السلام كما اتّفقت عليه روايات الفريقين ، وأنّ مجالس العزاء أُقيمت عليه منذ اليوم الأوّل للواقعة ، وانتشرت في كلّ مكان حتّى في قصر يزيد ومجلس ابن زياد ، وفي دمشق

والكوفة والمدينة ، وفي كلّ موضع وجد فيه للحسين عليه السلام محبّ أو مواس[(١)]، وتؤكّد ذلك وقائع الأيّام وشهادات الأجيال المتعاقبة فضلاً عمّا نصّت عليه أخبار المؤرّخين ، وهو ما تقتضيه الأدلّة والبراهين الواردة في بيان مقام الإمام الحسين عليه السلام وإظهار مكانته عند الله سبحانه ، والعنايات الإلهية التي أولاه الله سبحانه بها ، فالحزن على عاشوراء وإحياء الشعائر الحسينية من القضايا التي لازمت حياة الناس منذ فجر التأريخ ، وأنّها تتّسع وتكبر وتتطوّر مع الزمان ؛ لأنّها نهج سماوي أسّسه الباري عزّوجلّ ، ودعا إليه ملائكته وأنبياءه ورسله عليهم السلام ، وأمرهم بتعليمه للناس .

ولو أردنا سرد تفاصيل الأحداث والوقائع لطال بنا المقام ، وخرجنا عن موضوع البحث وغايته ، لذا سنكتفي بنقل بعض ما ورد من باب المقتطفات السريعة التي تخدم الغرض في بيان السير التاريخي للشعائر الحسينية وبإيجاز .

فقد روى العلّامة المجلسي رحمه الله عن صاحب الدرّ الثمين في تفسير قوله تعالى : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾[(٢)] أنّه رأى ساق العرش وأسماء النبي

(١) أُنظر مأتم الإمام الحسين عليه السلام من مصادر أهل السنّة : ج١ ، ص٦٧ وما بعدها ؛ تاريخ النياحة : ص٢٣ وما بعدها .

(٢) سورة البقرة : الآية ٣٧ .

والأئمّة عليهم السلام فلقّنه جبرئيل قل : « ياحميد بحقّ محمّد ، ياعالي بحقّ علي ، يافاطر بحقّ فاطمة ، يامحسن بحقّ الحسن والحسين ومنك الإحسان » فلمّا ذكر الحسين عليه السلام سالت دموعه ، وانخشع قلبه ، وقال : « ياأخي جبرئيل ! في ذكر الخامس ينكسر قلبي وتسيل عبرتي ؟ » قال جبرئيل : ولدك هذا يصاب بمصيبة تصغر عندها المصائب ، فقال : « ياأخي وما هي ؟ » قال : يقتل عطشاناً غريباً وحيداً فريداً ، ليس له ناصر ولا معين ، ولو تراه ياآدم وهو يقول : وا عطشاه وا قلّة ناصراه حتّى يحول العطش بينه وبين السماء كالدخان فلم يجبه أحد إلّا بالسيوف ، وشرب الحتوف ، فيذبح ذبح الشاة من قفاه ، وينهب رحله أعداؤه ، وتشهر رؤوسهم هو وأنصاره في البلدان ومعهم النسوان ، كذلك سبق في علم الواحد المنّان ، فبكى آدم وجبرئيل بكاء الثكلى »[1] وقد ورد قريب منه عن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من أنبياء الله عليهم السلام[2] بما يدلّ على أنّ الله سبحانه نعى الحسين عليه السلام لهم ، وأبكاهم على مصائبه ، وأقاموا له المآتم .

وروى عبدالله بن يحيى قال دخلنا مع علي إلى صفّين فلمّا حاذى نينوى نادى صبراً ياعبد الله ، فقال : « دخلت على رسول الله وعيناه

(١) أُنظر بحار الأنوار : ج٤٤ ص٢٤٥ ، ح٤٤ .

(٢) أُنظر بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٤٣ ، ح٣٩ ؛ ص٢٤٤ ، ح٤١ ، ح٤٢ ، ح٤٣ .

تفيضان فقلت : بأبي أنت وأُمّي يارسول الله ما لعينيك تفيضان ؟ أغضبك أحد ؟ قال : لا ، بل كان عندي جبرئيل فأخبرني أنّ الحسين يقتل بشاطئ الفرات ، وقال : هل لك أن أشمّك من تربته ؟ قلت : نعم ، فمدّ يده فأخذ قبضة من تراب فأعطانيها فلم أملك عيني أن فاضتا ، واسم الأرض كربلاء »(١).

وروى الخوارزمي الحنفي المتوفى عام ٥٦٨هـ في مقتله : أنّه لمّا أتى على الحسين عليه السلام من ولادته سنة كاملة هبط على رسول الله صلى الله عليه وآله اثنا عشر ملكاً محمرّة وجوههم ، قد نشروا أجنحتهم وهم يقولون : يامحمّد سينزل بولدك الحسين عليه السلام ما نزل بهابيل من قابيل ، وسيعطى مثل أجر هابيل ، ويحمل على قاتله مثل وزر قابيل . قال : ولم يبق في السماء ملك إلّا ونزل على النبي صلى الله عليه وآله يعزّيه بالحسين عليه السلام ويخبره بثواب ما يعطى ، ويعرض عليه تربته ، والنبي صلى الله عليه وآله يقول : « اللهمّ اخذل من خذله ، واقتل من قتله ، ولا تمتّعه بما طلبه » ولمّا أتت على الحسين عليه السلام من مولده سنتان كاملتان خرج النبي صلى الله عليه وآله في سفر ، فلمّا كان في بعض الطريق وقف فاسترجع ودمعت عيناه ، فسئل عن ذلك ؟ فقال : « هذا جبريل يخبرني عن أرض بشاطئ الفرات يقال لها (كربلاء) يقتل فيها ولدي الحسين بن فاطمة عليها السلام » فقيل : من يقتله

(١) بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٤٨ ، ح٤٦ .

يارسول الله ؟ فقال : « رجل يقال له يزيد لا بارك الله في نفسه ، وكأنّي أنظر إلى منصرفه ومدفنه بها وقد أُهدي رأسه ، والله ما ينظر أحد إلى رأس ولدي الحسين عليه السلام فيفرح إلّا خالف الله بين قلبه ولسانه » . يعني ليس في قلبه ما يكون بلسانه من الشهادة .

قال : ثمّ رجع النبي صلى الله عليه وآله من سفره ذلك مغموماً ، فصعد المنبر فخطب ووعظ والحسين عليه السلام بين يديه مع الحسن عليه السلام ، فلمّا فرغ من خطبته وضع يده اليمنى على رأس الحسين عليه السلام ، ورفع رأسه إلى السماء وقال : « اللهمّ إنّي محمّد عبدك ونبيّك ، وهذان أطائب عترتي وخيار ذرّيتي وأرومتي ، ومن أخلفهما من أُمّتي ، اللهمّ وقد أخبرني جبرئيل بأنّ ولدي هذا مقتول مخذول ، اللهمّ فبارك لي في قتله ، واجعله من سادات الشهداء إنّك على كلّ شيء قدير ، اللهمّ ولا تبارك في قاتله وخاذله » قال : فضجّ الناس في المسجد بالبكاء ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : « أتبكون ولا تنصرونه ؟ اللهمّ فكن له أنت ولياً وناصراً »(١).

وروى جعفر بن محمّد الفزاري بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « كان الحسين عليه السلام مع أُمّه تحمله فأخذه النبي صلى الله عليه وآله وقال : لعن الله قاتلك ، ولعن الله سالبك ، وأهلك الله المتوازرين عليك ، وحكم الله بيني وبين من

(١) مقتل الخوارزمي : ج١ ، ص١٦٣ .

أعان عليك . قالت فاطمة الزهراء عليها السلام : ياأبت أي شيء تقول ؟ قال : يابنتاه ذكرت ما يصيبه بعدي وبعدك من الأذى والظلم والغدر والبغي ، وهو يومئذ في عصبة كأنّهم نجوم السماء ، ويتهادون إلى القتل ، وكأنّي أنظر إلى معسكرهم وإلى موضع رحالهم وتربتهم . قالت : ياأبه وأين هذا الموضع الذي تصف ؟ قال : موضع يقال له كربلاء ، وهي دار كرب وبلاء علينا وعلى الأُمّة . يخرج عليهم شرار أُمّتي ، لو أنّ أحدهم شفع له من في السماوات والأرضين ما شفعوا فيه ، وهم المخلّدون في النار . قالت : ياأبه فيقتل ؟ قال : نعم يابنتاه وما قتل قتلته أحد كان قبله ، ويبكيه السماوات والأرضون والملائكة والوحش والنباتات والبحار والجبال ، ولو يؤذن لها ما بقي على الأرض متنفّس ، ويأتيه قوم من محبّينا ليس في الأرض أعلم بالله ولا أقوم بحقّنا منهم ، وليس على ظهر الأرض أحد يلتفت إليه غيرهم ، أُولئك مصابيح في ظلمات الجور ، وهم الشفعاء ، وهم واردون حوضي غداً أعرفهم إذا وردوا عليّ بسيماهم ، وكلّ أهل دين يطلبون أئمّتهم وهم يطلبوننا لا يطلبون غيرنا ، وهم قوام الأرض ، وبهم ينزل الغيث ، فقالت فاطمة الزهراء عليها السلام : ياأبه إنّا لله وبكت ، فقال لها : يابنتاه ! إنّ أفضل أهل الجنان هم الشهداء في الدنيا .. يافاطمة بنت محمّد أما تحبّين أن تأمري غداً بأمر فتطاعي في هذا الخلق عند الحساب ؟ أما ترضين أن يكون ابنك

من حملة العرش ؟ أما ترضين أن يكون أبوك يأتونه يسألونه الشفاعة ؟ ... أما ترضين أن تنظري إلى الملائكة على أرجاء السماء ينظرون إليك وإلى ما تأمرين به ؟ وينظرون إلى بعلك قد حضر الخلائق وهو يخاصمهم عند الله ؟ فما ترين الله صانع بقاتل ولدك وقاتليك وقاتل بعلك إذا أفلجت حجّته على الخلائق ؟ وأُمرت النار أن تطيعه ؟ أما ترضين أن يكون الملائكة تبكي لابنك ويأسف عليه كلّ شيء ؟ أما ترضين أن يكون من أتاه زائراً في ضمان الله ويكون من أتاه بمنزلة من حجّ إلى بيت الله واعتمر ، ولم يخل من الرحمة طرفة عين ، وإذا مات مات شهيداً ، وإن بقي لم تزل الحفظة تدعو له ما بقي ، ولم يزل في حفظ الله وأمنه حتّى يفارق الدنيا ؟ قالت : ياأبه سلّمت ورضيت ، وتوكّلت على الله ، فمسح على قلبها ، ومسح عينيها »[١].

ويستفاد من طائفة من الأخبار أنّ النبي ﷺ كان يبكي الحسين ويتعزّى به في حضور الصحابة ، وكانوا يشاركونه العزاء ، فقد روى الماوردي الشافعي المتوفّى سنة (٤٥٠هـ) في كتابه أعلام النبوّة عن عائشة قالت : دخل الحسين بن علي على رسول الله ﷺ وهو يوحى إليه ، فبرك على ظهره وهو منكب ولعب عليه ، فقال جبرئيل : يامحمّد ! إنّ أُمّتك ستفتن بعدك ، ويقتل ابنك هذا من بعدك ، ومدّ يده فأتاه بتربة بيضاء

(١) بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٦٤ ـ ٢٦٥ ، ح٢٢ ، « بتصّرف » .

وقال : في هذه الأرض يقتل ابنك اسمها الطف ، فلمّا ذهب جبرئيل خرج رسول الله ﷺ إلى أصحابه والتربة بيده وفيهم أبو بكر وعمر وعلي وحذيفة وعمّار وأبو ذرّ وهو يبكي ، فقالوا : ما يبكيك يارسول الله ؟ فقال : « أخبرني جبرئيل أنّ ابني الحسين يقتل بعدي بأرض الطف ، وجاءني بهذه التربة ، فأخبرني أنّ فيها مضجعه »(١).

ومن الواضح أنّ بكاء النبي ورقّته ملازمة لرقّة أصحابه وبكائهم لبكائه ، بل تصدّى بعضهم إلى تذكير الناس بالحسين عليه السلام وشرح مصائبه ، فقد روى ابن قولويه بسنده عن عروة بن الزبير قال : سمعت أبا ذرّ وهو يومئذ قد أخرجه عثمان إلى الربذة ، فقال له الناس : ياأبا ذرّ أبشر فهذا قليل في الله ، فقال : ما أيسر هذا ! ولكن كيف أنتم إذا قتل الحسين بن علي قتلاً أو قال : ذبح ذبحاً ، والله لا يكون في الإسلام بعد قتل الخليفة أعظم قتيلاً منه ، وإنّ الله سيسلّ سيفه على هذه الأُمّة لا يغمده أبداً ، ويبعث ناقماً (قائماً) من ذرّيته فينتقم من الناس ، وإنّكم لو تعلمون ما يدخل على أهل البحار وسكّان الجبال في الغياض والآكام وأهل السماء من قتله لبكيتم والله حتّى تزهق أنفسكم ، وما من سماء تمرّ به روح الحسين عليه السلام إلّا فزع له

---

(١) أعلام النبوّة : ص١٠٨ ؛ وانظر رسائل الشعائر الحسينية : (كلمة حول التذكار الحسيني) ، ج١ ، ص٢٧٥ .

سبعون ألف ملك يقومون قياماً ترعد مفاصلهم إلى يوم القيامة ، وما من سحابة تمرّ وترعد وتبرق إلّا لعنت قاتله ، وما من يوم إلّا وتعرض روحه على رسول الله فيلتقيان[١].

وروى الشيخ ﵀ في الأمالي عن أُمّ سلمة أنّها أصبحت تصرخ صراخاً عظيماً وهي تقول : يابنات عبدالمطّلب اسعدنني وابكين معي ، فقد قتل سيّدكنّ الحسين[٢]، وقريب منه ورد بطرق الجمهور أيضاً[٣].

وجرت على هذا النهج سيرة التابعين أيضاً من أمثال ميثم التّمار رضوان الله عليه الذي يعدّ من حواريي علي أمير المؤمنين ﵇ وأصفيائه ومن علماء السرّ[٤]، فقد روى الصدوق ﵀ في العلل والأمالي عن جبلة المكيّة قالت : سمعت ميثم التّمار قدّس الله روحه يقول : والله لتقتل هذه الأُمّة ابن نبيّها في المحرّم لعشر يمضين منه ، وليتّخذن أعداء الله ذلك اليوم يوم بركة ، وإنّ ذلك لكائن قد سبق في علم الله تعالى ذكره . أعلم ذلك بعهد عهده إليّ مولاي أمير المؤمنين ﵇ ، ولقد أخبرني أنّه يبكي عليه كلّ شيء

---

(١) كامل الزيارات : ص١٥٣ ـ ١٥٤ ، ح١٥ .

(٢) الأمالي : ص٣١٥ ، ح٦٤٠ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٢٣٠ ، ح٢ .

(٣) المناقب : ج٣ ، ص٢١٣ .

(٤) الكشي : ص٩ ؛ قاموس الرجال : ج١٠ ، ص٣١٠ ، الرقم (٧٨٩١) .

حتّى الوحوش في الفلوات والحيتان في البحر والطير في السماء ، وتبكي عليه الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض ومؤمنو الإنس والجنّ وجميع ملائكة السماوات والأرضين ورضوان ومالك وحملة العرش ، وتمطر السماء دماً ورماداً .. قالت جبلة : فقلت له : ياميثم ! فكيف يتّخذ الناس ذلك اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السلام يوم بركة ؟ فبكى ميثم رضوان الله عنه ثمّ قال : يزعمون لحديث يضعونه أنّه اليوم الذي تاب الله فيه على آدم ، وإنّما تاب الله على آدم في ذي الحجّة ، ويزعمون أنّه اليوم الذي قبل الله فيه توبة داود ، وإنّما قبل الله عزّوجلّ توبته في ذي الحجّة ، ويزعمون أنّه اليوم الذي أخرج الله فيه يونس من بطن الحوت ، وإنّما أخرج الله يونس من بطن الحوت في ذي الحجّة ، ويزعمون أنّه اليوم الذي استوفت فيه سفينة نوح على الجودي ، وإنّما استوت على الجودي في يوم الثامن عشر من ذي الحجّة ، ويزعمون أنّه اليوم الذي فلق الله عزّوجلّ فيه البحر لبني اسرائيل ، وإنّما كان ذلك في ربيع الأوّل ، ثمّ قال ميثم : ياجبلة اعلمي أنّ الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام سيّد الشهداء يوم القيامة ، ولأصحابه على سائر الشهداء درجة ، ياجبلة إذا نظرت إلى الشمس حمراء كأنّها دم عبيط فاعلمي أنّ سيّد الشهداء الحسين عليه السلام قد قتل .

قالت جبلة : فخرجت ذات يوم فرأيت الشمس على الحيطان كأنّها

الملاحف المعصفرة ، فصحت حينئذ وبكيت ، وقلت : قد والله قتل سيّدنا الحسين بن علي عليهما السلام[1].

والروايات الواردة بهذا المضمون كثيرة لا تخفى على أهل التتبّع والتحقيق ، وهي في الوقت الذي تدلّ على توغّل قضايا عاشوراء ومجالس المآتم والعزاء في التأريخ ومواكبتها للأحداث الاجتماعية والسياسية في كلّ عصر ومصر فإنّها تدلّ على أنّ إحياء هذه الذكرى والمشاركة في تخليدها وترويجها وتعظيمها من سنن الله سبحانه وسنن أنبيائه عليهم السلام في الوجود ، وأنّ العبد المعظّم للإمام الحسين عليه السلام ولتضحياته الجسام في إحياء شعائره يكون أقرب ما يكون إلى ربّه في نصرة دينه وأوليائه ، كما تدلّ على أنّ الأُمّة على اختلاف شرائحها واتّجاهاتها مأمورة في كلّ عصر بنصرة الإمام الحسين عليه السلام ، والسير على نهجه ، فالوقوف موقف الضدّ من قضايا عاشوراء وإحيائها أو الدعوة إلى تضعيفها أو الاستهزاء بها أو بالذين يمارسونها أو الوقوف موقف المتفرّج منها خروج عن النهج السماوي الذي أراده الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وآله .

ومن هنا باتت كلّ محاولات التحديد والمحاربة للشعائر الحسينية

---

(١) علل الشرائع : ج١ ، ص٢٢٧ ، ح٣ ؛ أمالي الصدوق : ص١١٠ ، ح١ ؛ وانظر بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٢٠٢ ، ح٤ .

بالفشل ، فقد كانت عاشوراء ولا زالت من أكبر القضايا التي حاربتها السياسة عبر التأريخ ، وقد توارث الحكّام الظلمة ـ ومن يتّبعهم ـ هذا النهج ، ودبّروا لمنعها وتحجيمها ، وأزهقوا في سبيل ذلك الأرواح ، وأراقوا الدماء ، ووظّفوا الكثير من أهل الفكر والقلم لأجل تشويشها والتشكيك فيها ، إلّا أنّهم لم يصلوا إلى شيء ؛ لأنّ الله سبحانه أراد للإمام الحسين عليه السلام أن يبقى ، وشاء لذكراه ومصائبه وأحزانه وآلامه أن تغلي وتفور في ضمير الزمان ووجدان الإنسان تهدي وتعلّم وتربّي الناس على حبّ الله سبحانه وحبّ الخير والكرامة والتضحية للحقّ والانتصار للقيم ، وفضلاً عن الإحياء الذي قام به الأنبياء والأولياء والملائكة إلى زمان الواقعة ، والإحياء الذي تمّ في يوم الواقعة وبعدها ومراسم العزاء والنياحة التي أُقيمت حتّى في دار يزيد ، والذي تواترت به الأخبار تؤكّد الوثائق أنّ التوّابين من الأوائل الذين قاموا بحركة مقاومة ضدّ الحكم الأموي للأخذ بثأر الإمام الحسين عليه السلام ، وأظهروا الشعائر وأقاموها في الكوفة وكربلاء ، ولمّا خرجوا بأربعة آلاف مقاتل ساروا إلى كربلاء في عام (٦٥) هجرية ، ولمّا وصلوا موضع القبر صاحوا صيحة واحدة وضجّوا بالبكاء والعويل فلم ير يوماً أكثر بكاءً حول قبر الإمام الحسين عليه السلام من ذلك اليوم ، وقد

خطب فيهم خطباء كثيرون[١].

وصاح زعيمهم : ربّ ارحم الحسين الشهيد ابن الشهيد ، المهدي ابن المهدي ، الصدّيق ابن الصدّيق . ربّ اشهد أنّنا أتباع دينهم وسبيلهم ، وأنّنا أعداء قاتليهم وأحبّاء محبّيهم[٢].

وقالت بنت الشاطئ : وكانت السيّدة زينب هي التي جعلت من مصرع الحسين عليه السلام مأساة خالدة لا تعرف ما هو أبعد أثراً في تطوّر العقيدة عند الشيعة ، وصيّرت من يوم مقتله مأتماً سنوياً للأحزان والآلام ، يحجّ فيه أحفاد التوّابين إلى المشهد المقدّس في كربلاء ، حيث يعيدون تمثيل الواقعة ، وما أحسب أنّ التأريخ قد عرف حزناً كهذا طال مداه حتّى استمرّ بضعة عشر قرناً دون أن يفتر ، فمراثي شهداء كربلاء هي الأناشيد التي يترنّم بها الشيعة في حزنهم يوم عاشوراء في كلّ عام ، ويتحدّون الزمن أن يغيّبها في متاهة النسيان ، وكذلك كانت زينب عقيلة بني هاشم في تأريخ الإسلام وتأريخ الإنسانية بطلة استطاعت أن تسلّط معاول الهدم على دولة

---

(١) أُنظر تاريخ الطبري : ج ٤ ، ص ٤٥١ ، أحداث سنة خمس وستين .

(٢) موسوعة العتبات : ج ١ ، ص ١٩٠ نقلاً عن المستشرق (رينولد نطلس) في كتابه تاريخ العرب الأدبي ؛ تاريخ النياحة : ص ١١٥ .

بني أُميّة ، وأن تغيّر مجرى التأريخ[١].

وذكر ابن قتيبة أنّ المختار بن يوسف الثقفي رفع شعار (يالثارات الحسين) وهو أوّل من أقام مجالس العزاء في داره في الكوفة في ذكرى عاشوراء ، كما أرسل بعض النادبات إلى شوارع الكوفة للندب على الحسين عليه السلام[٢].

ويستفاد من بعض الأخبار أنّ ظاهرة العزاء الجماعي والندبة وإظهار الحزن بأساليب مختلفة كنشر التراب على الرؤوس قد سبق عاشوراء فقد ورد أنّ صعصعة بن صوحان وهو من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام والعارفين بحقّه حضر تشييع الإمام عليه السلام ليلاً من الكوفة إلى النجف ، ولمّا لحّد أمير المؤمنين عليه السلام وقف صعصعة على القبر وأخذ كفّاً من التراب فأهاله على رأسه وقال : بأبي أنت وأُمّي ياأمير المؤمنين ، هنيئاً لك ياأبا الحسن ، فلقد طاب مولدك ، وقوي صبرك ، وعظم جهادك ، وبلغت ما أمّلت ، وربحت تجارتك ، ومضيت إلى ربّك ، ونطق بكثير من كلمات الحزن والمصيبة ، وبكى بكاءً شديداً ، وأبكى كلّ من كان معه ، وقد انعقد في جوف الليل مأتم خطب فيه صعصعة ـ وكان من كبار الخطباء الفصحاء ـ وحضره

---

(١) موسوعة آل النبي : ص٧٦٥ ، (بتصرّف واختصار) ؛ تاريخ النياحة : ص١١٤ .

(٢) الإمامة والسياسة : ج٢ ، ص١٣٠ .

الإمامان الحسنان عليهما السلام ومحمّد بن الحنفية وأبو الفضل العبّاس وغيرهم من أبنائه وأقاربه[1].

وفي الأخبار الطوال أنّ الشيعة أخذوا يتجمّعون عند قبور الأئمّة عليهم السلام ، ويقيمون العزاء في صورته الجماعية[2]، وقد تعلّموا هذا النهج من الأئمّة عليهم السلام ؛ إذ نصبوا مجالس الحزن والمصيبة في بيوتهم ، وحثّوا الناس على تذكّر الحسين عليه السلام ومواساته ، فقد دخل عبدالله بن سنان على أبي عبدالله الصادق عليه السلام في يوم عاشوراء فرآه كاسف اللون ، ظاهر الحزن ، ودموعه تنحدر على خدّيه كاللؤلؤ ، فقال له : ممّ بكاؤك يابن رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قال عليه السلام : « أو في غفلة أنت ! أما علمت أنّ الحسين أُصيب في هذا اليوم ؟ » ثمّ أمره أن يكون كهيئة أرباب المصائب يحلل أزراره ، ويكشف عن ذراعيه ، ويكون حاسراً ، ولا يصوم يوماً كاملاً ، وليكن الإفطار بعد العصر بساعة على شربة من ماء ، ففي ذلك الوقت تجلّت الهيجاء عن آل محمّد ، ثمّ قال عليه السلام : « لو كان رسول الله حيّاً لكان هو المعزّى به »[3].

---

(١) أُنظر مفاتيح الجنان : ص٤٨٢ ، أعمال مسجد السهلة ، الصلاة والدعاء في مسجد زيد بن صوحان وصعصعة بن صوحان .

(٢) الأخبار الطوال : ص١٧ .

(٣) المزار (لابن المشهدي) : ص٤٧٤ ؛ مقتل المقرّم : ص٢٢٣ ـ ٢٢٤ ؛ لواعج الأشجان : ص٦ .

ويظهر من بعض الأخبار أنّ السيّدة الزهراء عليها السلام أسّست لنهج البكاء والمجالس الجماعية على ولدها الحسين عليه السلام ، وقد تواتر بين أهل الإيمان أنّها عليها السلام تحبّ مجالس الإمام الحسين عليه السلام وتحضرها ، وتدعو لأهلها ، وتنوح عليه ، وقد رئي في هذا رؤى كثيرة صادقة ، وعليها علائم التبشير والتعليم ، وقد روي عنها هذه الأبيات :

أيّها العينان فيضا	واستهلّا لا تغيضا
وابكيا بالطفّ ميّتاً	ترك الصدر رضيضا
لم أمرضه قتيلا	لا ولا كان مريضا[1]

وممّا يكشف عن سعة مظاهر العزاء في القرون الأُولى في مقابل شدّة الرقابة والحضر السياسي والمذهبي الذي كانت تضعه السلطات عليها ما رواه التنوخي عن أبيه أنّ أبا الحسن الكاتب كان يسأل عن ابن النائح وهو من قرّاء المراثي والنياحة ، فلم يعرفه من كان في المجلس من أهل الكرخ غيري ، فقلت له ما القصّة ؟ قال أبو الحسن الكاتب : عندي جارية كثيرة الصيام والتهجّد ، وهي لا تقيم كلمة عربية صحيحة فضلاً عن أن تروي شعراً ، والغالب على لسانها النبطية ، انتبهت البارحة فزعة ترتعد ومرقدها

---

(١) المناقب : ج٢ ، ص١٨٩ ؛ مقتل المقرّم : ص٢٩٨ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٢٢٨ ، ح٢٢ .

قريب من موضعي فصاحت بي : ياأبا الحسن الحقني . قلت : ما أصابك ؟ قالت : إنّي صلّيت وردي ونمت فرأيت كأنّي في درب من دروب الكرخ ، وإذا بحجرة نظيفة بيضاء ، مليحة الساج ، مفتوحة الباب ، ونساء وقوف عليه . قلت لهم : من مات ؟ أو ما الخبر ؟ فأومؤوا إلى داخل الدار فدخلت ، فإذا بدار نظيفة في نهاية الحسن ، وفي صحنها امرأة شابة لم أر قط أحسن منها ولا أبهى ولا أجمل وعليها ثياب حسنة ، وملتحفة بازار أبيض ، وفي حجرها رأس رجل يشخب دماً ، فقلت : من أنت ؟ قالت : « لا عليك أنا فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وهذا رأس ابني الحسين عليه السلام ، قولي (لابن أصدق) عنّي أن ينوح .

لم أمرضه فأسلو لا ولا كان مريضاً »

فانتبهت فزعة ، وقالت العجوز : لم أمرطه بالطاء المهملة ؛ لأنّها لا تتمكّن من إقامة الضاد ، فسكّنتها حتّى نامت ، فقال أبو الحسن الكاتب لعلي التنوخي : ياأبا القاسم مع معرفتك بابن أصدق قد حمّلتك الأمانة ، وألزمتك أن تبلغها له ، فقال التنوخي : سمعاً وطاعة لأمر سيّدة نساء العالمين عليها السلام ، وكان هذا في شهر شعبان والناس يومئذ يلاقون جهداً جهيداً من الحنابلة إذا أرادوا الخروج إلى الحائر ، فلم أزل أتلطّف إليهم حتّى خرجت ، فكنت في (الحائر) ليلة النصف من شعبان ، فسألت عن ابن

أصدق حتّى رأيته وقلت له : إنّ فاطمة عليها السلام تأمرك أن تنوح بالقصيدة :

لم أمرضه فاسلو لا ولا كان مريضاً

وما كنت أعرف القصيدة قبل ذلك فانزعج من هذا ، فقصصت عليه وعلى من حضر الحديث فأجهشوا بالبكاء ، وما ناح تلك الليلة إلّا بهذه القصيدة ، وأوّلها :

أيّها العينان فيضا واستهلّا لا تغيضا(١)

كما كان الشيعة يجتمعون في بيوت الأئمّة عليهم السلام فيقيمون العزاء منذ القرن الأوّل ، وكانوا عليهم السلام يدعون الشعراء إلى إنشاء وإنشاد الشعر في الإمام الحسين عليه السلام وذكر مصائبه لأجل الإبكاء وإيجاد المشاركة الجماعية فيه ، وقد عرف منذ ذلك الوقت جماعة من الشعراء والخطباء اختصّوا بذلك ، فقد قرأ إسماعيل الحميري (١٠٥ ـ ١٧٨هـ) قصيدة يرثي بها الإمام الحسين عليه السلام عند الإمام الباقر عليه السلام وبحضور جماعة من الشيعة يقول فيها :

امرر على جدث الحسين و قل لأعظمه الزكية

إلى آخر الأبيات ، كما قرأ الكميت الأسدي (١٢٦ ـ ١٦٠هـ) قصائد يمدح بها آل البيت عليهم السلام ، ويرثي الإمام الحسين عليه السلام . في بعضها يقول :

ومن أكبر الأحداث كانت مصيبة علينا قتيل الأدعياء الملحب

---

(١) نشوار المحاضرة : ج٨ ، ص٢١٨ ؛ مقتل المقرّم : ص٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

قتيل بجنب الطف من آل هاشم ... فيا لك لحما ليس عنه مذبب

ومنعفر الخدّين من آل هاشم ... ألا حبّذا ذاك الجبين المترب[(١)]

ويستفاد من بعض الأخبار أنّ الأئمّة عليهم السلام أسّسوا لمأتم التشبيه ، فقد روي أنّ الكميت الشاعر دخل على الصادق عليه السلام فقال : « ياكميت أنشد في جدّي الحسين عليه السلام » فلمّا أنشد الكميت أبياتاً في مصيبة الحسين عليه السلام بكى الإمام بكاءً شديداً ، وبكت نسوة الإمام عليه السلام وأهله وحريمه وصحن في حجراتهنّ ، فبينما الإمام في البكاء والنحيب إذ خرجت جارية من خلف الستر من الباب الذي كان في سمت حجرات الحرم ، وفي يدها طفل صغير رضيع فوضعته في حجر الإمام عليه السلام ، فاشتدّ حينئذ في غاية الاشتداد بكاء الإمام عليه السلام ونحيبه ، وعلا صوته الشريف ، وأعلت النسوة الطاهرات والحرم أصواتهنّ بالبكاء والنحيب من خلف الأستار من الحجرات ، وأنت خبير بأنّ مقصود النسوة من إنفاذ ذلك الطفل من ذرّية رسول الله صلى الله عليه وآله إلى حضرة الإمام عليه السلام ما كان إلّا تشبيهاً بعلي الأصغر الرضيع ؛ لتشتدّ بذلك الرقّة في الباكين والباكيات كما وقع ذلك بالفعل[(٢)].

وروى الكليني رحمه الله بسنده عن سفيان بن مصعب العبدي ـ وكان من

---

(١) الهاشميات والعلويات : ص٤٢ .

(٢) أُنظر معالي السبطين : ج١ ، ص١٥٣ ؛ أسرار الشهادة : ج١ ، ص١٨٢ .

شعراء الشيعة في القرن الثاني الهجري ـ قال : دخلت على أبي عبدالله عليه السلام فقال : « قولوا لأُمّ فروة تجيء فتسمع ما صنع بجدّها » قال : فجاءت فقعدت خلف الستر ، ثمّ قال : « أنشدنا » قال : قلت :

فرو جودي بدمعك المسكوب .. .

قال : فصاحت وصحن النساء ، فقال أبو عبدالله عليه السلام : « الباب الباب » فاجتمع أهل المدينة على الباب ، فبعث إليهم أبو عبدالله عليه السلام صبي لنا غشي عليه ، فصحن النساء[1].

وقد تضمّن هذا الخبر دلالات عديدة وأحكاماً شرعية قد لا تخفى على أهل الفنّ ، ويكفي أن نلفت النظر إلى أنّ أُمّ فروة هنا هي إحدى الهاشميات من بنات الإمام ؛ لأنّ قوله عليه السلام : « تجيء فتسمع ما صنع بجدّها » قرينة على ذلك ، وإنّه ناداها بالكنية لا بالاسم ، وبذلك يظهر أنّ اسم أُمّ الإمام عليه السلام وإن كان أُمّ فروة إلّا أنّها لم تكن مقصودة بخطاب الإمام عليه السلام على الأظهر ؛ لأنّها لم تكن من الهاشميات ، إذ هي بنت القاسم بن محمّد بن أبي بكر .

وروى الأصفهاني في كتابه الأغاني[2] قال : قال دعبل : دخلت على

---

(١) الكافي : ج٨ ، ص٢١٥ ـ ٢١٦ ، ح٢٦٣ .

(٢) الأغاني : ج٢٠ ، ص١٦٢ .

علي بن موسى الرضا عليه السلام بخراسان فقال لي : « أنشدني شيئاً ممّا أحدثت » فأنشدته (مدارس آيات ...) حتّى انتهيت إلى قولي :

إذا وُتروا مدّوا إلى واتريهمُ أكفّاً عن الأوتار منقبضات

فبكى الإمام حتّى أُغمي عليه وأومأ إليّ خادم كان على رأسه : أن اسكت فسكت ساعة ، ثمّ قال لي : « أعد » فأعدت حتّى انتهيت إلى هذا البيت أيضاً فأصابه مثل الذي أصابه في المرّة الأُولى ، وأومأ الخادم إليّ : أن اسكت فسكت ، ومكثت ساعة أُخرى ، ثمّ قال لي : « أعد » فأعدت حتّى انتهيت إلى آخرها ، فقال لي : « أحسنت » ثلاث مرّات ، ثمّ أمر لي بعشرة آلاف درهم ممّا ضُرب باسمه ، ولم تكن دُفعت إلى أحد بعد ، وأمر لي من في منزله بحلي كثير أخرجه إليّ الخادم ، فقدمت العراق ، فبعت كلّ درهم منها بعشرة دراهم اشتراها منّي الشيعة ، فحصل لي مائة ألف درهم .

وفي رواية أنّ دعبلاً استوهب من الرضا عليه السلام ثوباً لبسه ليجعله في أكفانه ، فخلع جبّة كانت عليه فأعطاه إيّاها[1]، ولا يخفى ما في تصرّف الإمام عليه السلام من الحثّ والتشويق لذكر الحسين عليه السلام وعقد المجالس لذكره والبكاء عليه إلى حدّ الإغماء .

---

(١) أُنظر تاريخ بغداد : ج٨ ، ص٣٨٢ ؛ شذرات الذهب : ج٢ ، ص١١ ؛ تنقيح المقال : ج١ ، ص٤١٧ .

وتؤكّد وقائع التأريخ أنّ الناس انشغلوا في ذكر الإمام الحسين عليه السلام وإحياء مصائبه حتّى غدت ظاهرة متميّزة ملأت الكتب والدواوين والأندية ، ولا نجد شاعراً مشهوراً من شعراء العرب والمسلمين ومهما كانت عقيدته واتّجاهه إلّا وكتب في رثاء الإمام الحسين عليه السلام . من أمثال دعبل الخزاعي وعبدالله المعتزّ وديك الجن الحمصي وأبي فراس الحمداني ، وهذه ظاهرة مشهورة حتّى في زماننا هذا ، وهذا يدلّ على عظمة الواقعة والأسرار الإلهية فيها .

وقد ذكر عن ياقوت الحموي وابن خلّكان في وفيّاته بأنّ الشاعر المعروف (الناشئ الأصغر) كان يعقد مجالس النياحة على الحسين عليه السلام بعد أن انتشر التشيّع ، وخفت وطأة السلطات الحاكمة على العلويين[١].

وقد روي عن الخالع أنّ الناشئ الأصغر علي بن عبدالله قال : (كنت مع والدي في سنة (٣٤٦هـ) وأنا صبي في مجلس الكبوذي في المسجد بين الورّاقين والصاغة ببغداد ـ وهو غاصّ بالناس ـ وإذا برجل قد وافى وعليه مرقّعة ، وفي يده سطحية وركوة ، ومعه عكاز وهو شعث فسلّم .. ثمّ قال : أتعرّفون لي أحمد النائح ؟ قالوا : هاهو جالس .. فقال : رأيت مولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام في النوم فقالت : « امض إلى بغداد واطلبه ، وقل له : نح

(١) أُنظر نهضة الحسين : ص١٧٣ .

على ابني شعر الناشئ الذي يقول فيه :

بني أحمد قلبي لكم يتقطّع ... بمثل مصابي فيكم ليس يسمع

وكان الناشئ حاضراً ، فلطم لطماً عظيماً على وجهه ، وتبعه المزوق والناس كلّهم .. .

وكان أشدّ الناس في ذلك الناشئ ، ثمّ المزوق ، ثمّ ناحوا بهذه القصيدة في ذلك اليوم إلى أن صلّى الناس الظهر ، وتقوّض المجلس ، وجهدوا بالرجل أن يقبل منهم شيئاً ، فقال : والله لو أُعطيت الدنيا ما أخذتها ، فإنّني لا أرى أن أكون رسول مولاتي عليها السلام ثمّ آخذ عن ذلك عوضاً ، وانصرف ولم يقبل شيئاً ، ومن تلك القصيدة البيتان التاليان :

عجبت لكم تفنون قتلاً بسيفكم ... ويسطو عليكم من لكم كان يخضع

كأنّ رسول الله أوصى بقتلكم ... وأجسامكم في كلّ أرض توزّع[1]

ولم يقتصر ذلك على شعراء الشيعة ، بل حتّى الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤هـ) رثى الإمام الحسين عليه السلام في الملأ العام ، حيث قال :

فمن مبلّغ عنّي الحسين رسالة ... وإن كرهتها أنفس وقلوب

ذبيح بلا جرم كأنّ قميصه ... صبيغ بماء الارجوان خضيب

(١) أُنظر الغدير : ج ٤ ، ص ٣٠ ـ ٣١ ؛ نهضة الحسين : ص١٧٣ ـ ١٧٤ ، الهامش .

فللسيف إعوال وللرمح رنّة   وللخيل من بعد الصهيل نحيب[١]

وقد تطوّرت النياحة إلى قراءة (مقتل الإمام الحسين عليه السلام) لابن نما الحلّي ، ثمّ لابن طاوس ، وهي أُولى كتب المقاتل التي فصّلت أحداث عاشوراء ووقائعها ، وخلال القرن السابع الهجري أصبحت قراءة المقتل بشكله العام أُسلوباً متّبعاً يوم عاشوراء حتّى خاف منه الحكّام ، وكان الحاكم العبّاسي المستنصر بالله قد أمر المحتسب جمال الدين بن الجوزي عام (٦٤٠هـ) بمنع الناس من قراءة المقتل ، والإنشاد في سائر المحال من بغداد ، وخصّصه بمشهد الإمامين موسى بن جعفر والجواد عليهما السلام[٢].

وأمّا اللطم فكان أقدم من ذلك ، وقد ذكر ابن الجوزي بأنّ اللطم الجماعي جرى يوم عاشوراء في المشهد في منتصف القرن الخامس للهجرة[٣].

وأمّا الزيارة فقد كانت منذ الأيّام الأُولى للواقعة ، واستمرّت في تزايد وانتشار بالرغم من المضايقات الشديدة التي كان يمارسها الحكّام ، وقد أصبح قبر الإمام عليه السلام مركزاً لتجمّع المؤمنين الموالين والمعزّين ، وكان الناس

---

(١) بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٢٥٣ ، رقم ١٢ ؛ ينابيع المودّة : ج٣ ، ص٩٩.

(٢) موسوعة العتبات المقدّسة (قسم الكاظمية) : ص١٠٨ ، رقم ٩.

(٣) ابن الجوزي : ج٧ ، ص٢٣.

يتقاطرون إليه من كلّ حدب وصوب ، ولهذا السبب عمد المتوكّل العبّاسي على هدم القبر وتسويته مع الأرض ، ثمّ حرث أرضه وزرعه ، وأصدر أمراً بمنع ومعاقبة كلّ من يزوره ، ونادى بالناس : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسناه في المطبق ، وهو سجن شديد القساوة[1]، كما أمر المقتدر العبّاسي بهدم جامع براثا في جانب الكرخ الذي جعله شيعة بغداد مكاناً لاجتماعاتهم وإقامة شعائرهم[2].

ولمّا تغيّرت موازين القوى السياسية وتولّى البويهيون السلطة بعد ضعف الدولة العبّاسية كان معزّ الدولة البويهي شيعياً جعل مراسم العزاء الحسيني تظاهرة شعبية سنوياً في بغداد بعد أن كانت تؤدّى في ظروف صعبة يمارس الناس فيها التقية .

وفي العاشر من محرّم عام (٣٥٣هـ) جرت ولأوّل مرّة مراسم فريدة في ذكرى عاشوراء ، حيث أُغلقت الأسواق وسارت النادبات في شوارع بغداد وقد سوّدن وجوههنّ ولبسن السواد ، وهنّ يلطمن وجوههنّ ، ويردّدن مرثية حزينة ، وفي كربلاء خرجت النساء ليلاً وخرج الرجال

---

(١) الكامل في التاريخ : ج٧ ، ص٥٥ ؛ وفيّات الأعيان : ج٢ ، ص٤٣٤ .

(٢) تراجيديا كربلاء : ص٥٥ .

نهاراً حاسري الرؤوس حفاة الأقدام لمواساة الحسين عليه السلام[١].

وكان معزّ الدولة البويهي قد أمر بغلق الأسواق حيث عطّل القصّابون أعمالهم ، وتوقّف الطبّاخون عن الطبخ ، وفرغت الأحواض والصهاريج ممّا فيها من الماء ، ووضعت الجرار مغلّفة باللباد في الشوارع والطرق لسقي السبيل والعطشى ، وكانت النسوة يمشين جماعات بأوجه مسودّة وملابس ممزّقة يلطمن ويولولن حزناً على الحسين الشهيد عليه السلام[٢].

وفي العام نفسه جرت احتفالات عظيمة بمناسبة عيد الغدير ، وقد نظّمت الاحتفالات على مستويين جماهيري ورسمي ، وقد حفّز ذلك بعض المعادين من المخالفين لاستفزاز الشيعة ، وأخذوا يحتفلون بيوم عاشوراء باعتباره عيد فرح وسرور ، كما خرجت جماعات منهم لتخريب مراسم عاشوراء ومنع إقامتها ، وقد بالغ المخالفون في الدفاع عن الأمويين إلى حدّ وصل إلى تزكية يزيد بن معاوية قاتل الإمام الحسين عليه السلام وتأليف كتب في فضائله[٣].

وفي عاشوراء عام ٤٢٣ هجرية وعلى عهد جلال الدولة البويهي

(١) الفكر الشيعي : ص٤٥ ؛ تراجيديا كربلاء : ص٥٨ .

(٢) أُنظر موسوعة العتبات المقدّسة (قسم كربلاء) : ص٣٧٢ .

(٣) الجذور التأريخية للطائفية في العراق : ص٨٠ .

اجتمع الشيعة من سكّان الكرخ في مسجد براثا ، وارتقى الخطيب المنبر ، وشرع في بيان النهضة الحسينية وأسباب قيام الإمام عليه السلام ضدّ الظلم والبغي والاستبداد ، ثمّ سرد فاجعة يوم عاشوراء سنة ٦١ هجرية .. ممّا أثار شعور المسلمين ، وألهب فيهم روح الحماس ، وبعد نزوله من المنبر تكتّل المجتمعون ، والتحق بهم عدد كثير من سكّان تلك النواحي ، وساروا نحو المشهد الكاظمي لاطمين على صدورهم ورؤوسهم ، باكين نائحين ومهرولين تحت تأثير حماس الحزن والمصيبة حتّى انتهوا إلى المشهد وقد أقاموا فيه المناحة طيلة ذلك اليوم بما لم يسبق له مثيل حتّى ذلك التأريخ[١].

كما عكف سلاطين الدولة الفاطمية في مصر على إحياء مراسم عاشوراء ، وصيّروه احتفالاً رسمياً ، وسنّوا له القوانين والرسوم ، وكانوا يقيمونه بأصنافه المختلفة من ضرب السلاسل والقامات والتشبيهات والبكاء[٢]، واستمرّت منذ قيامها في عام (٣٥٨) هجرية إلى سقوطها في عام (٥٥٦) هجرية .

وروي عن المقريزي عن المؤرّخ المعاصر لتلك الحقبة ابن المأمون أنّه قال : إذا حلّ اليوم العاشر من محرّم احتجب الخليفة الفاطمي عن

---

(١) تاريخ النياحة : ص١٥٣ .

(٢) أُنظر عقائد الإمامية الاثني عشرية : ج١ ، ص٢٩٢ .

الناس ، فإذا علا النهار ركب قاضي القضاة والشهود وقد لبسوا ملابس الحداد ، ثمّ يسيرون إلى مشهد الحسين عليه السلام ، فيتّخذون مجلسهم إلى جانب القرّاء حتّى يصل الوزير فيجلس في صدر المجلس ، والقاضي عن يمينه ، والداعي عن شماله ، ثمّ يتناوب القرّاء تلاوة القرآن ، وينشد الشعراء القصائد في رثاء أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله ، ثمّ ينصرف الوزير إلى داره ، ويدخل قاضي القضاة والداعي ومن معهما من باب الذهب ، وهو أحد أبواب القصر الفاطمي ، فيجدون الدهاليز قد فرشت بالحصر بدل البسط والزينة ، وصاحب الباب جالساً هنالك ، فيجلس القاضي والداعي إلى جانبه ، ثمّ يجلس سائر الناس ، فيقوم القرّاء ، وينشد المنشدون ، وكان الخليفة الفاطمي يحضر هذا المجلس ، ويجلس على كرسي الجريد بغير مخدّة متلثّماً هو وجميع رجال حاشيته ، فيسلّم عليه الوزير والأُمراء والقاضي والداعي والأشراف وهم متلثّمون حفاة ، وكان الخليفة يبدي أبلغ مظاهر الحزن والأسى في ذلك اليوم ، وإذا انتهى المجلس انصرف الناس في ذلك الزي الذي ظهروا فيه ، وطافت النوّاح بالقاهرة ، وأغلق الباعة حوانيتهم ، وفي العاشر من شهر محرّم عام (٣٦٣) هجرية انصرف جماعة من المصريين المتشيّعين ومعهم فريق من فرسان المغاربة ورجالهم من مشهدي (أُمّ كلثوم) بنت الإمام الباقر عليه السلام والسيّدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسين عليه السلام

وساروا في موكبهم ينوحون ويبكون على الحسين عليه السلام ، وحملوا الناس على مشاركتهم ، فأُغلقت الدكاكين ، وتعطّلت حركة الأسواق ، وفي عهد المستعلي الفاطمي عام (٤٧٨) هجرية زاد النياح والبكاء والعويل وشكّل ظاهرة اجتماعية عامّة[١].

ولمّا تولّى السلاجقة الحكم أعلنوا الحرب على الشيعة ، ومنعوا مراسم العزاء ، فقد ذكر المقريزي بعد استعراض نهج الملوك العلويين بمصر الذين كانوا يتّخذون يوم عاشوراء يوم حزن تتعطّل فيه الأسواق فقال : فلمّا زالت الدولة اتّخذ الملوك من بني أيّوب يوم عاشوراء يوم سرور ، يوسّعون فيه على عيالهم ، وينبسطون في المطاعم ، ويصنعون الحلاوات ، ويتّخذون الأواني الجديدة ، ويكتحلون ، ويدخلون الحمّام جرياً على عادة أهل الشام التي سنّها لهم الحجّاج في أيّام عبدالملك بن مروان ؛ ليرغموا بذلك آناف شيعة علي بن أبي طالب الذين يتّخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن على الحسين بن علي عليهما السلام لأنّه قتل فيه[٢].

وقد مارس العثمانيون ذات السياسة بعدهم بسبب تعصّبهم وخوفهم من الآثار السياسية والاجتماعية للشعائر الحسينية ، وقد عاش الشيعة في

---

(١) المصدر نفسه : ص٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

(٢) خطط الشام : ج٢ ، ص٣٨٥ .

أيّامهم ظروفاً قاسية من التقية ، واستمرّوا يمارسون الشعائر في البيوت والمناطق السرّية خوفاً من الاضطهاد والقمع ، وقد حاول الوالي العثماني في العراق داود پاشا (١٨١٧ ـ ١٨٣١م) أكثر من غيره من ولاة بني عثمان التضييق على الشيعة ومنعهم من إقامة العزاء الحسيني شعوراً بأنّه مرسوم يفشل السياسة العثمانية ومخطّطاتها ، وقد اضطرّ شيعة العراق حينذاك إلى إقامة مجالس التعزية في السراديب بعيداً عن أنظار السلطة وأسماعها ، كما اضطرّوا إلى ترك امرأة تدير الرحى في صحن الدار لكي لا يسمع المارّة في الشارع صوت من يقرأ أو من يحضر العزاء[1].

ولمّا أُطيح بحكم المماليك في العراق وسقوط داود پاشا عام (١٨٣١م) وتعيين علي رضا والياً على بغداد أخذ العزاء الحسيني بالنمو والانتشار تدريجياً ؛ لأنّ الوالي كان من أتباع الطريقة الصوفية البگداشية التي لا تمانع الشعائر ، وكان البگداشيون يميلون إلى التشيّع ويقدّسون الأئمّة عليهم السلام ، ويقولون بالتولّي والتبرّي ، ويؤكّدون على ولاية أهل البيت عليهم السلام والبراءة من أعدائهم[2].

وروي أنّ العلّامة البلاغي رحمه الله أقام مواكب العزاء في كربلاء وجعلها

(١) الذريعة : ج١٦ ، ص٣٢ ؛ شعراء الغري : ج١٢ ، ص٣٢٤ .

(٢) أُنظر لمحات اجتماعية من تاريخ العراق : ج٢ ، ص٣٦ .

ظاهرة عامّة فيما بعد ذلك حتّى توسّعت وتنوّعت مظاهرها وأساليبها[١].

ولمّا تولّى مدحت پاشا الوالي العثماني حكم العراق بين (١٨٦٨ ـ ١٨٧١م) حاول منع مسيرة مواكب العزاء في شهر محرّم ، وأصدر مرسوماً في محرّم عام (١٨٦٩م) يمنع فيه إقامة مسيرات المواكب ، وهدّد بمعاقبة كلّ من يقيم مجلس عزاء[٢]، ولمّا وجد أنّ في ذلك تهديداً للوضع السياسي والاقتصادي للبلد أمره الباب العالي برفع المنع[٣].

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر اتّخذ الموالون الحسينيات مراكز لإقامة العزاء ، وكانوا يقيمون فيها مختلف أنواع الشعائر ، ولذا اتّخذت اسم الحسين عليه السلام شعاراً لها ، وسمّيت بالحسينية ، وبعد الاحتلال الإنگليزي للعراق عام (١٩١٧م) اتّبع الإنگليز سياسة التحبيب والترغيب ، فأخذوا برعاية المواكب الحسينية بصورة خاصّة ، وأمدّوها بما تحتاج إليه من مواد كانت نادرة في ذاك الوقت كالنفط والسكّر والأكفان ؛

---

(١) أُنظر رجال ومواقف على نهج الحسين ؛ مجلّة الثورة الحسينية العدد ٧ ، لندن ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

(٢) تاريخ العراق بين احتلالين : ج٧ ، ص٢٣٩ ؛ جريدة الزوراء بغداد ، ٤ محرّم ١٢٨٦هـ ـ ١٨٦٩م .

(٣) لمحات إجتماعية من تاريخ العراق : ج٢ ، ص١١٣ .

لأجل كسب العامّة إلى جانبهم ، والالتفاف حولهم ، وفي العام الذي تـلاه أمر الإنگليز بغلق ملهى ليلي في بغداد حيث كانت المواكب الحسينية تمرّ في ذلك المكان احتراماً لحرمة عاشوراء ، واستجابة لطلب الأهالي(١).

وبعد تأسيس الدولة العراقية عام ١٩٢١م أعلنت الحكومة العراقية يوم عاشوراء عطلة رسمية ، كما سمح بإقامة مراسيم العزاء الحسيني تكريماً لذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام ، ولكن بعدها صارت قضيّة الشـعائر الحسينية من القضايا التي تدور عليها الأحداث ، وقد اتّخـذت الحكومات المتعاقبة أساليب مختلفة في التعامل معها ، واختلفت ما بين مـانع ومجـيز ، ومشارك فيها ومعارض لها ، وقد قدّم المؤمنون في هذا المعترك الكثير من التضحيات والأرواح من أجل إبقاء الشعائر حيّة قائمة ؛ لأنّها الرمز الذي يكرّس عقيدتهم ووحدتهم وتماسكهم ، كما يـعبّر عـن آرائـهم السـياسية ومواقفهم الوطنية ، ومنذ عهد الستّينات أصبحت الشعائر مـنابر سـياسية وتظاهرات شعبية احتجاجية كان لها التأثّر والتأثير بالأوضاع السـياسية المحلّية والإقليمية ، ولا زالت هي التظاهرة الكـبرى في العـالم التي تحشّـد ملايين الطاقات في خدمة الدين ونشر مبادئه وجذب الناس إلى الفضيلة

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق : ج٦ ، ص٣٤٧ ـ ٣٤٨.

والتحرّر والكرامة[١].

وستبقى بإذن الله تعالى إلى يوم الدين تذكّر بالحسين عليه السلام وبمواقفه وأهدافه السماوية ، وتشدّ الناس إلى هويتهم الدينية وأُصولهم الفكرية وكرامتهم السياسية ، وتتحدّى بهم الشيطان وأتباعه من ساسة ومثقّفين وإعلاميين يريدون للظلام أن يسود ، وللظالم أن يحكم كما يستفاد ذلك من الأخبار الشريفة .

(١) لمعرفة بعض تفاصيل هذه السياسات أُنظر تراجيديا كربلاء : ص٧١ ـ ٨١.

الفَصلُ الأوّلُ

المعرفة بالحسين ﷺ وخصوصياته الإلهية

وفيه تمهيد وخصوصيّات:

الخصوصيّة الأُولى : الحسين ﷺ مظهر الجمال والجلال الإلهي

الخصوصيّة الثانية : الحسين ﷺ مظهر الرحمة الإلهية

الخصوصيّة الثالثة : القرآن يقصّ مصيبة الحسين ﷺ ويعظّم شعائره

الخصوصيّة الرابعة : أنه ﷺ قتيل الله وابن قتيله

الخصوصيّة الخامسة : أنّه نور الله الذي لا يطفأ

الخصوصيّة السادسة : أنّه حياة القلوب والشرائع

الخصوصيّة السابعة : دمه ﷺ أقدس شعيرة إلهية

الخصوصيّة الثامنة : مرقده ﷺ معراج إلى الملكوت

الخصوصيّة التاسعة : الحسين ﷺ باب التوفيق وقبول الأعمال

الخصوصيّة العاشرة : الحسين ﷺ والفتح الإلهي

تمهيد:

قبل البحث في فقه الشعائر الحسينية لابدّ من معرفة الموضوع الذي انتسب إليه ، والموضوع هنا مركّب وليس بسيطاً كما تفيده إضافة الشعائر إلى الحسين عليه‌السلام فالجزء الأوّل من الموضوع يتعلّق بالحسين عليه‌السلام كشخصية إلهية أراد الله سبحانه منها أن تحيي الرسالات السماوية ، وتحقّق غايات الأنبياء عليهم‌السلام ، وتقود قافلة البشرية إلى هداها ، فسلّمت لأمر الله سبحانه ، وقدّمت كلّ ما تملك لتنفيذ هذا الأمر الإلهي .

والجزء الثاني منه يتعلّق بالشعائر الحسينية التي تشكّل المظاهر المقدّسة التي يعبّر بها الناس عن حبّهم للحسين عليه‌السلام وإيمانهم بنهجه الربّاني وشكرهم لتضحياته ، وقد تقدّم في الجزء الأوّل البحث في الشعائر الدينية بنحو عام ، وقد أسّسنا لها جملة من القواعد العامّة التي تحدّد موضوعها وشروطها وأصنافها وأحكامها وأدلّتها ، وأمّا في هذا الجزء والجزء الذي يليه فسيدور البحث عن الشعائر الحسينية من حيث موضوعها وأقسامها

وشروطها وأدلّتها وأحكامها الشرعية والردّ على الشبهات التي تثار حولها ، باعتبارها المصداق الأبرز لشعائر الدين التي بها يبقى وتشاد معالمه والضرورة المنطقية تقتضي أن نبدأ البحث في الشعائر الحسينية بمعرفة الحسين عليه السلام وبعض خصوصياته الالهية بنحو موجز ليتمّ من خلالها التعرّف على الخصوصيات الالهية لشعائره أيضاً ؛ لأنّ شرف المضاف مكتسب من شرف المضاف إليه ، وعظمته ناشئة من عظمته ، فالمعرفة ـ ولو الإجمالية ـ بالحسين عليه السلام تمهّد الطريق لمعرفة الشعائر الحسينية من حيث مكانتها وفقهها وآثارها المعنوية .

ومن الواضح أنّ معرفتنا بالحسين عليه السلام لا تكون إلّا على قدرنا ؛ لقصور غير المعصوم عن إدراك كنه شخصية المعصوم ومقاماته الربّانية ، كما أنّ طريق المعرفة به منحصر بما أخبر به المعصوم نفسه ، ولذا سيكون البحث في كثير من تفاصيله مستنداً إلى تحليل النصوص واستنتاج الحقائق منها ، وعلى هذا فإنّ المعرفة هنا مقيّدة بحدود العارف وعلى قدره ، وتتّسم بسمتين :

الأُولى : أنّها معرفة بالآثار والخصوصيات التي وهبها الله سبحانه للحسين عليه السلام ، وميّزه بها عن سائر أنبيائه وأوليائه عليهم السلام ، وأمّا معرفة حقيقة الحسين عليه السلام ومقاماته الربّانية عند الله سبحانه فهي متعذّرة على غير

المعصوم .

ولذا ورد في النبوي الشريف : « ياعلي ما عرف الله إلّا أنا وأنت ، وما عرفني إلّا الله وأنت ، وما عرفك إلّا الله وأنا »(١).

والثانية : أنّ ما سنتعرّض إليه من خصوصيات الحسين عليه السلام ليس تعريفاً بالخصوصية ، وإنّما هو بمنزلة الاضاءة البسيطة عليها ، والتي تلفت القارئ إلى بعض مقامات الحسين عليه السلام الربّانية ، كما أنّها ليست كلّ ما أعطاه الله سبحانه للحسين عليه السلام من مواهب وخصوصيات ، بل هي بعض منها ، وهي التي تتعلّق بفقه الشعائر لتأثيرها المباشر في تنقيح موضوعه ، أو فهم أحكامه ، أو دفع الشبهات عنه .

ومن هنا نقول : هناك عدد كبير من الخصوصيات التي تميّز بها الحسين عليه السلام عن غيره من الأنبياء والأولياء نصّت عليها الأخبار ، وكشفت عنها وقائع الأيّام وحوادثها ، وسلّم لها القاصي والداني . هذه الخصوصيات نشأت من حكم ومصالح إلهية عظمى في هذا الوجود أراد الباري عزّوجلّ للإمام الحسين عليه السلام أن يكون منفرداً بها جزاءً لما تفرّد به الإمام الحسين عليه السلام من مواقف وتضحيات عظيمة قدّمها خالصة لله سبحانه لم يرد منها إلّا القرب منه ، وتنفيذ إرادته وحكمته في الخلق ، ولو أردنا أن نستعرض

(١) مختصر بصائر الدرجات : ص ١٢٥ .

الخصوصيات الربّانية التي أعطاها الله سبحانه للإمام الحسين عليه السلام لاستدعى ذلك وقوفاً طويلاً يستغرق موسوعة معرفيّة كبيرة بما يخرجنا عن موضوع البحث ، لكنّنا من باب الإشارة إلى بعض ما يرتبط بموضوع البحث كتمهيد لفقه الشعائر الحسينية نوجز الكلام في عشر منها :

الخصوصيّة الأُولى

الحسين عليه السلام مظهر الجمال والجلال الإلهي

ورد هذا المعنى في بعض الأخبار المعتبرة ؛ إذ نصّت على أنّ كلّ حرف من حروف المعجم يرمز إلى اسم من أسماء الله سبحانه الحسنى وصفة من صفاته العليا ، ففي رواية ابن فضّال عن أبي الحسن الرضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : ـ مع الاقتصار على الشواهد ـ : « الألف آلاء الله ، والباء بهجة الله ، والتاء تمام الأمر بقائم آل محمّد صلى الله عليه وآله ، والثاء ثواب المؤمنين على أعمالهم الصالحة ، والجيم جمال الله وجلال الله ، والحاء حلم الله عن المذنبين ، والخاء خمول أهل المعاصي عند الله عزّوجلّ ، والدال دين الله ، والذال من ذي الجلال ، والراء من الرؤوف الرحيم ، والزاي زلازل يوم القيامة ، والسين سناء الله ، والشين شاء الله ما شاء وأراد ما أراد وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله ، والصاد من صادق الوعد في حمل الناس على الصراط وحبس الظالمين عند المرصاد ، والضاد ضلّ من خالف محمّداً وآل

محمّد ﷺ ، والطاء طوبى للمؤمنين وحسن مآب ، والظاء ظنّ المؤمنين بالله خيراً وظنّ الكافرين به سوءاً ، والعين من العالم ، والغين من الغني ، والفاء فرج من أبواب الفرج وفوج من أفواج النار ، والقاف قرآن على الله جمعه وقرآنه ، والكاف من الكافي ، واللام لغو الكافرين في افترائهم على الله الكذب ، والميم ملك الله يوم لا مالك غيره ، ويقول عزّوجلّ : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[1] ثمّ ينطق أرواح أنبيائه ورسله وحججه فيقولون : ﴿للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[2] فيقول جلّ جلاله : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[3] والنون نوال الله للمؤمنين ونكاله بالكافرين ، والواو ويل لمن عصى الله ، والهاء هان على الله من عصاه ، واللام ألف لا إله إلّا الله وهي كلمة الإخلاص ما من عبد قالها مخلصاً إلّا وجبت له الجنّة ، والياء يد الله فوق خلقه باسط الرزق سبحانه وتعالى عمّا يشركون »[4].

وعلى هذا فإنّ معاني حروف اسم الحسين عليه السلام كالتالي :

---

(١) سورة غافر : الآية ١٦ .

(٢) سورة غافر : الآية ١٦ .

(٣) سورة غافر : الآية ١٧ .

(٤) معاني الأخبار : ص٤٣ ، ح١ .

الحاء : حلم الله عن المذنبين ، والسين : سناء الله ، والسناء له معنيان الضوء وعلو القدر والرفعة[١]، وبينهما ملازمة ؛ لأنّ علو القدر ملازم للبروز والظهور معنوياً ، وهي صفة الضوء ، كما أنّ الضوء يتّسم بعلو القدر والرفعة ، والياء : يد الله فوق خلقه باسط بالرزق سبحانه وتعالى عمّا يشركون ، والنون : نوال الله للمؤمنين أي عطاؤه لهم[٢]، ونكاله بالكافرين أي عقوبته لهم[٣]، وهذا المجموع المرتّب طولياً يشكّل حروف اسم الحسين عليه السلام ، وهو يتوافق مع متضافر الأخبار الدالّة على أنّهم أسماء الله الحسنى ، وفي ذلك ثلاث دلائل هامّة في علم المعرفة :

الأُولى : أنّ كلّ حرف من حروف اسم الحسين عليه السلام باب من أبواب الغيب تبلغ به الغايات ، وتقضى به الحوائج ، فالذي يطلب الحلم والعفو والنور وما يناسبه من علم وفهم وجمال والذي يطلب القوّة والقدرة وعلو القدر والرفعة والسعة في الرزق والانتصار على الأعداء يتقرّب إلى الله سبحانه ويدعوه باسم الحسين عليه السلام ، ومن الثابت عند أهل المعرفة أنّ الخير في المادّيات والمعنويات يجتمع في خزائن الغيب ، ولا ينزل إلّا بمفتاح للسرّ

---

(١) معجم مقاييس اللغة : ص ٤٧١ ، (سنى) ؛ مجمع البحرين : ج ١ ، ص ٢٣١ ، (سنا) .

(٢) معجم مقاييس اللغة : ص ٩٦٨ ، (نول) ؛ مجمع البحرين : ج ٥ ، ص ٤٨٨ ، (نول) .

(٣) مجمع البحرين : ج ٥ ، ص ٤٨٦ ، (نكل) .

ووجود قابلية واستعداد لدى الطالب ، ومفتاح سرّ هذه الحاجات المذكورة هو الحسين عليه السلام .

ولعلّ من هنا ورد في وصفه عليه السلام أنّه الحاوي على سرّ الله ، ففي الزيارة الشريفة : « السلام عليك ياموضع سرّ الله »[1]، ونلاحظ أنّ منطوقها لا يصفه بالسرّ ، بل هو موضع السرّ ؛ لوضوح أنّ شخصية الحسين عليه السلام الملكوتية وروحه الإلهية هي مستودع السرّ .

ولا يخفى ما فيه من دلالة على بقاء مكانة الحسين عليه السلام وشخصيته بعيدة المنال للباحثين وأهل المعرفة مهما بالغوا في الطلب ، وهو أمر أقرّ به الشعراء والأُدباء والخطباء وأهل الفضل والمنبر ، فإنّ للحسين عليه السلام من الخصائص والأسرار المتجدّدة في كلّ جيل وزمان ، وهو في كلّ عصر يفيض على أهله ما يناسبهم من الأفكار ، ويلهمهم المآثر والمناقب ، ويجود عليهم بالألطاف ، وهذا بعض ما يستفاد من قول الصادق عليه السلام : « من أراد الله به الخير قذف في قلبه حبّ الحسين عليه السلام وحبّ زيارته »[2].

والثانية : أنّ هذه المعاني والصفات من آثار اسم الحسين عليه السلام ،

---

(١) الإقبال : ج٣ ، ص٣٤١ ؛ المزار (للشهيد الأوّل) : ١٤٣ ، بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٣٣٦ ، ح١ .

(٢) كامل الزيارات : ص٢٦٩ ، ح٣ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٧٦ ، ح٢٨ .

فالمتّصلون بالحسين حبّاً وإيماناً وإحياءً لذكره ينالهم من بركات هذا الاسم العظيم الشيء الكثير ، والذين يخالفونه ويحاربونه يحرمون منه ، ومن هنا نجد أنّ أنصار الحسين والمحبّين لشعائره لهم محبوبية بين الناس ، ولهم دور وتأثير في القلوب والأرواح ، كما أنّهم أقوياء أغنياء وأرزاقهم مبسوطة ، وحياتهم آمنة مفعمة بالإيمان والسلامة ، بينما يشقى مخالفوه ومحاربوه بالتعاسة ، وتصيبهم الهزائم في نهاية الأمر مهما خطّطوا ودبّروا لمحو ذكره والتخذيل عن طريقه ، ومن هذا الحديث الشريف ونظائره يتوصّل إلى آثار وبركات كلّ اسم من أسماء النبي والأئمّة والصدّيقة الطاهرة عليهم السلام ، وهو مفتاح لجملة من الأسرار الإلهية في الأوراد والأذكار والأدعية والتوسّلات لا ينبغي أن يغفل عنها أهل السرّ[1].

---

(١) فمثلاً لو جمعنا معاني حروف محمّد صلى الله عليه وآله فإنّ الميم ملك الله يوم لا مالك غيره ، والحاء حلم الله عن المذنبين ، والدال دين الله . نجد أنّها تتوافق مع خصائص النبي صلى الله عليه وآله في أنّه الحاكم والملك في المحشر ، وأنّه سيّد الحلم والشفاعة بالمذنبين ، كما أنّ دينه خاتم الأديان ، وأعلاها شأناً ، وتظهر آثاره المعنوية على من يتوسّل به في تحصيل الملك والستر والاستقامة على الهداية والشفاعة في الآخرة .

ولو جمعنا معاني حروف فاطمة عليها السلام فإنّ الفاء فيه الفرج ، وفيه العذاب بالنار ، والألف آلاء الله ، والطاء طوبى للمؤمنين وحسن مآب ، والميم ملك الله يوم لا مالك غيره ، ⇐

هذا وقد وردت في بعض الأخبار معانٍ أُخرى[1] لهذه الحروف ، وهي محمولة على فتح أبواب أُخرى للأسماء والصفات التي لا حدّ لها ولا نهاية ، فلا ينبغي أن يتوهّم التنافي بينها ؛ بداهة أنّ المثبتات لا تعارض بينها .

الثالثة : أنّ الحسين عليه السلام في معدنه الإلهي له مظهر وجوهر ، فجوهره نور الله سبحانه ومحلّ معرفته وآية جماله وجلاله ، وأمّا مظهره فيبتدئ من اسمه الشريف ، وهو مجمع لجملة من أعظم الأسماء والصفات الإلهية ، وهي : حلم الله سبحانه عن المذنبين ، وسناء الله ، وقدرة الله وجوده وكرمه ، ورحمة الله بالمؤمنين ونكاله بالكافرين ، وفي ذلك دلالة تامّة على أنّ طريق النجاة يبدأ وينتهي بالحسين عليه السلام ، كما أنّ معاداته طريق الهلكة ، وبه تضافرت الأخبار ، ففي الخصائص الحسينية أنّ أنبياء الله سبحانه كلّما وقعوا

← والهاء هان على الله من عصاه ، فإنّها تتوافق مع خصائصها عليها السلام ؛ لأنها تلتقط شيعتها ومحبّيها في المحشر ، ومصير من أبغضها وحاربها النار ، وهي مظهر نعم الله سبحانه المادّية والمعنوية بما لها من مقام الأُمّ للنبوّة والإمامة ، ومصير من أحبّها الجنّة والفوز بالملك والنعيم ، وأمّا من خالفها فيهون على الله أن يعذّبه ويحرقه بنار جهنّم ، فهو يتضمّن الإشارة إلى أنّ الحوائج المذكورة التي يرغب بها الطالبون تنال ببركة اسم فاطمة وهكذا .

(١) معاني الأخبار : ص٤٤ ـ ٤٥ ، ح٢ .

في شدّة تمسّكوا بالحسين عليه السلام ، وحصل لهم الفرج عند ذكره والتلفّظ باسمه المبارك .

منها : ما ورد في قبول توبة آدم عليه السلام حين علّمه الله الأسماء الخمسة ، فكانت الاستجابة عند قوله : بحقّ الحسين(١).

ومنها : سكون سفينة نوح عليه السلام حين أُوحي إليه بأن يتوسّل بالخمسة ، فكان الاستواء على الجودي عند قوله : وبحقّ الحسين عليه السلام(٢).

ومنها : استجابة دعاء زكريا عليه السلام حين قال : ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾(٣) فعلّمه الأسماء الخمسة ، فحصلت البشارة له بيحيى عليه السلام عند قوله : بحقّ الحسين عليه السلام(٤).

ومنها : نجاة يونس عليه السلام من بطن الحوت فإنّه دعا بحقّ الخمسة وحصل نبذه بالعراء عند قوله : بحقّ الحسين عليه السلام(٥).

---

(١) أمالي الصدوق : ص٣٢٣ ، ح٧ ؛ معاني الأخبار : ص١١٠ ، ح١ ؛ بحار الأنوار : ج١٢ ، ص٢٦٠ ، ح٢٣ .

(٢) أُنظر أمالي الصدوق : ص٣٢٣ ، ح٧ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٤٣ ، ح٣٨ ؛ بحار الأنوار : ج١٢ ، ص٢٦٠ ، ح٢٣ .

(٣) سورة مريم : الآية ٥ .

(٤) أُنظر بحار الأنوار : ج٤٤ ص٢٢٣ ، ح١ ؛ الاحتجاج : ج٢ ، ص٢٧٣ .

(٥) أُنظر مناقب آل أبي طالب : ج٣ ، ص٢٨١ ؛ بحار الأنوار : ج١٤ ، ص٤٠٢ ، ح١٥ .

ومنها : كشف الضرّ عن أيّوب عليه السلام ، فإنّه حصل عند دعائه متوسّلاً بالخمسة ، ونودي بقوله : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ﴾[1] عند قوله : بحقّ الحسين عليه السلام[2].

ومنها : فداء إسماعيل عليه السلام ، فإنّه ورد أنّ المراد بالذبح العظيم هو الحسين عليه السلام[3].

ومنها : خروج يوسف عليه السلام من غيابة الجب ، فإنّه حصل بالتوسّل بالخمسة عند قوله وبحقّ الحسين عليه السلام[4]، فـ ﴿جَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾[5].

ومنها : خروج يوسف عليه السلام من السجن حينما توسّل بالخمسة عليهم السلام ولمّا قال : وبحقّ الحسين عليه السلام جاء صاحب السجن وقال : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾[6] إلى آخر حوادث قصّة النجاة[7].

---

(١) سورة ص : الآية ٤٢ .

(٢) الخصائص الحسينية : ص٥١٣ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج١ ، ص١٨٧ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٢٥ ، ح٦ .

(٤) أنظر تفسير القمّي : ج١ ، ص٣٤٥ ؛ بحار الأنوار : ج١٢ ، ص٢٣١ ، ح٥ .

(٥) سورة يوسف : الآية ١٩ .

(٦) سورة يوسف : الآية ٤٦ .

(٧) أمالي الصدوق : ص٣٢٣ ، ح٧ ؛ بحار الأنوار : ج١٢ ، ص٢٦٠ ، ح٢٣ .

ومنها : تفريج غمّ يعقوب عليه السلام ، فإنّه لمّا ضاق عليه الأمر قال : ربّ أما ترحمني لقد ذهبت عيناي ، وذهب نور عيني ، فأوحى الله إليه قل : (اللهمّ إنّي أسألك بحقّ محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين أن تردّ عليّ عيني) فلمّا تلفّظ بالحسين عليه السلام ﴿**فَلَمَّا جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً**﴾[1]_[2].

ومنها : ما ورد في تفريج كروب الأنبياء وكشف البلاء عنهم عند ذكر الحسين عليه السلام ، وقد قارن ذلك أيضاً غلبة البكاء عليهم من دون علم بالسبب[3]. هذا ما يتعلّق بمظهريته عليه السلام للرحمة الإلهية .

وأمّا ما يتعلّق بمظهرية القدرة ونفوذ الأمر فقد تضافر مضمونه في النصوص الشريفة :

منها : ما ورد في زياراته : « من زار الحسين كمن زار الله في عرشه »[4] وقد ورد هذا في ثلاث زيارات : الأُولى : الزيارة الشعبانية ،

---

(١) سورة يوسف : الآية ٩٦.

(٢) الخصائص الحسينية : ص٥١٤ .

(٣) الخصائص الحسينية : ص٥١٢ ـ ٥١٤ ، (بتصرّف) .

(٤) كامل الزيارات : ص٢٧٨ ، ح١ .

والثانية : زيارة عرفة ، والثالثة : يوم عاشوراء[١]، ولكن هناك فرق بينها في التعبير ، ففي الأُولى والثانية ورد « كمن زار الله في عرشه » بينما في زيارة يوم عاشوراء ورد « كمن زار الله فوق عرشه »[٢] وفي ذلك إشارة إلى أنّها أكثر قرباً ، وأنّ ارتقاء العبد فيها يكون أعلى ، وهذا ما تعضده الروايات التي نصّت على أنّ : « من بات عند قبر الحسين عليه السلام ليلة عاشوراء لقي الله تعالى يوم القيامة ملطّخاً بدمه كأنّما قتل معه في عصره »[٣] وبعضهم حمل الضمير على الحسين عليه السلام ، والملطّخ بدم الحسين لابدّ وأن يتجاوز الملك إلى الملكوت ، ولعلّ السرّ يعود لأُمور :

أحدها : أنّ هذه الأوقات هي أشرف الأوقات التي يرتقي فيها العبد إلى مستويات عالية من المحبّة والعفو والمغفرة ، فيكون بهذا الارتقاء أقرب ما يكون الإنسان من ربّه ، وحيث إنّ عرشه هو الرمز الإلهي في الملأ الأعلى فإنّ زيارته عليه السلام في هذه الأوقات الثلاثة تبلغ بالزائر مقام العرش .

ثانيها : أنّه نوع تكريم باعتبار أنّ هذه الأوقات هي أوقات

---

(١) أُنظر نور العين : ص٣٧٥ ، ح١٩ ؛ ص٣٩١ ، ح٢٦ .

(٢) كامل الزيارات : ص٢٧٩ ، ح٢ .

(٣) المزار (للشيخ المفيد) : ص٥١ ؛ مصباح المتهجّد : ص٧٧١ ، وفيه : « ملطّخاً بدمه كأنّما قتل معه في عرصة كربلاء » .

للضيافة ، فالأوّل ليلة نصف شعبان بمنزلة ليلة القدر للعباد ؛ إذ تكتب فيها مقدّرات العبادات ، وتعيّن فيها مصائرهم ، ولعلّ العباد في هذه الليلة يكتبون أقدارهم بأعمالهم فيكتب لزوّار الحسين عليه السلام أفضل ما يريدون ، بخلاف ليالي القدر في شهر رمضان فإنّها ليالي حجّة الله الذي تنزل عليه الملائكة والروح ، والثاني عرفة ؛ إذ يكون العبد في ضيافة الله ، وكذا في عاشوراء باعتبار أنّه يوم التضحية والفداء الذي كرّمه الله ، وأعلى شأنه ، وأضاف فيه الحسين وأنصاره عليهم السلام عنده ، وجعلهم سادة الملكوت ، ومن الواضح أنّ الضيف يقترب من مضيفه ، وينال عنده الحظوة والمكانة .

ثالثها : أنّ هذه الزيارات الثلاث لها من الآثار والبركات المعنوية العالية بحيث لو وصل العبد مقاماتها المعنوية كان قادراً على التصرّف في شؤون الكون ، فيكون وكأنّه زار الله في عرشه ، وحيث إنّ الزائر له كرم الضيافة على المزور فيلبّي الله سبحانه له ما يريد ، فيستجيب دعاءه ، ويتقبّل عمله ، ويسخّر له الوجود كرامة له ، وهذا ما يلحظ من ظهور الكثير من المعاجز والكرامات في هذه الأوقات الشريفة ، ولو لوحظ عدم الظهور أحياناً فذلك يرجع إلى عدم توفّر سائر الشروط ، وربّما يراد به الوصول الحقيقي باعتبار أنّ عرش الله هو مظهر قدرته وسلطته ، فإذا بلغ العبد هذا المقام ببركة سيّد الشهداء فإنّ الأشياء تكون طوع أمره ، ومعلوم

أنّ هذا ما لايناله كلّ زائر وفي كلّ وقت ، بل يتوقّف على جملة من الشروط التي لو توفّرت بلغ العبد المراد .

ويقرّب هذا المعنى ما ذكره الشيخ التستري في بيان معنى « زار الله في عرشه » حيث قال : هو كناية عن نهاية القرب إلى الله والترقّي إلى درجة الكمال ، وفوق هذه الصفة صفة أُخرى ، وهي أنّه يدرك بها زيارة الربّ تبارك وتعالى ، فإنّه قد ورد أنّه يزوره الله كلّ ليلة جمعة ، فمن زاره في ليلة الجمعة أدرك زيارة الربّ له وزيارته للربّ ، وزيارة الربّ له كناية عن إفاضة خاصّة من الرحمة عليه في ذلك الوقت ، فمن أدركها لا يمكن أن يصير محروماً منها ، ولا يتصوّر أن لا يناله نصيب منها ، وزيارته للربّ كناية عن نهاية القرب إليه ، فإذا اجتمعا حصلت له خصوصية مرتبة من شمول الرحمة الإلهية .

وفي رواية أُخرى أنّه من سرّه أن ينظر إلى الله يوم القيامة وتهون عليه سكرة الموت وهول المطلع فليكثر من زيارة قبر الحسين عليه السلام[1]، فهذه ثلاث عبارات :

زيارة الله والزيارة مع الله والنظر إلى الله ، وهي عبارة عن نهاية ما يتصوّر للمخلوق من الترقّي إلى درجات القرب ، ولهذا جعلت هذه الصفة

(١) بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٧٧ ، ح٣٤ ؛ أُنظر كامل الزيارات : ص٢٨٣ ، ح١ .

باباً مستقلاً ، فإنّها تقابل جميع القضايا وتفوق عليها[١].

وربّما يحمل على المعنى المجازي ، وحينئذ تحمل زيارة الله سبحانه في عرشه على زيارة أوليائه ، وهو ما ذكره العلّامة المجلسي رحمه الله حيث قال : « زار الله في عرشه » أي عبد الله هناك ، أو لاقى الأنبياء والأوصياء هناك ، فإنّ زيارتهم كزيارة الله ، أو يحصل له مرتبة من القرب كمن صعد عرش ملك وزاره[٢].

ويتوافق هذا المعنى مع الروايات المتضافرة التي تنصّ على أنّ أنبياء الله وأولياءه عليهم السلام هم وجه الله سبحانه ، وأنّهم مظاهر أسماء الله وصفاته ، ففي عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام في التوحيد عن أبي الصلت ورد فيه : فقلت يابن رسول الله فما معنى الخبر الذي رووه أنّ ثواب لا إله إلّا الله النظر إلى وجه الله تعالى ؟ فقال عليه السلام : « ياأبا الصلت ! من وصف الله عزّوجلّ بوجه كالوجوه فقد كفر ، ولكن وجه الله أنبياءه وحججه صلوات الله عليهم الذين بهم يتوجّه إلى الله عزّوجلّ وإلى دينه ومعرفته ، وقال الله عزّوجلّ : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[٣] وقال عزّوجلّ : ﴿كُلُّ

---

(١) الخصائص الحسينية : ص٢٩٧ .

(٢) بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص ٧٠ ، بيان .

(٣) سورة الرحمن : الآيتان ٢٦ و ٢٧ .

شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[١] فالنظر إلى أنبياء الله تعالى ورسله وحججه عليهم السلام في درجاتهم ثواب عظيم للمؤمنين يوم القيامة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : من أبغض أهل بيتي وعترتي لم يرني ولم أره يوم القيامة »[٢].

وقد ورد عن الإمامين السجّاد والصادق عليهما السلام في معنى ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ قالا : « نحن الوجه الذي يؤتى الله منه »[٣].

وبعضهم فسّرها بكثرة الثواب فقال : « كمن زاره الله » أي كما لا يمكن الإحاطة بزيارة الله كذلك لا يحيط الزائر ولا الملائكة بعظمة وثواب زيارة الإمام الحسين عليه السلام[٤]، ويعزّز هذا المعنى الروايات الواردة في ثواب الزائر ، فإنّها قدّرت له الثواب بالتشبيه بأفضل الأعمال ، ولم تحدّد له مقداراً ، ففي رواية يونس بن ظبيان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « من زار قبر الحسين عليه السلام يوم عرفة كتب الله له ألف ألف حجّة مع القائم ، وألف ألف عمرة مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعتق ألف ألف نسمة ، وحملان ألف ألف فرس

(١) سورة القصص : الآية ٨٨.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج١ ، ص٩٤ ، ح٣.

(٣) تفسير القمي : ج٢ ، ص٣٤٤ ؛ مناقب آل أبي طالب : ج٣ ، ص٦٣ ؛ تفسير نور الثقلين : ج٧ ، ص٢١٥ ، ح٢٢ ، ح٢٥.

(٤) عجائب زيارة سيّد الشهداء : ص١٩٠.

في سبيل الله ، وسمّاه الله عبدي الصدّيق آمن بوعدي ، وقالت الملائكة : فلان صدّيق زكّاه الله من فوق عرشه ، وسمّي في الأرض كرّوبياً »[١].

وفي رواية ابن مسكان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « من زار الحسين عليه السلام من شيعتنا لم يرجع حتّى يغفر له كلّ ذنب ، ويكتب له بكلّ خطوة خطاها وكلّ يد رفعتها دابته ألف حسنة ، ومُحي عنه ألف سيّئة ، ويرفع له ألف درجة »[٢].

وفي رواية صفوان الجمّال عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « إنّ الرجل إذا خرج من منزله يريد زيارة قبر الحسين عليه السلام شيّعه سبعمائة ملك من فوق رأسه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله ومن بين يديه ومن خلفه حتّى يبلغوا به مأمنه ، فإذا زار الحسين عليه السلام ناداه مناد : قد غفر الله لك فاستأنف العمل ، ثمّ يرجعون معه مشيّعين له من منزله ، فإذا صاروا إلى منزله قالوا نستودعك الله ، فلا يزالون يزورونه إلى يوم مماته ، ثمّ يزورون قبر الحسين عليه السلام في كلّ يوم وثواب ذلك للرجل »[٣].

وربّما يكون المراد المعنى الكنائي ، أي الكناية عن قبول الزيارة بغضّ

---

(١) كامل الزيارات : ص٣٢١ ، ح١٠ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٨٨ ، ح١٨ .

(٢) كامل الزيارات : ص٢٥٧ ، ح٨ ؛ بحار الأنوار : ج٨٩ ، ص٢٥ ، ح٢٦ .

(٣) كامل الزيارات : ص٣٥١ ، ح٦ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٦٨ .

النظر عن مقام الزائر ؛ لوجود المقتضي وانعدام المانع ، وأنّ الحسين عليه السلام هو عرش الله ومظهر إرادته ، وهو وجهه وجنبه ومحلّ معرفته ، وقد ورد في بعض الأخبار أنّ الحسين عليه السلام من حملة عرش الله[١]، كما ورد عن الصادق عليه السلام أنّ العرش هو العلم والقدرة[٢]، فمن زاره يكون قد زار الله في عرشه ، وعلى هذا فإنّ الزائر يبلغ ببركته علو المقام والرتبة في العلم والمعرفة ، وهو ما تعضده النصوص الكثيرة الدالّة على أنّ الحسين عليه السلام مفتاح العلوم والمعارف الإلهية ، وببركته يبلغ الأنبياء والأولياء المقامات العالية .

ويتحصّل : أنّ زيارة الله في عرشه لها معنيان : حقيقي ويراد به وصول الزائر إلى مقامات عالية من القرب عند الله سبحانه حتّى تتجلّى عليه آيات العرش ومظاهر الجمال والجلال الإلهي ، ومجازي إمّا من باب مجاز الاسناد كما ورد عن العلّامة المجلسي قدس سره ، أو مجاز الكلمة ويراد به العجز عن إحصاء ثواب الزيارة ، كما يعجز العبد عن الاحاطة بالخالق ، أو يراد به ضمان قبول الزيارة أو بلوغ العبد العرش الإلهي ؛ لأنّ الحسين عليه السلام مظهره ووعاء قدرته ومشيئته ، وحيث لا تنافي بين المعاني المذكورة ـ بل

(١) أُنظر بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٦٥ ، ح٢٢ .

(٢) تفسير القمي : ج٢ ، ص٢٥٥ ؛ أُصول الكافي : ج١ ، ص١٣٠ ، ح٢ .

هي متصادقة باعتبار اختلاف مراتب المعرفة أو مستويات العارفين أو اختلاف اللحاظ والاعتبار كما لا يخفى على أهل اللب ـ يمكن الأخذ بها جميعاً .

ويبقى الكلام في علو مقام الزائر بزيارة يوم عاشوراء على زيارته في الشعبانية وعرفة ؛ إذ ورد التعبير عنه بأنّه « كمن زار الله فوق عرشه » وواضح أنّ الفوقية هنا معنوية كناية عن علو الرتبة لا مكانية ، ولعلّ وجهها يعود إلى علو مقام يوم عاشوراء على غيره ؛ لأنّه اليوم المختصّ بالحسين عليه السلام ، ولا يشاركه أحد فيه ، وقد كان الحسين عليه السلام فيه أقرب ما يكون إلى ربّه تبارك وتعالى فعوّضه الله سبحانه بأن أكرم زائره ، وجعله كمن يزوره فوق عرشه كرامة له ، أو أنّ الله سبحانه يستجيب لزائر الحسين عليه السلام في هذا اليوم أسرع من سائر الأيّام ، فلا يردّ له حاجة أو يمنعه من لطف أو عناية يطلبها ، أو لأنّ زائره في هذا اليوم يكون في مصاف أنصار الحسين عليه السلام الذين تشحّطوا بدمائهم في نصرته كما ورد ، وحيث إنّ الله سبحانه قدّس هذه الدماء وباركها وجعلها فوق عرشه كان لزائره هذا المقام والمرتبة أيضاً ؛ لأنّ زائره يكون كمن تشحّط بدمه ، إلى غير ذلك من الوجوه والمعاني .

والمستفاد من كلّ ما تقدّم أنّ زيارة الحسين عليه السلام في هذه الأوقات

الشريفة ترتقي بالعبد الزائر إلى مراقي الأنبياء والأولياء عليهم السلام ، وتجعل الكون طوع أمره وإرادته معنوياً ، ولولا وجود الموانع الحاجبة من قبيل أعمال العبد القبيحة ونواقصه النفسية لظهرت آثارها عليه في الكثير من المعاجز والكرامات ، ومن هنا نجد أنّ ظهور الكرامات وقضاء الحوائج كثير في هذه الأوقات ، ولعلّ ظهورها على بعض الزائرين لا جميعهم يعود إلى أنّهم وفّروا في أنفسهم شرائط الظهور أو حصل لهم الانقطاع الروحي الخاصّ في لحظة ظهور الكرامة فاستجاب لهم ربّهم دعاءهم ببركة سيّد الشهداء عليه السلام ، ولهذا البحث كلام مفصّل لا يسعه المجال هنا . هذا بعض ما يتعلّق بمظهريته عليه السلام للقدرة الإلهية .

وأمّا مظهريته عليه السلام لسناء الله سبحانه ونوره فقد جاء مضمونه في الروايات الشريفة بألفاظ مختلفة .

منها : ما ورد في وصفه عليه السلام بزين السماء والأرض ، والزين اسم جامع لكلّ ما هو حسن في نفسه ويتحسّن به غيره[1]، وهو يقتضي ظهور نوره وعلو قدره ومكانته في العيون والقلوب والنفوس ، ومنه الزينة وهي ما يتزيّن به الإنسان من حلي[2] فيظهر به جماله وعلو قدره[3]، ووصفه عليه السلام

---

(١) لسان العرب : ج١٣ ، ص٢٠٢ ، (زين) .

(٢) مجمع البحرين : ج٦ ، ص٢٦٢ ، (زين) .

(٣) المعجم الوسيط : ج١ ، ص٤١٠ ، (زين) .

بزين السماء يدلّ على أنّه مظهر الحسن والجمال فيها ، وتزيينها به يعود لوجوه عديدة من أجلاها أنّه النور الذي تضيء به السماوات ، أو أنّ روحه ودمه يزيّن ما في السماوات ؛ لأنّ اسمه عليه السلام يزيّن العرش ، ومكتوب على ساقه ، والحور العين مخلوقة من نوره ، ودمه سكن في الخلد ، وهو مظهر نور النبوّة والإمامة ، كما أنّه عليه السلام مع شيعته وأنصاره محتفون حول العرش تسطع أنوارهم في الملأ الأعلى ، ولعلّ هناك معاني أُخرى لا تدركها العقول القاصرة والقلوب المظلمة .

وأمّا وصفه بزينة الأرض فالمفهوم منه أنّ وجوده وانتشار ذكره وعلو قدره وسطوع نوره في أرجاء المعمورة هو الذي زيّن الأرض ، وجعل للحياة الكريمة قيمة تذكر ، فإنّ الأرض بعد وجودها تتزيّن بثلاثة أُمور : الأوّل : ببشرها والساكنين عليها ، والثاني : بجمال العدل والحقّ فيها ، والثالث : بالمعارف والقيم المعنوية التي تحكم أبناءها ، وهذه الثلاثة ترجع في وجودها وبقائها إلى الحسين عليه السلام ؛ لأنّه عليه السلام خلاصة الرسالات السماوية ووريث أنبيائها ، وهو الفدائي الأوّل في الخلائق الذي ضحّى بكلّ ما يملك لأجل تنفيذ أمر الله سبحانه وحكمته وإحياء دينه ؛ إذ لولاه لم يبق موحّد ولا مؤمن ، ولم يحكم في الأرض عدل ، ولا يوجد مطالب به ، ورجوع هذه الحقائق إلى الحسين عليه السلام ممّا تسالمت عليه آراء أهل الرأي

وذوي الفكر ، ولا تختصّ بالمؤمنين به .

فإنّ الحسين عليه السلام هو الذي أحيا القيم ، وعزّز البشر بالكرامة والحرّية ، وقاد مسيره التأريخ إلى الحقّ والعدل ، وفضح الظلم ، وتحدّى مناهجه وأساليبه ، وخلّد في القلوب والضمائر أنّ الحقّ هو المنتصر وإن بات يوماً تحت حوافر الخيل ، وإنّ الدين والكرامة أغلى من الحياة والأهل والأبناء ، ولذا ورد في زيارته الشريفة : « بذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة »(١) ومن ذلك نستخلص أُموراً :

أحدها : أنّ إحياء الحزن على الحسين عليه السلام وتخليد ذكراه بما يقوم به المؤمنون من تعظيم لشعائره هو تكريم لهذا العطاء ، وإحياء لأهدافه وغاياته الإلهية العليا ، كما أنّه أدنى مراتب شكر المنعم الذي يتّفق العقل والفطرة الإنسانية على وجوبه .

ثانيها : أنّ تعظيم شعائره عليه السلام ممّا يزيّن السماء ؛ لأنّ الملأ الأعلى ومنذ شهادته بل وقبلها في حزن عليه وعزاء ، فإذا أقام أهل الأرض العزاء ونصبوا المآتم وتذكّروا مصابه يشاركهم فيه أهل السماء ، كما أنّه ممّا يزيّن الأرض وتتزيّن به الحياة البشرية ؛ إذ لولاها لساد الظلام ، وتحكّم الجور

(١) مصباح المتهجّد : ص٧٨٨ ؛ تهذيب الأحكام : ج٦ ، ص١١٣ ، ح٢٠١ ؛ المزار (لابن المشهدي) : ص١٨٦ .

بأهلها ، ولولا شعائره ومراسم حزنه لانشغلت ملايين الطاقات البشرية بالفساد والباطل والانحدار إلى مستويات رخيصة من الحياة التي يخطّط لها أتباع الهوى والشيطان ، وجيّشوا لها الجيوش ، إلّا أنّ الحسين عليه السلام بموقفه النبيل وشهادته وبذكره وزيارته ومراسم عزائه حشّد الطاقات في الخير ، وأنار قلوبها وأفكارها بالقيم الحقّة ، وسما بها إلى مستويات عالية من الكرامة والإنسانية ، فهو حقّاً زين الأرض كما هو زين السماء ، ولا يمكن أن تحلم الإنسانية بعزّة أو كرامة أو حياة حرّة من دون الاقتداء بالحسين عليه السلام ، ولا يمكن أن يبلغ المؤمن هذا المراد من دون التوسّل به .

ثالثها : أنّ بلوغ الكمال والوصول إلى مقامات العارفين التي يطلبها أهل اللب واليقين فينالون بها درجات الراغبين والمحبّين والعارفين ونحوها يتلخّص في حبّ الحسين عليه السلام وزيارته وإحياء أمره وذكره والبكاء عليه ومواساته ، وهذا ما تواترت عليه كلمة أهل السرّ ، وجرت عليه سيرتهم في مختلف الأعصار والأمصار بما فيهم الأنبياء عليهم السلام .

الخصوصيّة الثانية

الحسين عليه السلام مظهر الرحمة الإلهية

تدلّ النصوص الكثيرة على أنّ الشعائر الحسينية وتعظيمها من القيم الإلهية العظمى في هذا الوجود ، شاء الله سبحانه لها أن تقام وتعظّم فتكون وسيلة إلى هداية الناس وإصلاح أمرهم في دنياهم وأُخراهم ، والذي يتتبّع الأخبار المعتبرة يجد أنّ هناك جملة من المواهب والخصوصيات المعنوية العظيمة اختصّ الله سبحانه بها الإمام الحسين عليه السلام، لم ينل شرفها أحد غيره ، وقد لازمت هذه الخصوصيات وجود الإمام الحسين عليه السلام المبارك والشعائر المتعلّقة به منذ أوّل الخلق إلى يوم المحشر كما لا يخفى على من له اطّلاع بالأخبار ومراجعة للآثار ، منها خصوصياته في أوّل الخلق ؛ إذ يستفاد من الروايات النبوية أنّه أوّل المخلوقات وجوداً ، ومنه اشتقّ وجود سائر المخلوقات ؛ إذ تواتر في روايات الفريقين أنّ أوّل ما خلق الله سبحانه نور النبي صلى الله عليه وآله ، كما تضافر النقل عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال : « حسين منّي وأنا

من حسين »[١] وفي رواية أُخرى : « أنا من حسين وحسين منّي »[٢] وبناءً على أنّ (من) هنا نشوية أو بعضية حقيقية فإنّها تدلّ على أنّه أوّل ما خلق الله ، ومنه أنشأ الوجود ، وعلى هذا الأساس بكاه جميع الخلق ، ونـاحت عليه الكائنات قبل وجوده عـلى الأرض كـما ورد في الزيـارة الشـعبانية المباركة المروية عن قائم آل محمّد عجّل الله تعالى فرجه الشريف « بكـته السماء ومن فيها والأرض ومن عليها ولمّا يطأ لابتيها »[٣] ولابتيها مثنّى ، وله معنيان : هما الأرض ذات الحجارة السوداء[٤]، ولوي الشيء وضرب

---

(١) كامل الزيارات : ص١١٦ ، ح١١ ؛ شرح الأخبار : ج٣ ، ص١١٢ ، ح١٠٥٠ ؛ أوائل المقالات : ص١٧٨ ؛ بحار الأنوار : ج٤٣ ، ص٢٧١ ، ح٣٥ ؛ الارشاد : ج٢ ، ص١٢٧ ؛ وانظر مسند أحمد : ج٤ ، ص١٧٢ ؛ سنن ابن ماجة : ج١ ، ص١٤٤ ، ح٥١ ؛ تاريخ دمشق (ترجمة الإمام الحسين عليه السلام) : ج٧٩ ، ص١١٢ .

(٢) الأمالي (للسيّد المرتضى) : ج١ ، ص١٥٧ ؛ مناقب آل أبي طالب : ج٣ ، ص٢٢٦ ؛ مصباح المتهجّد : ص٧٥٨ ؛ بحار الأنوار : ج٤٣ ، ص٢٩٦ ، ح٥٦ .

(٣) مصباح المتهجّد : ٨٢٦ ؛ المزار (لابن المشهدي) : ص٣٩٨ ؛ المصباح : ص٥٤٣ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٣٤٧ ، ح١ .

(٤) النهاية : ج٤ ، ص٢٧٤ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٣٤٨ ؛ المزار (لابن المشـهدي) : ص٣٩٨ ؛ إقبال الأعمال : ج٣ ، ص٣٠٣ .

خواصره بالعصا[١].

والمقصود ظاهر ، ووجه الجمع بين المعنيين أنّ وطي الأرض يتحقّق بالمشي عليها والضرب على ظهرها طلباً للرزق ونحوه . وربما وردت بصيغة المثنّى للاشارة إلى أنّه يطوي الأرض ببرّها وبحرها ، أو سهلها وجبلها ، أو يعيش عليها بيسرها وعسرها .

ويمكن أن يوجّه بكاؤهم بالخشوع والانكسار الفطري الذي يحصل لدى كلّ أحد عرف الحسين وسمع بمصائبه وإن كان قاتله ، ولذا بكى عليه ابن سعد حين أمر بقتله[٢]، ورقّ يزيد لعنه الله لمّا رأى الأُسارى ، وقال : قبّح الله ابن مرجانة[٣]، إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة[٤].

هذا وقد جمع العلّامة التستري ﷺ جملة من خصائصه الإلهية بما يبهر العقول ، ويأخذ بمجامع القلوب في ولادته وشهادته ومرقده وأعضاء جسده المبارك ، وكلّ ما يتعلّق به من مراسم وشعائر ، وقد جمع التعبير عن ذلك بعض الأعاظم استشهاداً بما ورد (فوضع الله يده على رأس

---

(١) القاموس المحيط : ص ١٦٠ ، (لبت) ؛ لسان العرب : ج ٢ ، ص ٨٢ ، (لبت) .

(٢) تاريخ الطبري : ج ٥ ، ص ٤٥٢ ؛ مقتل الخوارزمي : ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٣) الارشاد : ج ٢ ، ص ١٢٠ ؛ بحار الأنوار : ج ٤٥ ، ص ١٣٦ .

(٤) أُنظر سير أعلام النبلاء : ج ٣ ، ص ٣٠٣ ؛ بحار الأنوار : ج ٤٥ ، ص ٦٠ .

الحسين عليه السلام)[١] قال : وحيث إنّه كناية عن نهاية نظر الرحمة إليه فقد ظهر هذا في شيئين كما في الروايات الصحيحة .

الأوّل : ما ناله هو بنفسه .

الثاني : ما يناله الناس به .

أمّا الأوّل فإنّه مرتبة خاصّة من القرب لا نقدر على تقريرها ، بل ولا على تصوّرها ، ومن فروعها جعل الإمامة في ذرّيته .

وأمّا الثاني فأُمور كثيرة : منها جعل الشفاء في تربته ، والإجابة تحت قبّته ، وعمدتها وأعظمها وأجلّها أنّه قد خصّه بصيرورته سبباً عاماً لرحمته على عباده ، وقد خلقهم لها فجعلها بذلك عمدة التسبّب ، وحيث كان نبيّه رحمة للعالمين جعل الحسين من النبي وجعل النبي منه ، ولذا قال : « حسين منّي وأنا من حسين »[٢] فهو محلّ وضع يد الرحمة ، وغذّته يد الرحمة ، وربّي في حجر الرحمة ، ورضع من لسان الرحمة ، فهل في قلبك له رحمة ،

---

(١) تفسير نور الثقلين : ج١ ، ص٥٠٤ ، في ذيل الآية : ﴿أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ سورة النساء : الآية ٥٩ .

(٢) كامل الزيارات : ص١١٦ ، ح١١ ؛ شرح الأخبار : ج٣ ، ص١١٢ ، ح١٠٥٠ ؛ أوائل المقالات : ص١٧٨ ؛ بحار الأنوار : ج٤٣ ، ص٢٧١ ، ح٣٥ ؛ مسند أحمد : ج٤ ، ص١٧٢ .

فتكون من الباكين عليه رحمة ، فيصلّي عليك ربّ الرحمة ، ويقال لك صلّى الله عليك ياصاحب الرحمة ، صلّى الله عليك ياراحم الرحمة[١].

وتتجلّى مظاهر الرحمة الحسينية على العباد في كلّ جوانب حياتهم الدينية والدنيوية ؛ إذ يستفاد من الأخبار المعتبرة أنّ المحبّين للحسين والراحمين لحالاته والمواسين له بدموعهم ودمائهم ينالون به مقامات عالية من العبادة والعبودية في طول أعمارهم . تؤكّد هذه الحقيقة الشواهد التالية :

الأوّل : أنّ زائر الإمام الحسين عليه السلام يكون من عباده المكرمين[٢] وهم الملائكة ، وقد ورد هذا في العديد من الأخبار التي تنصّ على أنّ من زاره تصلّي عليه الملائكة ، وتسبّح وتقدّس وتستغفر له إلى يوم القيامة[٣]، بل وتنوب عنه في زيارته إلى يوم القيامة[٤].

الثاني : أنّ زائره عليه السلام يرتقي إلى مراتب مرافقة النبي والأوصياء عليهم السلام والمعاشرة معهم والأكل معهم وعلى موائدهم ومصافحتهم ومحادثتهم[٥].

---

(١) الخصائص الحسينية : ص١٣٩ ـ ١٤٠ ، (بتصرّف واختصار) .

(٢) كامل الزيارات : ص٢٧١ ، ح٤ ، بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص١٨ ، ح٢ .

(٣) كامل الزيارات : ص٣٧٤ ـ ٣٧٧ ، ح٥ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص١٦٣ ـ ١٦٤ ، ح٨.

(٤) أُنظر كامل الزيارات : ص٣٥١ ، ح٦ ، وص١٧٦ ، ح١٧ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٦٧ ـ ٦٨ ، ح٦٢ .

(٥) أُنظر كامل الزيارات : ص٢٣٠ ، ح٤ ؛ وص٢٤٠ ، ح٢ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٩ ، ح٣٠ .

الثالث : أنّ زائره ينال ثواب العبادات كلّها ، بل يعطى ثواب عبادة العمر كلّه ، بل الدهر كلّه[١]، وفي بعض المواقف ينال ثواب سقي عسكر الحسين عليه السلام يوم عاشوراء ، وذلك لمن سقى الماء في عاشوراء عند قبره[٢].

الرابع : أنّ زائره والباكي عليه تغفر جميع ذنوبه الماضية ، بل قد يحصل على غفران الذنوب المستقبلية ـ إذا توفّرت الشروط ـ ولا يختصّ به ، بل قد يحصل على مغفرة ذنوب والديه ، بل وذنوب من أحب[٣].

الخامس : أنّ زائره ومن يتمنّى أن يكون شهيداً مع الحسين عليه السلام ويقول : (ياليتني كنت معكم) ينال ثواب من استشهد معه[٤]، وإذا أحبّ عمل الشهداء شاركهم فيه ، وحشر معهم[٥]، وإذا بات عنده في ليلة عاشوراء حتّى يصبح حشره الله تعالى ملطّخاً بدم الحسين عليه السلام في جملة الشهداء معه عليه السلام[٦].

---

(١) ثواب الأعمال : ص٧٧ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص ٧٠ و ص٧٨ .

(٢) كامل الزيارات : ص٣٢٤ ـ ٣٢٥ ، ح٦ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص١٠٥ ، ح١٤ .

(٣) أُنظر كامل الزيارات : ص٣١١ ، ح٤ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٢٧ ، ح٣٤ ؛ مستدرك الوسائل : ج١٠ ، الباب ٢٦ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٢٣٨ ، ح١٢ .

(٤) أمالي الصدوق : ص١٩٣ ، ح٥ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٨٦ ، ح٢٣ .

(٥) بشارة المصطفى : ص٧٤ .

(٦) إقبال الأعمال : ج٣ ، ص٥٠ ؛ مسار الشيعة : ص٢٥ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص١٠٣ ـ ١٠٤ ، ح٥ .

والظاهر أنّ زائره ومواسيه ينال ما هو أعظم من ذلك ؛ لأنّ المجاهد معه يحصل على ثواب جهاد واحد ، وينال أجره ، وكذا المستشهد معه والمتلطّخ بدمه في سبيله ، إلّا أنّ الزائر والمواسي ينال ذلك مرّات ومرّات بحسب تكرّر الزيارة والنيّة والمواساة[١].

السادس : أنّ زائره يضمن دعاء أولياء الله وخيرة خلقه وعباده ؛ إذ يدعو له رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والأئمّة صلوات الله عليهم أجمعين[٢]، وتدعو له الملائكة[٣].

وفي رواية أُخرى أنّ زائره ليخرج من رحله فما يقع فيؤه على شيء إلّا دعا له[٤]، بل إنّ الإمام عليه السلام يسأل جدّه وأباه أن يدعوا لزائره والباكي عليه[٥]، وقد دعا الصادق عليه السلام في سجوده لمن قلّب خدّه على قبر

---

(١) أُنظر الخصائص الحسينية : ص١٥٣ .

(٢) كامل الزيارات : ص٢٢٧ ، ح١ ؛ ص ٢٣٠ ، ح٤ ؛ تهذيب الأحكام : ج٦ ، ص٤٧ ، ح١٠٣ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٥٣ ، ح٣ .

(٣) كامل الزيارات : ص ٢٣٠ ، ح٤ ؛ المزار (لابن المشهدي) : ص٣٢٨ ، ح٨ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٥٤ ، ح٩ .

(٤) كامل الزيارات : ص٤٩٦ ، ح١٧ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص١٥ ، ح١٤ .

(٥) أمالي الطوسي : ج١ ، ص٥٤ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٦٤ ، ح٤٩ .

الحسين عليه السلام، ولمن جرى دمعه عليه ، ولمن صرخ لأجله(١).

السابع : أنّ زائره والباكي عليه ينال مقام الناصر لله سبحانه ولرسوله والصدّيقة الطاهرة ولسائر الأئمّة الطاهرين عليهم السلام، وهذا مقام واجب على كلّ مؤمن ؛ إذ قال سبحانه : ﴿**كُونوا أَنصَارَ اللهِ**﴾(٢).

ومن الواضح أنّ الله أجلّ من أن يحتاج إلى نصرة ، إلّا أنّ المراد منها نصرة أوليائه ودينه ؛ لأنّ نصرتهم هي نصرته كما حقّق في علم الكلام ، وكلّما كان المنصور من أوليائه أعلى رتبة وكانت قضية النصرة عظيمة والمظلومية فيها أشدّ كان تحقّق نصرة الله فيها أظهر وأعظم ، وهذا لا ينطبق إلّا في نصرة سيّد الشهداء عليه السلام ؛ لأنّه جمع جميع مقامات الأنبياء وظلاماتهم ؛ إذ قال الصادق عليه السلام : « بأبي المستضعف الغريب »(٣).

ومن الواضح أنّ نصرته عليه السلام لها مظاهر ومصاديق وتجلّيات كثيرة ، فزيارته نصرة له ، والبكاء عليه نصرة له ، وإقامة عزائه نصرة له ، وتمنّي نصرته نصرة له ، والسجود على تربته والتسبيح بسبحة تربته نصرة له ، وتسمية الولد باسمه ونظم الشعر في حقّه وتأليف الكتاب وتسمية المدرسة

---

(١) بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٥٢ ، ح١ .

(٢) سورة الصف : الآية ١٤ .

(٣) الكافي : ج٤ ، ص١٤٧ ، ح٧ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٩٥ ، ح٤٠ .

والتربية والتعليم على نهجه هذه كلّها نصرة له ، فإذا استجمع العامل بذلك شروط النصرة يكون ناصراً لله ونصيراً له . إلى غير ذلك من الشـواهـد الكثيرة التي لو أردنا استقراءها لاستدعى أن نعقد بحثاً مستقلاً له[١].

ونلاحظ أنّ ما يناله المؤمن من الفضائل والمقامات العالية في العبادة والعبودية في نصرة الإمام الحسين عليه السلام ومواساته وتعظيم شعائره ما يعجز عن أن يناله ولو عاش آلاف السنوات ، ووظّف وقته وجهده وكلّ طاقاته لأجله ، إلّا أنّه ينال ذلك باليسير من العمل ببركة الإمام الحسين عليه السلام ، وهذا لطف خاصّ أعطاه الله له عليه السلام ، وهو مظهر من مـظاهر الرحمـة الإلهـية في الإمام الحسين عليه السلام .

(١) أُنظر تفاصيل ذلك في كتاب الخصائص الحسينية للشيخ جعفر التستري قدس سره .

الخصوصيّة الثالثة

القرآن يقصّ مصيبة الحسين عليه السلام ويعظّم شعائره

إنّ العلاقة بين القرآن والحسين عليه السلام دائمة لا تنفكّ ، وكلّ منهما يمثّل الآخر تكويناً وتشريعاً ، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا الحوض ، وهما الثقلان اللذان أودعهما رسول الله صلى الله عليه وآله في أُمّته .

فإنّ القرآن كلام الله الصامت ، والحسين عليه السلام قرآنه الناطق ، وقد أشارت الأخبار الشريفة إلى وجوه عديدة للشبه بينهما في المقام والأدوار والمهام ، فالقرآن فرقان بين الحقّ والباطل وهدى للناس وكذلك الحسين عليه السلام ، بل كتب على ساق عرش الله سبحانه أنّه عليه السلام مصباح هدى وسفينة نجاة .

القرآن سمّاه الله مباركاً فقال : ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ﴾[1] وسمّى الليلة

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٥٠ .

التي أُنزل فيها مباركة فقال : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[١] وقد سمّى الله سبحانه الحسين عليه السلام مباركاً بوحي إلى رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله « بورك من مولود عليه بركاتي وصلواتي ورحمتي »[٢] والقرآن نور وشفاء ورحمة للمؤمنين ، والحسين عليه السلام نور وشفاء للأمراض الباطنة ، وتربته شفاء للأمراض الظاهرة ، وهو رحمة للمؤمنين وباب نجاة الأُمّة ، وأكثر فوزهم وعلو مراتبهم به[٣].

والقرآن شافع لمن يتلوه ويداوم عليه[٤]، والحسين عليه السلام شافع لمن يذكره ويزوره ويبكي عليه[٥]، القرآن معجزة في أُسلوبه ومضامينه ومعانيه ، والحسين عليه السلام معجزة في وجوده وسيرته ونهجه وشهادته ، وهو مظهر الكرامات والبركات ، القرآن جديد لا يبلى ولا يملّ بكثرة القراءة والتكرار ، والحسين عليه السلام جديد في كلّ وقت ومصابه حي في كلّ سنة ، ولا يملّ بكثرة الذكر والتكرار ، القرآن قراءته عبادة واستماعه عبادة والنظر إليه

---

(١) سورة الدخان : الآية ٣.

(٢) كامل الزيارات : ص١٤٢ ، ح١ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٣٨ ، ح٢٩ .

(٣) كامل الزيارات : ص٢٧٥ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص١٢٣ ، ح١٥ .

(٤) أمالي الشيخ الطوسي : ج١ ، ص٥٤ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٨١ ، ح١٣ وح١٤ .

(٥) كامل الزيارات : ص١٠٦ .

عبادة ، والحسين عليه السلام ذكره عبادة ، ورثاؤه عبادة ، واستماع رثائه عبادة ، والجلوس في مجلسه عبادة ، والهمّ له عبادة ، والبكاء عليه عبادة ، والإبكاء عليه عبادة ، والتشبّه بالباكي عليه عبادة ، وزيارته عبادة ، والسلام عليه عبادة ، وزيارة زائره عبادة ، وتمنّي الشهادة معه عبادة(١).

القرآن حكى قصص الأنبياء عليهم السلام وحالاتهم وما نزل بهم من مصائب وابتلاءات بالبيان ، ومصاب الحسين عليه السلام جمع كلّ مصائب الأنبياء بالعيان ، وزاد عليها بما جعله أُسوة لهم جميعاً .

القرآن آياته الظاهرة ستّة آلاف وستمائة وست وستّون ، والحسين عليه السلام آياته الظاهرة في بدنه ألف وتسعمائة وقيل أربعة آلاف ، وإذا عددت الجرح على الجرح وما أصابه من الرض بلغت إلى ستّة آلاف وستمائة وست وستّين(٢)، إلى غير ذلك من وجوه الشبه الظاهرة والباطنة ، وقد أشار إلى جملة منها العلّامة التستري رحمه الله في خصائصه(٣).

بل تضمّن القرآن الكريم في آيات عديدة مقامات الحسين عليه السلام ، وحكى مصائبه ورثاه بدلالة الاشارة التي يفهمها الخواصّ ، أو اللطائف

---

(١) أُنظر الخصائص الحسينية : ص٣٥٥ ـ ٣٥٦ (بتصرّف) .

(٢) الخصائص الحسينية : ص٣٥٧ .

(٣) أُنظر الخصائص الحسينية : ص٣٥٣ وما بعدها .

التي يفهمها الأولياء ، أو الحقائق التي يدركها الأنبياء[١]، كما تضافرت الأخبار عن أهل العصمة عليهم السلام التي تشرح بعض تفاصيلها بالعبارة ليفهمها العوام أيضاً .

وذلك ليبيّن للناس أنّ مصيبة الحسين عليه السلام ليست مصيبة عادية ، بل هي حقيقة إلهية كبرى أراد الله سبحانه أن تكون محور الشرائع وغايات الأنبياء عليهم السلام ومظهر ابتلاءاتهم وصبرهم وعلو مقاماتهم ، كما يرسّخها في الأذهان والقلوب والضمائر ليستذكرها الناس كلّما قرأوا القرآن في آناء الليل وأطراف النهار ، والشواهد والنماذج على هذه الحقيقة كثيرة . نكتفي باستعراض ثلاثة منها :

الشاهد الأوّل : الآية الخامسة عشرة من سورة الأحقاف إذ أشارت إلى حمله عليه السلام وولادته . قال تعالى : **﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ**

---

(١) إشارة إلى الحديث الشريف الوارد عن الحسين بن علي عليهما السلام قال : «كتاب الله عزّوجلّ على أربعة أشياء : على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق ، فالعبارة للعوام ، والإشارة للخواصّ ، واللطائف للأولياء ، والحقائق للأنبياء» بحار الأنوار : ج٩٢، ص٢٠، ح١٨ .

وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

وقد ورد في كامل الزيارات والبحار بأسانيد معتبرة أنّه لمّا حملت فاطمة عليها السلام بالحسين عليه السلام نزل جبرئيل فقال : يامحمّد إنّ الله يقول : السلام عليك ، ويبشّرك بمولود يولد من فاطمة عليها السلام تقتله أُمّتك من بعدك ، فقال : « وعلى ربّي السلام لا حاجة لي في مولود يولد من فاطمة تقتله أُمّتي من بعدي » فعرج ثمّ نزل وقال كما قال ، فأجاب كما أجاب ، ثمّ عرج ثمّ نزل أيضاً وقال : إنّ الله يبشّرك إنّي جاعل في ذرّيته الإمامة والولاية والوصيّة ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : « قد رضيت » ثمّ أرسل إلى فاطمة بما جاء به جبرئيل أوّلاً فقالت : « لا حاجة لي في مولود تقتله أُمّتك بعدك » فبشّرها بما بشّر ، فقالت : « قد رضيت » (فحملته كرهاً) لأنّه مقتول ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾ بأنّه مقتول ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾[2] فلو أنّه قال : وأصلح لي ذرّيتي لكانت ذرّيته كلّهم أئمّة ، ولم يرضع الحسين عليه السلام من فاطمة عليها السلام ولا

---

(١) سورة الأحقاف : الآية ١٥ .

(٢) سورة الأحقاف : الآية ١٥ .

من أُنثى ، ولكنّه كان يؤتى به النبي ﷺ فيضع ابهامه في فيه فيمصّ منه لبناً ما يكفيه اليومين والثلاثة ، فنبت لحم الإمام الحسين من لحم رسول الله ﷺ ، ودمه من دمه .

ولم يولد مولود لستّة أشهر إلّا يحيى بن زكريا والحسين بن علي عليهما السلام[١].

وقد وجّه العلّامة التستري ﷺ معنى الآية بقوله : اعلم أنّ معنى قوله كرهاً هو الحزن والأسف عليه في حمله ووضعه وحضانته وإرضاعه وتربيته واللعب معه في طفولته وفي إدخال السرور عليه من قبل جدّه أو أبيه أو أُمّه ، وقد مات جدّه وهو حزين آسف عليه ، وماتت أُمّه ومات أبوه وأخوه كذلك ، كما نطقوا به عند موتهم ، وقد خلّته أُخته في المقتل وذهبت عنه كرهاً ، وأي كره هو وأي حزن وأي أسف وأي صراخ وأي عويل[٢]، والعبارة المذكورة مستفادة من مضامين جملة من الوقائع والأخبار[٣].

---

(١) كامل الزيارات : ص٥٦ ـ ٥٧ ، ح٦ ، (بتصرّف) ؛ وانظر أُصول الكافي : ج١ ، ص٤٦٤ ، ح٤ ؛ مناقب آل أبي طالب : ج٤ ، ص٥٠ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٣٢ ـ ٢٣٣ ، ح١٧ .

(٢) الخصائص الحسينية : ص٣٧٠ .

(٣) أُنظر اللهوف على قتلى الطفوف : ص٥٧ ـ ٥٨ ؛ مثير الأحزان : ص٧٧ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٥٨ ـ ٥٩ .

وبالتأمّل في مضامين الرواية الشريفة نتوصّل إلى عدّة حقائق :

الحقيقة الأُولى : أنّ الله سبحانه بشّر نبيّه المصطفى صلى الله عليه وآله بواقعة عاشوراء ومصائب الحسين عليه السلام قبل انعقاد نطفة الحسين عليه السلام وحمله وولادته ، وهو يدلّ على أنّ القضية لم تكن من القضايا السياسية التي تحدث في حينها ، ولا من القضايا العسكرية التي تخلقها الظروف أو المصالح ، كما أنّ وقائعها ونوائبها وكرباتها لم تكن صدفة ، بل القضيّة بكلّ ما فيها من أحداث وأحزان وفجائع من المقدّرات الإلهية التي اقتضت وجودها الحكمة الربّانية في هذا الوجود لحفظ توازن الخلق ، وحفظ الشرائع وتخليد الأنبياء ، وهداية الناس وقيادتهم إلى الحقّ والسنن الإلهية ، والتي لأجلها بعث الله رسله ، وأنزل كتبه ، ونصب الأئمّة ، فلولا ذلك لبطلت الحكمة في الخلق ، وصار البعث والإرسال وإنزال الشرائع والسنن من الأُمور العبثية الخالية من الغرض ، ومن أجل ذلك صار الحسين عليه السلام بشهادته الكريمة على الله سبحانه محيي الشرائع والسنن ، وله فضل إبقاء الأنبياء وإحياء ذكرهم وحفظ الغاية من وجودهم .

ومن الواضح أنّ هذه الغاية الإلهية الكبرى تقتضي التبشير بحامل لوائها والمحقّق لها ، ولذا بشّر الله سبحانه نبيّه ، وبشّر نبيّه بها أُمّه فاطمة مع أنّ نتيجتها القتل ذبحاً ، والشهادة صبراً ، والتلظّي عطشاً ، وغيرها من

حوادث أفجعت الوجود .

الحقيقة الثانية : أنّ قواعد عصمة النبي ﷺ ومقاماته الإلهية وشرفيته وأفضليته على سائر الخلق ، وكذا مقتضى علومه اللدنّية المحيطة بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ومقتضى علمه بالحكمة الإلهية وقربه وحبّه لربّه عزّوجلّ . هذه كلّها تستدعي ـ أنّ يحمل قوله : « لا حاجة لي في مولود يولد من فاطمة تقتله أُمّتي من بعدي » وتكرار القول مرّتين ، فلمّا أخبره بأنّ الله سبحانه جاعل في ذرّيته الإمامة والولاية والوصيّة قال : « رضيت » ـ على أحد وجوه :

الأوّل : أنّ ذلك كان لاستخبار الحكمة الإلهية فيه .

الثاني : أنّ ذلك كان لبيان عدم الحاجة من الجهة الشخصية لا الجهة المقامية ، فإنّ العطاء الإلهي تارةً يكون للشخص وتارةً يكون لمقامه ، والخصوصيات والآثار بينهما تختلف ، ومن الواضح أنّ العطاء الشخصي يقتصر على الشخص نفسه ومصالحه الخاصّة بخلاف العطاء المقامي ، ومن الناحية الشخصية لا يحتاج الإنسان مولوداً يقتل ؛ لأنّ المولود يطلب لأجل الانتفاع به ، والقتل يمنع من النفع ، وربّما يتنافى مع الحكمة ، بخلاف المولود الذي يعطيه الله سبحانه لجهة المقام المعنوي ، فإنّه لا يلحظ فيه مصلحة ذات الشخص بل مصلحة المقام ، ولما بيّن الباري عزّوجلّ لرسوله

الأمين بأنّ عطاء الحسين عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله من جهة المقام لا الشخص وأنّه منبع الإمامة والولاية والوصاية قال : « رضيت » فإنّ قتله بحسب ما قدّر له سيكون فيه الخير والبركة وتمام النفع المطابق لموازين الحكمة .

الثالث : أنّ ذلك كان لإظهار سخط النبي صلى الله عليه وآله وعدم رضاه بقتل الحسين عليه السلام ، فيكون حجّة على الموالين في نصرته ، وعلى المخالفين في قتله ؛ إذ لا يبقى عذر لأحد في الشكّ بحقّانيّة الحسين عليه السلام ومظلوميته ، كما لا يبقى أثر للتضليل الذي تحدثه السياسة ، أو ترسّخه الدعاية والإعلام في عقول الناس ، وما يقال في جواب الرسول صلى الله عليه وآله يقال في جواب الصدّيقة الطاهرة عليها السلام لأنّهما نور واحد .

الحقيقة الثالثة : قوله : « وأصلح لي من ذرّيتي » فلو أنّه قال : « وأصلح لي ذرّيتي لكانت ذرّيته كلّهم أئمّة » ظاهر في أنّ الخطاب للحسين عليه السلام ، وهو إمّا من باب خطاب الحال أو الخطاب الحقيقي في عوالم قبل الدنيا ، وهو دليل على أنّ الإمام عليه السلام مطّلع على حكمة التقدير الإلهي في النبوّة والإمامة وحوادث الوجود ، فلذا لم يطلب أكثر ممّا قرّره الله سبحانه ، وذلك لأنّ حكمة وجود الأئمّة يتحقّق في الاثني عشر من عترة النبي صلى الله عليه وآله ، فطلب ما هو أزيد من ذلك يتنافى مع الحكمة الربّانية والتسليم لأمر الله سبحانه .

الحقيقة الرابعة : أنّ عدم رضاع الحسين عليه‌السلام من أُنثى حتّى من أُمّه فاطمة عليها‌السلام وانحصار رضاعه بما غذّته إبهام النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قد يتضمّن أكثر من حكمة .

منها : إظهار فضله .

ومنها : تذكير القوم الذين يعادونه ويقتلونه ويدّعون أنّهم مسلمون بأنّ الحسين عليه‌السلام هو رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وهما جسد واحد ودم واحد ولحمهما واحد .

ومنها : أنّ بعض المقامات المعنوية التي قدّرها الباري عزّوجلّ للحسين عليه‌السلام لا يصلها إلّا عبر هذا الطريق ، وهذا ما تؤكّده الفقرة الواردة في زيارته الشريفة : « غذّتك يد الرحمة ، ورضعت من ثدي الإيمان ، وربّيت في حجر الإسلام »[1] بناءً على أنّ المراد من الرحمة هو العناية الإلهية ، أو يد النبي المصطفى صلى‌الله‌عليه‌وآله إذ سمّي في القرآن والسنّة بالرحمة ، ولعلّ من هنا صار الحسين عليه‌السلام مظهر الرحمة الإلهية الواسعة وباب نجاة الأُمّة ، كما صار محلّ الإيمان والعقيدة الحقّة ومفتاح المعرفة الربّانية ، ومن هنا اتّفق أهل المعرفة على أنّ باب المعارف الإلهية واتّصال الأرواح بعالم الملكوت

---

(١) إقبال الأعمال : ج ٢ ، ص ٦٤ ؛ المزار (للشهيد الأوّل) : ص ١٧٤ ؛ بحار الأنوار : ج ٩٨ ، ص ٣٦٠ .

وبلوغ العباد مراتب اليقين مفتاحها الحسين عليه السلام .

ومنها : إلفات الناس أنّ كلّ ما يتعلّق بالحسين عليه السلام معجز ، فحمله وفصاله معجز ، ورضاعه معجز ؛ إذ لم يرتضع صبي غيره من إبهام ، وكان ما يمصّه لبناً ، وتكفيه المصّة اليومين والثلاثة ، وذلك لكي لا يستغربوا إذا شاهدوا رأسه يتلو القرآن من على الرمح ، أو أنّ الطيور سبحت في دمه ، والنجوم هوت على جسده ، وأنّ الأسد رابض عند أشلائه المقطّعة ليحميها من السباع والضباع التي أراد بنو أُمّية أن تأكلها ، وغير ذلك من معاجز وكرامات ، بل يدعوهم إلى الإيمان به والتمسّك بقضيّته .

كما تلفت أنظار المؤمنين الذين يحيون شعائره باللطم والبكاء والإدماء وغيرها من مظاهر تقتضي بحسب الموازين العادية مزيد الألم والملل والمرض والموت إلّا أنّها في عزاء الحسين عليه السلام تكون باعثة على الصحّة والسلامة وشدّة الشوق والتلهّف والرضا إلى أنّ ذلك لم ينشأ جزافاً ، بل ناشئ من العنايات الإلهية والألطاف الربّانية بالحسين عليه السلام وعاشوراء .

الشاهد الثاني : في قضية ذبح إسماعيل عليه السلام التي ذكرها الباري عزّوجلّ في سورة الصافات بقوله عزّوجلّ : **﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ**

الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[١] فإنّ هذه الحادثة العظيمة إشارت إلى شباهتين إحداهما إسماعيل بالحسين عليه السلام ، والثانية شباهة إبراهيم عليه السلام به .

أمّا الشباهة الأُولى فمن ثلاثة وجوه :

الأوّل : التسليم لأمر الله .

والثاني : الصبر على تنفيذه .

والثالث : الإيثار للغير . فإنّ تسليم إسماعيل للذبح كان لأجل إتمام ابتلاء إبراهيم عليه السلام وإكمال طاعته ، وهذه الثلاثة صفات الحسين عليه السلام في تضحيته ، بل زاد الحسين عليه السلام على إسماعيل في أنّه نال الشهادة ذبحاً عطشاناً غريباً مكروباً وبيد أعدائه ، ولم يصب إسماعيل بواحدة منها .

وأمّا الشباهة الثانية فإنّه قدّم ولديه العزيزين الأكبر والأصغر عليهما السلام للذبح والشهادة كما قدّم إبراهيم عليه السلام ذلك ، لكنّه فاق إبراهيم في أنّه قدّم ولدين لا واحداً ، وهما أعزّ ما لديه ؛ لأنّ الولد الأكبر والأصغر هما أعزّ الأولاد على قلب الأب ، بل كان الأكبر أشبه الناس خلقاً وخُلقاً برسول الله صلى الله عليه وآله ، والأصغر طفلاً رضيعاً لا يقوى على شيء بحسب المعهود عند عموم الناس ، ورآهما يتقطّعان بالسهام والسيوف والعطش ، ولم يزدد في

---

(١) سورة الصافات : الآيات ١٠٢ ـ ١٠٧ .

ذلك إلّا شكراً وتسليماً وتقرّباً ، واكتفى بقوله : « هوّن ما نزل بي أنّه بعين الله »[(١)] ولم يصب إبراهيم بواحدة منها كما يستفاد من بعض الأخبار[(٢)].

بل إنّ إسماعيل ساعد والده في تنفيذ الأمر الإلهي ، وعمل على تخفيف وطأة الموقف على قلب والده ، والتقليل من ألم والدته وحزنها ، فقد ورد أنّ إبراهيم عليه السلام لمّا أخذه للذبح قال له إسماعيل عليه السلام : ياأبت أحكم من شدّ الحبل كي لا تتحرّك يدي ورجلي أثناء تنفيذك الأمر الإلهي ، أخاف أن يقلّل ذلك من مقدار الجزاء الذي سألناه ، والدي العزيز : اشحذ السكّين جيّداً ، وامرره بسرعة على رقبتي كي يكون تحمّل ألم الذبح سهلاً بالنسبة لي ولك ، والدي : قبل ذبحي اخلع ثوبي من على جسدي كي لا يتلوّث بالدم ؛ لأنّي أخاف أن تراه والدتي وتفقد عنان صبرها ، ثمّ أضاف : أوصل سلامي إلى والدتي ، وإن لم يكن هناك مانع أوصل ثوبي إليها كي يسلّي خواطرها ، ويهدّئ من آلامها ؛ لأنّها ستشمّ رائحة ابنها منه ، وكلّما أحسست بضيق القلب تضعه على صدرها ليخفّف الحرقة الموجودة في أعماقها[(٣)].

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام : ج١ ، ص٩ ؛ كلمات الإمام الحسين عليه السلام : ص٤٧٧ ؛ وانظر لواعج الأشجان : ص١٨١ ، وفيه : « هوّن عليّ ما نزل به إنّه بعين الله » .

(٢) أُنظر عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج١ ، الباب ١٧ ، ص١٦٦ ، ح١ .

(٣) تفسير الأمثل : ج١٤ ، ص٣٦٨ .

وفي رواية الفضيل قال : سمعت الرضا عليه السلام يقول : « لمّا أمر الله عزّوجلّ إبراهيم عليه السلام أن يذبح مكان ابنه إسماعيل الكبش الذي أنزله عليه تمنّى إبراهيم عليه السلام أن يكون قد ذبح ابنه إسماعيل بيده ، وأنّه لم يؤمر بذبح الكبش مكانه ؛ ليرجع إلى قلبه ما يرجع إلى قلب الوالد الذي يذبح أعزّ ولده عليه بيده ، فيستحقّ بذلك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب ، فأوحى الله عزّوجلّ إليه : ياإبراهيم من أحبّ خلقي إليك ؟ فقال : ياربّ ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ من حبيبك محمّد صلى الله عليه وآله ، فأوحى الله إليه أفهو أحبّ إليك أم نفسك ؟ قال : بل هو أحبّ إليّ من نفسي . قال : فولده أحبّ إليك أم ولدك ؟ قال : بل ولده . قال : فذبح ولده ظلماً على يدي أعدائه أوجع لقلبك أو ذبح ولدك بيدك في طاعتي ؟ قال : ياربّ ! بل ذبحه على أيدي أعدائه أوجع لقلبي . قال : ياإبراهيم ! فإنّ طائفة تزعم أنّها من أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله ستقتل الحسين ابنه من بعده ظلماً وعدواناً كما يذبح الكبش ، ويستوجبون بذلك سخطي فجزع إبراهيم عليه السلام لذلك ، وتوجّع قلبه ، وأقبل يبكي ، فأوحى الله عزّوجلّ : ياإبراهيم ! قد فديت جزعك على ابنك إسماعيل لو ذبحته بجزعك على الحسين وقتله ، وأوجبت لك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب ، وذلك قول الله عزّوجلّ ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ

عَظِيمٍ﴾ »[1] [2].

ويستفاد من منطوقها عدّة حقائق :

الحقيقة الأُولى : أنّ وقوع الحزن والجزع على مصيبة الحسين عليه السلام عند خليل الله قبل حدوث الواقعة ، وهو في الوقت الذي يدلّ على أنّ الفاجعة من أكبر المقدّرات الإلهية في هذا الوجود التي تولّى الله سبحانه حكايتها لأنبيائه عليهم السلام ، وأعدّهم نفسياً وفكرياً لتقبّلها والتعاطف معها ، كما جعل ذكرها والحزن والبكاء عليها طريق الارتقاء المعنوي والتقرّب إليه ، فارتقاء الأنبياء درجات القرب وبلوغ الرتب العالية في القرب والزلفى عند الله سبحانه يبدأ وينتهي بالحسين عليه السلام وتذكّر مصيبته والبكاء والجزع عليها .

الحقيقة الثانية : أنّ نزول المصيبة توجب الأجر والثواب على أهلها ، وتفتح لهم أبواباً للتقرّب إلى الله سبحانه ، وعلى قدر البلاء والمصيبة يكون التقرّب والرضا ، وهذا السبيل هو الذي خطّه الحسين واتّخذه طريقاً للعبودية والقربى إلى الله سبحانه ، ولذا كان يكرّر قوله : « خيّر لي مصرع أنا لاقيه »[3] وقوله : « نصبر على بلائه ويوفّينا أُجور

---

(١) سورة الصافات : الآية ١٠٧ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج٢ ، ص١٨٧ ، ح١ ؛ الخصال : ص٥٨ ، ح٧٩ .

(٣) معالم المدرستين : ج٣ ، ص٣٠٤ .

الصابرين »[١] وبهذا المفهوم والرؤية ناجت أُخته العقيلة عليها السلام ربّها حينما رفعت أشلاء الحسين عليه السلام المقطّعة في وادي كربلاء وقالت : « إن كان هذا يرضيك فخذ حتّى ترضى ، اللهمّ تقبّل منّا هذا القربان »[٢] وفي ذلك إشارة لطيفة لأهل السرّ إذا أرادوا بلوغ الكمال ومراقيه العالية .

الحقيقة الثالثة : أنّ الذين قتلوا الحسين عليه السلام في شخصه ليسوا من أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله وإن زعموا أنفسهم منها ، وإنّ سخط الله يلاحقهم في الدنيا والآخرة ، وهذا الحكم يشمل من يحاربون الحسين عليه السلام ويحاولون قتله شخصيةً أيضاً لعدم الفرق بين الوجود الجسدي للحسين والوجود المعنوي ، بل قد يقال إنّ انعكاس آيات الجمال والجلال الإلهي في شخصيته عليه السلام أظهر وأبهر إن أمكن التفكيك بين شخصه وشخصيته ، وعلى هذا الأساس لا يقلّ جزاء الذين يحاربون الحسين ويخالفونه في شخصيته المعنوية من أُولئك الذين حاربوه في شخصه .

وفي المقابل فإنّ الذين نصروا الحسين عليه السلام ودافعوا عنه ببذل الأرواح والمهج وصلوا درجات عالية من الكرامة عند الله سبحانه ، والذين

---

(١) شرح الأخبار : ج٣ ، ص١٤٦ ؛ مثير الأحزان : ص٢٩ ؛ العوالم (الإمام الحسين عليه السلام) : ص٢١٧ .

(٢) أُنظر حياة الإمام الحسين عليه السلام : ج٢ ، ص٣٠١ .

ينصرونه في شخصيته ويبقون ذكره ويسخّرون أنفسهم ويوجّهون طاقاتهم ويبذلون أموالهم في سبيل إحياء شعائره وتقويتها لهم مثل أُولئك من الأجر والثواب .

الشاهد الثالث : في سورة مريم إذ تضمّنت مجموع السورة إشارات عديدة تذكّر بالحسين عليه السلام وعاشوراء ؛ إذ تناولت في قسمها الأوّل قصص زكريا ومريم والمسيح ويحيى وإبراهيم وولده إسماعيل عليه السلام ، وجمع آخر من الأنبياء العظام الذين تأسّوا بالحسين عليه السلام في بعض مصائبه ، وفي مفتتح السورة قال تعالى : ﴿كهيعص﴾[1] وهذه الحروف المقطّعة وإن اختلف المفسّرون في بيان معناها أو فهم الغاية منها اختلافاً كبيراً وربّما بلغت الآراء ما يتجاوز العشرة[2] إلّا أنّ الرأي المعتمد والمتّفق على صحّته بينهم هو أنّها تشير إلى معانٍ رمزية لا يعرفها إلّا أولياؤه المقرّبون الذين خوطبوا بالقرآن ، وهم النبي والأئمّة عليهم السلام ، كما ورد في أخبار عديدة[3].

وعليه ينبغي أن يؤخذ المفهوم المراد أو المصداق منهم عليهم السلام ، وقد

---

(١) سورة مريم : الآية ١ .

(٢) أُنظر مجمع البيان : ج١ ، ص٣٢ ـ ٣٣ ؛ تفسير كنز الدقائق : ج١ ، ص١٢٠ وما بعدها ؛ مواهب الرحمان : ج١ ، ص٧٨ .

(٣) أُنظر معاني الأخبار : ص٢٣ ، ح٤ ؛ تأويل الآيات الباهرة : ج١ ، ص٣١ .

وردت الأخبار الشريفة في بيان معانيها ، وأكّدت أنّها تشير إلى وقائع عاشوراء ومصيبة الحسين عليه السلام ، ففي كمال الدين باسناده إلى سعد بن عبدالله القمي عن الحجّة القائم عليه السلام قال : « هذه الحروف من أنباء الغيب أطلع الله عبده زكريا عليها ، ثمّ قصّها على محمّد صلى الله عليه وآله ، وذلك أنّ زكريا عليه السلام سأل ربّه أن يعلّمه الأسماء الخمسة ، فأهبط الله عليه جبرائيل عليه السلام فعلّمه إيّاها ، فكان زكريا إذا ذكر محمّداً وعلياً وفاطمة والحسن عليهم السلام سرى عنه همّه ، وانجلى كربه ، وإذا ذكر الحسين عليه السلام خنقته العبرة ، ووقعت عليه البهرة ، فقال ذات يوم : إلهي ما بالي إذا ذكرت أربعاً منهم عليهم السلام تسلّيت بأسمائهم من همومي ؟ وإذا ذكرت الحسين عليه السلام تدمع عيني وتثور زفرتي ؟ فأنبأه تبارك وتعالى عن قصّته فقال : ﴿كهيعص﴾ فالكاف اسم كربلاء ، والهاء هلاك العترة ، والياء يزيد لعنه الله وهو ظالم الحسين عليه السلام ، والعين عطشه ، والصاد صبره ، فلمّا سمع بذلك زكريا عليه السلام لم يفارق مسجده ثلاثة أيّام ، ومنع فيها الناس من الدخول عليه ، وأقبل على البكاء والنحيب ، وكانت ندبته : إلهي أتفجع خير خلقك بولده ؟ أتنزل بلوى هذه الرزيّة بفنائه ؟ أتلبس علياً وفاطمة ثياب هذه المصيبة ؟ إلهي أتحلّ كربة هذه الفجيعة بساحتهما ؟ ثمّ كان يقول : إلهي ارزقني ولداً تقرّ به عيني عند الكبر ، واجعله وارثاً ووصياً ، واجعل محلّه منّي محلّ الحسين عليه السلام ، فإذا رزقتنيه فافتنّي بحبّه ،

وافجعني به كما تفجع محمّداً حبيبك صلى الله عليه وآله بولده ، فرزقه الله يحيى عليه السلام وفجعه به ، وكان حمل يحيى ستّة أشهر وحمل الحسين عليه السلام كذلك »[١] وقريب منه ورد في المناقب عن إسحاق الأحمري ، عن الحجّة القائم عجّل الله تعالى فرجه الشريف[٢].

ويشير مضمون الحديث إلى عدّة حقائق :

الحقيقة الأُولى : أنّ قضيّة عاشوراء ومصائب الإمام الحسين عليه السلام من الحقائق المقرّرة في عالم الغيب أراد الله سبحانها لها أن تكون مفجعة للقلوب ، محرّكة للعقول ، ومحفّزة للضمائر ، والباب الذي إليه يتوجّه الأولياء والأنبياء فيصلون إلى مقامات عالية من القرب والعبودية لله سبحانه ، وأنّ الله سبحانه قدّر أحداثها ووقائعها وقصّها على أنبيائه ، ولعلّ الاطّلاع في قوله عليه السلام : « أطلع الله عبده زكريا عليها » تمّ عبر المكاشفة أو الإلهام أو الإخبار ونحو ذلك من طرق العلم بالغيب .

ووصف زكريا بالعبد في هذا الحال لا يخلو من إشارة لطيفة إلى أنّ زكريا عليه السلام لمّا ارتقى ووصل مقام العبودية لله سبحانه أطلعه على هذا السرّ

---

(١) كمال الدين : ص٤٦١ ، ح٢١ ؛ تفسير البرهان : ج٥ ، ص١٠٢ ، ح٣ ؛ تفسير نور الثقلين : ج٤ ، ص٣٤٩ ـ ٣٥٠ ، ح٣ .

(٢) المناقب : ج٣ ، ص٢٣٧ .

الإلهي ، وفي ذلك دلالة على أنّ قضايا عاشوراء وفهم أبعادها وغاياتها وسرّ الحكمة الإلهية فيها لا يدركها إلّا العباد الصالحون الذين عرفوا الحسين عليه السلام ، وسلّموا لمقاماته المعنوية العالية .

ولعلّ الحكمة في اطلاع الله سبحانه أنبياءه على هذه الواقعة العظمى قبل وقوعها تعود إلى وجوه :

أحدها : أنّ ذلك يفجعهم بالمصيبة ، فيبكون عليه وينحبون ، فيزيدهم أجراً وقرباً من الله سبحانه .

ثانيها : أنّ ذلك يدعوهم إلى تمنّي نصرة الحسين عليه السلام ومواساته فيما ينزل به من مصائب ، وهذا المقام أي النصرة والمواساة يرتقي بالعبد إلى مقامات معنوية عالية يجعله في رتبة أحبّاء الله وأصفيائه كما تضافر في الأخبار ؛ بداهة أنّ قول المؤمن : « ياليتني كنت معك فأفوز فوزاً عظيماً » يرفع من قدر العبد إلى مصاف أنصاره الذين واسوه بدمائهم .

ثالثها : أنّ ذلك يرتقي بالأنبياء إلى مقامات معنوية عالية كمقام التولّي لأولياء الله والتبرّي من أعدائه ، أو مقام العبودية لله الذي يفتح عليهم أبواب الافاضات الربّانية في العلوم والمعارف والمناجاة وإجابة الدعوات وغيرها من مراتب لا يبلغونها إلّا عبر بوّابة الحسين عليه السلام وتذكّره والبكاء عليه .

الحقيقة الثانية : أنّ ذكر أسماء الأربعة من أهل الكساء يوجب زوال الهمّ وانجلاء الكرب ، بينما ذكر الحسين عليه السلام يوجب الحزن والبكاء ، كما عبّر زكريا عليه السلام بقوله : « خنقتني العبرة » ، أي غصّ بالبكاء حتّى كأنّ الدموع أخذت بمخنقه ووقعت عليه البهرة ، والبُهر ـ بالضمّ ـ تتابع النفس من الإعياء[1]، ومنطوقه صريح في أنّ هاتين الحالتين تحصلان بلا اختيار منه ، وفيه أكثر من دلالة :

الأُولى : وجود ملازمة بين اسم الحسين عليه السلام وبين الحزن والبكاء ، بحيث كلّما يذكر يوجب البكاء ، وهذا ما تؤكّده الأخبار التي تنصّ على أنّه عليه السلام قتيل العبرة لا يذكره مؤمن إلّا بكى[2]، وقد تناقل بين أهل المعرفة ، ولعلّه ممّا يشهد به الوجدان أنّ المؤمن إذا كرّر نداء (ياحسين) على لسانه تنحدر دموعه بلا اختيار منه .

الثانية : أنّ حبّ الحسين عليه السلام والتعاطف معه من المركوزات في الضمائر والقلوب ، فلا يمكن للمؤمن أن يسمع به إلّا ويبكي وينكسر من دون اختيار ، وهذا المعنى مستفاد من بعض الأخبار التي نصّت على أنّ

---

(١) المعجم الوسيط : ج١ ، ص٧٣ ، (بهر) ؛ مجمع البحرين : ج٣ ، ص٢٣١ ، (بهر) .

(٢) مستدرك الوسائل : ج١٠ ، الباب ٤٩ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٣١٨ ح١٢٠٨٤ .

للحسين عليه السلام محبّة مكنونة ، كما له حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً ، كما ورد في الحديث النبوي[١].

ومن الواضح أنّ منطوق هذا الحديث ونظائره إخباري يكشف عن الواقع المقدّر ، فإنّ الحرارة الحسينية تبقى في القلوب والضمائر ولا تبرد أبداً ، وهذه الحرارة هي الوقود الذي يذكي روح الشعائر ويمدّها بالطاقة والقوّة الباعثة على دوامها وتجدّدها مع الأجيال والأزمنة ، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى المؤمنين لتستقرّ قلوبهم بها ، وإلى المخالفين لإشعارهم بأنّ محاولاتهم المبذولة لمحاربتها أو تحجيمها وبحسب هذا الوعد النبوي لا تصل إلى الغاية .

الثالثة : أنّ ذكر الحسين عليه السلام يوجب استذكار مصائبه ، ولا يمتلك كلّ صاحب عقل وشعور سليم عند سماع مصيبة الإمام الحسين عليه السلام إلّا أن يشعر بالانكسار ويتحفّز للبكاء ، ومنطوق الحديث ظاهر في الدلالتين الأُوليين ، فإنّه عليه السلام لمّا قال : « إلهي ما بالي إذا ذكرت أربعاً منهم عليهم السلام تسلّيت بأسمائهم من همومي ، وإذا ذكرت الحسين عليه السلام تدمع عيني وتثور زفرتي » وحينذاك أنبأه تعالى بقضيّة الحسين عليه السلام ووقائع عاشوراء .

الحقيقة الثالثة : أنّه سبحانه لمّا شرح لزكريا عليه السلام تفاصيل الواقعة

---

(١) مستدرك الوسائل : ج١٠ ، الباب ٤٩ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٣١٨ ، ح١٢٠٨٤ .

اعتزل الناس ، ولم يفارق مسجده ثلاثة أيّام ، وأقبل على البكاء والنحيب ، ولعلّ السرّ في ذلك يعود لوجوه :

أحدها : أنّ قلب زكريا عليه السلام لم يطق هول الفاجعة ، ولم يتحمّل بلاءها إلّا إذا هوّن عليه بالعزلة والانفراد ، ويكشف هذا الوجه عن بعض وجوه أفضلية سيّد الشهداء عليه السلام وعلو مقامه ورتبته على زكريا عليه السلام ؛ لأنّ ما لا يتحمّل زكريا سماعه أو الاطّلاع عليه جسّده سيّد الشهداء عليه السلام ، وأوقع نفسه الشريفة فيه قربةً إلى الله تعالى .

ثانيها : أنّه أراد أن يتفرّغ للدعاء والعبادة ليرتقي في مراتب القرب الإلهي إلى حدّ العبودية التي تمنحه مقام معرفة الحسين عليه السلام ، وستأتي الإشارة إلى أنّ إحياء ذكرى الحسين عليه السلام والبكاء عليه وتعظيم شعائره لا يحظى به كلّ أحد ، بل هو مقام معنوي خاصّ يصطفي الله سبحانه إليه بعض عباده .

ثالثها : أن يتفرّغ لأجل البكاء والندبة على الحسين عليه السلام فينال بذلك مقام الناصر والمعزّي والنادب والمواسي للحسين عليه السلام ولرسول الله صلى الله عليه وآله ، وهذا ما يؤكّده قوله في ندبته : « إلهي أتفجع خير خلقك بولده » ثمّ دعا الله سبحانه أن يمنحه ولداً يفجعه به كما يفجع رسول الله صلى الله عليه وآله بولده ؛ ليكون مواسياً مقتدياً بهما ، وفي ذلك دلالة على أنّ مواساة النبي صلى الله عليه وآله والحسين عليه السلام

من الأُمور المطلوبة حتّى لمثل الأنبياء ، وهم بهذه المواساة ينالون بها مقامات معنوية عالية فضلاً عن الأجر والثواب .

ولمّا استجاب الله له رزقه يحيى ، وأعطاه بعض وجوه الشبه بالحسين عليه السلام ليتحقّق لزكريا عنوان المواساة في بعض مراتبها لا جميعها ؛ بداهة أنّ ما جرى على الحسين لم يجر على أي نبي أو ولي ، ولو جمعت كلّ مصائب الأنبياء وابتلاءاتهم لا تضاهي مصيبة الحسين عليه السلام وابتلائه ، والمستفاد من الأخبار أنّ كلّ نبي من أنبياء الله سبحانه واسى الحسين عليه السلام ببعض نوائبه .

وأمّا شباهة يحيى عليه السلام بالحسين عليه السلام فهي أكثر من غيره من الأنبياء كما وردت به الأخبار[١]، ومن موارد الشباهة أنّهما ولدا لستّة أشهر[٢]، وأنّ الله سبحانه سمّاهما بنفسه ، فقال في يحيى عليه السلام : ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾[٣] وقال في الحسين عليه السلام على لسان جبرئيل : إنّي سمّيته الحسين[٤]، وأنّهما لم يرتضعا من الثدي غالباً ، فيحيى أُرضع من السماء ، والحسين عليه السلام أُرضع من

(١) أُنظر بحار الأنوار : ج١٤ ، ص١٦٨ ، ح٧؛ قرب الاسناد : ص٤٨ .

(٢) الاحتجاج : ص٢٣٩ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٢٣ ، ح١ .

(٣) سورة مريم : الآية ٧.

(٤) بحار الأنوار : ج٤٣ ، ص٢٤٩ ، ح٢٤ .

العرش العظيم أي لسان النبي صلى الله عليه وآله[(١)]، وإنّ قاتليهما ولدا زنى[(٢)]، وإنّ السماء والأرض بكتا عليهما دماً[(٣)]، وأنّ رأسيهما تكلّما بعد القتل ، فرأس يحيى قال للملك : اتّق الله[(٤)]، ورأس الحسين عليه السلام كان يقرأ القرآن من فوق الرمح في مواطن عديدة ، وسمع منه قول : « لا حول ولا قوّة إلّا بالله »[(٥)]، وإنّ كليهما قتل صبراً[(٦)].

ولذا كان الحسين عليه السلام في طريقه إلى كربلاء يذكر يحيى عليه السلام في كلّ منزل ، ويشرح بعض مصائبه ، خصوصاً وصف قاتله وإهداء رأسه إلى بغي من بغايا بني اسرائيل ، ولعلّه عليه السلام أراد أن يؤكّد وقوع هذه المصيبة عليه لتكون حجّة على القاصي والداني ، وإنّ الحسين عليه السلام استجاب لما قدّره الله

---

(١) مناقب آل أبي طالب : ج٤ ، ص٥٠ ؛ علل الشرائع : ج١ ، ص٢٠٥ .

(٢) كامل الزيارات : ص٧٨ ؛ تأويل الآيات الباهرة : ج١ ، ص٣٠٢ ، ح٣ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٣٠٣ ، ح١٤ .

(٣) كامل الزيارات : ص١٨٤ ، ١٤ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٢١١ ، ح٢٦ .

(٤) بحار الأنوار : ج١٤ ، ص٣٥٧ ـ ٣٥٨ ، ح١ .

(٥) أُنظر الخصائص الحسينية : ص٤٩٩ .

(٦) الاحتجاج : ج٢ ، ص٣٢ ؛ مناقب آل أبي طالب : ج٣ ، ص٢٦١ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص١١٣ ؛ شجرة طوبى : ج١ ، ص١٢٢ ؛ وانظر بحار الأنوار : ج١٤ ، ص١٨١ ، ح٢٠ ؛ و ص٣٥٧ ـ ٣٥٨ ، ح١ .

سبحانه له ، أو أراد الإشارة إلى أصعب المصائب التي يبتلى بها الأنبياء والأولياء عليهم السلام ، وهي شماتة الأعداء ، ولعلّ من هنا أوصى عليه السلام أُخته بعدم البكاء أو شقّ الجيب عليه وقت قتله ، لكي لا يشمت به الأعداء[1].

وفي الخصائص الحسينية : إنّ الحسين عليه السلام كان يذكر قتل يحيى عليه السلام في كلّ منزل ، ويذكر بالخصوص إهداء رأسه ، ولو تأمّلت بعين البصيرة وجدت ذلك أصعب مصيبة ، فإنّ شماتة العدو من بُعد أعظم المصائب ، ورؤية العدو شامتاً وأنت في حال الضعف يكون أعظم ، فكيف تكون المصيبة برؤية الرأس مقطوعاً موضوعاً بين يدي العدو يقلّبه كيف يشاء كما اتّفق ذلك لإمامنا المظلوم ؟ وقد صعب ذلك على النبي صلى الله عليه وآله بالخصوص ، فدعا على من نظر إلى رأس الحسين عليه السلام وفرح بذلك[2].

وأمّا ما انفرد به الحسين عليه السلام من المصائب وفاق به مصائب يحيى عليه السلام فهو كثير لا يسع المجال لعدّه وشرحه[3].

ويتحصّل من كلّ ما تقدّم : أنّ قضيّة الحسين عليه السلام وعاشوراء لم

---

(١) بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٣ .

(٢) الخصائص الحسينية : ص٤٩٩ « بتصرّف » ؛ وانظر مقتل الحسين (للخوارزمي) : ج١ ، ص١٦٤ ؛ مثير الأحزان : ص١٨ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٤٨ ، ح٤٥ .

(٣) أُنظر الخصائص الحسينية : ص٥٠١ ـ ٥٠٣ .

يكتف الباري عزّوجلّ بشرحها لأنبيائه وإبكائهم عليها واحضارهم إلى كربلاء لتجري دماؤهم مواساةً لدمه ، بل أشاد بها وذكرها في القرآن الكريم لتتلى على مسامع الناس ، وتقرع قلوبهم صباحاً ومساءً إلى يوم القيامة ، وفي ذلك حكمة بالغة تدلّ على أنّ مصيبة الحسين عليه السلام هي حقّ الله وكرامته وثأره ، ولا يريد الباري جلّ وعلا لحقوقه أن تضيع ، ولا لكرامته أن تهتك ، ولا لثأره أن ينسى ، ومعنى ذلك الزام الناس باستذكار عاشوراء واستشعارها وإحيائها وارادتها بالارادتين التشريعية والتكوينية ، ولا يخفى ما في ذلك من إشارة إلى أنّ ذكر الحسين عليه السلام باق إلى يوم القيامة ، وعبثاً يحاول الطغاة والظالمون والفرق الضالّة أن تحاربه ، أو تسعى لإطفاء نوره .

الخصوصيّة الرابعة

أنّه قتيل الله وابن قتيله

وقد ورد هذا الوصف عن أبي عبدالله عليه السلام في رواية يونس بن ظبيان التي رواها المشايخ الثلاثة رحمهم الله في الكافي والفقيه والتهذيب ، ورواها ابن قولويه رحمه الله في الكامل ؛ إذ قال يونس للإمام عليه السلام : إنّ قلبه يخفق عندما يتذكّر الحسين عليه السلام ويهوي إليه ، وعندما رأى الإمام عليه السلام منه هذه القابلية والاستعداد النفسي للمعرفة فتح له باباً من السرّ الإلهي في الحسين عليه السلام فعلّمه أن يقول : « السلام عليك ياأبا عبدالله » يكرّرها ثلاثاً ، ثمّ قال له :

« إذا أردت زيارة حرمه الشريف فاغتسل ، ثمّ البس ثيابك الطاهرة ، ثمّ امش حافياً فإنّك في حرم الله ، وأكثر من التكبير والتهليل والتمجيد والتعظيم لله والصلاة على محمّد وأهل بيته حتّى تصير إلى باب الحائر ، ثمّ امش حتّى تأتيه من قبل وجهه ، واستقبل وجهك بوجهه ، وتجعل القبلة بين كتفيك ، ثمّ تقول :

السلام عليك ياحجّة الله وابن حجّته ... ثمّ قل : السلام عليك ياقتيل الله وابن قتيله ، السلام عليك ياثار الله وابن ثاره ، السلام عليك ياوتر الله الموتور في السماوات والأرض . أشهد أنّ دمك سكن في الخلد ، واقشعرّت له أظلّة العرش ، وبكى له جميع الخلائق ... »(١).

ونلاحظ أنّ الفقرة المباركة من الزيارة تدرّجت في السلام من العام إلى الخاصّ ، فالسلام العام « السلام عليك ياحجّة الله وابن حجّته » فإنّ هذا السلام يشترك فيه الأئمّة والصدّيقة الطاهرة ؛ إذ كلّهم حجج الله ، إلّا أنّ قوله : « قتيل الله وابن قتيله » سلام خاصّ لم يشارك الإمام الحسين عليه السلام فيه أحد من الأنبياء والأولياء حتّى والده .

ونسبة القتيل لله سبحانه تعود لثلاثة معان :

الأوّل : أنّها نسبة تشريفية ، وهذه نسبة عامّة تثبت لكلّ من قتل في سبيل الله .

والثاني : أنّها نسبة مجازية توسّطية ، وتطلق على كلّ من قتل لأجل إعلاء كلمة الله .

والثالث : أنّها نسبة حقيقية واقعية تطلق على من أمره الله سبحانه

---

(١) الكافي : ج ٤ ، ص٥٧٦ ، ح٢ ؛ من لا يحضره الفقيه : ج٢ ، ص٥٩٥ ، ح٣١٩٩ ؛ تهذيب الأحكام : ج٦ ، ص٥٥ ، ح١٣١ ؛ كامل الزيارات : ص٣٦٤ ، ح٢ .

بأن يكون قتيلاً لأجله ، وهذه أعلى رتبة وأرقى منزلة ، وهي خصوصية امتاز بها الإمام الحسين عليه السلام على سائر الخلق ؛ إذ إنّ شهادته جاءت استجابة لأمر الله سبحانه له بأن يقتل ويذبح ويلاقي من المصائب والابتلاءات ما يهدّ الجبال الرواسي .

كما كشف ذلك قوله عليه السلام لما قال له بعض أهله وأرحامه أن لا يخرج إلى كربلاء قال : « شاء الله أن يراني مقتولاً »(١) وقد ورد في الصحيفة السماوية التي أنزلها جبرئيل على النبي صلى الله عليه وآله وتوارثها الأئمّة عليهم السلام أنّها عيّنت لكلّ إمام تكليفه الإلهي ، وكان تكليف الإمام الحسين عليه السلام أن يقتل في سبيله سبحانه ؛ إذ خاطبه الباري عزّوجلّ : « واشتر نفسك لله عزّوجلّ »(٢).

ولمّا أمر الله سبحانه إبراهيم أن يذبح ولده وسلّما وتلّه للجبين خاطبه سبحانه بأن يكفّ عن الذبح ، لأنّه فداه بذبح عظيم(٣)، وقد ورد في بعض

---

(١) بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٣٣١ ؛ العوالم (الإمام الحسين عليه السلام) : ص١٨١ ؛ لواعج الأشجان : ص٣١ .

(٢) أُنظر أمالي الصدوق : ص٣٢٧ ـ ٣٢٨ ؛ بحار الأنوار : ج٣٦ ، ص١٩٢ ، ح١ ؛ الأيّام الحسينية : ص٨٣ ، خامس الأيّام .

(٣) إشارة إلى الآيات ١٠٢ ـ ١٠٧ من سورة الصافات .

الأخبار المعتبرة أنّه الإمام الحسين عليه السلام ، فإنّ مصابه أوجع لقلوب الأنبياء ، وأقرب وسيلة في القرب وعلو الدرجات[١]، فسمّي إسماعيل بذبيح الله لأنّ الله سبحانه أمر بذبحه .

ولا شكّ في أنّ هذا الوصف « قتيل الله وابن قتيله » لم يتّصف به أحد في عالم الخليقة من أقصاه إلى أدناه حقيقة ، ولا أعطته السماء لشخص غير الإمام الحسين عليه السلام ، فكما أنّ الإمام الحسين عليه السلام قتيل الله فهو ابن قتيله أيضاً ، كما أنّه ثار الله وهو ابن ثاره أيضاً ، وفي هذا التعبير إشعار بكمال الخلوص لله سبحانه ، وعلى هذا الأساس اتّصف بوصف خاصّ آخر وهو أنّه « وتر الله الموتور في السماوات والأرض » والوتر بالكسر الفرد الذي لا ثاني له ، وبالفتح الثأر ، والموتور الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه[٢]، والنسبة إلى الباري عزّوجلّ ثلاثية أدناها التشريف ، وأعلاها النسبة الحقيقية كما مرّ في نسبة القتل إليه ، والنصّ يدلّ على أنّ دم الحسين عليه السلام عليه وثأره لم يطلب به بعد لا في الأرض ولا في السماء ، وفي ذلك إشارة إلى حقيقتين :

الحقيقة الأُولى : أنّ الله سبحانه يطلب بثأره ، وقد حدّد له موعداً

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج١ ، ص١٨٧ ، ح١ .

(٢) القاموس المحيط : ص٤٥٦ ، (وتر) ؛ مجمع البحرين : ج٣ ، ص٥٠٨ ـ ٥٠٩ ، (وتر) .

يظهره على يد مولانا المهدي عجّل الله تعالى فرجه ؛ لأنّه الطالب بدم المقتول بكربلاء والمنتصر له .

الحقيقة الثانية : أنّ على المؤمن أن يسعى بما أُوتي من جهد وقوّة وقدرة على المطالبة بهذا الثأر ؛ لأنّه مسؤول عن هذا الدم وهذه الفجيعة ، وللمطالبة به مظاهر وأساليب من أجلاها نصرته بالقول والعمل ، وإحياء ذكره ، والمطالبة بحقّه ، والحزن والبكاء عليه ، ومواساته بالدمع والدم ، وفضح قاتله ومحاربته ، وافشال خططه ومنهجه ، ولعلّ من علائم بقاء هذا الوتر موتوراً لم يطلب بدمه بعد قوله عليه السلام : « أشهد أنّ دمك سكن في الخلد ، واقشعرّت له أظلّة العرش »[1].

وهذا وصف خاصّ لم تخلعه السماء على أحد من الأنبياء والأولياء ، وهو يلفت النظر إلى حقيقة وهي : أنّ القاعدة العامّة تقتضي أن يقول : « إنّ روحك سكنت الخلد » لأنّ الروح هي التي تعود إلى بارئها وتخلد في نعيمه ، إلّا أن يحصل استثناء عن القاعدة ، وتتخصّص بعناية إلهية خاصّة فتنقلب الموازين ، كما استثنيت القاعدة في النار فصارت برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام ، وانقلب الميزان فصارت النار برداً والمتلف المحرق برداً

---

(١) الكافي : ج ٤ ، ص٥٧٦ ، ح٢ ؛ من لا يحضره الفقيه : ج٢ ، ص٥٩٥ ، ح٣١٩٩ ؛ تهذيب الأحكام : ج٦ ، ص٥٥ ، ح١٣١ ؛ كامل الزيارات : ص٣٦٤ ، ح٢ .

وسلاماً ، وهذا ما حدث في الإمام الحسين عليه السلام ؛ إذ إنّ دمه سكن في الخلد ، فلابدّ وأن تكون روحه فوق الخلد .

ولا غرو في ذلك ؛ لأنّه نور الله ووجهه ، وفيه إشارة لطيفة إلى أنّ ما يؤدّيه المؤمن من عزاء وبكاء وإحياء لشعائره هو تخليد للدم ، فلذا لابدّ وأن يكون إحياء الشعائر بنحو يتناسب مع حرارة الدم وقوّة الثأر فيه ، وذلك لا يتحقّق إلّا بالشعائر الفدائية التضحوية ، وأمّا الشعائر الإحيائية بالفكر والثقافة ونحوها فلها شأن ودور آخر ، وذلك لأنّ هذا الدم اقشعرّت له أظلّة العرش ، فكيف لا تقشعرّ له الأبدان والأرواح والقلوب وتهتزّ له الضمائر ؟

وقوله : « أشهد أنّ دمك سكن في الخلد »(١) يتضمّن ضرورة الإقرار والإذعان لهذه الحقيقة ، ولا يكفي فيها مجرّد الالتزام العملي ، أو الإذعان العقلي الناشئ من الدليل والبرهان المنطقي الخاضع لقواعد العلم الحصولي ؛ لأنّ المسألة ترجع إلى الشهادة والشهود ، وهي لا تتحقّق إلّا بالحضور الحسّي والشهود القلبي اليقيني ، ولذا يعدّ الإذعان لهذه الحقيقة من مراتب العارفين بالإمام عليه السلام ، وهي تفوق رتبة المعتقدين بالإمام أو الموالين له ؛ لأنّ

---

(١) الكافي : ج٤ ، ص٥٧٦ ، ح٢ ؛ من لا يحضره الفقيه : ج٢ ، ص٥٩٥ ، ح٣١٩٩ ؛ تهذيب الأحكام : ج٦ ، ص٥٥ ، ح١٣١ ؛ كامل الزيارات : ص٣٦٤ ، ح٢ .

المسألة تتجاوز الدليل والبرهان ، بل تدخل في مراتب الشهود القلبي الذي يصل إلى مرتبة حقّ اليقين وعين اليقين . هذا من جهة ، ومن جهة أُخرى فإنّ معنى سكنى الدم في الخلد لمّا يحيّر الألباب ، وهو يحتمل معنيين :

أحدهما : أن يراد به سكن الدم الحقيقي لسيّد الشهداء ﷺ ، وهو الدم الذي رماه سيّد الشهداء بعد أن انشعب قلبه بالسهم المثلّث ، وخرج دم قلبه الشريف فأخذه ورماه إلى السماء ولم تسقط منه قطرة[١]، أو هو كلّ دمه الذي أُريق ، فقد جمعه رسول الله أو جمعته الملائكة في قوارير ورفعته إلى السماء كما دلّت على ذلك الروايات الكثيرة[٢] أو هما معاً ؛ إذ لا تنافي بين الأمرين .

ثانيهما : أن يراد به المعنى المجازي الناشئ من علاقة السببية بين الدم والثأر ، فإنّ العرب تطلق على الثأر لفظ الدم باعتبار أنّه سبب له ، وعليه يكون المعنى أنّ ثأره محفوظ عند الباري عزّوجلّ حتّى يأخذ به عبر وليّه القائم عجّل الله تعالى فرجه ، أو عبر الانتقام له بألوان الانتقام المادّي

---

(١) مقتل الخوارزمي : ج٢ ، ص٣٤ ؛ تاريخ ابن عساكر : ج٤ ، ص٣٣٨ ؛ مقتل المقرّم : ص٢٧٩ .

(٢) تاريخ ابن عساكر : ج٤ ، ص٣٤٠ ؛ الخصائص الكبرى : ج٢ ، ص١٢٦ ؛ تاريخ الخلفاء : ص١٣٩ ؛ مقتل المقرّم : ص٢٩١ .

والمعنوي ، أو بهما ؛ إذ لا مانع من الجمع ، وهذا ما يقرّبه وصفه عليه السلام : « ثأر الله وابن ثأره »[١]، والمعنى الأوّل أظهر ، بل موافق للقواعد والأُصول ؛ لأنّ الأصل هو حمل الألفاظ على المعاني الحقيقية ، وحملها على المعنى المجازي يفتقر إلى قرينة ، ويمكن الجمع بين المعنيين ؛ لما عرفت من أنّ سكنى الدم ملازمة لسكنى الثأر ؛ لأنّ الدم سبب له .

وأمّا الخلد فيمكن أن يقرأ بضمّ الخاء وسكون اللام وهو تبرّي الشيء عن اعتراض الفساد ، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها ، وكلّ ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود ، ولذا وصفت الجنّة بدار الخلد ، لأنّ نعيمها دائم ، ووصف أهلها بالمخلّدين لأنّهم لا يموتون ، وخدمها بالأولاد المخلّدين لأنّهم لا يستحدثون ولا يهرمون ، ويبقون على سنّ واحدة[٢].

ويمكن أن يقرأ بالتحريك أي (الخَلَد) وهو البال ، أي الخاطر ومحلّه القلب . يقال وقع في خلدي كذا أي في خاطري وقلبي[٣].

---

(١) مصباح المتهجّد : ص ٧٢٠ ؛ كامل الزيارات : ص٣٢٨ ، ح ٩ .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص ٢٩١ ، (خلد) ؛ القاموس المحيط : ص٢٦٨ ، (خلد) .

(٣) مجمع البحرين : ج ٣ ، ص ٤٤ ، (خلد) ؛ وانظر لسان العرب : ج ١١ ، ص ٧٤ ، (بول) .

وسكنى الدم في الخلد على القراءة الأُولى ظاهر في بقائه حياً أبداً في عالم الملكوت حتّى يأخذ الله سبحانه بثأره وترته ، وهذا ما يؤيّده السياق ، ووصفه عليه السلام بثأر الله وأنّه الوتر الموتور ، ويظهر من عبارة بعض الأعاظم أنّه فسّر الخلد بالجنّة ، وهو حمل للفظ المطلق على الفرد الخاصّ بلا مخصّص[١] وأمّا القراءة الثانية فظاهرة في بقائه في خواطر الناس يغلي ، ويشدّ فيهم الحماس لإحيائه والمطالبة بثأره ، فلا ينسيه الزمان ، ولا تغيّره السياسة ولا طوارق الحدثان .

والفقرات السابقة واللاحقة لقوله : « أشهد أنّ دمك سكن في الخلد »[٢] تقوّي المعنى الأوّل ؛ لأنّ أظلّة العرش التي اقشعرّت له من عالم الملكوت لا عالم الملك ، ولذا وصفه بقتيل الله وثأره ووتره الموتور ، ويعزّزه الظهور التبادري ، ولا تنافي بين الأمرين ؛ لأنّ خلوده في السماء ملازم لخلوده في الأرض ، فإنّ الله سبحانه إذا أراد إبقاء هذا الدم الطاهر حياً فائراً يبقيه في العالَمَيْن ؛ لأنّ عالم الملك رتبة من مراتب عالم الملكوت ، أو

---

(١) مقدّمة في أُصول الدين (رسالة للشيخ الوحيد الخراساني دام ظلّه منهاج الصالحين) : ج١ ، ص٣٦٥ .

(٢) الكافي : ج٤ ، ص٥٧٦ ، ح٢ ؛ من لا يحضره الفقيه : ج٢ ، ص٥٩٥ ، ح٣١٩٩ ؛ تهذيب الأحكام : ج٦ ، ص٥٥ ، ح١٣١ ؛ كامل الزيارات : ص٣٦٤ ، ح٢ .

هو مظهر من مظاهره أو معلول له ـ على اختلاف الآراء والاحتمالات ـ فإذا خلد الدم في العالم الأقوى يخلد في العالم الأضعف ؛ للملازمة بين العالَمَيْن .

وعليه فإنّ خلود الدم في خواطر الخلق هو خلود له في العالم الآخر ، وخلوده هناك خلود هنا أيضاً . ويبقى معنى (سكن) إذ يمكن أن تقرأ بصيغة المصدر فتكون النون منوّنة ومفاده أن يكون الدم سبباً للسكينة في خلد العالم الأعلى ، وفي خلد الأرواح والقلوب المؤمنة ، ويمكن أن تقرأ بصيغة الفعل الماضي وهي المشهورة ، ومعناه الاستيطان ، وعلى قراءة المصدر يكون دمه عليه السلام سبباً لاستقرار العالم الأعلى من الانهيار والتحطّم بسبب ما ألمّ بحجج الله سبحانه وأركان الوجود من ظلم وأذى وانتهاك للحرمة ، وهو ما يقرّه العقل ؛ لأنّ حجم التأثّر يعود إلى حجم المعرفة ومستواها ، وأهل السماء أكثر معرفة بحقيقة الإمام الحسين عليه السلام ومقامه من أهل الأرض ، كما يتوافق مع النصوص المتضافرة الدالّة على أنّ ثبات الأرض والسماء وجميع العوالم بهم عليهم السلام ، ولولاهم لساخت الأرض والسماء ، فبقاء الدم في ذاك العالم صار سبباً لاستقراره باعتبار أنّ بقاء دمه هو بقاؤه ، أو باعتبار العناية الإلهية واللطف ؛ لأنّه سبحانه قدّر لهذا الدم أن يؤخذ بثأره في أجل محتوم لولي هذا الدم ، وهو خاتم الحجج وحبيب المهج عجّل الله تعالى فرجه .

وعلى القراءة المشهورة يكون سبباً لاستقرار نفوس المؤمنين

العارفين ؛ إذ لولا ذلك لزهقت ألماً وحسرة عليه ، وهذا ما يشير إليه قول حجّة الله الأعظم : « حتّى أموت بلوعة المصاب وغصّة الاكتئاب »[١] وفي حديث أبي ذرّ : « حتّى تزهق نفوسكم من شدّة الحزن والعزاء للوعد بالفرج وأخذ الثأر »[٢] وهذا يتوافق مع منطوق الحديث الشريف : « إنّ لقتل الإمام الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً »[٣] أو سبباً لاستقرار نفوس سائر الناس كأثر تكويني يوجب بقاءها في أبدانها ؛ لأنّها جزء من عالم الوجود الذي أقرّه الباري ولم يهدم توازنه لدى قتل الحسين عليه السلام ببركة بقاء دمه في السماء وفي الأرض ، وهو سبب لاستقرار نفوس المحبّين الموالين له وعدم انحرافهم عن جادّة الحقّ والصواب ، فإنّ أهل الإيمان مهما انحرفوا فإنّ دم الإمام الحسين عليه السلام يهديهم ويعيدهم إلى الطاعة ، وهذا ما يشير إليه الحديث الشريف : « إنّ الحسين مصباح هدى وسفينة نجاة »[٤] وممّا يزيدها دلالة أنّ هذا النصّ الشريف مكتوب على

---

(١) بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٢٣٩ ، ح٣٨ ؛ وص ٣٢٠ ، ح٨ .

(٢) أُنظر كامل الزيارات : ص١٥٤ ، ح١٥ .

(٣) مستدرك الوسائل : ج١٠ ، الباب ٤٩ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٣١٨ ، ح١٣ .

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج٢ ، ص٦٢ ؛ بحار الأنوار : ج٣٦ ، ص٢٠٥ ، ح٧ ؛ بحار الأنوار : ج٩١ ، ص١٨٤ ، ح١ .

ساق العرش ما يدلّ على أنّ اهتداء الناس ببركة دم الحسين عليه السلام قضية سارية مع الزمن لا تنقضي ولا تنتهي ، وفي ذلك دلالة كبيرة على أهميّة عاشوراء وشعائرها في هداية الناس وإصلاح شؤونهم الدينية والدنيوية .

وكيف كان ، فإنّ لهذا الدم من المقام والرتبة ما لا يعرفه إلّا الله سبحانه ، ولذا اقشعرّت له أظلّة العرش ، والقشعريرة تطلق على معان :

منها : الرعدة التي تصيب الجلد .

ومنها : الانقباض والتحسّر والغم .

ومنها : الخشونة .

ومنها : تغيّر اللون[1].

والجميع يرجع إلى معنى واحد وهو التأثّر الذي يصيب الشيء جرّاء طرو الأمر العظيم رهبة أو خشية أو حزناً .

والقشعريرة من صفات المؤمنين العارفين ؛ لأنّها لا تحصل إلّا عن معرفة وإيمان بالحادث عادة ، وأمّا أهل البدع وأتباع الشيطان فلا تصيبهم قشعريرة عند حدوث آيات الله سبحانه والأُمور العظيمة ، بل يصابون بالغشيان أو ذهاب العقول أو الصدمة والذهول ، ولذا وصف الباري

---

(١) القاموس المحيط : ص ٤٣٠ ، (اقشعرّ) ؛ مجمع البحرين : ج ٣ ، ص ٤٥٨ ، (قشعر) ؛ المنجد : ص ٦٣٠ ، (اقشعرّ) ؛ المعجم الوسيط : ج ٢ ، ص ٧٣٦ ، (اقشعر) .

المؤمنين في القرآن بأنّهم إذا سمعوه تقشعرّ جلودهم ؛ إذ قال سبحانه : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾(١).

والانقباض وتغيّر اللون والخشونة مظاهر لهذا التأثّر ؛ لأنّ التأثّر في الأشياء يظهر عليها بأنحاء مختلفة تتناسب مع طبائعها وحالاتها ومستويات إدراكها ، فمثلاً تأثّر السماء يوجب تغيّر لونها ، وتأثّر الملائكة يوجب انقباضها وتحسّرها ، وتأثّر الحجر ونحوه يوجب خشونته ، وربما تجتمع هذه الصفات في الشيء الواحد كالإنسان ، فإنّ تأثّره يظهر عليه بتغيّر لونه وبانقباض قلبه وروحه وظهور الضعف والأمراض على جسده وواضح أنّ المقصود بالقشعريرة هنا هو التحسّر والغم المعنوي من أثر الفاجعة .

وأمّا « أظلّة العرش » فلها أكثر من معنى :

الأوّل : كلّ ما سوى الله سبحانه من الخلائق ، فإنّ العرش كناية عن قدرته ، وكلّ ما يقع تحت القدرة يعبّر عنها بأظلّة العرش ؛ لأنّها خاضعة له كما يستفاد من بعض الأخبار(٢).

وفي حديث زينب العطّارة : « وهذه السبع والبحر المكفوف وجبال

---

(١) سورة الزمر : الآية ٢٣ .

(٢) أنظر مجمع البحرين : ج٣ ، ص١٥١ ، (عرش) .

البرد والهواء وحجب النور والكرسي عند العرش كحلقة في فلاة »[١]

والظل في اللغة يطلق على معان :

منها : الكِنّ ، فظلّ الشيء كنّه وهو مستقرّه ومأواه .

ومنها : الغشاء الذي يغطي الشيء . يقال أظلّني الشيء أي غشيني ، والظلّة الشيء يستتر به من الحرّ والبرد ، وفي الحديث : « السلطان ظلّ الله في الأرض »[٢] لأنّ سلطته تمتد على الأرض وتغشاها ، وبها يدفع الظلم والأذى عن الناس ، وربما يخصّص بكلّ ما يستر من فوق ، والجمع ظلل وظلال .

ومنها : الدنو والقرب . يقال أظلّك فلان أي كأنّه ألقى عليك ظلّه من قربه ، وأظلّك شهر رمضان أي دنا منك وقرب ، وفي الحديث : « الجنّة تحت ظلال السيوف »[٣] أي دنوّها واقترابها من الجهاد في سبيل الله ، فإنّ الشهيد في الجهاد يطوي جميع مراحل البرزخ ، ويحشر إلى الجنّة حي

---

(١) الكافي : ج٨ ، ص١٥٤ ، ح١٤٣ ؛ التوحيد : ص٢٧٧ ، ح١ .

(٢) الأمالي (للطوسي) : ص٦٣٤ ؛ عوالي اللآلئ : ج١ ، ص٢٩٣ ، ح١٧٦ ؛ بحار الأنوار : ج٧٢ ، ص٣٥٤ ، ح٦٩ .

(٣) مسند زيد : ص٤٩٢ ؛ مستدرك الوسائل : ج١١ ، الباب ١ من أبواب جهاد العدو وما يناسبه ، ص١١ ، ح١٥ ؛ بحار الأنوار : ج٣٣ ، ص١٤ ، ح٣٧٥ ؛ جامع أحاديث الشيعة : ج١٣ ، ص١٤ ، ح٢٩ .

يرزق .

ومنها : الخيال من الجنّ وغيرها حتّى يرى .

ومنها : العزّ والمنعة . يقال فلان في ظلّ فلان أي في داره وكنفه أو تحت قدرته ونفوذه[1].

وقد عرفت أنّ الموارد المذكورة ليست معاني متباينة ، بل ترجع في جوهرها إلى جامع واحد ، وهو كلّ ما يغطّي الشيء ويدفع عنه الأذى ونحوه ، وسائر المعاني مظاهر له أو ملازمة له ، فإنّ الشيء إذا أظلّ غيره كان له مأوى ومستقرّاً ، وهو لا يتحقّق إلّا بالدنو والقرب منه ، وبه يكون في عزّ الظلّ ومنعته ، وبه يكون ظهور شخصه بنحو الخيال لقلّة الضوء في الظل أو احتجابه .

وعليه يكون معنى أظلّة العرش جميع الخلائق ، فإنّها اقشعرّت لدم الإمام الحسين عليه السلام وأصابها من الحزن ما أصابها ، وهذا الحزن تكويني فطري كما عرفت .

الثاني : عالم المجرّدات في مقابل المادّيات كالأرواح قبل الأبدان والملائكة وأرواح الجنّ ونحوها ، وقد سمّيت بالظلّ لأنّها موجودات

(١) أُنظر القاموس المحيط : ص٩٤٦ ، (الظل) ؛ لسان العرب : ج١١ ، ص٤١٧ ـ ٤١٩ ، (ظلل) .

كالظلّ ، وفي الحديث : « أنّ الله خلق الخلق من أحبّ ممّا أحبّ ، وكان ما أحبّ أن خلقه من طينة الجنّة ، وخلق من أبغض ممّا أبغض ، وكان ما أبغض أن خلقه من طينة النار ، ثمّ بعثهم في الظلال »(١).

وقال بعض الشارحين : المراد من الخلق خلق التقدير لا خلق التكوين ، ومعناه أنّ الله سبحانه قدّر أبداناً مخصوصة من الطينتين ، ثمّ كلّف الأرواح فظهر منها ما ظهر ، ثمّ قدّر لكلّ روح ما يليق بها من تلك الأبدان المقدّرة ، ولمّا لم تصل أذهان أكثر الناس إلى إدراك الجواهر المجرّدة عبّروا عليهم السلام عن عالم المجرّدات بالظلال ؛ لفهم قصدهم من ذلك أنّ موجودات ذلك العالم مجرّدة عن الكثافة الجسمانية ، كما أنّ الظلّ مجرّد عنها ، فهو شيء لا كالأشياء المحسوسة الكثيفة ، فيكون وزانه وزان قولهم عليهم السلام في معرفة الله سبحانه : « والله شيء لا كالأشياء »(٢).

وواضح أنّ محلّ هذه الموجودات هو العرش قارّةً في ظلّه ، فيقال لها أظلّة العرش ، وعلى هذا يكون معنى قوله : « اقشعرّت له أظلّة العرش »(٣)

---

(١) الكافي : ج١ ، ص٤٣٦ ، ح٢ ؛ الكافي : ج٢ ، ص١٠ ، ح٣ ؛ علل الشرائع : ج١ ، ص١١٨ ، ح٣.

(٢) مجمع البحرين : ج٥ ، ص٤١٧ ، (ظلل).

(٣) الكافي : ج٤ ، ص٥٧٦ ، ح٢ ؛ كامل الزيارات : ص٣٦٤ ، ح٢ ؛ من لا يحضره الفقيه : ج٢ ، ص٥٩٥ ، ح٣١٩٩.

أنّ كلّ الخلائق المستقرّة في العرش قبل أن ترد إلى الدنيا حزينة مرتعدة لدم الإمام الحسين عليه السلام ، فكيف ينبغي أن تكون حالة من ورد الدنيا وأدرك هذه الحقيقة ؟ وربّما يراد بها الملائكة والأرواح المقدّسة الخاصّة ؛ لأنّها تطوف حول العرش كما في جملة من النصوص[١]، والمعنى ظاهر .

الثالث : ما فوق العرش أو أطباقه وبطونه ، فإنّ الأظلّة جمع ظلال ، وهو ما أظلّك من سقف أو غيره ، والمراد من الأوّل الأظلّة التي تظلّل العرش وتعلوه مكانة وقدرة ، وهي النفوس الطاهرة لمحمّد وآل محمّد ومن نال مقام الخلّة والحبّ ، والمراد من الثاني نسبة الأظلّة إلى ذات العرش كأطباقه ، وإنّ كلّ طبقة وبطن من العرش هي ظلّ لطائفة أو أجزاء العرش ؛ إذ كلّ جزء منه ظلّ لمن يسكن تحته[٢].

وعلى هذا تكون الاضافة بيانية ، وهو أقوى ظهوراً من الأوّل ، ويعضده ما ورد في زيارته الشريفة الواردة عن ابن أبي نصر عن الرضا عليه السلام ، ويزار بها في أوقات فضيلة هي ليلة الأوّل من رجب ويومه والنصف من رجب والنصف من شعبان وليلته . يقول عليه السلام : « ياأبا عبدالله

(١) شرح نهج البلاغة : ج١٣ ، ص١٦٢ ؛ تاريخ مدينة دمشق : ج٧ ، ص٤٢١ .

(٢) أُنظر مرآة العقول : ج١٨ ، ص٢٩٩ ، (بتصرّف) .

أشهد لقد اقشعرّت لدمائكم أظلّة العرش مع أظلّة الخلائق »[١] والعطف يقتضي المغايرة ، وحيث إنّ لفظ الخلائق يشمل كلّ ما سوى الله سبحانه تختصّ أظلّة العرش بما كان في أطباقه وبطونه ، وحصول القشعريرة في العرش كناية عن عظم المصيبة أو شدّة غضب الله سبحانه على المنتهكين لحرمة هذه الدماء الطاهرة ، أو عن شدّة الحبّ والعناية الإلهية بها .

وإلى هذا القول يرجع قول من فسّر الأظلّة بأنوار العرش[٢]، فإنّ أصل خلقتها فتق من نور الله سبحانه ، وقبل أن يتقرّر في عالم الدنيا يمرّ بثلاثة عوالم هي : عالم الأظلّة ثمّ عالم الأشباح ثمّ عالم الذرّ ، وهي مراتب وجودية طولية تمرّ بها قبل أن تخلق لها الأبدان ، فعالم الأظلّة تقدّر فيه الأرواح في علم الخالق عزّوجلّ ، ثمّ تتشخّص وتتميّز حقائقها وهو عالم الأشباح ، ثمّ تقدّر لها الأجساد وهو عالم الذرّ .

وفي حديث الصادق عليه السلام « أنّ الله آخى بين الأرواح في الأظلّة قبل أن يخلق الأجساد بألفي عام ، فلو قد قام قائمنا أهل البيت عليهم السلام ورث الأخ الذي آخى بينهما في الأظلّة ولم يورث الأخ في الولادة »[٣].

---

(١) إقبال الأعمال : ج٣ ، ص٣٤٢ ؛ المزار (للشهيد) : ص١٤٤ ؛ المصباح : ص٤٩٢ .

(٢) أُنظر مجمع البحرين : ج٥ ، ص٤١٧ ، (ظلل) .

(٣) من لا يحضره الفقيه : ج٤ ، ص٣٥٢ ، ح٥٧٦١ ؛ الاعتقادات في دين الإمامية : ص٤٨ ؛ مختصر بصائر الدرجات : ص١٥٩ .

وفي حديث المفضّل سئل الصادق عليه السلام كيف كنتم حيث كنتم في الأظلّة ؟ فقال : « يامفضّل كنّا عند ربّنا ليس عنده أحد غيرنا في ظلّة خضراء نسبّحه »[1].

ويظهر من بعض الأخبار أنّ اختبار الخلق تمّ بحسب امتحان إلهي خاصّ لا نعرفه أو بحسب التقديرات الإلهية الناشئة من العلم بإرادة المخلوقات وميولهم الاختيارية ، ثمّ في ذلك العالم وعلى ضوئها قرّرت الحقائق ، وفي الحديث في تحديد المخالفين للأئمّة عليهم السلام ورد : « لا يرغب عنهم وعن مسألتهم وعن علمهم الذي أكرمهم الله به وجعله عندهم ـ أي الأئمّة عليهم السلام ـ إلّا من سبق عليه في علم الله الشقاء في أصل الخلق تحت الأظلّة »[2].

ومن الواضح أنّ هذا المعنى يعود إلى الثاني كما أنّ الثاني يعود إلى الأوّل ، فإذا لا توجد قرينة توجب حمل المعنى عليه بالتخصيص فيكون المعنى بالأوّل هو المتعيّن لوجود المقتضي وانعدام المانع .

والظاهر أنّ السياق يفيد القرينة على التخصيص ؛ لأنّ الفقرة التالية لقوله عليه السلام : « واقشعرّت له أظلّة العرش » تقول : « وبكى له جميع الخلائق ،

---

(١) الكافي : ج١ ، ص٤٤١ ، ح٧ .

(٢) الكافي : ج٨ ، ص٦ ، ح١ ؛ شرح أُصول الكافي : ج١١ ، ص١٦٩ ، ح١ .

وبكت له السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهنّ وما بينهنّ ، ومن يتقلّب في الجنّة والنار من خلق ربّنا وما يرى وما لا يرى »[١] وهي دالّة على أنّ الاقشعرار لم يصب الخلائق بعد وجودها الدنيوي ، بل قبل وجودها كذلك وبعد انتقالها إلى ذلك العالم ثانية ، وواضح أنّ بكاء أظلّة العرش ملازم لبكاء العرش ذاته واقشعراره ، وهذا ما تؤكّده الأحاديث الدالّة على أنّ دم الإمام الحسين عليه السلام صبغ العرش وكتب على ساقه أنّه مصباح هدى وسفينة نجاة[٢].

وهذا التفصيل الذي ذكره الإمام عليه السلام في التأثّر يدلّ على مدى الانقلاب الحاصل في عالم الخلق والتكوين لأجل دم الإمام الحسين عليه السلام ، وهذا الموضع من الحديث ممّا يحتار به النابه الفطن ، وكذا المتتبّع للنصوص والأخبار ، ولعلّه من الكلام الذي يتضمّن لطائف وإشارات إلى الخواصّ وليس إلى عموم الناس .

ومن هنا قال بعض الأعاظم ـ كما في ترجمة محاضرته ـ إنّ هذا الموضع من حديث الإمام عليه السلام يدخل في الاعجاز ، كإعجاز شقّ القمر في

---

(١) الكافي : ج ٤ ، ص ٥٧٦ ، ح ٢ ؛ كامل الزيارات : ص ٣٦٤ ، ح ٢ ؛ من لا يحضره الفقيه : ج ٢ ، ص ٥٩٥ ، ح ٣١٩٩ .

(٢) أُنظر عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج ٢ ، ص ٦٢ ؛ بحار الأنوار : ج ٣٦ ، ص ٢٠٥ ، ح ٧ .

العلم والمعرفة لمخاطبيه من أهل الفقه الأكبر[١].

فعندما يعرّف الإمام الصادق عليه السلام الحسين بن علي عليهما السلام بدمه لا بنفسه يكون غرضه تفهيم المخاطبين بأنّ من يقصر البيان عن تعريف دمه فكيف يمكن درك روحه والاحاطة بها ؟ وفي أي مرتبة وأي درجة يكون صاحب الدم نفسه من قوس الصعود حتّى قوس النزول ؟ إنّ قول الإمام الصادق عليه السلام ينصّ على أنّ أهل الجنّة يبكون لهذا الدم وأهل جهنّم كذلك يبكون لهذا الدم ، إذاً فكما تغيّر الصعود وانقلبت أحواله فإنّ النزول كذلك . لقد اضطرب الوجود كلّه أمام هذا الدم من أعلى قمّة الصعود إلى أدنى حضيض النزول ، فأيّة ضجّة هذه وأي زلزال ؟

بل ما كان الإمام الصادق عليه السلام ليكتفي بهذا القدر ، وإثر ذلك جاء بعبارة « ما يرى وما لا يرى » حتّى يعلم من قدّر الله له ورزقه فهمها أنّ الإمام عليه السلام ذكر أنّ كلّ شيء يمكن رؤيته بكى لدم الحسين عليه السلام وكلّ ما لا يمكن رؤيته بكى أيضاً لدمه[٢].

ونلاحظ كم من الحقائق المعرفية تحمل الفقرة المذكورة من الزيارة

(١) الفقه الأكبر يعبّر به عن علوم العقائد والمعارف الإلهية في مقابل الفقه الأصغر وهو الفقه والمعرفة بالأحكام الفرعية .

(٢) مقتطفات ولائية : المحاضرة الأولى ، ص١٨ ـ ١٩ ، (بتصرّف) .

الشريفة ، ومهما أمعنّا النظر وبالغنا في البيان فإنّنا لا نصل إلى حقيقة مضمونها وجوهره لقصور الطالب ومحدوديته ، ولكن ممّا يمكن أن ندركه عدّة حقائق ، والذي يهمّنا في هذا المقام حقيقتان :

الحقيقة الأُولى : على المؤمن أن لا ينظر إلى الإمام الحسين عليه السلام وقضايا الحسين عليه السلام وما نزلت به من مصائب نظرة سطحية ساذجة ، ويتعامل معها كما يتعامل مع سائر القضايا ، فإنّ قضايا الإمام الحسين عليه السلام فوق ما يتصوّره الإنسان وتدركها قواه العقلية والفكرية . إنّها قضية أبكت كلّ الوجود قبل الخليقة وبعدها إلى يوم القيامة ، ولم يبكها العارفون به ، بل كلّ المخلوقات بما لها من مراتب ودرجات وجودية وإدراكية ؛ لأنّها قضية قتيل الله وثأره ووتره الموتور ، فعلى المؤمن أن يعرف نفسه وحدودها إذا أراد أن ينظر إلى عاشوراء ، أو يتعلّم منها ، أو يحكم على ما جرى فيها من وقائع وأحداث ؛ لأنّ فيها من القضايا الإلهية الخطيرة التي جعلها الله محكّاً للعباد يختبر بها إيمانهم وشدّة بأسهم وقوّة يقينهم ومستوى ولائهم وتسليمهم وعبوديتهم ، فعلى المؤمن أن يكون تجاهها على موقفين لا أكثر ؛ لأنّ الثالث يخرجه عن الصراط .

الأوّل : أن يدرك من حقائقها ويتوصّل إليها بمقدار سعته العلمية والمعرفية وبتوفيق من ربّه تبارك وتعالى ، فلابدّ وأن يسلّم لها بقلبه ،

ويذعن برأيه ، ويعمل بما يعلم به .

الثاني : أن لا يدرك هذه الحقائق فعليه أن يذعن ويسلّم لها أيضاً ولا يتردّد أو يتحرّج أو يتفلسف في قبالها فيرد ما لا يعرفه ، أو ينكر ما لا يدركه ، أو يخالف ما لا يجد له تفسيراً بحسب ما يملك من قدرات عقلية أو علمية على التفسير والتحليل ، فإنّ الإنسان مهما بلغ من العلم والمعرفة يبقى محدوداً عاجزاً أمام حقائق الوجود ومقامات ساداته ووسائط فيضه ، بل الإنسان الذي يجهل نفسه ودواخلها وأسرارها وجهله غالب على علمه وربما غالب علمه جهل مركّب كيف يمكنه أن يدرك حقائق أرادها الله سبحانه أن تكون سرّاً من أسراره وأن تكون مظهر عزّه وجلاله وجماله ؟ فالحلّ الذي يقضي به العقل وضوابط الشرع والقوانين العلمية هو الرجوع إلى النصوص المروية عن الأئمّة عليهم السلام والاعتقاد بما فهمنا منها والإذعان لما لم نفهمه ليكون المؤمن من المسلّمين لهم بقلبه وفكره لا من التابعين لآرائهم وأهوائهم الضالّين عن الطريق .

فإنّ الإذعان والتسليم في ذلك من أجلى مصاديق التلبية والنصرة للإمام الحسين عليه السلام ، وعكسه خذلان ، ولذا ورد في بعض زياراته المعتبرة عن الصادق عليه السلام قوله : « لبّيك داعي الله إن كان لم يجبك بدني فقد أجابك قلبي وشعري وبشري ورأيي وهواي على التسليم .. فقلبي لكم مسلّم ،

وأمري لكم متّبع ، ونصرتي لك معدّة .. فمعكم معكم لا مع عدوّكم »[1] ولا يخفى ما في إفراد الضمير من قوله : « ونصرتي لك معدّة » من الإشارة إلى أهل المعرفة من وجود الإعداد والاستعداد لنصرة الإمام الحسين عليه السلام بكلّ ما يثبت إليه من عمل وجهد وإحياء ذكر ولو بمثل الشعر والبشرة والرأي ، وأنّ هذا النهج هو نهجهم وغيره نهج عدوّهم .

الحقيقة الثانية : أنّ دم الإمام الحسين عليه السلام ممّا استقرّ في القلوب والخواطر كما استقرّ في عالم الملكوت ، وهو الثأر الذي يتحفّز جميع الخلق إليه ، وهذه قضية خالدة خلود الدهر ، فمن عمل على إحياء ذكرى هذا الدم والمطالبة بحقّه كان مع النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام وجميع الأنبياء والأولياء ، ومتّبعاً لنهج الله سبحانه وقانونه الذي أراده لهذا الدم ، وهو أن يبقى نديّاً يحثّ الناس إلى الهدى ، ويشدّهم إلى الحقّ ، ويبعدهم عن طريق الشيطان .

ومن أساليب إحيائه ـ بل هو الأُسلوب المرضي لله سبحانه ولرسوله صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام ـ كما يستفاد من الأخبار والسيرة المعصومة هو إقامة مجالس الحزن والعزاء وإظهار التولّي والتبرّي على الجوارح والجوانح في الشعائر الحسينية المختلفة في مظاهرها وأشكالها .

ومن هنا كانت ظاهرة إحياء الشعائر ملازمة للتأريخ البشري كما مرّ

---

(١) كامل الزيارات : ص٣٨٨ ، ح١٧ .

عليك تفصيله ، وستبقى حتّى عصر الظهور ، بل وتمضي إلى الآخرة ، فإنّ في المحشر سيقام عزاء للإمام الحسين عليه السلام يحضره الملأ الأعلى يبكون على الإمام الحسين عليه السلام ويشهدون لتضحياته وما جرى عليه في سبيل الله سبحانه ، فلا ينبغي للمؤمن أن يقف حائلاً أو مانعاً أو مخذلاً منها ، بل إذا أراد الفوز والفلاح والقرب من محمّد وآل محمّد أن يحييها بنفسه ، ويحرّض المؤمنين على إحيائها ؛ لأنّها الطريق المستقيم الذي يضمن فيه نجاته واستقامته ، وهو النهج الذي تضمن به الأُمّة عزّتها وكرامتها ، وتحفظ به هويتها .

الخصوصيّة الخامسة

أنّه نور الله الذي لا يطفأ

وقد تواتر هذا الوصف الجليل في زياراته مقترناً بالشهادة ، ففي الزيارة المروية عن الصادق عليه السلام قال : « وأشهد أنّك نور الله الذي لم يطفأ ولا يطفأ أبداً ، وأنّك وجه الله الذي لم يهلك ولا يهلك أبداً »(١).

ولم يعهد في النصوص والروايات أنّ هذا الوصف بهذا النحو من التصريح أُطلق على غير الإمام الحسين عليه السلام ، وقد دلّ بواحدة من الدلالات اللفظية الثلاثة على عدّة حقائق :

الأُولى : الإخبار عن واقع موجود يتحرّك في جميع العوالم ، وهي أنّ الإمام الحسين عليه السلام وجه الله ، ونوره سبحانه لا يضعف ولا يطفأ ، بل هو دائم تستضيء به العوالم الوجودية أجمع .

الثانية : أنّ بقاء هذا النور ودوامه يرجع إلى عالم التكوين ، وقد أراد

---

(١) المصباح : ص٤٩٨ ـ ٤٩٩ .

الله سبحانه لهذا النور أن يبق ويدوم ، ويستحيل أن يتخلّف المراد عن الإرادة ، ولذا ورد التعبير بالجزم الحتمي في قوله : « لا يطفأ أبداً » ومن هنا تؤكّد حقائق التأريخ ووقائعه أنّ قوانين الوجود تتوقّف عند عاشوراء والحسين عليه السلام ، ويمضي نظام الأسباب على عكس نظامه العام ، فلذا تكبر قيمة كربلاء وأحداثها بمرور الزمان ، ولا يضعفها النسيان ، وكلّما دبّر لإضعافها أو تضليل الناس عنها تزداد علواً واشتهاراً ، والدمع الذي يذرف فيها يطفئ غضب الربّ تبارك وتعالى ، والدم الذي يواسى به الإمام الحسين عليه السلام يكون شفاءً من الأمراض ، كما أنّ نظام التشريع فيها يتوقّف ، ولذا تستحبّ زيارته مع الخوف والضرر ، بينما يرفعان الواجبات كالحجّ والصيام والعمرة المنذورة .

الثالثة : أنّ للإمام الحسين عليه السلام ميزة أُخرى غير النور ، وهي أنّه وجه الله سبحانه ، وبحسب ما يفيده معنى الوجه لغة وعرفاً[1] يدلّ على أنّ من أراد الله سبحانه في معرفته أو عبادته أو طاعته أو في دعائه والتوسّل إليه فلابدّ وأن يبدأ في جهته ، وتوجّهه من الإمام الحسين عليه السلام ، فهو طريق معرفة لله سبحانه ، وهو نهج عبادته ، وهو الوسيلة إلى رضوانه ، وهذا ما

---

(١) أُنظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص٨٥٥ ، (وجه) ؛ لسان العرب : ج١٣ ، ص٥٥٥ ، (وجه) ؛ المعجم الوسيط : ج٢ ، ص١٠١٥ ، (وجه) .

يتوافق مضمونه مع متضافر الأدلّة الروائية المعتبرة والبراهين العقلية المقرّرة في علم أُصول الدين .

ومن خصوصية هذا الوجه أنّه لم يهلك ولا يهلك ، بل هو باق في جميع عوالم الدنيا ، والبرزخ حتّى يومي الظهور والرجعة ، وكذا في الآخرة ، وقد ورد في بعض الأخبار أنّ الحساب في البرزخ والجزاء يكون بيد الإمام الحسين عليه السلام ، وكذا في زماني الرجعة والآخرة .

الرابعة : أنّ الشهادة بهاتيك الحقيقتين أي أنّ الإمام الحسين عليه السلام نور الله وأنّه وجه الله سبحانه من شروط الإيمان والمعرفة ، وقد مرّ عليك أنّ المراد من الشهادة هنا ليست شكلها وصورتها كما في الشهادة عند القاضي (البيّنة) بل المراد الغاية والأثر ، وهو اليقين والشهود الحسّي أو القلبي بهذه الحقيقة ، فإنّ المؤمن لا يكون مؤمناً ما لم تترسّخ حقيقة المعرفة بقلبه ، فإنّ مراتب المؤمنين تختلف بحسب مستوى الإيمان وطريقه ، فإنّ من اعتقد بعقله أدنى رتبة ممّن اعتقد بعقله وبقلبه ، ومن اعتقد بقلبه استناداً إلى علومه الحصولية أدنى مرتبة ممّن اعتقد استناداً إلى يقينه الشهودي وبصيرته النافذة ، فلابدّ للمؤمن أن يتحلّى بآثار الشهادة ليكون على درجة عالية من المعرفة ، ويحظى ببركاتها .

الخامسة : أنّ نفي انطفاء نور الإمام الحسين عليه السلام تأكّد بلم وباللام

للاشارة إلى أمرين :

أحدهما : أنّه في نفسه ـ ومن جهة المقتضي ـ لا يقبل الانطفاء ، ولا يكون الشيء كذلك إلّا إذا كانت صفته النورية ذاتية .

ثانيهما : أنّه ـ من جهة المانع ـ لا يقبل الانطفاء ؛ إذ لا يمكن أن يحول دون تلألئه وانتشاره ، فمهما حاول الظلمة والطغاة إطفاءه أو التغطية عليه أو حجبه عن الناس يزداد علواً وظهوراً ، يفضحهم ويسقطهم ويبقى هو الأسمى والأقوى والأقهر ؛ لأنّه نور الله ووجهه .

وقد أكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيتين :

الأُولى : قوله تعالى : **﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾**[1].

والثانية : قوله تعالى : **﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾**[2].

وواضح أنّ نور الله سبحانه ينطبق على مصاديق عديدة[3] من

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣٢.

(٢) سورة الصف : الآية ٨.

(٣) أنظر أُصول الكافي : ج١ ، ص٤٣٣ ، ح٩١ ؛ كمال الدين : ص٢٢١ ؛ تفسير القمي : ج٢ ، ص٣٦٥ .

أجلاها نور الإمام الحسين عليه السلام ، ومفاد الآيتين واحد ، وهو أنّ نور الله باق إلى يوم القيامة يهدي ويعلم ويفضح المؤامرات والمكر والخداع التي يمارسها أهل الباطل لإضلال الخلق ، إلّا أنّ الآية الأُولى ناظرة إلى مقابلة الإرادتين ، فإنّ الكفّار يريدون الإطفاء ويتمنّون ذلك إلّا أنّ إرادة الله سبحانه تأبى تحقيق ما يتمنّون ، وحيث إنّ الله غالب على أمره فلا يقع إلّا ما يريده الله سبحانه .

والآية الثانية ناظرة إلى الإرادة والفعل والانشغال بمقدّمات الاطفاء كما تفيده لام الغاية في قوله : ﴿لِيُطْفِئُوا﴾ إلّا أنّ إرادة الباري عزّوجلّ تبطل النتائج ، وتحول دون تحقيق الغايات ، ومن الواضح أنّ ترتّب النتائج على المقدّمات إمّا من باب العلل التوليدية ويبقى الجزء الأخير للعلّة إذن الله سبحانه وإرادته ، ولم يأذن الله سبحانه في اطفاء نوره مهما حاول الكافرون ، أو هي من باب العلل المعدّة ، فكلّ ما يعدّ الكفّار من مقدّمات وأسباب لإطفاء نور الله سبحانه فإنّه سبحانه يهيئ مقدّمات أقوى تغلب إرادتهم ومقدّماتهم ، وتتمّ نوره ليضيء العالم بالحقّ .

فمنطوق الآيتين وإن كان متقارباً إلّا أنّ مدلول الآية الأُولى يختلف عن مدلول الثانية لمكان أن المصدرية ولام الغاية ، فالأُولى تشير إلى حبّ الكفّار ورغبتهم في اطفاء نور الله سبحانه ولو بلا مقدّمات وأسباب ، وأمّا

الآية الثانية فتشير إلى اتّباع الأسباب والوسائط لتحقيق هذه الغاية .

كما أنّ التعبير عن غلبة الإرادة الإلهية بالإباء في قوله : ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ يفيد تأكيد الغلبة في بعديها الإيجابي والسلبي ، فإنّ الإباء هو الامتناع وعدم المطاوعة ، فيدلّ على أنّ إرادة الله سبحانه تتعلّق بأمرين :

أحدهما : نصرة نوره وتغليبه .

وثانيهما : إبطال مساعي الكفّار وإفشالها .

وهذا ما تؤكّده وقائع التأريخ وشواهد الأحداث منذ أيّام واقعة عاشوراء إلى يوم الناس هذا ؛ إذ تصدّى لمحاربة الإمام الحسين عليه السلام أنظمة سياسية ودول كبيرة وأحزاب وحشود من الكتّاب والمؤرّخين وأصحاب الفتاوى الكاذبة لأجل إطفاء نوره وتشويه قضيته ، إلّا أنّها باءت بالفشل ، وانهزم أصحابها ، وانفضح أمرهم ، وظلّ الإمام الحسين عليه السلام شامخاً يملك القلوب والضمائر يربّي ويعلّم ويهدي ؛ لأنّ الله سبحانه أراد للإمام الحسين عليه السلام أن ينتصر ، وأراد لمخالفيه أن ينهزموا ويخسروا ؛ إذ أبى سبحانه إلّا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون .

وتدلّ الآيتان الشريفتان على حقيقتين أُخريين :

الأُولى : أنّ محاولات الكفّار في اطفاء نور الإمام الحسين عليه السلام تتمّ

بالأفواه ؛ إذ قال سبحانه : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[1] وهذا التعبير يدلّ على أنّ السلاح الذي يستخدمه المخالفون هو سلاح التشويش والتشويه للدين وشعائره بواسطة الدعايات والأفكار الضالّة التي يثيرونها في المجتمع المؤمن على ثلاث جبهات : جبهة الفكر والثقافة فيتّهمون الدين أو شعائره بأنّها تتنافى مع الفكر والثقافة الصحيحة ليخدعوا المثقّفين .

وجبهة الحرب النفسية فيشنّون حملة من الاستهزاء والسخرية بالشعائر وبمن يلتزم بها ، أو التشكيك بها فكرياً أو دينياً ليخذّلوا المؤمنين بها فيكفّوا عنها ويخلوا الميدان السياسي والاجتماعي لنشر أفكارهم وثقافتهم الضالّة .

والثالثة جبهة دعاة التحضّر والرقي الحضاري فيوهمون الناس بأنّ ممارسة الشعائر وتعظيمها من الأساليب التي تمنع من التحضّر ، وتشغل المجتمع عن المسائل المصيرية الهامّة ليخدعوا القادة وأصحاب القرار الديني والسياسي فيجرّوهم إلى مخالفتها والوقوف ضدّها .

وهذه الوسائل الثلاث كشف القرآن الكريم طرقها ونواياها بقوله : ﴿لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وكشف بطلانها بقوله : ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ

---

(١) سورة الصف : الآية ٨.

نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[١].

وواضح أنّ إتمام النـور الإلهـي يـتحقّق بـالإرادة التكـوينية التي لا يتخلّف عنها المراد ؛ لذا تصاب كلّ مساعي المخالفين بالفشل والبطلان مهما تلوّنت تحت شعارات مغرية ومارست أساليب ذكية .

ومن اللطائف البلاغية في التعبير أنّ الآية حصرت محاولات هؤلاء بالأفواه ؛ للاشارة إلى أنّ محاولاتهم لا تعدو الكلمات ، ومثلها مثل النـفخ بواسطة الفم ، ومن الواضح أنّ النفخ مهما بلغ وتعاظم فإنّه في جـوهره لا يحتوي على شيء ذي قيمة ، كما لا يقوى على اطفاء النار العظيمة فكيف يطفئ نور الله القوي القاهر ؟

والنتيجة دائماً هي انتصار الحقّ وبلوغ نوره غاياته ، وهو ما عبّر عنه تعالى : « يتم نوره » و : « متم نوره » كما يفيده معناه اللغوي[٢]، والتمام في النور هنا يحتمل معنيين :

أحدهما : الكمال ، أي يأبى الله سبحانه إلّا أن يـكمل نـور الإمـام الحسين عليه السلام في مقابل محاولات المخالفين الانتقاص منه والتأثير عليه ، فإنّ

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣٢.

(٢) أُنظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص١٦٨ ، (تم) ؛ لسان العرب : ج١٢ ، ص٦٧ ، (تمم) ؛ مجمع البحرين : ج٦ ، ص٢٢ ، (تمم) .

الله سبحانه بأمره وإرادته القاهرة يكمله ، ويمحي جميع الآثار السلبية التي يسبّبها المخالفون بأفواههم ، أو يسبّبها بعض المؤمنين بسبب جهلهم أو سوء تطبيقهم ؛ لأنّ نور الإمام الحسين عليه السلام هو نور الله سبحانه ووجهه ، ويتنزّه نوره من أن يصاب بسوء .

ثانيهما : بلوغ النهاية ، أي يأبى الله سبحانه إلّا أن يبلغ نوره إلى نهاية العالم ، وهو زمان ظهور الحجّة عجّل الله تعالى فرجه الشريف سالماً عزيزاً يهدي ويعلّم .

وهذا ما تؤكّده صيغة المضارع واسم الفاعل من (يتمّ) و (متم) الدالّان على الاستمرار والمواصلة فضلاً عن الروايات الشريفة التي نصّت على أنّ أوّل ما يطلبه الإمام عليه السلام في الظهور هو دم الإمام الحسين عليه السلام والانتصار لمظلوميته ، ولا تنافي بين المعنيين ، بل كلاهما مستفادان من نصّ الزيارة الشريفة ؛ إذ وصفت نور الإمام الحسين عليه السلام بأنّه لم يطفأ ولا يطفأ أبداً[1]؛ إذ قدّمت النفي بلم على النفي باللام ، فإنّ الأوّل يشير إلى وجود محاولات لإطفائه والانتقاص منه إلّا أنّه لم يطفأ ، والثاني يشير إلى بقائه أبداً لاستحالة إطفائه . وهذه هبة إلهية أعطاها الله سبحانه للإمام الحسين عليه السلام ، وشعائره تبشّر المؤمنين الملتزمين بها بالنصر والظفر على مرّ

---

(١) المصباح : ص٤٩٨ ـ ٤٩٩ .

الأجيال والعصور ، وتحثّهم على الصبر والتحدّي والثبات ، وتحذّر المخالفين من المخالفة أو السعي لإطفائه أو التضييق عليه .

الثانية : أنّ من خصوصية هذا النور أنّه يشرق ويتلألأ في أشدّ الحالات وأقساها ، وكلّما زادت محنته ومصيبته خطف نوره الأبصار ، ولذا رأى الأنبياء نور الإمام الحسين عليه السلام شعشاعاً في عوالمهم[1].

ولمّا حملت الصدّيقة الكبرى بالإمام الحسين عليه السلام قال لها النبي صلى الله عليه وآله : « إنّي أرى في مقدّم وجهك ضوءاً ونوراً وذلك أن ستلدين حجّة لهذا الخلق » وقالت عليها السلام : « فلمّا أن دخلت الستّة كنت لا أحتاج في الليلة الظلماء إلى مصباح »[2].

وقال من رآه صريعاً وهو مطروح في الشمس نصف النهار : (والله لقد شغلني نور وجهه عن النظر في قتله)[3].

وقال : (إنّي ما رأيت قتيلاً مضمّخاً بالدم والتراب أنور وجهاً منه)[4].

---

(١) أُنظر بحار الأنوار : ج١١ ، ص١٥٠ ـ ١٥١ ، ح٢٦ .

(٢) الخرائج والجرائح : ج٢ ، ص٨٤٣ ـ ٨٤٤ .

(٣) مثير الأحزان : ص٥٧ ؛ مدينة المعاجز : ج٤ ، ص٧٧ .

(٤) بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٥٧ .

وقال آخر حينما رآه صريعاً : (فرأيت في تلك المعركة نوراً لا ظلمة ونهاراً لا ليلاً ... فوجدته مكبوباً على وجهه وهو جثّة بلا رأس ، ونوره مشرق مرمّل بدمائه والرياح سافية)[١].

وقال زيد بن أرقم : كنت في داري إذ رأيت نوراً قد دخل في الكوّة حينما كانوا في الطريق يحملون رأس المولى الشهيد[٢].

وأخبر السجّاد عليه السلام بأنّ الدنيا بعده مظلمة والآخرة بنوره مشرقة[٣].

وقبل ذلك وصفه جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله بأنّه زين السماوات والأرض[٤] إلى غير ذلك من خصوصيات نوره .

ولعلّ هذا يكشف بعض السرّ في بقاء ذكره وانتشاره في جميع الأرض ، وأنّه محك الوجود الذي يكشف معادن الناس ومواقفهم ؛ لأنّ هذه الخصوصيات الثلاث هي مزايا النور ولوازمه الذاتية ، ومهما حاول الطغاة والحكّام الظلمة والأحزاب المعادية طمسه ومحو ذكره يزداد إشراقاً

---

(١) نور العين : ص٧٩ .

(٢) أُنظر مقتل الحسين (للمقرّم) : ص٣٣٢ ؛ زيد بن أرقم : صفحة مقتل الحسين للسيّد المقرّم .

(٣) بلاغة الإمام علي بن الحسين عليهما السلام : ص٣٤ .

(٤) بعض وصايا النبي صلى الله عليه وآله : ص٣٣ ؛ نصوص النبي صلى الله عليه وآله على الأئمّة الاثني عشر : ص٥٧ .

وتلألؤاً ، وقد لمس هذه الحقيقة كلّ من عرفه وأحيا شعائره ، وشارك في مراسم حزنه ، وأقام له العزاء ؛ إذ كان ولا زال الكثير من الناس يهتدون بنور الإمام الحسين عليه‌السلام إلى الإسلام والإيمان ، ويخرجون من الظلمات إلى النور ، ولا زالت مصيبة الإمام الحسين عليه‌السلام المحك الذي يميّز المؤمنين من غيرهم ، والفائزين من الخاسرين ، وكلّ من حاول التلاعب بشيء ممّا يتعلّق بالإمام الحسين عليه‌السلام سرعان ما فشل وانفضح أمره وهوى ، وهذه حقيقة ثابتة في وجدان المؤمنين دلّ عليها العقل والنقل كما سترى .

الخصوصيّة السادسة
أنّه حياة القلوب والشرائع

وقد ورد هذا الوصف في زيارته عليه السلام عن الصادق عليه السلام يقول فيها :

« أشهد أنّك قتلت ولم تمت ، بل برجاء حياتك حيت قلوب شيعتك ، وبضياء نورك اهتدى الطالبون إليك »[1] وقد تواتر مضمون هذا النصّ في الكثير من الزيارات والروايات ، وتضمّن الدلالة على عدّة حقائق مفادها أنّ الإمام الحسين عليه السلام بما له من مزايا وخصوصيات إلهية حيٌّ في الوجـود وفي القلوب والخواطر ، ولا يمكن أن ينسى ، أو يفتر الحبّ عنه ، ويستدلّ على ذلك من فقرات الزيارة ذاتها :

الفقرة الأُولى : قوله عليه السلام : « أشهد أنّك قتلت ولم تمت »[2].

فإنّ هذه النتيجة ممّا تقتضيها حكمة الكلام وقواعد البلاغة والبيان ،

---

(١) البلد الأمين : ص ٢٨٤ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٣٤٢ ، ح٢ .

(٢) المصباح : ص٤٩٨ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٣٤٢ ، ح٢ .

فإنّ الشهادة له ﷺ بالقتل ونفي الموت لابدّ وأن يكون لغرض وحكمة ، وتلك الحكمة هي الاشارة إلى أنّ له ثأراً ، ولا يمكن للثأر أن يفنى أو يموت ، بل يبقى حياً حتّى يطلب به .

وفي هذا التعبير تمييز كبير بين ما يطلبه المؤمنون وما يطلبه الطغاة ، فإنّ الطغاة وأصحاب الدنيا يريدون للإمام الحسين ﷺ أن يموت ، وهذا ما تكشفه من سياستهم العامّة في محاربته ومحاربة شعائره ، أو هدم قبره وقتل زائريه ومعظّمي شعائره ، كما أنّ العلماء والباحثين من أتباعهم يريدون لهذه القضية أن تنسى أو تشوّه في روايات التأريخ ، ولا يمرّ عليها إلّا مروراً عابراً ، فلذا يأبون الخوض في تفاصيلها أو الوقوف عند حقائقها للتعرّف عليها ، بل هم بين من يبسّط الأُمور أو يمرّ عليها مرور العابر ، وبين من يحاول تشويهها وتلبيس الحقائق على الناس دفاعاً عن يزيد ونهجه ، إلّا أنّ الفقرة الشريفة تبطل هذا النهج ، وتحثّ المؤمنين على إظهار الشهادة والإقرار بها وبالقتل ليكون الشاهد مسؤولاً عن إحيائه والمطالبة بثأره .

الفقرة الثانية : قوله ﷺ : « بل برجاء حياتك حيت قلوب شيعتك »[١] والرجاء هنا الأمل الصادق ، وهو المطلوب الذي يقطع

---

(١) المصباح : ص٤٩٨ ؛ البلد الأمين : ص٢٨٤ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ح٣٤٢ ، ح٢ .

الإنسان بحصوله في مقابل التوقّع الذي قد ييأس من حصوله[١]، ولا يتحقّق إلّا بالمرجو الذي فيه مسرّة ، فلذا يتقوّم الرجاء بركنين هما وجود النفع والمسرّة في المرجو والسعي لتحصيله ، فلو اختلّ أحدهما صار تمنّياً . ومن هنا قالوا : إنّ وقوع المرجو لا يتحقّق في الخارج إلّا بعمل وإعداد المقدّمات والأخذ بالأسباب ، ولذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في ذمّ بعض الكذّابين في مدّعياتهم : « يدّعي بزعمه أنّه يرجو الله كذب والعظيم ما باله لا يتبيّن رجاؤه في عمله »[٢].

والباء في قوله (برجاء) سببية ، والمعنى أنّ بسبب الجزم واليقين بحياة الإمام الحسين عليه السلام حيت قلوب الشيعة ، وإطلاق الحياة يشمل الحياة المادّية والمعنوية ، فإنّ حياة الإمام الحسين عليه السلام بين الناس في الدنيا أحيت قلوبهم وأرواحهم ، وحياته في الآخرة حفّزتهم على الاتّصال به والتقرّب إليه ، ولذا ورد في الفقرة السابقة عليها أنّ الزائر يبتدئ السلام عليه بقوله : « السلام عليك أيّها العبد الصالح الزكي ، أُودعك شهادة منّي لك تقرّبني إليك في يوم

(١) لسان العرب : ج١٤ ، ص٣٠٩ ، (رجا) ؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص٣٤٦ ، (رجا) ؛ المعجم الوسيط : ج١ ، ص٣٣٣ ، (رجو) .

(٢) نهج البلاغة : ج٢ ، ص٧١ ؛ مجمع البحرين : ج١ ، ص١٧٨ ، (رجا) .

شفاعتك »[١].

وقد تضافرت النصوص والأدلّة على أنّ للإمام الحسين عليه السلام في حياة البرزخ وحياة الآخرة مناصب ومقامات إلهية عظمى تعدّ من خصوصياته، منها الحساب والثواب والعقاب، ومنها الشفاعة.

فالمؤمن الذي يؤمن بأنّ الإمام الحسين عليه السلام هو نور الله وأنّه حي وأنّ ثأره باق لا يزول ولا يضعف ويشهد لهذه الحقيقة ويذعن لها سيكون قلبه حياً عامراً بحبّه ومعرفته، ومتفانياً في تحقيق هذا الرجاء والأمل، ووسيلته في ذلك هو إحياء ذكره وتعظيم شعائره والقيام بخدمته بشتّى صنوف العمل والخدمة.

ونلاحظ أنّ الحياة نسبت إلى قلوب الشيعة وليست إلى أنفسهم وفي ذلك إشارتان هامتان:

الأُولى: أنّ حياة القلوب أهمّ ما ينبغي أن يتطلّع إليه المؤمن في مسيرته الكمالية في الوجود، وكلّ قيمة تحيي القلب تكون أعظم وأرقى رتبة من غيرها، والمستفاد من الفقرة الشريفة أنّ ذكر الإمام الحسين عليه السلام وتعظيم شعائره هي حياة القلوب، فالاهتمام بها والمشاركة فيها اهتمام بالأهم والأفضل، ولعلّ هذا ما يؤكّده قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ**

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٨، ح٣٤٢، ح٢.

﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾(١) ولا شكّ في أنّ إحياء شعائر الإمام الحسين عليه السلام من أعظم شعائر الله ، وإحياؤها إحياء للقلوب ، وبهذا يتّضح أيضاً أنّ مراتب الناس ومستوياتهم يختلفون بحسب قلوبهم وما أُودع فيها من معرفة وحبّ وبغض ، فالعارفون يتميّزون عن غيرهم في جملة مظاهر من أبرزها نصرة الإمام الحسين عليه السلام ، وتعظيم الشعائر الحسينية .

الثانية : أنّ للإمام الحسين عليه السلام شيعة خاصّين ـ دلّت عليها الاضافة « شيعتك » ـ يمتازون عن سائر الشيعة في أنّ قلوبهم حيّة برجاء حياة الإمام الحسين عليه السلام ، وهم الذين لا ينفكّون يذكرون الإمام الحسين عليه السلام ويشاركون في عزائه ، ويذكّرون الناس به ، وهذه مسألة شهودية قلبية لا عقلية فكرية ، فليس كلّ من اعتقد بالتشيّع وبأُصوله وفروعه هو حسيني الصفة ، بل الحسينيون هم الذين يحبّون الإمام الحسين عليه السلام ويعظّمون شأنه ، ويخلّدون ذكره ، ويوظّفون جهودهم وطاقاتهم وإمكاناتهم في نصرته وإحياء أمره . وهذا ما يدلّ عليه معنى (الشيعة) في اللغة والعرف ، فإنّ الشيعة هم الأتباع والأنصار الذين يوالون الرجل ويطاوعونه(٢). وفي

---

(١) سورة الحجّ : الآية ٣٢ .

(٢) أُنظر لسان العرب : ج٨ ، ص١٨٩ ، (شيع) ؛ مجمع البحرين : ج٤ ، ص٣٥٦ ، (شيع) ؛ المعجم الوسيط : ج١ ، ص٥٠٣ ، (شيع) .

المفردات : الشيعة من يتقوّى بهم الإنسان وينشرون عنه[١].

فشيعة الإمام الحسين عليه السلام الذين يتّبعونه وينصرونه في معتقداتهم وأفكارهم ، وينصرونه في مواقفه ومصائبه ، ويتأسّون به حينما تنزل بهم المصائب والآلام ، فالباكي على الإمام الحسين عليه السلام اتّباعاً له في بكائه على أولاده وأصحابه هو متشيّع للإمام الحسين عليه السلام ، والمعفّر خدّه وجسده في التراب ، والمتغرّب عن أهله لأجل زيارته أو إقامة مأتمه ، والمخضّب محاسنه من دمه ، والمتحفّي الحاسر والجائع العطشان كلّهم شيعة للإمام الحسين عليه السلام ؛ لأنّهم يتّبعونه وينصرونه فيما هو عليه من المصائب ، وعلى هذا يتّضح أنّ بين الشيعة بنحو مطلق وشيعة الإمام الحسين عليه السلام عموم من وجه ، فمن اتّخذ الإمام الحسين عليه السلام إماماً وقدوة وتشيّع له يكون من شيعته ، وحينئذ لابدّ وأن يأتمّ به في كلّ شيء ، ويتأسّى به في جميع شؤونه وأحواله .

وأعلى درجات التأسّي والاقتداء ما يكون في المصائب والآلام والدموع والدماء ، فبكاء المأموم على الإمام وحزنه وتخضيب شيبه ومحاسنه بدمائه وهجرته من أوطانه والتضحية بما يملك من مال وأهل وولد اقتداءً بإمامه من أظهر مصاديق الائتمام والعبادة والتقرّب إلى الله سبحانه ، وهو من الملاكات العظيمة التي لا يمكن أن يزاحمها أو يمنعها مانع ، ولذا قلنا

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص ٤٧٠ ، (شيع) .

إنّ ملاك تعظيم الشعائر غالب على سائر الملاكات التي تدور مدارها الأحكام الأوّلية والثانوية .

وهذه ميزة عظمى امتاز بها أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ، فلقّبوا بسادة الشهداء في الدنيا والآخرة[١]، وأنصار الله وأنصار رسوله صلى الله عليه وآله وأنصار العترة الطاهرة عليهم السلام[٢].

وذلك لأنّهم ائتمّوا بإمامهم سيّد الشهداء في كلّ شيء .. ائتمّوا به في ظلامتهم وصلاتهم ومحاصرتهم وعطشهم وغربتهم وفصل رؤوسهم عن أبدانهم ورفعها على الرماح وبقائهم بلا غسل ولا كفن ، فلم يبق شيء يمكنهم أن يقتدوا بسيّدهم فيه ويواسوه فيه إلّا واقتدوا وتأسّوا[٣].

فعلى المؤمنين أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة فيعرفوا مكانة الإمام الحسين عليه السلام عندهم ، ومستوى تأسّيهم واقتدائهم به عليه السلام ؛ لأنّ الانتساب إلى الإمام الحسين عليه السلام والتشيّع له لا يتحقّق بالعنوان والمصطلح الذي يتحقّق به أدنى نسبة وإضافة ، بل بالنصرة والاقتداء والتأسّي بمثل ما فعل أنصاره في الله .

---

(١) الكافي : ج ٤ ، ص ٥٧٤ ، ح ١ ؛ كامل الزيارات : ص ٣٦٠ ، ح ١ ؛ وص ٣٧٣ ، ح ٣ .

(٢) الكافي : ج ٤ ، ص ٥٧٤ ، ح ١ ؛ كامل الزيارات : ص ٣٧٢ ، ح ٣ .

(٣) أُنظر الأيام الحسينية : ص ٩٣ ، سادس الأيام .

الفقرة الثالثة : قوله عليه السلام : « وبضياء نورك اهتدى الطالبون إليك »[١].

الضياء والنور يجتمعان في المدلول إذا اجتمعا ، ولذا يعبّر عن كلّ واحد منهما بالآخر ، وإذا افترقا فإنّ الضياء أخصّ من النور ؛ لأنّه يطلق على النور الذي يكشف عن غيره بينما النور أعمّ ، وبهذا يظهر أنّ ما قيل من أنّ الضياء والنور مترادفان لغة غير سديد[٢]؛ لما حقّق في محلّه من نفي الترادف في لغة العرب .

وقد ذكر جماعة فروقاً عديدة بينهما ، إلّا أنّ الذي يهمّنا هنا والمستفاد من الفقرة المباركة هو أنّ الضياء يطلق على النور المنتشر الذي به تبين الأشياء وتنكشف ، ولذا يقولون ضياء النهار وضوء الشمس ولا يقولون نور النهار أو الشمس ، وعليه فالنور هو الضوء المنتسب إلى ذات الشيء باعتبار ظهوره وجماله ، ولذا يطلق على كلّ منير مادّي ومعنوي . يقال نور العقل ونور القرآن ونور العلم[٣]، وأمّا الضياء فهو النور الكاشف ؛ لأنّه

---

(١) المصباح : ص٤٩٨ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٣٤٢ ، ح٢ ؛ وص٢٥٥ ، ح٣٩ .

(٢) معجم الفروق اللغوية : ص٣٣٢ ، (١٣٢٥) .

(٣) كما قال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ﴾ سورة المائدة : الآية ١٥ وهو القرآن الحكيم . وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ سورة يونس : الآية ٥ لأنّ الرؤية تتحقّق بالشمس في النهار .

يظهر الغير ويكشف عنه .

وقوله عليه السلام : « بضياء نورك » يدلّ على أنّ للإمام الحسين عليه السلام نورين ، نور لذاته وهو نوره الإلهي الربّاني ، ونور يظهر به الغير ويكشف عنه وهو الضياء ، وحيث إنّ الناس لا يقدرون على معرفة الإمام الحسين عليه السلام حقّ معرفته ؛ لأنّه نور الله ووجهه ووليه والمحدود لا يحيط باللّا محدود انحصرت المعرفة به بضيائه .

ومن الواضح أنّ الاهتداء بهذا الضوء لا يتحقّق إلّا بشرطين :

أحدهما : أن يكون الضوء منتشراً بين الناس ملأ الأرجاء والنواحي .

ثانيهما : أن يتوجّه الناس إليه ويتعلّقوا به ، فإنّه من دون التفات وتوجّه تتعذّر الهداية .

وتحقيق الهداية بالضوء دون النور يدلّ على أنّ الناس بتمسّكهم بالإمام الحسين عليه السلام هم المنتفعون الفائزون ، وأمّا الإمام الحسين عليه السلام فلا ينفعه تمسّك الناس به كما لا يضرّه تخلّفهم عنه ، فإنّ نور الإمام الحسين عليه السلام ذاتي له ، ومقامه ومكانته محفوظة في جميع عوالم الوجود إلّا أنّ الناس ينقسمون إلى مهتدين به ومتخلّفين عنه ، فعلى المؤمن أن يعرف أين يضع نفسه ، ويلتفت إلى مواقفه واعتقاده بهذه الحقيقة الإلهية العظمى ، ويتّضح

ممّا ذكرنا بعض الخصائص الربّانية في الإمام الحسين عليه السلام وهي ثلاث :

الأُولى : أنّ نور الإمام الحسين عليه السلام هو نور الله سبحانه ، فما يتّصف به نور الله سبحانه من المزايا والخصوصيات يتّصف به نور الإمام الحسين عليه السلام، فكما أنّ نوره سبحانه عام ومنتشر في السماوات والأرض كذلك نور الإمام الحسين عليه السلام ، ولذا لا تجد أرضاً ولا بلداً ولا مكاناً ولا جمعاً من الناس إلّا وعرف الإمام الحسين عليه السلام وخشع له .

الثانية : أنّ الناس يعجزون عن إدراك حقيقة النور الإلهي كذلك يعجزون عن إدراك حقيقة النور الحسيني عليه السلام ، إذ لا يعرف ذلك إلّا الله سبحانه وأولياؤه ، ولذا سكن دمه في الخلد ، واقشعرّت له أظلّة العرش وكلّ الملأ الأعلى ، بينما يجحد بالإمام الحسين عليه السلام بعض البشر ، وبعض يناصبه العداء ، وبعض يخالفونه كما كفروا بالله سبحانه وحاربوه وخالفوه .

الثالثة : أنّ معرفة الإمام الحسين عليه السلام تتحقّق بالآثار والوسائط ، كما أنّ معرفة الله سبحانه عند الغالب من الناس تتحقّق بالبرهان الإنّي ، فمن الخلق يعرف الخالق ، ومن ضياء الإمام الحسين عليه السلام يعرف الإمام الحسين عليه السلام ولا شكّ أنّ ضياءه في الأرض هي مجالسه ومراسم ذكره وشعائره التي يقيمها المؤمنون في كلّ مكان ، وقد كانت ولا زالت السبب لترسيخ معتقدات المؤمنين وتثبيت أقدامهم ، وجذب غير المؤمنين إلى

الإيمان كما دلّت عليه الكثير من الشواهد والوثائق ، وعلى هذا يتّضح أنّ المصداق الأجلى لضياء الإمام الحسين عليه السلام هي الشعائر الحسينية ، فإنّها السبب الذي يقود الطالبين للهداية .

وقوله : « اهتدى الطالبون إليك »[١] يشير إلى الغاية ، وهي تحتمل معنيين :

الأوّل : أن تكون غاية عامّة لكلّ الطالبين للمعرفة والإيمان بالدين والتوحيد ، فتدلّ على أنّ كلّ هداية ومعرفة تتحقّق بواسطة الإمام الحسين عليه السلام ، فمتعلّق الطلب محذوف وهو المعرفة والإيمان ، والغاية هو الإمام الحسين عليه السلام باعتبار أنّه طريق وواسطة لغاية أُخرى وهي المعرفة بالدين والإيمان ، وهذا ما يتوافق مع النصوص الكثيرة الدالّة على أنّ الإمام الحسين عليه السلام مصباح هدى وسفينة نجاة[٢]، وإنّ الإمام الحسين عليه السلام سبب حفظ التوحيد وتنزيهه من الشبهات ، وأنّ الإسلام حسيني البقاء ، وتؤكّد الوثائق التأريخية والروائية أنّ الكثير من غير المسلمين أسلموا ، والكثير من المسلمين آمنوا ، والكثير من المؤمنين التزموا ببركة الإمام الحسين عليه السلام .

الثاني : أن تكون غاية خاصّة تخصّ من يطلب التشيّع والاعتقاد

---

(١) المصباح : ص٤٩٨ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٣٤٢ ، ح٢ ؛ وص٢٥٥ ، ح٣٩ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج٢ ، ص٦٢ ، ح٢٩ ؛ بحار الأنوار : ج٣٦ ، ص٢٠٥ ، ح٧ .

بالإمام الحسين عليه السلام ، فإنّه يهتدي إلى الحقيقة بـضياء الإمـام الحسـين عليه السلام وأنواره ، فإنّ أوّل دليل على حقّانية التشيّع في أُصوله وفروعه موقف الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه ؛ إذ لا يمكن أن يكون المبدأ دافعاً لابنائه إلى الشهادة وبذل النفس لولا قوّة الحقّ فيه ، ولولا صدق الإيمان في أبنائه لم يندفعوا إلى بذل نفوسهم لأجله ، فمن أراد الإمام الحسين عليه السلام والاعتقاد به فإنّ طريق هدايته هو ضياء نور الإمام الحسين عليه السلام ، وهي شعائره في مرقده وزيارته ومآتمه ومجالس عزائه وكلّ ما يتعلّق به من مـظاهر وعـلامات ، وعـليه يكون متعلّق الطلب وغايته هو الإمام الحسين عليه السلام .

ويتلخّص أنّ الطريق لمعرفة الله وعـبادته والطـريق لـمعرفة الإمـام الحسين عليه السلام وأتباعه هو ضياء الإمام الحسين عليه السلام المنتشر في الأرض ببركة إحياء شعائره بصنوفها وأشكالها المختلفة .

وهذا ما سنتعرّف عليه من فصول البحث ..

الخصوصيّة السابعة

دمه عليه السلام أقدس شعيرة إلهية

لا شكّ أنّ الدم الذي يضحّى به في سبيل الله سبحانه من شعائر الله ، ولذا صار دم الحسين عليه السلام أشرف شعيرة وأقدسها فأسكنه الله سبحانه في الخلد ، وانحنى له العرش وأظلّة الخلائق ، وأظهر صبغته في آفاق السماء في الفجر والغسق ، وحبّب للعباد زيارته والسلام عليه وإحياء ذكره وبذل الدم مواساة لدمه كما يستفاد من بعض النصوص المعتبرة .

منها : ما ورد في الزيارة الشريفة ذات المضامين العالية المروية عن أبي حمزة الثمالي بطريق صحيح عن الإمام الصادق عليه السلام بعد أن يدعو بأن يلعن الله من استخفّ بحقّهم عليهم السلام يقول : « نفسي فداؤكم ولمضجعكم صلّى الله عليكم وسلّم تسليماً »[1] ونلاحظ أنّه عليه السلام لم يخصّص التفدية بالنفس بما كان لهم عليهم السلام فقط ، بل حتّى لمضاجعهم ومراقدهم ، وهذا يشمل مصاديق

---

(١) كامل الزيارات : ص٤١٦ ، ح٢٣ .

عديدة منها الشهادة في طريق الزيارة وإحياء ذكراهم والحضور في مشاهدهم .

فإنّ المضاجع جمع مضجع وهو المرقد والمصرع[١]، ولعلّ التعبير بصيغة المفرد دون الجمع يشير إلى أنّ المقصود هو المصرع ذاته بما هو حدث لا اسم مكان ، فيدلّ على مطلوبية التضحية بالنفس ولو بمثل القتل وبذل المهجة في ذكرى المصرع وإحياء شعائره ، وقد ورد في الأخبار الشريفة ما يحثّ على تمنّي التضحية ومشاركة الإمام الحسين وأنصاره عليهم السلام في الشهادة .

ففي بعضها أنّ المؤمن إذا تمنّى أن يكون شهيداً مع الإمام الحسين عليه السلام وقال :(ياليتني كنت معهم) أُعطي من الثواب مثل ثواب من استشهد معه[٢].

وإذا أحبّ المؤمن عمل أنصار الحسين عليه السلام أُشرك معهم كما ورد في رواية جابر[٣]، وفي فضل زيارته يوم عاشوراء ورد : « من بات عند قبر الحسين عليه السلام ليلة عاشوراء لقي الله يوم القيامة ملطّخاً بدمه كأنّما قتل معه في

---

(١) مجمع البحرين : ج ٤ ، ص٣٦٣ ، (ضجع) .

(٢) أمالي الصدوق : ص١٩٣ ؛ بحار الأنوار : ج ٤٤ ، ص٢٨٦ ، ح٢٣ ؛ وج٩٨ ، ص١٠٢ - ١٠٣ ، ح٣ .

(٣) بشارة المصطفى : ص٧٤ .

عرصة كربلاء »[1] وفي حديث آخر : « كمن استشهد بين يديه »[2] وفي رواية أُخرى : « كان كمن تشحّط بدمه بين يديه »[3] والتشحّط بالدم هو الاضطراب والتمرّغ بالدم في سبيل الله[4].

وربما يقع الكلام في تحديد مرجع الضمير في قوله (بدمه) فإنّ ظاهر جملة من الأخبار الواردة فيه أنّه الزائر نفسه ، أي أنّ زائر الحسين عليه السلام في ليلة عاشوراء والبائت عنده ، وكذا من زاره في يومه يكون كالمتشحّط بدمه ، فينال بذلك أجر من استشهد مع الحسين عليه السلام ، وجاهد بين يديه ، وهذا ما تعضده رواية جابر الجعفي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « من بات عند قبر الحسين عليه السلام ليلة عاشوراء لقي الله تعالى يوم القيامة ملطّخاً بدمه ، كأنّما قتل معه في عرصة كربلاء »[5] وفي أُخرى : « كان كمن استشهد بين

(١) كامل الزيارات : ص٣٢٣ ، ح١ ؛ بحار الأنوار : ج٩٥ ، ص٣٤٠ ، ح٢ .

(٢) المصدر نفسه : ص٣٢٤ ، ح٢ .

(٣) المصدر نفسه : ص٣٢٤ ، ح٥ .

(٤) مجمع البحرين : ج٤ ، ص٢٥٧ ، (شحط) ؛ مجمع مقاييس اللغة : ص٥٢٩ ، (شحط) .

(٥) كامل الزيارات : ص٣٢٣ ، ح١ ؛ وسائل الشيعة : ج١٤ ، الباب ٥٥ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٤٧٧ ، ح٣؛ بحار الأنوار : ج٩٥ ، ص٣٤٠ ، ح٢ .

يديه »[١] وفي رواية ثالثة : « يكون مشاركاً لشهداء كربلاء ، وفي منازلهم في الجنّة »[٢].

ويحتمل أن يكون مرجع الضمير هو الإمام الحسين عليه‌السلام ، فيكون المعنى أنّ زائره في عاشوراء يرتقي مراتب عالية فيكون كمن تلطّخ بدم الحسين عليه‌السلام ، وبه وردت رواية عن الشيخ المفيد رحمه‌الله قال : في كتاب التواريخ الشرعية ، وروي « أنّ من زاره عليه‌السلام وبات عنده ليلة عاشوراء حتّى يصبح ... حشره الله تعالى ملطّخاً بدم الحسين عليه‌السلام في جملة الشهداء معه »[٣].

وهي تتضمّن الاشارة إلى خلود الزائر في نعيم الله سبحانه بخلود دم الإمام الحسين عليه‌السلام الذي ورد في زيارته الشريفة « أشهد أنّ دمك سكن في الخلد »[٤] أو الاشارة إلى شدّة المحبوبية وعلو الرتبة ؛ لأنّ دم الحسين عليه‌السلام

---

(١) كامل الزيارات : ص٣٢٣ ، ح٢ ؛ مصباح المتهجّد : ص٧١٣ ؛ وسائل الشيعة : ج١٤ ، الباب ٥٥ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٤٧٧ ، ح٤ .

(٢) مستدرك الوسائل : ج١٠ ، الباب ٣٧ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٢٩٣ .

(٣) مسار الشيعة (المجموعة للشيخ المفيد) : ص٢٥ ؛ إقبال الأعمال : ص٣٢ ؛ مستدرك الوسائل : ج١٠ ، الباب ٣٧ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٢٩٣ ، ح٨ ؛ نور العين : ص٢٨١ .

(٤) الكافي : ج٤ ، ص٥٧٦ ، ح٢ ؛ كامل الزيارات : ص٣٦٤ ، ح٢ ؛ من لا يحضره الفقيه : ج٢ ، ص٥٩٥ ، ح٣١٩٩ .

هو أشرف ما تقرّب إليه فيه كما يشهد له قول سيّد الشهداء عليه السلام .

فبعد أن رمي بسهم في قلبه وجرى دمه كالميزاب أخذ منه ولطّخ به وجهه ومحاسنه ، وقال : « حتّى ألق الله وأنا مخضّب بدمي »[١] أو للإشارة إلى عظيم الأجر والثواب الذي يناله الزائر فيكون كالمستشهد مع سيّد الشهداء عليه السلام .

ولا يبعد أن يكون ما رواه الشيخ المفيد رحمه الله منقولاً بالمضمون لا بالنصّ ، فيكون النصّ قولاً للراوي بحسب ما فهمه من النصوص ترجيحاً للمعنى الثاني الذي يرجع الضمير إلى الإمام الحسين عليه السلام ، لكن احتماله بعيد عن الظهور ، ويمكن الجمع بين القولين بتفاوت درجات الزوّار ومعارفهم ، فإنّ بعض الزائرين من أصحاب المعرفة والمقامات العالية يحشره الله مع الإمام الحسين عليه السلام ملطّخين بدمه ، ولعلّ منهم الذين أوقفوا أنفسهم في خدمة الإمام الحسين عليه السلام ونشر ذكره ونصرته وتعظيم شعائره ، ولو سنحت لهم فرصة الشهادة استشهدوا ، وبعضهم أدنى رتبة فينالون أجر الشهداء معه .

وإذا كان فضل الزيارة يعود على الزائر بهذا الأجر والثواب العظيم

---

(١) بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص١٢ ؛ لواعج الأشجان : ص١٣٧ ؛ وانظر نور العين في مشهد الحسين عليه السلام : ص٤٩ .

فكيف بمن زاره وواساه بدمه ؟ وعفّر خدّه على ترابه ؟ وتمرّغ بدمائه كما قد يشير إليه الفعل الماضي في قوله (كمن تشحّط) فإنّ صيغة الماضي تدلّ على حتمية الوقوع ، والغاية منه تتحقّق بالاستمرار على هذا النهج وهو نوع من اشتراء لله سبحانه الذي ورد في الخطاب الخاصّ للحسين عليه السلام الذي نزل له من عند الله تعالى في الصحيفة السماوية ؛ إذ خوطب : « أُخرج بقوم إلى الشهادة ، فلا شهادة لهم إلّا معك ، واشتر نفسك لله عزّوجلّ »[1].

فالله سبحانه اشترى من الإمام الحسين عليه السلام نفسه ، وثمّن هذا الشراء بأن جعله منشأ الفيوضات الإلهية ، وباب الرجاء والرحمة ، ومن مراتب هذا الثمن ما يناله المؤمن من بركات البكاء عليه ، وإحياء شعائره من الأجر والثواب والقربة من الله ، ودخول الجنّة ، كما أنّ الحسين عليه السلام يثمّن ما يقدّمه المؤمن في محبّته ونصرته وإحياء ذكره ويشتري منه ذلك .

وعن بعض الأعاظم أنّ الإمام عليه السلام يشتري من المؤمن الموالي المحيي لشعائره عشرة أنواع من الحزن والبكاء نصّت عليها الأخبار المعتبرة :

أحدها : أنّه يشتري منه أن يكون المؤمن مهموماً في مصابه من دون بكاء .

ثانيها : يشتري منه أن يكون قلبه متوجّعاً من أجله عليه السلام .

---

(١) أُنظر أمالي الصدوق : ص٣٢٧ ـ ٣٢٨ ؛ بحار الأنوار : ج٣٦ ، ص١٩٢ ، ح١ .

ثالثها : يشتري منه الدمع الذي تغرورق به عين المؤمن لمصيبته .

رابعها : يشتري ذُرف الدمع التي تظهر على الجفن ولا تجري على الخدّ .

خامسها : يشتري الدمع إذا جرى على الخدّ بثمن أغلى .

سادسها : يشتري الدمع الذي يجري على الخدّ ويبلّل المحاسن .

سابعها : ويشتري بأغلى من ذلك إذا جرى الدمع على الصدر ، أو بلّل الثوب .

ثامنها : يشتري التأوّه والأنين لأجله ، وله أجر آخر فوق أجر الدمع والبكاء .

تاسعها : يشتري الصراخ الذي يظهره الموالي حين البكاء وثمنه أغلى .

عاشرها : يشتري غاية الطاقة التي يبذلها المؤمن في العزاء حتّى تزهق نفسه كما ورد في حديث أبي ذرّ : « حتّى تزهق أنفسكم »[١] وهذا غاية ما يمكن أن يقدّمه المؤمن في خدمة إمامه ، وليس له ثمن ، وأجره لا يقدّر بثمن ، وعطاؤه لا محدود[٢].

---

(١) كامل الزيارات : ص١٥٤ ، ح١٥ .

(٢) أُنظر الأيّام الحسينية : ص٨٠ ـ ٨١ ، خامس الأيّام .

ولا تظنّنّ أنّ هذه الدموع التي ذرفت على الإمام الحسين عليه السلام سوف تجفّ كلّا ، لقد خلق الله ملائكة يجمعون الدموع الجارية على ما أصاب سيّد الشهداء عليه السلام ويجعلونها في قوارير الجنّة ، فيدفعونها إلى خزنة الجنان فيمزجونها بماء الحيوان ، وهو ماء الحياة الذي يفيض بالحياة الحقيقية الكاملة في الآخرة ، كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾(١).

ترى متى يدفع الثمن ؟ ثمن هذه البضاعة يدفع نقداً كما قال الإمام عليه السلام : « ألا ... وصلّى الله على الباكين على الحسين رأفة وشفقة »(٢) فالثمن أن يصلّي الله عليك . هذا ما يدفع منه نقداً ، وأمّا الباقي فيأتيك على عدّة أقساط :

قسط منه وقت احتضارك ، وقسط عند دخولك القبر ، وواحد وقت سكناك القبر ، وآخر عند خروجك من القبر ، وهكذا حتّى القسط الأخير(٣).

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٦٤ .

(٢) بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٣٠٤ ، ح١٧ ؛ العوالم (الإمام الحسين عليه السلام) : ص٥٩٨ ؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام : ص٣٦٩ ، ح٢٥٨ .

(٣) أُنظر الأيّام الحسينية : ص٨٢ ، خامس الأيّام .

ومنها : ما ورد في فضل زيارته ودرجتها عند الله سبحانه ما يدلّ على جواز الاقتتال لأجلها ، ففي رواية عبدالملك عن أبي عبدالله عليه السلام : « لو يعلمون ما في زيارته من الخير ويعلم ذلك الناس لأقتتلوا على زيارته بالسيوف ، ولباعوا أموالهم في إتيانه »[١] وفي رواية محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام : « لو يعلم الناس ما في زيارة الحسين عليه السلام من الفضل لماتوا شوقاً ، وتقطّعت أنفسهم عليه حسرات »[٢].

والاقتتال صيغة افتعال ، ويتمّ بالمقاتلة من الطرفين ، ويتحقّق بنحوين :

أحدهما : أن يقتتل المؤمنون مع بعضهم البعض تزاحماً على تحصيل فرصة الزيارة ، أو الدخول إلى الحرم الشريف ، أو التفرّغ لها حتّى في الأُسرة الواحدة ؛ لأنّ قدوم الزائر قد يتطلّب ترك من يدبّر أمر معاشه وبيته وعائلته من أهله وذويه ، وعلى هذا يراد بالاقتتال المعنى المجازي .

ثانيهما : أن يقتتل المؤمنون مع المخالفين المانعين من الزيارة ، وهو الأقوى ظهوراً ، كما يفيده التعدية (بعلى) فلو كان بين المؤمنين لاستدعي

---

(١) كامل الزيارات : ص١٧٨ ، ح١٩ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٢٢٥ ، ح١٧ .

(٢) كامل الزيارات : ص٢٧٠ ، ح٣ ؛ وسائل الشيعة : ج١٤ ، الباب ٤٥ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٤٥٣ ، ح١٨ ؛ بحار الأنوار : ج١٠١ ، ص١٨ ، ح١ .

التعدية باللام ، فيقول (لاقتتلوا للزيارة) أو (لأجل الزيارة) كما أنّ قوله : « لباعوا أموالهم في إتيانه » يشمل الفقير الذي قد تعجزه الفاقة ، والممنوع بسبب الحاكم الظالم ونحوه الذي قد يفرض غرامات وضرائب عليها ، أو الذي تكلّفه الزيارة سفراً وإنفاقاً في المال .

ونلاحظ أنّ النصّين الشريفين يدلّان بوضوح على جواز الموت والقتل في سبيل الزيارة ، ويتوافق هذا مع ما ورد في رواية الثمالي عن الإمام الصادق عليه السلام قولهم : « نفسي فداؤكم ولمضجعكم »[١].

ويدلّ الخبران الشريفان على أنّ بلوغ هذه المرتبة السامية من التضحية لأجل الزيارة مشروطة بالمعرفة ، فهو مقام لا يناله كلّ أحد ، بل هو مقام العارفين بالإمام الحسين عليه السلام ، والمدركين لمقام زيارته وفضلها ، وعلى هذا إذا لوحظ عدم اقتتال الناس لأجل ذلك فليس الخلل في الفضل ، بل في درجات العارفين ، كما إذا لوحظ أنّ بعض المؤمنين قدّم نفسه ضحية في هذا السبيل ، وبذل دمه ، أو أُصيب بجراحة ونحو ذلك لم يكن ملوماً ، بل هو عند الله جدير .

فإنّ المستفاد ممّا تقدّم أنّ النفس مهما بلغت من الأهمية عند الله سبحانه وعند الناس فإنّها لا تبلغ أهميّة زيارة الإمام الحسين عليه السلام والوصول

(١) كامل الزيارات : ص٤١٦ ، ح٢٣ .

عنده ، ومن هنا قلنا إنّ شدّة تعظيم الشعائر وأصنافها تختلف بحسب مستويات العارفين والمعظّمين ، فبعضهم من يكتفي بالبكاء ، وبعضهم يكتفي بالمشي مسافات طويلة ، وبعضهم من لا يكتفي إلّا ببذل دمه فضلاً عن ماله وأهله ، والكل مثاب ومأجور ؛ لأنّ قيمة العمل بقيمة المعرفة التي تقف وراءه .

ومنها : ما يدلّ على أنّ لدم الحسين عليه السلام قيمة عظمى عند الله سبحانه ، قدّسه وطهّره ورفعه عنده ، وأسكنه في الخلد ، كما عظّمه النبي صلى الله عليه وآله وادّخره عنده ، فقد اتّفقت روايات الفريقين على أنّ أُمّ سلمة رأت رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام أشعث مغبرّاً ، وعلى رأسه التراب ، فقالت له : يارسول الله مالي أراك أشعث مغبرّاً ؟ قال : « قتل ولدي الحسين ، وما زلت أحفر القبور له ولأصحابه »[١] فانتبهت فزعة ، ونظرت إلى القارورة التي فيها تراب أرض كربلاء ، فإذا به يفور دماً[٢]، وهو التراب الذي ادّخره النبي صلى الله عليه وآله عندها ، وقضيّته معروفة مشهورة في كتب الفريقين .

وفي يوم عاشوراء رأى ابن عبّاس رسول الله صلى الله عليه وآله أشعث مغبرّاً وبيده

---

(١) أمالي الطوسي : ص٥٦ ؛ تاريخ الخلفاء : ص١٣٩ ؛ سير أعلام النبلاء : ج٣ ، ص٢١٣ .

(٢) الكامل : ج٤ ، ص٣٨ ؛ مقتل الخوارزمي : ج٢ ، ص٩٥ .

قارورة فيها دم فقال له : بأبي أنت وأُمّي ما هذا ؟ قال : « هذا دم الحسين وأصحابه لم أزل التقطه منذ اليوم »[(١)] وفي ذاك اليوم مطرت السماء دماً[(٢)]، فأصبحت الحباب والجرار وكلّ شيء ملأى دماً[(٣)]، وبقي أثره على البيوت والجدران مدّة[(٤)]، ولم يرفع حجر حتّى وجد تحته دم عبيط[(٥)] حتّى في بيت المقدس[(٦)]، كما سال الدم من جدران قصر الامارة لمّا أدخلوا رأس الحسين عليه السلام[(٧)].

وحدّث دعبل الخزاعي أنّ أُمّه سعدى بنت مالك الخزاعية أدركت الشجرة التي كانت عند أُمّ معبد الخزاعية وهي يابسة ، وببركات وضوء

---

(١) تاريخ ابن عساكر : ج٤ ، ص٣٤٠ ؛ تهذيب التهذيب : ج٢ ، ص٣٥٥ ؛ مسند أحمد : ج١ ، ص٢٤٢ .

(٢) الكامل : ج٧ ، ص٢٩ ، حوادث سنة ٢٤٦ ؛ تاريخ ابن عساكر : ج٤ ، ص٣٣٩ ؛ تذكرة الخواص : ص١٥٥ ؛ مقتل الخوارزمي : ج٢ ، ص٨٩ .

(٣) الخصائص الكبرى : ج٢ ، ص١٢٦ ؛ مقتل المقرّم : ص٢٩٣ .

(٤) تاريخ ابن عساكر : ج٤ ، ص٣٣٩ ؛ الصواعق المحرقة : ص١١٦ .

(٥) المصدران السابقان ؛ مجمع الزوائد : ج١ ، ص١٩٦ ؛ الخصائص الكبرى : ج٢ ، ص١٢٥ ؛ مقتل الخوارزمي : ج٢ ، ص٩٠ .

(٦) تاريخ ابن عساكر : ج٤ ، ص٣٣٩ ؛ الصواعق المحرقة : ص١١٦ .

(٧) تاريخ ابن عساكر : ج٤ ، ص٣٣٩ ؛ الصواعق المحرقة : ص١١٦ .

النبي صلى الله عليه وآله أورقت وأثمرت كثيراً ، ولمّا قبض النبي صلى الله عليه وآله قلّ ثمرها ، ولمّا قتل أمير المؤمنين عليه السلام تساقط ثمرها ، وكانوا يتداوون بورقها ، ولمّا قتل الحسين عليه السلام نبع ساقها دماً(١).

ولم تعرف الحمرة في السماء إلّا يوم قتل الحسين عليه السلام(٢).

وقيل للصادق عليه السلام : سيّدي جعلت فداك إنّ الميت يجلسون له بالنياحة بعد موته أو قتله ، وأراكم تجلسون أنتم وشيعتكم من أوّل الشهر بالمأتم والعزاء على الحسين ؟ فقال : « ياهذا إذا هلّ هلال المحرّم نشرت الملائكة ثوب الحسين عليه السلام وهو مخرّق من ضرب السيوف ، وملطّخ بالدماء ، فنراه نحن وشيعتنا بالبصيرة لا بالبصر ، فتنفجر دموعنا »(٣).

وسيظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وفاطمة عليها السلام هذا الدم الطاهر ، ويطالبان بحقّه في الآخرة ، فقد ورد في رواية معاوية بن وهب عن الصادق عليه السلام « إنّه إذا كان يوم القيامة أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه الحسين عليه السلام ويده على رأسه يقطر دماً ، فيقول صلى الله عليه وآله : ياربّ سل أُمّتي فيم قتلوا ابني ؟ وقال عليه السلام : كلّ الجزع

---

(١) مقتل المقرّم : ص٢٩٤ ـ ٢٩٥ ؛ وانظر الخصائص الكبرى : ج٢ ، ص١٢٦ ؛ تاريخ ابن عساكر : ج٤ ، ص٣٣٩ ؛ مقتل الخوارزمي : ج٢ ، ص٩٠ .

(٢) الصواعق المحرقة : ص١١٦ ؛ تذكرة الخواص : ص١٥٤ .

(٣) ثمرات الأعواد : ج١ ، ص٣٦ ـ ٣٧ ؛ نور العين : ص٣٥٩ .

والبكاء مكروه سوى الجزع والبكاء على الحسين عليه السلام »[١].

وفي رواية الطائي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام عن آبائه عن علي عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « تحشر ابنتي فاطمة يوم القيامة ومعها ثياب مصبوغة بالدماء تتعلّق بقائمة من قوائم العرش تقول : ياعدل احكم بيني وبين قاتل ولدي »[٢].

وفي متضافر الروايات أنّ الله سبحانه يأمر النار فتلتهم قتلة الإمام الحسين عليه السلام ومن شاركهم[٣]، ولعلّ هذا من مظاهر الثأر الإلهي للإمام الحسين عليه السلام .

إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة المتوافقة على أنّ لدم الحسين عليه السلام وأنصاره عناية إلهية وحكماً ربّانية خاصّة اخترقت القوانين الطبيعية ، وتجاوزت حدود الفكر القاصر ، ولا ينبغي أن تنظر بالنظرة الساذجة البسيطة ، ويتعامل معها كما يتعامل مع سائر الدماء .

---

(١) أمالي الطوسي : ص١٦١ ـ ١٦٢ ، ح٢٠ ؛ العوالم (الإمام الحسين عليه السلام) : ص٦٠٥ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٣١٣ ، ح١٤ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج٢ ، ص٨ ؛ مقتل الخوارزمي : ج١ ، ص٩٠ ؛ مناقب ابن المغازلي : ص٦٤ .

(٣) أمالي المفيد : ص١٣٠ ؛ بحار الأنوار : ج٤٣ ، ص٢٢٤ ، ح١١ .

ويؤكّد هذه الحقيقة ما ورد في الأخبار المعتبرة بطرق الفريقين من أنّ الإمام الحسين عليه السلام رمى ثلاثة من الدماء الطاهرة إلى السماء ولم تسقط منها قطرة :

الأوّل : دم علي الأكبر عليه السلام ؛ إذ ورد في الزيارة الشريفة المروية بطريق صحيح عن أبي حمزة الثمالي عن الصادق عليه السلام يقول : « ثمّ صر إلى قبر علي ابن الحسين فهو عند رجلي الحسين بن علي عليهما السلام ، فإذا وقفت عليه فقل : ... بأبي أنت وأُمّي من مذبوح ومقتول من غير جرم ، وبأبي أنت وأُمّي دمك المرتقى به إلى حبيب الله ، وبأبي أنت وأُمّي من مقدّم بين يدي أبيك يحتسبك ويبكي عليك محرقاً عليك قلبه ، يرفع دمك بكفّه إلى أعنان السماء لا ترجع منه قطرة »[١].

الثاني : دم علي الأصغر عليه السلام ، فلمّا رماه حرملة بالسهم وذبحه تـلقّى سيّد الشهداء عليه السلام الدم بكفّه ورمى به نحو السماء ، فلم تسقط منه قطرة[٢]، وقال : « هوّن ما نزل بي إنّه بعين الله تعالى »[٣].

---

(١) كامل الزيارة : ص٤١٥ ـ ٤١٦ ، ح٢٣ .

(٢) المناقب : ج٢ ، ص٢٢٢ ؛ اللهوف على قتلى الطفوف : ص٦٦ ؛ وانظر البداية : ج٨ ، ص١٨٦ ؛ مقتل الخوارزمي : ج٢ ، ص٣٢ .

(٣) اللهوف على قتلى الطفوف : ص٦٦ .

الثالث : دمه الطاهر ، فلمّا رمي بسهم محدّد له ثلاث شعب وقع في قلبه الشريف ... ثمّ أخرج السهم من قفاه وانبعث الدم كالميزاب ، فوضع يده تحت الجرح ، فلمّا امتلأت رمى به نحو السماء وقال : « هوّن ما نزل بي إنّه بعين الله ، فلم يسقط منه قطرة إلى الأرض »[١].

ثمّ وضعها ثانياً فلمّا امتلأت لطّخ به رأسه ووجهه ولحيته وقال : « هكذا أكون حتّى ألق الله وجدّي رسول الله ﷺ وأنا مخضّب بدمي » وأقول : «ياجدّي قتلني فلان وفلان »[٢].

وفي بعض الأخبار ورد ذكر للأسماء بدلاً عن الكناية ، ولا شكّ في أنّ هذا الدم الطاهر لم يكن كسائر الدماء ؛ لأنّه دم مهجة الإمام الحسين عليه السلام الذي هو عرش الله وحجّته ونوره ومخزن أسراره ، ولذا سكن في الخلد ، كما خلّد هذا الدم في خواطر الناس ، وتكرّر ذلك في زياراته ؛ إذ يسلّم الزائر على دمه ويدعو الله به[٣].

---

(١) مقتل الخوارزمي : ج٢ ، ص٢٤ ؛ تاريخ ابن عساكر : ج ٤ ، ص٣٣٨ ؛ اللهوف على قتلى الطفوف : ص٦٨ .

(٢) مقتل الخوارزمي : ج٢ ، ص ٣٤ ؛ اللهوف على قتلى الطفوف : ص ٧٠ ؛ مقتل المقرّم : ص٢٧٩ .

(٣) أُنظر تهذيب الأحكام : ج٦ ، ص ٦٤ ، ح ١٣١ ؛ المزار (للمفيد) : ص١١٧ ؛ بحار الأنوار : ج١٠١ ، ص٢١٦ ، ح٣٣ .

وهذه خصوصية خاصّة بالإمام الحسين عليه السلام لم يخصّ بها نبي ولا وصي ولا ولي ؛ لأنّ السلام على دمه له أكثر من حالة ، فهناك سلام على الدم الذي أُريق على أرض كربلاء ، وسلام على الدم الذي جمعه النبي صلى الله عليه وآله والملك في القارورة ، وسلام على الدم الذي ضمّخ وجه أُخته الصدّيقة الصغرى ، وسلام على الدم الذي صار خضاباً لمحاسنه وبه لاقى الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وآله[1]، وهذه مزايا انفرد بها دم الحسين عليه السلام لم يشترك معه فيها أحد[2].

---

(١) الأيّام الحسينية : ص ٧٠ ، رابع الأيام ؛ تذكرة الشهداء (لحبيب الله الكاشاني) : ص٤٢٧ ، وفي قوله : (قتلني فلان وفلان) إشارات مهمّة إلى حقائق تأريخية لا يسعنا بحثها هنا .

(٢) ولعلّ منه ما ورد من فعل جواده بعد شهادته ؛ إذ أقبل فرسه يدور حوله ويلطّخ ناصيته بدمه ، ولمّا أحاطوه رمحهم برجليه ، وقتل منهم أربعين رجلاً وعشرة أفراس ، فقال ابن سعد دعوه لننظر ما يصنع ، فلمّا أمن الطلب أقبل نحو الحسين عليه السلام يمرغ ناصيته بدمه ويشمّه ويصهل صهيلاً عالياً ... وتوجّه نحو الخيام .

أُنظر ينابيع المودّة : ج٣ ، ص٨٤ ـ ٨٦ .

وفي بعض الروايات : وأقبل فرس الحسين عليه السلام وقد عدا من بين أيديهم أن لا يؤخذ فوضع ناصيته في دم الحسين عليه السلام ثمّ أقبل يركض نحو خيمة النساء وهو يصهل ويضرب برأسه الأرض عند الخيمة حتّى مات .

بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٦٠ ؛ العوالم (الإمام الحسين عليه السلام) : ص٣٠٤

ويستنتج ممّا تقدّم نتائج :

النتيجة الأُولى : أنّ للدم قيمة عظمى في قضايا عاشوراء ، وقد أظهره الله سبحانه على جبين الوجود بصور عديدة ، كالحيطان والجرار والأرض وآفاق السماء وفي الملأ الأعلى ، كما أنّ الإمام الحسين عليه السلام جلّل هذا الدم وعظّمه إذ رماه إلى السماء وما سقطت منه قطرة إلى الأرض ؛ ليدلّ على أنّ هذا الدم ليس كسائر الدماء ، بل هو دم إلهي يتجاوز قوانين الطبيعة ، ويفوقها عظمة وكرامة ، وقدّسه أكثر حينما خضّب به وجهه المبارك الذي هو وجه الله ونوره ، وأراد أن يكون الشكل الذي يقابل به ربّه ، ويكون شاهد إخلاصه وعبوديته وتضحيته في سبيله .

ومن هنا قلنا لا ينبغي للمؤمن أن ينظر إلى عاشوراء وقضاياه إلّا أنّها من القضايا الإلهية العظمى التي تقرأ بالقلب والبصيرة لا بالعقل والفكر فقط ؛ لأنّها تتجاوز البرهان والاستدلال وإن كانت كلّ قضاياه مشتملة على الدليل والبرهان ، بل لابدّ وأن تدرس بمنظور الأنبياء والأولياء الذين يشهدون الحقائق بالقلوب والبصائر .

النتيجة الثانية : أنّ خروج الدم من عيون الموجودات بصوره المختلفة يدلّ على أنّ إظهار الحزن على مصاب الحسين عليه السلام بالدم من السنن الإلهية التكوينية التي لا تبدّل ولا تتغيّر ، وإذا عرف الناس الحسين عليه السلام كما

ينبغي أو أدركوا عمق الفاجعة التي نزلت به في الموازين الإلهية لبكوه دماً باختيار أو بلا اختيار منهم كما بكته سيقان العرش والسماوات والأرض بالدم ، ولا زال ولي الله الأعظم وسيّد الدهر يبكيه بالدم صباحاً ومساءً .

النتيجة الثالثة : أنّ فعل الإمام الحسين عليه السلام وتخضّبه بالدم يدلّ على أمرين :

أحدهما : أنّ الدم من أعظم وسائل التقرّب إلى الله سبحانه ، ولا يملك العبد وسيلة أسمى من الدم يقدّمها عبر طريق عبوديته لله وجهاده في سبيله ، ولا يمكن إدراك هذه العظمة والقدسية عند الله سبحانه إلّا من خلال موقف الإمام الحسين عليه السلام الذي هو ولي الله وأسمى من خلق ؛ إذ خضّب وجهه الشريف بدمه تقرّباً[1]، وقال : « حتّى ألق الله وأنا مخضّب

---

(١) ولعلّ ممّا يتوافق مع هذا المضمون ما ورد في الأخبار أنّ النبي صلى الله عليه وآله أوصى أمير المؤمنين عليه السلام عند احتضاره أن يضع رأسه الشريف في حجره ، وقال : « إذا فاضت نفسي فتناولها بيدك ، وامسح بها وجهك » .

الإرشاد : ص٩٦ ـ ١٠٠ ؛ إعلام الورى : ص١٤٠ ـ ١٤٣ ؛ بحار الأنوار : ج٢٢ ، ص٤٧١ ؛ منتهى الآمال : ج١ ، ص٢٠٦ .

والمراد من النفس الدم ، يقال دفق نفسه أو سالت نفسه أو فاضت أي خرج دمّه . يقال للدم نفس باعتبار الملازمة أو السببية ؛ لأنّ النفس تخرج بخروجه ، وهذا المعنى ←

بدمي »[١].

ثانيهما : أنّ تخضيب المؤمن وجهه ومحاسنه بدمه أمر سائغ ، بل محبوب ومقرّب إلى الله سبحانه ؛ لأنّ فعل الإمام الحسين عليه السلام حجّة على العباد ، والاقتداء به عنوان راجح شرعاً وعقلاً ، فإذا أراد المؤمن أن يتقرّب إلى الله سبحانه بدمه ويخضّب وجهه ورأسه وجسمه تأسّياً بالإمام الحسين عليه السلام أو مواسياً له كان به متعبّداً ، ونال الأجر والثواب ، وإذا نوى فيه تعظيم الشعائر زاد أجره ، وسمت رتبته أكثر ، وإذا ضمّ إليه عنوان الاستنان بسنّة الله سبحانه في الوجود حيث أبكى الموجودات عليه دماً تضاعف الأجر والثواب ؛ لما عرفت من أنّ تداخل العناوين وتطابقها

⬅ أنسب ؛ لأنّ النفس بمعنى الروح ممّا لا يتناول ولا يمسح به ، ومثله يقال في تفسيرها بالنفَس بفتح الفاء ، وهو الريح الداخل والخارج من الفم والمنخر .

أُنظر لسان العرب : ج٦ ، ص٢٣٤ ، (نفس) ؛ مجمع البحرين : ج٤ ، ص١١٤ ، (نفس) ؛ المعجم الوسيط : ج٢ ، ص٩٤٠ ، (نفس) .

وعلى هذا تحمل وصيّة النبي صلى الله عليه وآله دلائل هامّة نشير إلى اثنتين منها :

الأُولى : أنّه صلى الله عليه وآله سُمّ ولم يمت حتف أنفه ؛ لأنّ المسموم يلقي دمه حين فيضان روحه.

الثانية : أنّ لهذا الدم قيمة مقدّسة ، وله آثار وبركات معنوية عظيمة ، ولعلّها من الأسرار التي لا يدركها إلّا الخواصّ، ولذا أمر النبي صلى الله عليه وآله وصيّه عليه السلام بأن يمسح به وجهه.

(١) بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص١٢ ، لواعج الأشجان : ص١٣٧ .

يوجب علو المرتبة والمثوبة ، وفي هذا دلالة تامّة على جواز إخراج الدم لهذا الداعي والقصد ، ودلالة أُخرى على أنّ الإمام الحسين ﷺ هو الذي سنّ سنّة الإدماء والتخضيب بالدماء في سبيل عاشوراء ، وعلّم الناس أنّ الدم من أفضل المقرّبات إلى الله سبحانه ، سواء أخرجه العبد بواسطة سكّين أو سيف أو عصا ، أو بواسطة شدّة البكاء أو غير ذلك .

فإنّ المحبوبية متعلّقة بالإدماء ، وأمّا جرح الرأس (التطبير) وضرب السلاسل ونحوهما فهما وسائل وأدوات للإدماء ، ولا إشكال في أنّ كيفية الإدماء لا تؤثّر في أصل الحكم ، وليس من شأن الفقيه تحديدها ؛ لأنّها أُمور شخصية لكلّ شخص أن يختار آلة الإدماء ما دام أصل العمل ممّا يصدق عليه شعيرة .

وبهذا يتّضح أنّ إشكال البعض بأنّ التطبير ليس من المراسم القديمة وإنّما انتقلت من بعض البلدان المجاورة في وقت متأخّر مجانب للحقيقة التكوينية والتشريعية في الوجود ، وعلى فرض صحّته ـ جدلاً ـ فإنّه لا يضرّ بالحكم ؛ لأنّه إذا ثبت جواز الإدماء بل محبوبيته ومقرّبيته فإنّ المناقشة في الأداة والوسيلة خارجة عن مهمّة الفقه والفقيه ؛ لأنّها مسألة عرفية شخصية يرجع فيها كلّ شخص إلى طريقته وأُسلوبه كما ستعرفه من ثنايا البحث .

الخصوصيّة الثامنة

مرقده عليه السلام معراج إلى الملكوت

ومن خصوصياته عليه السلام الأُخرى أنّ موضعه معراج عالم الملك إلى الملكوت ؛ إذ ورد في الصحيح عن إسحاق بن عمّار قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : « إنّ لموضع قبر الحسين بن علي عليهما السلام حرمة معلومة من عرفها واستجار بها أُجير ... وموضع قبره منذ يوم دفن روضة من رياض الجنّة ، ومنه معراج يعرج فيه بأعمال زوّاره إلى السماء ، فليس ملك ولا نبي في السماوات إلّا وهم يسألون الله أن يأذن لهم في زيارة قبر الحسين عليه السلام ، ففوج ينزل وفوج يعرج »[1].

ونلاحظ أنّ القاعدة تقتضي أن يكون عالم الملكوت أرقى من عالم الملك ، فلابدّ لعالم الملك أن يرقى ليصل إلى الملكوت ؛ لأنّ الأدنى يرقى إلى

---

(١) كامل الزيارات : ص٤٥٧ ، ح٤ ؛ تهذيب الأحكام : ج٦ ، ص٧٢ ، ح١٣٤ ؛ الكافي : ج٤ ، ص٥٨٨ ، ح٦ .

الأشرف ، إلّا أنّ عند قبر الإمام الحسين عليه السلام تتغيّر القاعدة ، وتخرج عن الضابطة العامّة ؛ إذ سما قبره الشريف بمجاورة جسده واصطباغه بدمه الزكي فصار أرفع من السماوات ، وأعلى من مقامات الملأ الأعلى ، ولهذا يقول الإمام في إطلاق كلامه عليه السلام : ليس من ملك حتّى الكروبيين ولا من نبي حتّى أُولي العزم من المرسلين إلّا ويسألون الله الإذن في زيارة قبره عليه السلام ؛ لأنّهم ينالون في زيارتهم له مقامات أرقى وأعلى ممّا هم فيه ، ولا يمكن وصف هذه المقامات إلّا بما روي عن زيد الشحّام حيث قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام ما لمن زار الحسين عليه السلام ؟ قال : « كان كمن زار الله في عرشه » .

قال : قلت : ما لمن زار أحداً منكم ؟ قال : « كمن زار رسول الله صلى الله عليه وآله »(١).

وهذه خصوصية امتاز بها الحسين عليه السلام لم يشاركه فيها أحد ، وبها ربّما يتّضح بعض السرّ في حضور الملائكة وأرواح الأنبياء والمؤمنين عند قبره الشريف وملازمتهم له ، كما يتّضح بعض السرّ في حثّ النبي والأئمّة عليهم السلام المؤمنين على الحضور عنده في الأوقات الشريفة كليلة القدر وليلة الجمعة والنصف من شعبان وعرفة وليلة عاشوراء ويومها وغيرها من أوقات تفوق غيرها من الأوقات في الشرف والفضيلة ، وذلك لأنّ مدفنه عليه السلام

---

(١) كامل الزيارات : ص٢٧٨ ، ح١ .

معراج الأعمال ، وهنا نلفت النظر إلى حقائق :

الحقيقة الأولى : أنّ العروج في اللغة هو الصعود والارتقاء ، والمعارج المصاعد ، وليلة المعراج سمّيت بذلك لصعود الدعاء بها[١]، وفي التنزيل ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[٢] أي تصعد ، وقيل المعراج شبه سلّم أو درجة تعرج عليه الأرواح إذا قبضت . يقال : ليس شيء أحسن منه إذا رآه الروح لم يتمالك أن يخرج[٣].

وكيف كان ، فإنّ العروج على أقسام عمدتها العروج الجسدي والعروج المعرفي والعروج المقامي ، وأعلى مراتب العروج هو الجامع بينها كما في عروج النبي ﷺ في قضية الإسراء والمعراج : **﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾**[٤].

وقد ورد في الأخبار أنّ النبي المصطفى ﷺ عرج مرّتين : مرّة من مكّة إلى بيت المقدس ، ثمّ من بيت المقدس إلى سماء الدنيا ، ثمّ منها إلى السماء

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص٥٥٧ ، (عرج) ؛ معجم مقاييس اللغة : ص٧٤٠ ، (عرج) ؛ المعجم الوسيط : ج٢ ، ص٥٩١ ، (عرج) .

(٢) سورة المعارج : الآية ٤ .

(٣) لسان العرب : ج٢ ، ص٣٢٢ ، (عرج) .

(٤) سورة النجم : الآيات ٨ ـ ١٠ .

السابعة ، ثمّ إلى سدرة المنتهى ، ثمّ إلى قاب قوسين ، فالمعارج خمسة[١]، وفي بصائر الدرجات عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « عرج بالنبي صلى الله عليه وآله إلى السماء مائة وعشرين مرّة ، ما من مرّة إلّا وقد أوصى الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله بولاية علي والأئمّة عليهم السلام من بعده أكثر ممّا أوصاه بالفرائض[٢].

وواضح أنّ الانتقال من مكّة إلى بيت المقدس ليس عروجاً بالمعنى الحقيقي ، وقد سمّي بالعروج باعتبار سببه ؛ لأنّ العروج البدني مسبّب عن صعود النفس النبوية وارتقائها ، أو باعتبار مقدّميته للعروج من بيت المقدس .

كما أنّ تعدّد العروج ناشئ من ارتقاء المراتب والمقامات ، فالصعود من المرتبة الدانية إلى العالية هو عروج ، وظاهر قوله : « ما من مرّة إلّا وقد أوصى الله تعالى فيه النبي بالولاية لعلي والأئمة » إنّ العروج فيه معرفي ومقامي . هذا ما يتعلّق بالعروج الجامع للمراتب الثلاث .

وأمّا ما يتعلّق بزوّار الحسين عليه السلام فعروجهم يختصّ بالمعرفي والمقامي ، والجمع بينهما لا يناله إلّا خواصّ الخواصّ الذين عرفوا الحسين عليه السلام وهاجروا إليه بأبدانهم وعقولهم وقلوبهم على ما تقدّم بيانه ،

---

(١) مجمع البحرين : ج٢ ، ص٣١٧ ، (عرج) .

(٢) بصائر الدرجات : ص٩٩ ، ح١٠ .

ولعلّ من هنا ما من ملك ولا نبي إلّا ويستأذن الله في زيارة الحسين عليه السلام ؛ إذ إنّهم لا يبلغون مقاماتهم المعنوية إلّا بذلك ، وأمّا غيرهم فربّما يعرجون عروج المعرفة وهو عروج الخواص ، وذلك لأنّ الحسين عليه السلام مفتاح علوم الغيب ، وربّما يعرج بعضهم بعروج المقام فينال ببركة زيارة الحسين عليه السلام وكرامته عند الله سبحانه مقام القرب من ربّه سبحانه ، فيغفر ذنوبه ، ويعفو عن خطاياه ، ويقبل منه عمله ، ويستجيب دعاءه ، وهذا المقام يبلغه العوام أيضاً تفضّلاً وتكريماً .

الحقيقة الثانية : أنّ عروج العمل يعني صعود العمل إلى السماء العليا بواسطة الملائكة أو بلياقته للصعود فيصل إلى الله سبحانه كناية عن قبوله ، كما يستفاد من مثل قوله تعالى : ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾[١] وهو ظاهر من منطوق قوله : « يعرج فيه بأعمال زوّاره إلى السماء » وهناك معنى آخر مكمّل له ، وهو ارتقاء العمل إلى مستوى عال من الكمال ، فلا تحجبه النواقص والاختلالات تفضّلاً وتكريماً لزائر الحسين عليه السلام ، فيكون نظير قول النبي صلى الله عليه وآله : « أنّ سين بلال عند الله شين »[٢]

---

(١) سورة فاطر : الآية ١٠ .

(٢) تحرير الأحكام : ج١ ، ص٢٢٨ ؛ الحدائق الناضرة : ج٨ ، ص١٢٩ ؛ جواهر الكلام : ⬅

ولا تنافي بين المعنيين .

الحقيقة الثالثة : أنّ معنى أنّ موضع قبر الحسين عليه السلام معراج لأعمال زائريه فيه أكثر من احتمال :

الاحتمال الأوّل : أنّه المعنى الحقيقي ، بمعنى أنّ عروج أعمال الزوّار إلى السماء تكون من موضع قبره ، كما أنّه موضع صعود الدعاء واستجابته ، وهذا ما تؤكّده الأخبار الكثيرة الدالّة على أنّ للملائكة صعوداً وهبوطاً على قبره الشريف .

الاحتمال الثاني : أنّه المعنى المجازي ، ويراد به أنّ الزائر إذا بلغ قبر الحسين عليه السلام قبلت أعماله باعتبار أنّ زيارته توجب غفران الذنوب وعلو الدرجات .

الاحتمال الثالث : أنّ المراد من العروج هنا بلوغ القبر الشريف نفسه ، باعتبار العلاقة الدائمة بين الحسين عليه السلام وبين عرش الله سبحانه ؛ إذ كتب اسمه على ساق العرش ، وهو عليه السلام من حملة العرش ، كما أنّه مهبط ملائكة الله سبحانه ، بل هو مهبط أمر الله وإرادته ، وهذا ما يؤكّده قول الصادق عليه السلام الوارد في زيارته الشريفة : « إرادة الربّ في مقادير أُموره تهبط

⮌ ج٩ ، ص٣١١ ؛ مستدرك الوسائل : ج٤ ، الباب ٢٣ من أبواب قراءة القرآن ، ص٢٧٨ ، ح٣.

إليكم ، وتصدر من بيوتكم ، والصادق عمّا فصل من أحكام العباد »[١].

وعلى هذا فإنّ العروج هنا لا يراد به صعود العمل إلى السماء ، بل ارتقاء ذات العمل وارتفاع قدره ومكانته ، فيكون مقبولاً وحائزاً على درجات عالية من القرب الإلهي . وتؤكّده الأخبار الشريفة التي وصفت زائر الحسين عليه‌السلام بالكرّوبي ، نسبة إلى الملائكة الكرّوبيين ، وهم سادة الملائكة والمقرّبون منهم[٢] ولا تنافي بين الاحتمالات وإن كان الاحتمال الثالث أوفق بالنصوص والقواعد ، كما أنّه جامع لمضمون الأوّل والثاني .

يبقى الكلام في أنّ المراد من العروج بأعمال الزوّار المعنى المطلق ، بمعنى أنّ العروج يشمل كلّ أعمال الزوّار حتّى ما كان منها قبل الزيارة وبعدها ؟ أم المضيف فيختصّ بأعمالهم في وقت الزيارة ؟ احتمالان ، ويؤيّد الأوّل إطلاق لفظ الأعمال ، ويؤيّد الثاني إضافة الأعمال إلى الزوّار بوصف الزيارة ، والأقوى هو الأوّل استناداً إلى الروايات الكثيرة التي تنصّ على

---

(١) كامل الزيارات : ص٣٦٦ ، ح٢ ؛ وانظر من لا يحضره الفقيه : ج٢ ص٥٩٦ ، ح٣١٩٩ ، وفيه : « إرادة الربّ في مقادير أُموره تهبط إليكم ، وتصدر في بيوتكم ، والصادر عمّا فصل من أحكام العباد » ؛ تهذيب الأحكام : ج٦ ، ص٥٥ ، ح١٣١ ، وفيه : « والصادر عمّا نقل من أحكام العباد » .

(٢) مجمع البحرين : ج٢ ، ص١٥٩ ، (كرب) .

أنّ زائر الحسين عليه السلام يغفر له ما تقدّم من ذنوبه ، ويخاطب بعد خروجه منها : طوبى لك أيّها العبد ، قد غنمت وسلمت ، قد غفر لك ما سلف فاستأنف العمل[١].

فإذا كان قبره عليه السلام معراج القرب من الله سبحانه ، وتربته معراج العبادة ؛ إذ السجود عليه يخرق الحجب السبع[٢]، ويوجب قبول الصلاة كما عن جماعة[٣]، وزيارة قبره ترفع العبد إلى مقام زيارة الله سبحانه ، فماذا يكون أثره في دمه الزكي ؟ ولذا ورد في زيارته عليه السلام الواردة بالسند المعتبر الصحيح : « أشهد أنّ دمك سكن في الخلد »[٤] وفي معناه قال بعض أهل المعرفة : ولا مقام أرفع من هذا المقام ، فإنّ سكنى دمه الذي هو من عالم الدنيا ودار الفناء في دار البقاء وجنّة الخلد يكشف عن انقلاب الدم الذي هو من عالم الملك بمجاورة روحه إلى عالم الملكوت ، وأنّه بلغ من الطيب

---

(١) المزار (لابن المشهدي) : ص٤٣٧ ؛ كامل الزيارات : ص٣٢٤ ، ح٤ .

(٢) وسائل الشيعة : ج٦ ، الباب ١٦ من أبواب التعقيب وما يناسبه ، ص٤٥٦ ، ح٤ ؛ بحار الأنوار : ج٨٢ ، ص٣٣٤ ، ح١٦ .

(٣) نقل عن الشهيد أنّ السجود على التربة الحسينية تقبل به الصلاة وإن كانت غير مقبولة لولا السجود عليها . أُنظر مستدرك الوسائل : ج٤ ، الباب ٩ من أبواب ما يسجد عليه ، ص١٢ ، ح١ .

(٤) كامل الزيارات : ص٣٦٤ ، ح٢ ؛ من لا يحضره الفقيه : ج٢ ، ص٥٩٥ ، ح٣١٩٩ .

والطهارة إلى مرتبة قال الله سبحانه : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[١].

فما أعظم شأن دم عظمت رزيته على جميع الخلائق من المادّيات والمجرّدات[٢]!

---

(١) سورة فاطر : الآية ١٠ .

(٢) مقدّمة في أُصول الدين (مقدّمة رسالة الشيخ الوحيد الخراساني دام ظلّه) منهاج الصالحين : ج١ ، ص٣٦٥ ، (بتصرّف) .

الخصوصيّة التاسعة

الحسين عليه السلام باب التوفيق وقبول الأعمال

قد يعمل الإنسان ليل نهار لأجل أداء واجب أو القيام بحقّ يفرضه عليه الشرع أو المسؤولية الإنسانية ، وهو يقصد فيه وجه الله سبحانه ؛ ليكون زاده وذخيرته في آخرته ، وربما يجهد نفسه في العبادة صلاة وصياماً وذكراً وغيرها من أعمال البرّ رجاء أن ينال هذه الغاية ، وهو في عين الحال قد يطمئن بأنّ أعماله جاءت صحيحة بحسب الميزان الشرعي للأعمال ، مستوفية لجميع الأجزاء والشرائط المطلوبة في العمل الصحيح ، ولكن الشيء الذي لا يتمكّن من إحرازه والاطمئنان إليه هو قبول العمل عند الله سبحانه ، واعتباره لديه فينال أجره ، ويحظى بآثاره وبركاته .

وهذه قاعدة عامّة في جميع الأعمال التي يقوم بها العباد لله سبحانه ، سواء في مجال العبادات أو في غيرها مهما عظمت ، وبلغ فضلها ما بلغ ، فإنّ ما بيد العبد صحّة العمل ، وذلك بأن يأتي بالعمل جامعاً لأجزائه وشرائطه

الشرعية ، وأمّا قبوله فليس بيده ، ولكن المستفاد من الأدلّة الشرعية أنّ لهذه القاعدة استثناء يكاد يجزم به العبد ، بأنّ ما يقوم به العبد مهما صغر وتضاءل فإنّه مقبول عند الله سبحانه ، وينال به خيره وبركته ، وهي الأعمال التي يقدّمها الإنسان للحسين عليه السلام من تعظيم وزيارة وبكاء وعزاء ولطم ، أو نظم شعر وكتابة كتاب ، أو نشر مقالة ، أو بناء حسينية ، أو اعتلاء منبر ، أو مواساة له في دم أو عطش أو جوع .

كلّ ما يقدّمه الموالي من أعمال حبّاً للحسين عليه السلام ونصرة لقضيّته وتضامناً مع أهدافه ومواقفه هو مقبول عند الله سبحانه ، وينال صاحبه بها مقاماً معنوياً خاصّاً عند الله سبحانه وعند أهل البيت عليهم السلام ، وتعدّ هذه الحقيقة من المسلّمات التي يشهد لها كلّ من عرف الحسين عليه السلام وتفاعل مع قضاياه في السرّاء والضرّاء وهي من مختصّاته الربّانية ومزاياه ، وقد تواتر النقل لدى العلماء وأهل الفضل بأنّ أكثر شيء ينفع الإنسان في آخرته وينال به مراتب عالية في البرزخ والآخرة هو ما يقوم به الإنسان من أعمال ومشاركات في قضايا الحسين عليه السلام وعاشوراء حتّى باتت من الضروريات اليقينية التي لا يشكّ فيها إلّا من لا يعرف الإمام الحسين عليه السلام أو ضعيف الإيمان .

ومن هنا فإنّ نصرة الحسين عليه السلام وإحياء شعائره من التوفيقات الإلهية

التي لا ينالها كلّ أحد ، بل المستفاد من الأخبار الشريفة ـ كما ستعرف ـ أنّ هناك أُناساً يصطفيهم الله سبحانه لخدمة الحسين عليه السلام وإحياء أمره وذكره في كلّ زمان ومكان يعدهم الأئمّة عليهم السلام خيار شيعتهم ، وهو أمر يتطابق مع موازين العقل والحكمة الإلهية ؛ لأنّ الله سبحانه لا يضيع أجر العاملين ، وقد قدّم الحسين عليه السلام لله سبحانه كلّ شيء ، ولم يبق شيء من الغالي والنفيس إلّا قدّمه لله سبحانه تقرّباً وشكراً وحبّاً ، فكان لابدّ وأن يكافئه الله سبحانه بما يستحقّ ويليق بشأنه فيجعل قبره مزاراً وتربته شفاءً وذرّيته أئمّة وسادة والعمل لأجله مقبول والدعاء عنده مستجاباً ، ويجعل الدنيا والآخرة رهن أمره .

فالعطاء الإلهي للحسين عليه السلام دائم ، وقد اجتمعت فيه شرائط العلّة التامّة فيه من تمامية فاعلية الفاعل وقابلية القابل ، وهو لا محدود ؛ لأنّ الحسين عليه السلام لم يجعل لعطائه وتضحيته حدوداً فأخلص العبودية لله سبحانه ، وجاد لأجلها بكلّ ما ملكت يداه حتّى دمه وأبناؤه وأهل بيته وأنصاره لأجل أن يبقى دين الله سبحانه حيّاً ، ويبقى ذكر الله سبحانه حاكماً في القلوب والأفكار ، وكتابه سيّداً في المجتمع الإنساني ، ودينه منزّهاً من الأباطيل والبدع ؛ لهذا السبب والغاية سألت الله سبحانه أن يمنّ عليّ بتوفيق الخدمة للإمام الحسين عليه السلام لأتشرّف بوسام خدّامه ، وأحظى ولو بشيء

يسير من مقام النصرة له ، وبإظهار موالاته وموالاة أوليائه ، والبراءة من أعدائه ومحاربتهم ولو بالكلمة التي تعرّف بمقام أنصاره والمحبّين لشعائره والمقيمين لذكره بكلّ ما أُوتوا من طاقة ومعرفة ، وهو مقام شريف تمنّته ملائكة الله سبحانه وأنبياؤه وأولياؤه المقرّبون كما نصّت عليه الأخبار المتضافرة ، وتواتر مضمونه في زياراته الشريفة والأدعية الواردة بشأنه كما لا يخفى على العارف المتتبّع .

ومن بركات هذا المقام دوام الحياة في ثلاثة عوالم مع الإمام الحسين والأئمّة عليهم السلام عالم البرزخ وعالم الرجعة وعالم الآخرة ، فإنّ المستفاد من الأخبار أنّ من نصر الحسين عليه السلام بالسيف أو نصره بالحزن والمصيبة يعيشون في البرزخ حياة فاضلة ، ويرجعون مع الإمام الحسين عليه السلام في الرجعة ، وأمّا في الآخرة فيرافقونه مع الشهداء والصدّيقين ، وهذا شرف لا يدانيه شرف ، وغاية ما بعدها غاية ، وقد رجوت بهذا العمل أن تستقرّ نفسي بعمل مقبول عند الله سبحانه يكون لي ذخراً وزاداً في حشري ونشري يوم الحسرة الذي يتمنّى المرء أن يكون قد قدّم لحياته شيئاً مقبولاً محسوباً عند الله سبحانه ، ويكاد يجزم العبد الذي عرف الحسين عليه السلام وأدرك عظمته ومكانته وقربه من الله سبحانه أن لا يوجد شيء يمكن أن ينال به ذلك إلّا نصرة الحسين عليه السلام ومواساته بكلّ ما أُوتي من طاقة ، وهذا ما

يطلبه العبد في زيارة الحسين عليه السلام في عاشوراء ؛ إذ يقول في حالة سجوده : « **اللهمّ ارزقني شفاعة الحسين يوم الورود ، وثبّت لي قدم صدق عندك مع الحسين وأصحاب الحسين الذين بذلوا مهجهم دون الحسين عليه السلام** »[١] وواضح أنّ هذا المقام لا يناله من فاتته الشهادة الجسدية إلّا بالشهادة المعنوية ، أي أن يكون الإمام الحسين عليه السلام حاضراً في قلبه وحبّه ظاهراً على جسده لا ينسى ذكر الحسين عليه السلام ولا يغفل عن إحياء أمره والتذكير بمصائبه وتعظيم شعائره ومواساته بالدمع والدم ، وبكلّ ما ملكت يداه .

---

(١) مصباح المتهجّد : ص٧٧٦ ؛ كامل الزيارات : ص٣٣٢ ، ح٩ .

الخصوصيّة العاشرة

الحسين عليه السلام والفتح الإلهي

لمّا عزم الإمام الحسين عليه السلام على الخروج إلى كربلاء خاطب قومه وأهله : « من لحق بي استشهد ، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح والسلام »[1].

وقد كشف عليه السلام في هذه المقولة المباركة عن سنّة إلهية من السنن العظيمة في حياة البشر ، وهي أنّ الأشياء تقاس بآثارها ونتائجها ، وهي في حقيقتها قاعدة عقلية منطقية وشرعية أثبتتها التجارب ، واقتضتها طبائع الأشياء .

وبهذا المعيار ينبغي أن يحكم على وقائع التأريخ والانجازات البشرية بالانتصارات والهزائم ، وبالنجاح والفشل ، فليست الانتصارات تقاس

---

(١) كامل الزيارات : ص١٥٧ ، ح ٢٠ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٨٧ ، ح٢٣ ؛ المناقب : ج٤ ، ص٧٦ .

بكمية العمل ، ولا بكثرة التمويل والإنفاق ، ولا بالمدّة التي تستغرقها ، بل بمدى الآثار الناجمة عنها ، فالقنبلة الذرّية قد لا تساوي في وزنها طنّاً من التراب أو الحجر ، إلّا أنّها في آثارها تفني ملايين الأطنان منها ، والقلم لا يمكن أن يقاس بالسيف من حيث طوله أو وزنه وغيرهما من المظاهر المادّية ، إلّا أنّه في تأثيره قد يقود الملايين من السيوف ، ويسخّرها لخدمة أهدافه ، وهكذا دور الشاعر والعالم والخطيب والمعلّم ، فالأشياء لا تقاس بوقتها أو كميّتها أو مظاهرها المادّية أو أرباحها الوقتية ، وإنّما بآثارها ونتائجها ، وبهذا المقياس ينبغي أن ننظر إلى عاشوراء وشهادة الإمام الحسين عليه السلام ، كما ينبغي أن ننظر إلى شعائره ومآتمه ومراسم حزنه ؛ وقد اتّفق الباحثون وأهل البصائر على أنّ في عاشوراء تجلّت قيمتان هما :

١ ـ قيمة النصر . ٢ ـ قيمة الفتح .

وبين القيمتين تفاوت في الآثار والنتائج ، ويؤكّد ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾[1] فإنّ العطف في الآية يدلّ على أنّ قيمة الفتح أعلى وأهمّ من قيمة النصر ؛ لأنّ النصر ليس إلّا مقدّمة ، وأمّا الغاية الأساسية التي ينبغي أن يقصدها المجاهد هي الفتح ، وقد فسّرت الآية التي بعدها حقيقة هذا الفتح بدخول الناس في دين الله أفواجاً

---

(١) سورة النصر : الآية ١ .

وجماعات بعد أن كانوا يدخلون فيه فرادى ، وصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام ، فالنصر وإن تحقّق بدخول مكّة إلّا أنّه كانت تقف وراءه غاية أكبر وأهم ، وهي دخول الناس في الإسلام .

وفي آية أُخرى عبّر عن بعض الإنجازات المهمّة بالفتح مع أنّه لم يكن فيه مواجهة ولا حرب كما في صلح الحديبية ؛ إذ قال سبحانه : **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾**[1] وهذا الفتح المبين كان عبارة عن إنهاء حالة الحرب وإيجاد الهدنة بين المسلمين وبين العدو اللدود لهم وهم قريش ، بما ساعد على نشر الإسلام وزيادة قوّة المسلمين ، وتسمية الصلح بالفتح المبين يعود لأسباب :

السبب الأوّل : أنّ هذا الصلح تضمّن الإقرار من قريش بوجود الإسلام والمسلمين وبقوّتهم والإذعان لإرادتهم ، وكان هذا أوّل خطوة في طريق تراجعهم النهائي واندراس آثار الكفر والجاهلية وسيادة حكومة الإسلام ؛ لأنّهم كانوا يعتقدون أنّهم سادة البلاد وقادة العباد ، ويتمتّعون بقيمة معنوية عليا بين القبائل ؛ لكونهم سدنة البيت ورعاة الحرم ، وكانوا لا يقرّون لأحد بشيء من الزعامة والقيادة ، لكنّهم في هذا الصلح أقرّوا

---

(١) سورة الفتح : الآيات ١ ـ ٣.

للنبي صلى الله عليه وآله والمسلمين بأنّهم القوّة التي تشاركهم ، وفي المستقبل ستبطل مزاعمهم ، وتمحي كفرهم وجاهليتهم ، وهذا بحسب موازين الحرب والسياسة يشكّل فتحاً لا نصراً . وفي بعض الأخبار سمّاه النبي صلى الله عليه وآله بأعظم الفتوح[١].

السبب الثاني : أنّ هذا الصلح مهّد الأجواء الاجتماعية والنفسية والسياسية لاختلاط الكفّار والمشركين بالمسلمين فيسمعون القرآن وتعاليم النبي صلى الله عليه وآله ، ويتعرّفون على الإسلام ومبادئه وأهدافه بلا توتّر أو عداوة بما يقودهم إلى الإيمان ، ولذا وردت بعض الأخبار أنّه أسلم في ثلاث سنين خلق كثير ، فكثر بهم سواد الإسلام[٢]، وبهذا يكون النبي صلى الله عليه وآله قد حقّق نصراً معنوياً كبيراً بلا حرب ، بل ينهي حالة الحرب والنزاع بالمسالمة ، ويزيل ظلام الشرك والكفر بنور الإيمان ، وهذا فتح آخر يفوق حالة النصر الحربي والغلبة على العدو بالسيف والقوّة .

السبب الثالث : أنّ هذا الصلح وفّر للنبي صلى الله عليه وآله والمجاهدين من أصحابه فرصة ترسيخ مفاهيم الإسلام في القلوب ، وتوطيد الأرضية

---

(١) تفسير كنز الدقائق : ج١٢ ، ص٢٥١ ، تفسير الآية المزبورة .

(٢) أُنظر مجمع البيان : ج٩ ، ص١٨٢ ، تفسير الآيات المزبورة ؛ بحار الأنوار : ج ٢٠ ، ص٣٤٥ ؛ تفسير نور الثقلين : ج٥ ، ص٤٨ ، ح٩ .

المناسبة لتكوين دولته ، وتطبيق أحكامه العامّة في السياسة والاقتصاد والإدارة والتنظيم العسكري والاجتماعي ، وبإيجاز أوجد هذا الصلح المجال والأرضية الصالحة لتأسيس حكومة الإسلام وتحكيم أُصوله وقواعده في المجتمع الإنساني بعد أن كانت مفاهيمه محصورة بالعلاقات الشخصية والعبادات ، وهذا فتح ثالث يتجاوز مرحلة الاعتراف بالوجود والإقرار بالإيمان والزيادة في عدد الأفراد إلى مرحلة الإيمان القلبي والتجسيد الفكري والثقافي للمبادئ الإسلامية وتطبيقها على الحياة العامّة ، والذي هو الغاية الأهم التي وقفت وراء البعثة ، وهو أن يؤمن الناس بالإسلام ، ويهتدوا إلى نوره بإرادة وفكر وقلب سليم ، ويرسّخوا مبادئه في كلّ صعيد حتّى يقوم الدين في الحياة ، وتتأسّس حضارة للإسلام تبق مع الأيّام تمحي الكفر والشرك والنفاق ، وتشعّ بالنور والخير والمحبّة والهداية إلى التوحيد والعدل في الفكر والعمل .

وهذا ما يشير إليه منطوق الآيات الثلاث ؛ إذ نصّ على أنّ الله سبحانه منح المصطفى ﷺ بهذا الفتح المبين أربع نعم عظيمة هي :

١ ـ الغفران لما مضى وما يأتي من تبعات وآثار معنوية في قلوب الناس .

٢ ـ إتمامه النعمة .

٣ ـ الهداية .

٤ ـ النصر العزيز .

ومعنى النعمة الأُولى أنّ فتح مكّة وظفر النبي صلى الله عليه وآله بأعدائه وعفوه عنهم وقبوله إسلامهم وإذعانهم لحقائقه يمحي الآثار السلبية التي كانت في قلوبهم عن الدين ، ويؤسّس لفهم سياسة الإسلام في المستقبل فهماً متوازناً يمحي العداوات والخصومات ، فإنّ غالب العداوات تنشأ من سببين :

أحدهما : اختلاف الفهم .

وثانيهما : اختلاف المصالح .

فإذا تفهّم الناس حقيقة الإسلام وصدق مبادئه وغاياته ووجدوا مصالحهم متحقّقة فيه فإنّه ينتهي مبرّر الحرب ، وتبطل مبرّرات الصراع ليس فقط على صعيد الحرب العسكرية ، بل حتّى على صعيد الحربين الفكرية والنفسية ، فإنّ المشركين وحلفاءهم حاربوا الإسلام بالدعايات الكاذبة ، واتّهموا النبي صلى الله عليه وآله وأشاعوا عنه الكثير من الأكاذيب ، وخذّلوا الناس وأرجعوهم لكي ينفروا عن الإسلام .

ولكن انقلبت النتائج عليهم بفتح مكّة ؛ إذ انتصر النبي صلى الله عليه وآله والمسلمون ، وظهرت صدق دعواه ودقّة مناهجه وخططه ، وأبطلت كلّ مزاعم الأعداء ، فإنّهم أشاعوا عن النبي صلى الله عليه وآله بأنّه يبغي الحرب والقتال ،

ويفرّق المجتمع ، ويثير الفتن ، ويأبى الحلول السلمية ، ويرفض المساومة والدخول في التفاهم وغيرها من دعايات تشوّه الصورة الناصعة للنبي ﷺ والإسلام ، فكشف صلح الحديبية خلاف ما اتّهموه به ، فأظهر أنّ غاية النبي ﷺ هي الإصلاح والهداية ، وأنّ دينه إلهي ، ومنطلقاته ربّانية لا بشرية ، وأنّ مناهجه تنموية للبشر تدعو إلى المسالمة واحترام الحقوق والوفاء بالوعود ، كما أنّه يحترم الكعبة والحرم الإلهي ، ولا يهاجم أيّة جماعة أو قبيلة لمصالح سياسية ، أو لمطامع دنيوية ، بل هو نبي يحبّ الناس ، ويسعى لهدايتهم وصلاحهم ، ويكرم أنصاره ويحترمهم ، ويوظّف طاقاتهم للخير ، وهو داعية سلام لا حرب ، ورسول حبّ ووئام لا زعيم سياسي أو سلطان .

وواضح أنّ تبدّل ميزان القيم ، وتغيير الانطباع السلبي العام الذي كان سائداً إلى انطباع إيجابي وتحويل الناس من معاندين أو مرتابين إلى مؤمنين بالنبي ﷺ وبرسالته الإلهية من شأنه أن يمحي تبعات الماضي وكلّ ما يتّهم به في المستقبل من قبل الأعداء .

ومن هنا قال سبحانه : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1].

وأمّا النعمة الثانية فهي وضع أهم أُسس بقاء الدين وهو الخلافة

---

(١) سورة الفتح : الآية ٢ .

والإمامة من بعده ، وبهذه النعمة تتحقّق الهداية ، ويرتسم الطريق الذي أراده الباري عزّوجلّ للبشر إلى يوم القيامة ، وإذا آمن الناس بالدعوة واتّبعوا القادة الصالحين واتّضح الطريق الذي يرسم النهج والسياسة العامّة للمجتمع والدولة اجتمعت لديهم عناصر النصر وكانوا منتصرين ، وهو نصر يتمتّع بالقوّة والعزّة والمنعة ، فلا هزيمة ولا تراجع من بعده ، ولذا وصفه بالنصر العزيز . هذا المعنى الذي أشارت إليه الآيات ورد مضمونه في الأخبار الشريفة أيضاً ، فقد ورد أنّه لمّا نزلت سورة الفتح قال صلى الله عليه وآله : « أُنزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ**﴾[1] »[2].

وفي جواب الإمام الرضا عليه السلام للمأمون حين سأله عن معنى قوله سبحانه ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾[3] مع أنّه صلى الله عليه وآله معصوم ؟ قال عليه السلام : « لم يكن أحد عند مشركي مكّة أعظم ذنباً من رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لأنّهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً ، فلمّا جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم ... فلمّا فتح الله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وآله مكّة قال له : يامحمّد ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا**

(١) سورة الفتح : الآية (١) .

(٢) أُنظر مجمع البيان : ج٩ ، ص١٦٥ ؛ تفسير نور الثقلين : ج٧ ، ص٥١ ، ح٣ .

(٣) سورة الفتح : الآية ٢ .

تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[١] عند مشركي أهل مكّة ... لأنّ مشركي مكّة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكّة ، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد إذا دعاه الناس إليه ، فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم » فقال المأمون : لله درّك ياأبا الحسن[٢].

ويتلخّص ممّا تقدّم : أنّ قيمة الفتح في ميزان الشرع أعلى وأسمى من قيمة النصر ؛ لأنّ الفاتح يحقّق الغايات الإلهية ؛ ويرسّخ المفاهيم والقيم الدينية التي أرادها الله سبحانه أن تكون حاكمة في الحياة البشرية ، سواء على مستوى السلوك الشخصي أو مستوى القوانين والأنظمة والأحكام العامّة ، بخلاف النصر فإنّه قد يحقّق غلبة على الخصم في آن ولكنّه ينهزم حضارياً قروناً من الزمان ، ومن هنا أكّدت الأخبار على أنّ مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء ؛ لأنّ دم الشهيد قد يحقّق انتصاراً في المعركة ولكن الذي يبقي قيم الشهيد ، ويحمي مبادئه وأهدافه هو مداد العلماء ، فلولا مداد العلماء لم يكن شهيد ولا شهادة ، ولولاه لم تتواصل مسيرتها في الأجيال . ولمّا يبلغ النصر مستوى الفتح يكون نصراً عزيزاً ؛ لأنّه يعزّز مكانة الفتح والفاتحين ، ويسمو بمبادئها وأهدافها .

---

(١) سورة الفتح : الآية ١ و ٢ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج١ ، ص١٥٥ ، ح١ .

وبهذا الفتح يتّضح أنّ النسبة بين الفتح والنصر هي العموم من وجه ، فقد يكون نصراً لا فتح فيه ، وهذا هو الغالب في نزاعات أهل الدنيا وحروبهم ، فإنّ القوي يتغلّب على الضعيف ولكنّه بما يحمله من أهداف تافهة وغايات رخيصة لا يسمّى فتحاً ، ولذا يبقى في حدود السيطرة والغلبة بالقوّة ، وسرعان ما ينتهي أو تنقلب الموازين فيكون الغالب مغلوباً ، وقد يكون فتحاً لا نصر فيه ، كمداد العلماء الذي ينوّر المجتمعات ، ويهدي الأُمم إلى مصالحها بلا حرب ولا قتال .

وقد يكون نصراً وفتحاً معاً ، كما حصل في فتح مكّة حيث انتصر المسلمون في ميزان القوّة المادّية والقوّة المعنوية معاً ، ولكن ما حصل في فتح مكّة هو انقلاب الموازين ؛ لأنّ المشركين انهزموا فكرياً وعقيدياً أوّلاً ، وتصدّع بنيانهم القائم على قيم الجاهلية في قبال قيم الإسلام ببركة صلح الحديبية الذي كان المنطلق الأوّل لهذه الهزيمة ، ثمّ انهزموا في ميزان القوّة أيضاً ، فالفتح يتعلّق بالانتصار الحضاري والغلبة في الفكر والقيم الحرّة ، بينما النصر يتعلّق بالفتح العسكري والسياسي ، ولا شكّ في أنّ الأوّل أعظم درجة من الثاني ، بل الثاني بحساب الموازين الواقعية للأُمور ليس نصراً ـ بالمعنى الدقيق للكلمة ـ بل غلبة وسيطرة ، وهاتان الصفتان إذا لم تقترنا بالإيمان وسلامة الفكر والسيادة على القلوب والمشاعر فإنّها سرعان ما تزول وتهزم من جديد ، وقد مرّت على الأجيال دول كثيرة وحكّام وملوك

حكموا الناس بالقوّة والغلبة لكن سرعان ما سقطت دولهم ، وزالت قدرتهم ، وقامت وراءهم دول وحكومات أُخرى ، بينما بقيت رسالات الأنبياء عليهم السلام ودعواتهم خالدة مع الزمان تهدي وتربّي وتعلّم ، ولا زال العالم مديناً للجهود الجبّارة التي بذلها الأنبياء وأتباعهم في هذا السبيل مع أنّهم شرّدوا وعذّبوا وقتلوا ، وهذا هو الفتح وهو النصر في ميزان الحقّ والواقع .

وهذه الضابطة ذاتها نلحظها فيما أنجزه الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء وعاشوراء ، فإنّه عليه السلام وصف شهادته المباركة بالفتح حيث خاطب قومه وأهله : « ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح والسلام »[١].

وما هذا الفتح الذي وعد به الإمام الحسين عليه السلام أهله وعشيرته وهو يخبرهم عن الشهادة ؟ وليس ذلك إلّا أنّ تكون الشهادة وقيمها هي مشروع هذا الفتح ومادته .

فهو عليه السلام لا يتحدّث عن النصر ؛ لأنّ ميزان النصر يميل إلى كفّة العدو ، وإنّما يتحدّث عن الفتح ؛ لأنّ ميزانه بيده ، وهذا ما حدث ؛ لأنّه عليه السلام يريد أن يحوّل الشهادة لأجل الله سبحانه وفي سبيل دينه وأحكامه إلى مشروع إلهي عام ترخص لأجله النفس والأهل والولد ، ويصير ذكرى

---

(١) أنظر كامل الزيارات : ص١٥٧ ، ح٢٠ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٨٧ ، ح٢٣ ؛ المناقب : ج٤ ، ص٧٦ .

الشهيد النهج الذي يحيي النفوس المريضة والضمائر الميتة ، ويهزّ في الوجدان البشري قيم الحقّ والعدل والصبر ، ويحرّره من الخنوع والاستسلام لقيم الباطل وأهدافه الشريرة .

وهذا هو منطلق الشعائر الحسينية ، وهو الغاية من وراء إحيائها وترويجها عبر الأجيال والقرون ؛ لأنّها المشروع الذي يكمّل مسيرة الفتح الحسيني ، ويرفد أفكاره ومبادئه وغاياته بالروح والقوّة والطموح ، ويحيي في الناس قيم الخير ، ويكافح قيم الشرّ ، فلولا الشعائر الحسينية وإحياؤها عبر الزمان لأكمل يزيد واليزيديون غلبة الانتصار بالقيم بعد غلبتهم بالسيف ، ولساد الباطل ، واندرس الحقّ ، ولم يعرف الناس عن كربلاء وعاشوراء إلّا السرد التأريخي لبعض الأحداث ، ومرّوا عليها كما يمرّون على قصص ألف ليلة وليلة ، وهذا ما يؤكّده جواب الإمام السجّاد لإبراهيم بن طلحة بن عبدالله لمّا سأله حين رجوعه إلى المدينة مَنْ الغالب ؟ فقال الإمام السجّاد عليه‌السلام : « إذا دخل وقت الصلاة فأذِّن وأقم تعرف الغالب »[1].

بهذا المفهوم والرؤية يجب أن تقرأ عاشوراء ، وبه تظهر أهميّة الشهادة والغاية من إحيائها بكلّ ما يمكن أن تحيا به فكرة ، وينتصر لقضية ، والتي تلخّص بمشروع الشعائر الحسينية بأساليبه وأشكاله المختلفة على ماستعرفه.

---

(١) أمالي الطوسي : ص٦٦ .

الفصل الثاني

في المنشأ الشرعي والعقلائي للشعائر الحسينيّة

وفيه مبحثان :

المبحث الأوّل

في ضرورات تعظيم الشعائر الحسينيّة

هناك أكثر من ضرورة تدعو المؤمنين إلى تعظيم الشعائر الحسـينية بتأسيسها وتفخيمها وترويجها في المجتمع الإنساني فضلاً عن الإسـلامي ، وسنتعرّض إليها ضمن مطالب :

المطلب الأوّل

تعظيم الشعائر ضرورة دينيّة

لا شكّ في أنّ تعظيم الشعائر الحسينية من أحكام الدين العبادية في مقابل الأحكام التعبّدية والتوصّلية ، وقد مرّ أنّ معنى الحكم العبادي هو الحكم الذي أمر به الشرع ، وكشف عن محبوبيته ، وأعطى عليه الثواب وجعله فاضلاً ، ودعا الناس إلى الإتيان به ، نظير الصدقة والسلام على المؤمنين وصلة الرحم والوقف وتشييع الجنائز وزيارة المرضى وقضاء حوائج الأُخوان والنكاح ونحوها ، فإنّ هذه الأعمال ممّا يحبّها الله سبحانه ، ويثيب فاعلها وإن لم يقصد القربة فيها ، فإذا جاء بها بهذا القصد يزداد ثوابها ويعظم ، والإتيان بها مجرّدة عن هذا القصد لا يبطلها ، ولا يجرّدها من ثوابها وفضلها ، وهذا النوع من الأحكام الشرعية ليست كالعبادات الخاصّة مثل الصلاة والصيام ، فإنّهما لا تقعان صحيحتين إلّا بقصد القربة ، فلا يمكن أن تُعد الصلاة عبادة من دون هذا القصد ، كما أنّها ليست

كالأحكام التوصّلية التي لا يترتّب عليها ثواب وفضل إلّا إذا قصد فيها القربة ، نظير النظافة وتطهير الملابس وأداء الديون ونحوها .

ومن الواضح أنّ جميع هذه الأصناف الثلاثة من الأوامر هي من الدين ، والتديّن يتوقّف على الالتزام بها ، وتعظيم الشعائر الحسينية من الصنف الأوّل ، بل تدل الأدلّة الكثيرة على أنّها من أهمّ أُسس الدين ، ومن أُمّهات أحكامه التي يتوقّف عليها بقاؤه ، وتتقوّم أركانه ، وتحفظ أُصوله وفروعه ، ولا إشكال في أنّ التديّن بها من أجلى مصاديق التقرّب إلى الله سبحانه وغفران الذنوب ، ونيل الثواب ، وتحصيل الدرجات المعنوية عند الله سبحانه وأوليائه في الآخرة ، بل هي من أهمّ الذخائر الأُخروية ، وقد شهد الباري عزّوجلّ لمن يعظّم شعائر الله بأنّها من تقوى القلوب ، وأنّ فيها الخير والبركات على ما عرفت تفصيله في تنقيح الكبرى .

ومن هنا دعا النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام إلى تعظيمها والاهتمام بها ، ودعوا لمن أحياها وعظّمها ، وعبّروا عن حبّهم لذلك ؛ وهم قاموا بذلك ، وأعدّوا لها النفوس والأفكار ؛ إذ ورد عنهم : « أحيوا أمرنا رحم الله من أحيا أمرنا ، ودعا إلى ذكرنا »[1] وكانوا هم عليهم السلام يحيونها ويدعون الناس إلى إحيائها .

---

(١) عيون المعجزات : ص ٥ ؛ وانظر بحار الأنوار : ج ٧١ ، ص ٣٥١ ، ح ١٨ .

وروى الصدوق في الخصال بسند معتبر عن أمير المؤمنين عليه السلام : أنّه عليه السلام علّم أصحابه في مجلس واحد أربعمائة باب ممّا يصلح للمسلم في دينه ودنياه[1]، وكان منها ما يتعلّق بتعظيم الشعائر الحسينية ؛ إذ قال عليه السلام : « كلّ عين يوم القيامة باكية ، وكلّ عين يوم القيامة ساهرة إلّا عين من اختصّه الله بكرامته ، وبكى على ما ينتهك من الحسين وآل محمّد عليهم السلام »[2].

وهو دالّ على أنّ البكاء على مصاب الحسين عليه السلام وما انتهك من حرمته من التوفيقات الإلهية التي تتوقّف على اختصاص واصطفاء خاصّ من الله سبحانه ؛ إذ ليس كلّ أحد يتوفّق إلى هذا المقام ؛ لأنّ البكاء عليهم عليهم السلام مقام ورتبة معنوية لا يناله إلّا من أراد الله سبحانه أن يكرمه ويعلّي شأنه ، ولذا تكون عينه في الآخرة قريرة برضا الله سبحانه ورضوانه .

وممّا يلفت النظر قوله : « وبكى على ما ينتهك من الحسين وآل محمّد » فإنّ صيغة المضارع تدلّ على أنّ وقوع الانتهاك لم يختصّ بزمان الواقعة ، بل يجري في الزمان الحاضر والمستقبل ، كما أنّ البكاء عليه سيستمر مع الزمان ولا ينقضي ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ تعظيم الشعائر

---

(١) الخصال : ص ٦١٠ ـ ٦١١ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٦٢٥ .

الحسينية لا تتحدّد بزمان أو بجيل ، وإنّما ستبقى الرافد الذي يمدّ الدين وأهله بالخير والبركة ، ويحقّق للمتديّنين الأمن والأمان في المغفرة والرحمة وحسن الثواب .

وجدير بالملاحظة هنا أنّ المؤمن قد يطمئن من صحّة أعماله وعباداته إذا جاء بها جامعة لأجزائها وشرائطها ، إلّا أنّه لا يتمكّن من ضمان قبولها ، فإنّ ضوابط قبول العمل عند الله سبحانه غير ضوابط الصحّة ، ولكنّه في تعظيم الشعائر يضمن القبول ؛ لأنّها أعمال مرضية عند الله سبحانه بلا قيد وشرط ، ويؤجر فاعلها عليها ، وهذه نكتة مهمّة يتمكّن المؤمن أن يتّخذها طريقاً لضمان الجنّة ، ويختصر الكثير من المسافات لبلوغ هذه الغاية ، ويؤكّد هذه الحقيقة ـ أي أنّ تعظيم شعائرهم عليهم‌السلام ونصرتهم نوع من الاصطفاء الإلهي لا يناله كلّ أحد ـ قوله عليه‌السلام في ذات الحديث : « إنّ الله تبارك وتعالى اطّلع إلى الأرض فاختارنا ، واختار لنا شيعة ينصروننا ، ويفرحون لفرحنا ، ويحزنون لحزننا ، ويبذلون أموالهم وأنفسهم فينا ، أُولئك منّا وإلينا »(١).

ومن الواضح أنّ هذه الأوصاف تنطبق بنحو التطابق التامّ على تعظيم الشعائر الحسينية ، وقوله : « منّا وإلينا » يدلّ على بلوغ المعظّمين

---

(١) المصدر نفسه : ص ٦٣٥ .

لشعائرهم عليهم السلام رتبتين أُخريين :

الأُولى : أنّهم يكونون من آل محمّد عليهم السلام بالتنزيل والاعتبار كما تفيده الإضافة التشريفية إليهم عليهم السلام ، فيكون وزانه وزان قول النبي صلى الله عليه وآله « سلمان منّا أهل البيت »[1].

الثانية : أنّ مرجع المؤمنين الذين يحزنون لحزنهم ويفرحون لفرحهم في الآخرة إليهم ، وحسابهم عليهم ، وهذا يؤكّد ما ثبت في علم الكلام من أنّهم عليهم السلام سادة المحشر ، والحاكمون فيه[2]، ومن الواضح أنّ من ينل هذا المقام ويرجع إلى أوليائه فإنّه يكون مصيره الجنّة لا محالة .

ويتحصّل من مضمون الرواية أنّ الشيعة ليس المحبّين ، بل هم الذين اختارهم الله سبحانه ليكونوا معظّمين لشعائرهم ، يفرحون لفرحهم ، ويحزنون لحزنهم ، ويبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل محبّتهم ونصرتهم ، وبذل المال فيهم هو كلّ مال ينفقه الناس في محبّتهم ، فيشمل ما يبذله الناس في تعظيم شعائرهم بلا إشكال ، وبذل النفوس فيهم ينطبق على معنيين :

أحدهما : أن يضحّي الإنسان بنفسه في سبيلهم .

وثانيهما : أن يوقف نفسه ويبذلها في خدمتهم وإحياء أمرهم

---

(١) الاحتجاج : ج ١ ، ص ١٥١ ؛ مناقب آل أبي طالب : ج ١ ، ص ٧٥ ؛ المختصر : ص ٦٤ .

(٢) أُنظر تفاصيل ذلك في المظاهر الإلهية : ج ١ ، ص ٢٨١ وما بعدها .

وشعائرهم ، وإطلاق الحديث يشمل الاثنين .

وروى العلّامة المجلسي ﷺ في البحار عن بعض الثقات من معاصريه قال : روي أنّه لمّا أخبر النبي ﷺ ابنته فاطمة عليها السلام بقتل ولدها الحسين عليه السلام وما يجري عليه من المحن بكت فاطمة بكاءً شديداً ، وقالت : « ياأبه متى يكون ذلك ؟ قال : في زمان خال منّي ومنك ومن علي عليه السلام » فاشتدّ بكاؤها ، وقالت : « ياأبة فمن يبكي عليه ؟ » ومن يلتزم بإقامة العزاء له ؟ فقال النبي ﷺ : « يافاطمة إنّ نساء أُمّتي يبكون على نساء أهل بيتي ، ورجالهم يبكون على رجال أهل بيتي ، ويجدّدون العزاء جيلاً بعد جيل في كلّ سنة ، فإذا كان يوم القيامة تشفعين أنت للنساء ، وأنا أشفع للرجال ، وكلّ من بكى منهم على مصاب الحسين عليه السلام أخذنا بيده ، وأدخلناه الجنّة ، يافاطمة كلّ عين باكية يوم القيامة إلّا عين بكت على مصاب الحسين فإنّها ضاحكة مستبشرة بنعيم الجنّة »[1] ويتضمّن الحديث عدّة حقائق :

الأُولى : أنّ النبي ﷺ هو الذي أسّس للعزاء والبكاء على الحسين عليه السلام، وكان ذلك قبل شهادته ، وإنّ فاطمة عليها السلام من أوائل الباكين عليه والمحترقين على مصابه ، فأمر تعظيم الشعائر الحسينية لم يكن أمراً مستحدثاً أوجده الشيعة في بعض الأزمنة ، ولم ينتقل إليهم عبر بعض المجتمعات ، وليس هو

---

(١) بحار الأنوار : ج ٤٤ ، ص ٢٩٣ ، ح ٣٧ .

عادات أو موروث قومي ونحوه ، بل هو عقيدة أسّسها النبي ﷺ والأئمّة عليهم السلام من بعده .

الثانية : أنّ إقامة العزاء على الحسين عليه السلام قضية مطلوبة عندهم عليهم السلام ، بل مفروغ منها لديهم ، ولذا سألت الصدّيقة عن الذين يقيمون العزاء ويلتزمون به وليس عن أصل إقامته ، ولا يخفى ما في دلالة قولها يلتزمون من الحثّ على إقامة العزاء والاهتمام والسعي الجاد دائماً في هذا السبيل .

كما أنّ قوله : « نساء أُمّتي يبكون على نساء أهل بيتي ، ورجالهم يبكون على رجال أهل بيتي » يتضمّن الإشارة إلى أنّ مجالس النساء ينبغي أن يكثر فيها ذكر مصائب النساء ، ويكثر في مجالس الرجال مصائب الرجال ، ولعلّ هذا فيه سرّ من الأسرار الغيبية أو أنّه يشير إلى حقيقة تكوينية ؛ لأنّ المرأة أكثر إحساساً بمصاب المرأة ، والرجل بالرجل ، وهذا ما ربّما يؤكّده أنّ شفاعة فاطمة عليها السلام تكون للنساء ، وشفاعة النبي ﷺ للرجال .

كما يلاحظ أنّ النبي ﷺ نسب النساء والرجال إلى أُمّته ، ولعلّه يشير إلى أنّ عموم المسلمين يبكون على الحسين عليه السلام ، وليس الأمر مختصّاً بالشيعة وإن كان الشيعة هم أكثر من التزم بهذا النهج اقتداء بالنبي ﷺ فيه ، وإذا لم يلحظ الحزن والعزاء بادياً على غير الشيعة فذلك ناشئ من السياسة

والتضليل الحاصل ، وقد مرّ عليك أنّ غير الشيعة تركوا الكثير من سنن الإسلام لأنّها صارت شعاراً للشيعة ، أو يتضمّن تخصيص أُمّة النبي بالموالين لآل محمّد ﷺ ؛ لوضوح أنّ الدين الحقّ الذي جاء به النبي ﷺ قد أمر باتّباع عترته في الإيمان والعمل .

الثالثة : أنّ البكاء على الحسين عليه السلام وإحياء أمره من الحقائق التي لا تضعف ولا تنتهي بمرور الزمان ، بل هي في كلّ جيل حيّة وفي كلّ سنة ، كما أنّه من عوامل نيل الشفاعة وضمان الجنّة ، ويلاحظ من منطوق الحديث أنّه اكتفى بالدعوة إلى البكاء وإقامة العزاء ولم يحدّد صيغة البكاء والعزاء ولا أُسلوبه ، فيكون من الموارد التي سكت عنها الشرع وأوكلها إلى العرف ، فكلّ ما يراه العرف أُسلوباً مناسباً للعزاء والبكاء يجوز الإتيان به بهذه النيّة ؛ لما عرفت تفصيله في تنقيح الكبرى من أنّ طرق الإطاعة والمعصية عقلائية ، وهذا يفتح الباب أمام استحداث أساليب للعزاء والبكاء إذا وجدها العرف مناسبة للمصيبة وإظهار الحزن ، ولا يعدّ هذا التجديد من المبتدعات ، ولا من التشريع .

وفي رواية عبدالله بن بكير عن الصادق عليه السلام ورد في حديث طويل أنّه (الحسين عليه السلام) : « لَعَنْ يمين العرش متعلّق به يقول ياربّ أنجز لي ما وعدتني ، وإنّه لينظر إلى زوّاره فهو أعرف بهم وبأسمائهم وأسماء آبائهم وما

في رحالهم من أحدهم بولده ، وإنّه لينظر إلى من يبكيه فيستغفر له ، ويسأل أباه الاستغفار له ، ويقول أيّها الباكي لو علمت ما أعدّ الله لك لفرحت أكثر ممّا حزنت ، وإنّه ليستغفر له من كلّ ذنب وخطيئة »(١).

فإحياء الشعائر الحسينية وتعظيمها الذي من أبرز مظاهره البكاء وإقامة العزاء فيه غفران الذنوب والشفاعة ، وعاقبته دخول الجنّة ، كما أنّه مقام معنوي يصطفي الله سبحانه له بعض عباده ، ويكرمهم به ، ويدخلهم في آل محمّد عليهم السلام اعتباراً وإكراماً ، وهذا ما جرت عليه سيرة النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام ومن قبلهم سائر الأنبياء والمرسلين ، حيث أقاموا العزاء على الحسين عليه السلام ، وذكروا مصائبه ، وجرت منهم الدماء مواساة له عليه السلام ، كما قد يمرّ عليك بعض شواهده .

وعلى هذا النهج جرت سيرة أعاظم الأُمّة من فقهاء وعلماء وأصحاب قلم ومنبر وفكر فضلاً عن تجّار ومفكّرين وساسة والناس عموماً ، وهذا ما تؤكّده سيرتهم في مختلف الأزمنة والأمكنة ؛ إذ كانوا يواصلون تعظيم الشعائر ويتّخذونها طريقاً للعبادة والتقرّب إلى الله سبحانه ، وينالون بها الشرف العظيم وقضاء الحوائج ، وفي كثير من الأحيان كانوا يتحدّون المخاطر الكثيرة من القتل والسجن والتعذيب

---

(١) كامل الزيارات : ص٢٠٦ ، ح٨ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٩٣ ، ح٣٥ .

والأذى والضرّ ، وما ذلك إلّا لأنّهم يؤمنون بأنّ تعظيم الشعائر من أفضل القربات عند الله سبحانه ، وأنّ بها ينال المؤمن رضا الله سبحانه ورضا رسوله ﷺ ويفوز بها في الدارين ، ويكون على أشرف حال وأحسن عاقبة .

وأيضاً فقد تواتر النقل بأنّ كلّ ما يقدّمه المؤمن في إحياء شعائر الحسين عليه السلام يحظى بالقبول عند الله سبحانه ، وينال فيه أعظم الأجر ؛ لأنّ للحسين عليه السلام كرامة خاصّة عند الله أعطته السيادة الكاملة في عالمي الدنيا والآخرة ، وهذه مرتبة أُخرى غير الخصوصيات المعروفة عنه ؛ إذ جعل الشفاء في تربته ، والدعاء مستجاباً تحت قبّته ، والأئمّة من ذرّيته ، وإنّ أيّام زوّاره لا تحسب من أعمارهم[1]، وهي مرتبة قبول الأعمال ومكافأتها بالأحسن . هذه الحقيقة تعدّ من الضرورات في الأخبار ، ومن المسلّمات بين المتشرّعة ، وما من مؤمن يعظّم شعائر الحسين عليه السلام إلّا وقد رأى الكثير منها ، ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعضها :

منها : ما ورد عن صاحب الجواهر قدس سره المتوفّى عام (١٢٦٦هـ) وهو الفقيه الكبير إنّه تمنّى أن يسجّل في ديوان أعماله ثواب القصيدة الأُزرية

(١) عدّة الداعي : ص٥٧ ؛ وسائل الشيعة : ج١٤ ، الباب ٧٦ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٥٣٧ ، ح١ .

للشاعر الحسيني محمّد كاظم الأُزري المتوفّى عام (١٢١١هـ) بدلاً عن ثواب موسوعته الفقهية الجليلة جواهر الكلام[١] إيماناً منه بأنّ تعظيم شعائر الحسين عليه السلام وإحياء ذكر آل محمّد عليهم السلام أعظم من كتاب الفقه ، ولعلّ هذا أحد الأسرار الإلهية الكامنة وراء عظمة صاحب الجواهر وعلو المكانة التي نالها في المحافل العلمية .

ومنها : ما نقل في أحوال الشيخ عبدالكريم الحائري قدس سره مؤسّس الحوزة العلمية في قم المولود عام (١٢٥٦ والمتوفّى في عام ١٣٥٥) وكان قبل ذهابه إلى قم طالباً في كربلاء المقدّسة ، وخرج منها عالماً فاضلاً لتأسيس الحوزة في قم ، وكان من دأبه حتّى أواخر عمره أنّه يبتدئ بحثه بإقامة مجلس عزاء للحسين عليه السلام ، حيث كان أحد الخطباء يقرأ مصيبة الحسين عليه السلام على طلّاب الدرس والشيخ معهم ، ثمّ يبدأ درسه ، وكان يخرج في ليلة عاشوراء مع مواكب المعزّين في أيّام مرجعيته العليا ، ويشارك جميع المعزّين بما فيهم الأطفال ، ويلطم على رأسه وصدره معزّياً رسول الله صلى الله عليه وآله والصدّيقة الزهراء عليها السلام بمصاب الحسين عليه السلام ، فقيل له : إنّ هذا الأُسلوب من

---

(١) ذكر هذه الواقعة المرحوم الشيخ محمّد رضا المظفّر قدس سره في مقدّمته لكتاب تخميس الأُزرية مترجماً لحياة المرحوم الأُزري . المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف ، سنة (١٣٧٠هـ) .

التعزية قد لا يناسب مقامك ؟ فأجابهم : إنّ كلّ ما عندي إنّما هو من بركة الإمام الحسين عليه السلام ، ومفهوم كلامه أنّ هذا الموقف موقف الشكر وأداء الحقّ والواجب فضلاً من أنّه دين وعقيدة ، وهذا موقف لا يتميّز فيه الناس بمقاماتهم ومستوياتهم ، فالكلّ أمام الحسين عليه السلام وأمام مكانة الحسين عليه السلام صغار .

وقد حظي بتوفيق خاصّ من الحسين عليه السلام لم يحظ به إلّا النادر من الفقهاء ، ويكفيه فخراً وشرفاً أنّه مؤسّس للحوزة العلمية في قم التي أنتجت ولا زالت تنتج الآلاف من العلماء والفضلاء والخطباء .

وقد نقل في أحواله أنّه لمّا دنت منيّته وصار في ساعات الاحتضار جاءه ملك الموت ، وقد رأى الشيخ ملك الموت وأعوانه وقد حضروا لقبض روحه ، وكان حينذاك في كربلاء فتوجّه إلى سيّد الشهداء واسترخصه في أن يأذن له بالبقاء ، وقال : إنّنا يجب أن نموت يوماً ما ، ولكن أنا اليوم ليس لى شيء من الأعمال أفد به إلى ربّي فامهلوني فرصة لكي أعمل بعض الصالحات كزاد لآخرتي ، فلبّى الحسين عليه السلام له هذا الطلب . يقول الشيخ : فرأيت الملائكة رجعوا من حيث أتوا ، وكان من آثار هذا العطاء الحسيني له أن وفّق لتأسيس الحوزة ، ولذا كان إلى آخر عمره يقول لابنه : إنّ كلّ ما عندي من البركات والتوفيقات فهي من عطاء

الحسين عليه‌السلام ، وله في هذا المجال مواقف تنمّ عن قوّة إيمان وشدّة ارتباط بهم عليهم‌السلام [(١)].

ومنها : ما نقل عن العلّامة الأميني قدس‌سره المولود عام ـ ١٣٢٠ هـ ـ والمتوفّى عام ١٣٩٠ هـ ـ في كتابه الغدير حيث قال : رأيت والدي بعد وفاته في هيئة جيّدة ومقام جيّد فقلت له : ياأبتاه كيف وصلت إلى هذا المقام ؟ فقال : وصلت إلى هذا المقام ببركة زيارة الإمام الحسين عليه‌السلام . قلت له : إنّ العلاقات متوتّرة بين العراق وايران الآن ولا نتمكّن من الذهاب لزيارته عليه‌السلام فماذا نفعل ؟ قال : عليكم بإقامة مجالس الحسين عليه‌السلام ، وكانت هذه وصيّة العلّامة الأميني نفسه لولده ، وكان يقول : إنّ فيها النجاة في الدنيا والآخرة [(٢)].

ومنها : ما نقل عن أحوال السيّد البروجردي قدس‌سره من شدّة علاقته بمجالس الإمام الحسين عليه‌السلام وشدّة بكائه في مصابه ، وقد استشفى السيّد بغبار المعزّين في مواكب الإمام الحسين عليه‌السلام فشافاه الله سبحانه من ألم عينه ؛ إذ روي أنّ السيّد أنّه كان يعاني من ألم شديد في عينه ، وعجز الأطباء عن معالجته ، وفي أيّام عاشوراء كانت تقصده مواكب العزاء ، وتقيم المأتم في

---

(١) أُنظر درر الفوائد (المقدّمة) : ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) أُنظر الإمام الحسين عليه‌السلام عظمة إلهية : ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

بيته ، وفي أحد الأيّام أخذ من التراب الذي على وجوه وأجسام المعزّين ومسحه على عينه فبرئت .

ويروى أنّ السيّد ﵀ لمّا بلغ التاسعة والثمانين من العمر قام بعض الأطبّاء بفحص عينيه فلم يجد فيهما ضعفاً ، وكان هذا مخالفاً للقواعد الطبية التي تقتضي أن يضعف النظر مع طول العمر[1]، وقريب من هذا روي عن المرجع الميرزا مهدي الشيرازي ﵀[2].

ومنها : ما ذكره بعض المراجع وحكي عن الميرزا النائيني ﵀ أيضاً أنّ العلماء فيما مضى كانوا إذا رأوا اتّفاق ثلاثة من العلماء على فتوى معيّنة يطمئنّون بها ، ويفتون طبق تلك الفتوى ؛ لأنّ فتوى هؤلاء الثلاثة كانت تورث الاطمئنان بوجود مدرك معتبر عليها ، وذلك لدقّة نظر هؤلاء وشدّة ورعهم ، وهؤلاء الثلاثة هم الشيخ مرتضى الأنصاري والمجدّد الكبير الشيرازي والشيخ محمّد تقي الشيرازي قدّست أسرارهم ، والمعروف من سيرتهم أنّ ارتباطهم بالإمام الحسين ﵇ كان وثيقاً ، وكانوا يعظّمون شعائر

---

(١) أُنظر قصص وخواطر : ص٢٠١ .

(٢) وقد روي أيضاً : أنّ عينه آلمته فتوسّل بأبي الفضل العبّاس ﵇ فشفي ، وكان في شيخوخته يرى ساعة الصحن الشريف من فوق سطح الدار ونحن في مرحلة الشباب ولم نكن نتمكّن من رؤيتها ؛ الإمام الحسين ﵇ : ص٢٦ ـ ٢٧ .

الحسين عليه السلام ، ويدعون الناس إليها .

وروي أنّ الشيخ محمّد تقي الشيرازي قدس سره ـ وكان المرجع الأعلى في زمانه ، وتولّى منصبي القيادة الدينية والسياسية معاً ـ كان في يوم عاشوراء يخرج حافياً حاسراً ، ويمشي لاطماً على صدره في مواكب الإمام الحسين عليه السلام يطلب في ذلك التقرّب ونيل الدرجات العالية ، وذكر بعض المراجع أنّ عمل الشيخ هذا هو دليل فقاهته ؛ لأنّه يرى أنّ الإمام الرضا عليه السلام يقول : « إنّ يوم الحسين عليه السلام أقرح جفوننا ، وأسبل دموعنا ، وأذلّ عزيزنا بأرض كرب وبلاء ، وأورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء »[١].

والعين من ألطف الأعضاء في بدن الإنسان ، وحتّى تصاب العين بالتقرّح لابدّ وأن يكون البكاء كثيراً وشديداً ، وأنا لم ولا أتذكّر أحداً تقرّحت عيناه من شدّة البكاء إلّا أنّ الإمام عليه السلام يصرّح بحصوله لهم ، فكم هي درجات الحزن التي كان آل محمّد عليهم السلام يعيشونها ، وواضح أنّ الميرزا قدس سره وهو فقيه كبير يفهم أنّ المصيبة التي أقرحت جفون الإمام الرضا عليه السلام يجب أن يخرج لها حافياً حاسراً ويلطم على صدره[٢].

---

(١) إقبال الأعمال : ج٣ ، ص٢٨ .

(٢) محاضرة لسماحة آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني دام ظلّه بعنوان (معرفة عاشوراء) ؛ وانظر الإمام الحسين عليه السلام عظمة إلهية : ص٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

ومنها : قصّة السيّد بحر العلوم ﵀ (المتوفّى عام ١٢١٢هـ) المعروفة ، بل المتواترة ، وهي عندما ركض في عزاء (طويريج) رأى الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه يركض حافياً حاسراً ينادي بالنصرة لجدّه[١].

ونقل بعض مراجع العصر أنّه رأى عدداً من مراجع التقليد الكبار يشاركون في موكب عزاء (طويريج)[٢]، إلى غير ذلك ممّا يفوق التواتر نقلاً ، ويبلغ المئات والآلاف عدداً ، والتي تتضافر جميعاً وتدلّ على أنّ تعظيم الشعائر الحسينية من صلب الدين والتديّن ، وهو من الأحكام العبادية التي أمر بها الشرع وأرادها ، وهي ليس أمراً استحدثه الشيعة ، ولا جاء من بلاد بعيدة أو قريبة ، بل أسّسه النبي ﷺ والأئمّة ﵈ ، ومضى عليه العلماء والصالحون على طول التأريخ يطلبون به غفران الذنوب وستر العيوب وكشف الكروب والتقرّب إلى الله ونيل رضوانه والفوز بالجنّة ، وهذا ما تؤكّده النصوص المعتبرة والصريحة ، بل في بعض الأخبار أنّ إحياء الشعائر وتعظيم مصائب عاشوراء من مختصّات أُمّة الإسلام ومزاياها على سائر الأُمم ، وليست من مختصّات شيعة أوليائه فقط .

فقد ورد أنّ موسى بن عمران ﵇ سأل الله سبحانه وقال : « إلهي بم

(١) إحياء عاشوراء : ص١٠ .

(٢) المصدر السابق .

فضّلت أُمّة محمّد ﷺ على سائر الأُمم ؟ فقال تعالى : بعشر خصال تختصّ بها هذه الأُمّة المرحومة ، فقال موسى عليه السلام : وما تلك الخصال ؟ فعدّد سبحانه تلك الخصال وعدّ منها (عاشوراء) ، فقال موسى عليه السلام : وما عاشوراء ؟ قال الله تعالى : البكاء والتباكي على سبط المصطفى ، والمرثية والعزاء على مصيبة ولده . ياموسى : ما من عبد من عبيدي بكى أو تباكى أو تعزّى على ولد المصطفى إلّا وكانت له الجنّة ، وما من رجل أنفق ماله في محبّة ابن بنت المصطفى درهماً أو ديناراً إلّا وباركت له في دار الدنيا ، وغفرت له ذنوبه »[١].

ونلاحظ أنّ مضمون هذا الحديث يتوافق مع مضمون حديث الأربعمائة ، والمعنى متواتر في الأخبار ، وتضمّن الإشارة إلى حقيقتين :

الأُولى : أنّ المطلوب في الحزن والعزاء على سيّد الشهداء عليه السلام ليس البكاء فقط ، بل التباكي ، وهو تكلّف إظهار البكاء ، بل والتعزّي بإظهار العزاء وهو ما لا يحصل إلّا أمام الناس وبحضورهم ، ولازم هذا المعنى هو أنّ المطلوب عند الله سبحانه ليس الحزن القلبي أو البكاء الذي يداهم

---

(١) أُنظر مجمع البحرين : ج٣ ، ص١٨٦ ، (عشر) ؛ مستدرك الوسائل : ج١ ، الباب ٤٩ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٣١٩ ح١٢٠٥٨ ؛ مستدرك سفينة البحار : ج٧ ، ص٢٣٥ .

الإنسان فتجري دموعه ، بل الاهتمام وتعمّد إظهار التباكي والحزن والعزاء ، وهذا ما يتحقّق في مجالس العزاء والمواكب العزائية أيضاً ، كما يدلّ بالملازمة على أنّ الشعائر العزائية على الإمام الحسين عليه السلام لا يضرّ بها التظاهر وإراءة الآخرين الحزن والعزاء .

ولعلّ من هنا يرى بعض الفقهاء أنّ الرياء لا يضرّ في الشعائر الحسينية وإن قلّل في الثواب ، ومن درجات القرب التي يحصل عليها المرائي بناءً على أنّ الرياء يصدق موضوعاً في الشعائر ، كما أنّ قوله : (تعزّى) يشمل سائر مظاهر العزاء المعهودة وغيرها ممّا قد تستحدث في المستقبل إذا كانت ضمن الميزان الذي ذكرناه في الكبرى .

الثانية : أنّ أثر إحياء الشعائر الحسينية حتّى بمثل المرثية ونظم الشعر وقراءته فيه الخير والبركة على دنيا الناس ، كما له أثر في غفران ذنوبهم ، ومن الواضح أنّ منطوق الحديث ورد بلسان الوعد الإلهي ، وهو واجب الوفاء ، فيدلّ على حتمية الغفران ودخول الجنّة ، وهذا ما يستفاد أيضاً من قول الرضا عليه السلام : « من تذكّر مصابنا وبكى لما ارتكب منّا كان معنا في درجتنا يوم القيامة ، ومن ذكر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون ، ومن جلس مجلساً يحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت

القلوب »[١].

وقوله عليه السلام : « تذكّر » يفيد تعمّد الذكر والتهيّؤ له فيزداد دلالة على « ذكر » فإنّه بصيغة الماضي يفيد عروض الحالة على الإنسان بلا أن يفقدها ، ويعدّ لها العدّة ، وقوله من « بكى » يشمل ما كان في المجلس أو في مواكب العزاء .

وروى الصدوق رحمه الله بسنده عن الإمام الرضا عليه السلام : « إنّ المحرّم شهر كان أهل الجاهلية يحرّمون فيه القتال ، فاستحلّت فيه دماؤنا ، وهتكت فيه حرمتنا ، وسبي فيه ذرارينا ونساؤنا ، وأُضرمت النيران في مضاربنا ، وانتهب ما فيها من ثقلنا ، ولم ترع لرسول الله صلى الله عليه وآله حرمة في أمرنا . إنّ يوم الحسين عليه السلام أقرح جفوننا ، وأسبل دموعنا ، وأذلّ عزيزنا بأرض كرب وبلاء ، وأورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء ، فعلى مثل الحسين عليه السلام فليبك الباكون ، فإنّ البكاء عليه يحط الذنوب العظام » ثمّ قال عليه السلام : « كان أبي إذا دخل شهر المحرّم لا يرى ضاحكاً ، وكانت الكآبة تغلب عليه حتّى يمضي منه عشرة أيّام ، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه ، ويقول : هو اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السلام »[٢].

---

(١) الأمالي (للصدوق) : ص١٣١ ، ح٤ .

(٢) الأمالي (للصدوق) : ص١٩٠ ـ ١٩١ ، ح٢ .

وفي حديث آخر رواه عن ابن شبيب عنه عليه السلام قال فيه : « يابن شبيب إنّ سرّك أن تلقى الله عزّوجلّ ولا ذنب عليك فزر الحسين عليه السلام ، يابن شبيب إن سرّك أن تسكن الغرف المبنية في الجنّة مع النبي صلى الله عليه وآله فالعن قتلة الحسين عليه السلام ، يابن شبيب إن سرّك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمن استشهد مع الحسين عليه السلام فقل متى ما ذكرته : ياليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ، يابن شبيب إن سرّك أن تكون معنا في الدرجات العلى من الجنان فاحزن لحزننا ، وافرح لفرحنا ، وعليك بولايتنا ، فلو أنّ رجلاً تولّى حجراً لحشره الله تعالى معه يوم القيامة »[1].

وفي الأحاديث الشريفة إشارة إلى عدّة حقائق :

الحقيقة الأُولى : أنّ حرمة الإمام الحسين عليه السلام هي حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وحرمة رسول الله صلى الله عليه وآله هي حرمة الله سبحانه وتعالى ، وهذا ما يؤكّده وصفهم عليهم السلام في بعض الزيارات بأنّه « قتيل الله »[2] و « ثار الله »[3]

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج١ ، ص٢٣٣ ، ح٥٨ ؛ الأمالي (للصدوق) : ص١١٢ ، ح٥ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٨٥ ، ح٢٣ .

(٢) الكافي : ج٤ ، ص٥٧٦ ، ح٢ ؛ كامل الزيارات : ص٣٦٤ ؛ تهذيب الأحكام : ج٦ ، ص٥٥ ، ح١٣١ .

(٣) المصادر نفسها .

ومن هنا قلنا إنّ قاعدة تعظيم الشعائر الإلهية تنطبق في أجلى مصاديقها على الشعائر الحسينية ، فاتّحاد الشعائر الإلهية بالشعائر الحسينية اتّحاد الطبيعي بالفرد .

الحقيقة الثانية : أنّ حزن آل محمّد عليهم السلام على الإمام الحسين عليه السلام والبكاء عليه مستمرّ إلى يوم القيامة ، فلا يفترون ولا يهدؤون ، وهذا يتضامن مع قول الحجّة عجّل الله تعالى فرجه الشريف في زيارة الناحية : « لأندبنّك صباحاً ومساءً ، ولأبكينّ عليك بدل الدموع دماً »[1] وهذا الآخر يؤكّده قوله عليه السلام : « أقرح جفوننا » فإنّ القرح هو الجرح العميق الذي يبقى ولا يندمل ، وهو صفة من لازم البكاء وداوم عليه ، وحيث إنّهم عليهم السلام قدوة وأُسوة ينبغي أن تكون صفة المؤمنين هذه أيضاً .

الحقيقة الثالثة : أنّ قوله عليه السلام : « فعلى مثل الحسين فليبك الباكون » جملة إنشائية تفيد الأمر والمحبوبية الشرعية ، كما أنّه قوله : « يحطّ الذنوب العظام » يدلّ على أنّ البكاء على الحسين عليه السلام يوجب غفران كبائر الذنوب ، كما أنّ زيارته توجب ذلك .

وهذا يدلّ على أنّ ما يرتبط بالإمام الحسين عليه السلام من معالم وعلائم يعدّ من الدين ، ومن أفضل الأعمال الموجبة لغفران الذنوب الكبيرة أو العظائم

---

(١) المزار (لابن المشهدي) : ص٥٠١ .

من الذنوب الكبيرة ، وقوله : « يحط الذنوب العظام » يفيد ما هو أبلغ من الغفران ؛ لأنّ الحط في اللغة الإنزال من علو[١]، ومعناه محو أثر الذنب فلا يبقى منه شيء من آثاره فضلاً عن اثمه وعقوبته ، بينما الغفران هو الستر ، وهو يفيد معنى التغطية على الذنب لا محوه ، ويتوافق معنى الحط مع مضمون قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[٢] بداهة أنّ الإذهاب أبلغ من الإزالة ، وكيف كان فلا يخلو قوله : « يحط الذنوب » من الإشارة إلى محو الذنب وآثاره من قلب المؤمن فضلاً عن صحيفة أعماله .

الحقيقة الرابعة : أنّ إحياء سنّة عاشوراء بالحزن والبكاء ليست من تأسيس الشيعة في الأزمنة المتأخّرة ، بل من تأسيس النبي والأئمّة عليهم السلام ، لا سيّما مراسم العشرة الأُولى من المحرّم ، كما أنّ إحياء يوم عاشوراء بالعزاء والحزن والبكاء العام كذلك هو من تأسيس الأئمّة عليهم السلام ، ومعنى ذلك أنّه من الأُمور التي حدثت منذ صدر الإسلام وليست من المستحدثات الحادثة في الأزمنة المتأخّرة ، وليس فقط عاشوراء ، بل في بعض الأخبار أنّ إحياء الشعائر الحسينية كان رسماً عاماً يقصده الناس ، ويعدّون العدّة له ، كما أنّه

---

(١) أُنظر معجم مقاييس اللغة : ص٢٢٦ ، (حط) ؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص٢٤٢ ، (حط) ؛ لسان العرب : ج٧ ، ص٢٧٦ ، (حطط) .

(٢) سورة هود : الآية ١١٤ .

يعدّ الحدّ الفاصل بين الموالين والمعادين للأئمّة عليهم السلام .

وهذا ما ورد مضمونه في خبر عبدالله بن حمّاد البصري عن أبي عبدالله عليه السلام وهو حديث طويل ، ورد فيه سؤال من الإمام عليه السلام لعبدالله بن حمّاد قال : « بلغني أنّ قوماً يأتونه من نواحي الكوفة وناساً من غيرهم ونساءً يندبنه وذلك في النصف من شعبان ، فمن بين قارئ يقرأ ، وقاصٍ يقصّ ، ونادب يندب ، وقائل يقول المراثي » فقلت له : نعم جعلت فداك قد شهدت بعض ما تصف ، فقال : « الحمد لله الذي جعل في الناس من يفد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا ، وجعل عدوّنا من يطعن عليهم من قرابتنا وغيرهم يهدّدونهم ويقبّحون ما يصنعون »[١].

وهو صريح في أنّ الناس صنفان : صنف ينتصر لآل محمّد ويحيي أمرهم ، وهو مرضي عندهم عليهم السلام ، وصنف معارض ومعترض ومقبّح لتعظيم شؤونهم ، وقد وصف بأنّه عدو لهم عليهم السلام ، وهو صريح في الملازمة بين الوصفين أي تقبيح فعل الموالين في تعظيم الشعائر ووصف العداوة .

ومن الواضح أنّ هذا الوصف قد يكون موضوعياً كما هو حال النواصب والمعادين ، وقد يكون حكمياً وينطبق على من يشاركهم في الوصف والعمل وإن كان في معتقده مؤمناً بهم عليهم السلام ، أو حسن النيّة فيما

(١) كامل الزيارات : ص٥٣٨ ـ ٥٣٩ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٧٣ ـ ٧٤ ، ح٢١ .

يقول ، وهو ما يفيده قوله : « وجعل عدوّنا من يطعن عليهم » فإنّ الجعل يفيد التنزيل والاعتبار ، وتقديم « عدوّنا » وهو ممّا حقّه التأخير يفيد التوسعة في مفهوم العداوة ، فتدبّر .

الحقيقة الخامسة : أنّ حديث ابن شبيب يدلّ على أنّ زيارته عليه السلام تمحي الذنب ، كما تفيده (لا) النافية للجنس في قوله : « تلق الله ولا ذنب عليك » كما يدلّ على أنّ جزاء لعن قتلة الإمام الحسين عليه السلام ليس غفران الذنوب فقط ، بل ضمان الجنّة ودخول غرفها المبنية مع النبي صلى الله عليه وآله .

بينما مواصلة ذكر الحسين عليه السلام وتمنّي نصره يدخل صاحبه في زمرة الشهداء معه في الأجر والثواب ، وأعلى من ذلك منزلة هو أن يكون المؤمن مع آل محمّد وفي درجاتهم في الجنّة ، وهذا المقام لا يناله إلّا من حزن لحزنهم ، وفرح لفرحهم ، وتمسّك بولايتهم .

ومن الواضح أنّ صيغة الأمر تفيد الوجوب إن لم تكن قرينة على الندب والاستمرار عليه ، وهذا ما لا يتحقّق إلّا أن يكون المؤمن معظّماً لشعائرهم في المصائب والأفراح .

والخلاصة : أنّ الجزاء الأُخروي يختلف بحسب مراتب المعزّين والمعظّمين لشعائرهم عليهم السلام ، فأوّل الدرجات هو زيارة الإمام الحسين عليه السلام ، وفيها غفران الذنوب ، وهذه صفة مشتركة قد يقوم بها الموالي وغيره ،

والرتبة الثانية وجوب إظهار اللعن لقتلة الإمام الحسين عليه السلام ، وهو مقام التبرّي من أعدائه ، وهذه من مختصّات الموالين ، فلذا يضمن فيها دخول الجنّة ، والرتبة الثالثة تمنّي الشهادة مع الإمام الحسين عليه السلام ، وهذا يعطيه أجر الشهداء معه ، والرتبة الرابعة وهي الأعلى أن يكون مشتغلاً بأحزانهم وأفراحهم بإحياء أمرهم وذكرهم ، وجزاؤه أن يكون معهم في درجاتهم في الجنّة ، وهذا هو الفوز العظيم ، وهو ما يقتضيه الجمع الدلالي بين المثبتات ؛ إذ لا تنافي بين مداليل الأخبار المذكورة .

ونلاحظ من مجموع ما تقدّم أنّ إحياء الشعائر الحسينية ليست مسألة ذوقية أو عاطفية أو مسألة بسيطة تهمّ عوام الناس ، بل هي قضية دينية عظمى أسّسها الباري سبحانه والنبي صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام ، ودعوا الناس إليها ، وأكّدوا في روايات متضافرة أنّ الذين يعظّمون شعائر الباري سبحانه والحسين عليه السلام هم أصفياء يختارهم الله سبحانه لهذا المقام والرتبة ، وأنّها من أقرب الطرق إلى رضوان الله وجنانه ، فضلاً عمّا يناله العبد من شرف في الدنيا وفي عالم البرزخ .

وكلّ مؤمن يريد الثواب والتقرّب إلى الله سبحانه لا يمكنه أن يهمل الشعائر فلا يشارك فيها ولا يعظّمها ، كيف وإنّ تعظيمها هو تعظيم لله سبحانه وللنبي صلى الله عليه وآله ولسائر الأئمّة الطاهرين ، ومن أحياها بالشروط

المذكورة يخرج عن حيطة الإيمان العادي ، ويصبح من أهل البيت عليهم السلام تنزيلاً وتشريفاً كما عرفته من قول أمير المؤمنين عليه السلام .

ومن الواضح أنّ هذه الضرورة الكبيرة تدعو كلّ حريص على دينه وآخرته أن يهتمّ بها ، ولا يلتفت إلى ما يقوله المشكّكون بها ، أو الداعون إلى تركها .

ومن هنا دأب العلماء والخطباء وأهل الفكر على التسليم في قضايا الإمام الحسين عليه السلام وعدم التشكيك فيها وإن كان المشكّك ذا نيّة حسنة ؛ لأنّ حسن النيّة وحده في قضايا عاشوراء لا يجنّب الإنسان العقوبة الإلهية في التشكيك فيها ، وقد أوصى بعض مراجع العصر الأُمّة لا سيّما الشباب بالالتفات إلى هذه الحقيقة فقال :

إنّني أوصي المؤمنين ولا سيّما الشباب بضرورة إحياء وتعظيم الشعائر الحسينية ، وتجنّب إيراد الإشكالات على العزاء الحسيني والمعزّين ، وليعلموا : كما أنّ الحزن على أبي عبدالله الحسين عليه السلام وتعظيم شعائره وكلّ خدمة في سبيل إقامة مجالس العزاء على مصابه بل حتّى قطرة من الدمع تسكب من أجله غالية جدّاً ، ولها أجر عظيم ، وتطفئ غضب الربّ ، كذلك العكس بالعكس ، فإنّ التعرّض لقضايا الإمام الحسين عليه السلام والشعائر الحسينية ومحاربتها لها عقاب عظيم جدّاً بالنسبة نفسها ... فلا تقصّروا في

تعظيم شعائر الإمام الحسين عليه السلام وزيارته حتّى لا تنتابكم الحسرة يوم القيامة .. كونوا إيجابيين إزاء قضايا الإمام الحسين عليه السلام وشعائره دائماً ، وحتّى لو كنت ترى شيئاً سلبياً في الشعائر الحسينية وترى بديلاً إيجابياً له فلا تصف الأوّل بأنّه سلبي ، بل اعمل أنت بما تراه إيجابياً ، واسع لعمل كلّ ما هو إيجابي في هذا الطريق[1].

وحذّر مرجع آخر من تصغير شأن عاشوراء وانتهاك حرمته ، فقال دام ظلّه : لا تصغّروا قدر هذه الواقعة الكبرى ـ أي عاشوراء ـ اتّقوا الله تعالى ومحارمه وشعائره ، واحذروا العقاب إن صغّرتم شأنها ، فإنّ الحسين عليه السلام العلّة المبقية للدين كلّه من آدم إلى النبي الخاتم صلى الله عليه وآله ، وأحيا علياً عليه السلام إلى آخر الدهر . هذه هي نتائج جهاده وصبره وتضحيته صلوات الله عليه ، بل المسألة فوق ذلك . نقول ذلك لكي تعرفوا واجبكم في إقامة عزاء الحسين عليه السلام وتعظيم مقامه ، فكلّ ما نقوم به من ذلك ليس إلّا يسيراً ، فالواجب الشرعي أن تحفظ الشعائر الحسينية بكلّ قوّة وحسم ، وأن تكون في كلّ سنة أفضل من التي قبلها ؛ لأنّ أساس عاشوراء إذا صار واهناً توجّه الخطر إلى الدين كلّه ، فإنّ بقاء الدين بعاشوراء وبقاء توحيد الله تعالى مرتبط بيوم عاشوراء ، اقرؤوا هذا التعبير وافهموا معنى (وبذل

---

(١) إحياء عاشوراء : ص١٣٨ ـ ١٤٠ ، (بتصرّف) .

فيك مهجته) فقد بذل ﷺ روحه من أجل بقاء توحيد الله تعالى ، فإحياء ذكراه وتعظيمها تعظيم للتوحيد .

لو أنّ علماء المذاهب السنّية تأمّلوا في كلامنا بعين الإنصاف وتابعوا هذا الباب الذي يفتحه لهم حديث « حسين منّي وأنا من حسين »[1] لعظّموا يوم عاشوراء ، ولخرجوا فيه حفاة حاسري الرؤوس ، دامعي العيون ، وأوصوا جميع المسلمين أن يقيموا مراسم العزاء ليوم عاشوراء تفوق مراسم كلّ الحوادث والمناسبات الأُخرى[2].

---

(١) كامل الزيارات : ص١١٦ ، ح١١ ؛ شرح الأخبار : ج٣ ، ص١١٢ ، ح١٠٥٠ ؛ أوائل المقالات : ص١٧٨ .

(٢) محاضرة لسماحة آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني دام ظلّه بعنوان « معرفة عاشوراء » في المسجد الأعظم بقم . (بتصرّف) ؛ وانظر مقدّمة في أُصول الدين لرسالته العملية (منهاج الصالحين) : ج١ ، ص٣٦٠ .

المطلب الثاني
تعظيم الشعائر ضرورة عباديّة

نصّت الأخبار المعتبرة على أنّ زيارة الإمام الحسين عليه السلام والحضور عنده وإحياء ذكره وإقامة الحزن والعزاء على مصائبه من أفضل الأعمال وأحبّها إلى الله سبحانه ، وبها يدخل العبد السرور على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله والصدّيقة الطاهرة وسائر الأئمّة الطاهرين عليهم السلام ، وأنّ زيارته زيارة لهم عليهم السلام[1]، كما ورد في رواية أبي خديجة عن الصادق عليه السلام حيث سأله عن ذلك فقال عليه السلام : « إنّه أفضل ما يكون من الأعمال »[2].

---

(١) بشارة المصطفى : ص١٣٩ ؛ مستدرك الوسائل : ج١٠ ، الباب ٨ من أبواب العمرة ، ص١٨٢ ـ ١٨٣ ، ح٤ ؛ بحار الأنوار : ج٩٧ ، ص١٢٢ ـ ١٢٣ ، ح٢٨ .

(٢) كامل الزيارة : ص٢٧٦ ، ح١ ؛ وسائل الشيعة : ج١٤ ، الباب ٦٥ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٤٩٩ ، ح١ .

وقد وردت بهذا النصّ والمضمون روايات عديدة[1]، وإطلاق هذه الأخبار يدلّ على أفضليتها على سائر المستحبّات والواجبات من العبادات، ولا مجال لاحتمال تقييدها بالمستحبّات ؛ لأنّ لسانها ممّا يأبى التقييد ، وهو ممّا يقضي به العقل والضرورة ؛ لأنّ الزيارة وإحياء ذكر الإمام الحسين عليه السلام من أُصول الدين ، فالعمل بهما يعدّ إقامة للدين وإحياء لأمره ، بينما سائر المستحبّات والواجبات فهي من فروع الدين ، وهي من أجزائه ، ولا شكّ في أنّ الأصل أهمّ من الفرع ، والكلّ أعظم من الجزء . بل إنّ زيارة الإمام الحسين عليه السلام وتعظيم أمره من شؤون الولاية والتولّي لأولياء الله الذي لا يقبل عمل ولا إيمان من دونها .

بل في بعض الأخبار ما يدلّ على أنّ زيارة الإمام الحسين عليه السلام كالصلاة التي هي أهمّ العبادات وأعظم أركان الإسلام ، ففي رواية ابن المختار عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه سئل عن زيارة أبي عبدالله الحسين عليه السلام هل في ذلك وقت هو أفضل من وقت ؟ فقال عليه السلام : « زوروه في كلّ وقت وفي كلّ حين ، فإنّ زيارته عليه السلام خير موضوع ، فمن أكثر منها فقد استكثر من الخير ، ومن قلّل قلّل له ، وتحرّوا بزيارتكم الأوقات الشريفة ، فإنّ الأعمال

---

(١) كامل الزيارة : ص٢٧٧ ، ح٣ ؛ وسائل الشيعة : ج١٤ ، الباب ٦٥ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٥٠٠ ، ح٣ و ٤ ، بحار الأنوار : ج١٠١ ، ص٤٩ ، ح١ .

الصالحة فيها مضاعفة ، وهي أوقات مهبط الملائكة لزيارته »[١].

ونلاحظ أنّ هذه الخصوصيات المذكورة للزيارة امتازت بها الصلاة أيضاً ؛ إذ ورد في الأخبار أنّها خير موضوع ، فمن شاء منها استكثر ، ومن شاء استقل[٢]، وأنّ لها أوقات أشرف من غيرها ، ولها أوقات مخصوصة كأوقات الفريضة حيث يزداد شرفها ومقامها ؛ لأنّها ممّا تشهدها الملائكة .

وفي رواية هشام بن الحكم عن الصادق عليه السلام في بيان الغاية من فرض المداومة على الصلاة في اليوم والليلة . قال عليه السلام : « أراد الله تعالى أن لا ينسيهم ذكر محمّد صلى الله عليه وآله ففرض عليهم الصلاة يذكرونه في كلّ يوم خمس مرّات ، ينادون باسمه ، وتعبّدوا بالصلاة وذكر الله لكي لا يغفلوا عنه فينسوه فيدرس ذكره »[٣].

ونلاحظ أنّ هذه العلّة مشتركة مع زيارة الإمام الحسين عليه السلام وإحياء ذكره ؛ إذ لولا تعظيم الشعائر والمداومة عليها لأنست السياسة الظالمة بما لها

---

(١) إقبال الأعمال : ج١ ، ص٤٥ ـ ٤٦ ؛ وسائل الشيعة : ج١٤ ، الباب ٥٣ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٤٧٣ ، ح٣ ؛ بحار الأنوار : ج١٠١ ، ص٩٨ ـ ٩٩ ، ح٢٩ .

(٢) وسائل الشيعة : ج٥ ، الباب ٤٢ من أبواب أحكام المساجد ، ص٢٤٨ ، ح١ .

(٣) وسائل الشيعة : ج٤ ، الباب ١ من أبواب أعداد الفرائض ونوافلها وما يناسبها ، ص٩ ، ح٨.

من جيوش من المؤرّخين الكذّابين والرواة الوضّاعين والإعلاميين من تشويه الحقيقة كما أنستهم قضايا كثيرة ، حتّى تجد اليوم الكثير من المسلمين يخالفون نهج النبي ﷺ وسنّته في الأُصول والفروع بسبب الدسّ والتزوير الذي أحدثه معاوية ومن سبقه ، إلّا أنّ إحياء ذكر الإمام الحسين عليه‌السلام وتعظيم شعائره هو الذي أبقى الحقيقة ناصعة ، وأحيا الدين ، وكشف الباطل ، وفضح أساليبه .

كما ورد في متضافر الأخبار أنّ من استخفّ بصلاته فقد استخفّ بحرمة رسول الله ﷺ ، وخرج عن نهجه وسنّته ، وحرم من شفاعته[١]، وذاته ورد فيمن يستخفّ بالشعائر ، أو بمن يعظّمها حبّاً لآل محمّد عليهم‌السلام، بل في رواية أبي هارون عن الصادق عليه‌السلام : « من استخفّ بمؤمن فينا استخفّ وضيّع حرمة الله عزّوجلّ »[٢] وذلك لأنّ حرمة المؤمن ناشئة من إيمانه ، ولذا صار أشرف على الله من الكعبة ، وقلبه عرش الرحمان ، فهتك حرمته هتك لحرمة الله وتجرّؤ عليه سبحانه .

وفي الأخبار أيضاً ما يدلّ على أنّ زيارة الإمام الحسين عليه‌السلام وإحياء

---

(١) أُنظر وسائل الشيعة : ج٤ ، الباب ٦ من أبواب أعداد الفرائض ونوافلها وما يناسبها ، ص٢٥ ، ح٧.

(٢) روضة الكافي : ج٨، ص١٠٢ ، ح٧٣.

ذكره أعظم من الحجّ الذي هو الركن الثاني من أركان العبادات في الإسلام بعد الصلاة ؛ إذ ورد في رواية الكاهلي عن الصادق عليه السلام : « أنّه ليس شيء أفضل من الحجّ إلّا الصلاة »[1].

ومن هنا نلاحظ أنّ ثواب الزيارة يعادل آلاف الحجج والعمر[2]، وأنّ الله سبحانه ينظر إلى زوّار الإمام الحسين عليه السلام قبل أن ينظر إلى الحجّاج في عرفة[3]، وأنّ زائره ينال بكلّ خطوة في طريقه ثواب حجّة وعمرة مقبولة ، إلى غيرذلك ممّا هو كثير متواتر[4]، وبذلك يدرك العبد غاية العبادة وروحها ، وهو القرب من المولى عزّوجلّ ، بينما لا يضمن الحاجّ والمصلّي القبول وإن أدّى فرائضه صحيحة من حيث الأجزاء والشرائط ، وأيضاً فإنّ الشعائر الحسينية والكعبة الشريفة تشتركان في أنّهما معاً من شعائر الله سبحانه ، لأنّ الكعبة تتّسم بالرمزية والإشعار بالله سبحانه فتقصد في العبادة والطاعة ونيل الثواب ، وكذلك الشعائر الحسينية فإنّ تعظيمها تعظيم

---

(١) وسائل الشيعة : ج٤ ، الباب ١٠ ، من أبواب أعداد الفرائض ونوافلها وما يناسبها ، ص٣٩ ، ح٣.

(٢) كامل الزيارات : ص٢٧٠ ـ ٢٧١ ، ح٣ ؛ وانظر ثواب الأعمال : ص١٢٢ ـ ١٢٣.

(٣) أُنظر كامل الزيارات : ص٣١٧ ، ح٣ ؛ ثواب الأعمال : ص١١٥ ـ ١١٦ ؛ تهذيب الأحكام : ج٦ ، ص٥٠ ـ ٥١ ، ح١١٦.

(٤) أُنظر نور العين : ص٢٧٤ وما بعدها.

لأعظم شعائر الله سبحانه ، والمشاركة فيها تعدّ من أبرز مظاهر العبادة والطاعة لأمر الله ورسوله والأئمّة الطاهرين عليهم السلام لما لها من رمزية عظيمة تذكّر بالإمام الحسين عليه السلام وبموقفه الربّاني الكبير الذي أحيا الدين وأقام أُصوله وفروعه ، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام : أنّ القيمة الحقيقية في الكعبة الشريفة تظهر في رمزيتها ومكانتها المعنوية(١)، وكذلك الشعائر الحسينية فإنّ أهميّتها ومكانتها المعنوية تكتسب من عظمة الحسين عليه السلام ومقامه الإلهي ، فالاعتقاد بها والتعظيم لها والمشاركة فيها هي أعمال عبادية تقرّب العبد إلى ربّه ، وترتقي به إلى مصاف العباد المطيعين الملبّين لنداء الطاعة في مناسك الحجّ ، وهذا ما يستفاد من جملة النصوص الشريفة الواردة في زيارته عليه السلام .

منها : ما ورد في الكامل بسنده عن أبي حمزة الثمالي عن الصادق عليه السلام يقول في التوجّه إلى الزيارة قل : « لبّيك داعي الله سبعاً ، وقل : إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري ورأيي وهواي ... جئتك انقطاعاً إليك وإلى جدّك وأبيك وولدك الخلف من بعدك ، فقلبي لكم مسلّم ، ورأيي لكم متّبع ، ونصرتي لكم معدّة حتّى يحكم الله بدينه ويبعثكم ... بأبي أنت وأُمّي ياأبا عبدالله ، إليك كانت رحلتي مع بعد شقّتي ،

---

(١) أُنظر نهج البلاغة : ج٢ ، ص١٤٦ ، الخطبة ١٩٢ .

ولك فاضت عبرتي ، وعليك كان أسفي ونحيبي وصراخي وزفرتي وشهقي ، وإليك كان مجيئي ، وبك أستتر من عظيم جرمي »[١].

وكلمة « لبّيك » تذكّر بالتلبية التي يؤدّيها الزوّار في الحجّ ، ولعلّ العدد سبعة يوحي بالطواف بالبيت ، وقد تضمّنت كلمات الزيارة الإشارة إلى عدّة حقائق :

الحقيقة الأُولى : قوله : « إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك » يشير إلى أنّ جميع أرواح المؤمنين مستجيبة لسيّد الشهداء عليه السلام بالنصرة ، ولكن الأبدان كانت مانعة بسبب عدم وجودها في الدنيا في ذاك الوقت ، أو لم تحضر بسبب المانع كالحبس أو الجهل بالواقعة ، وهذا يؤكّد وقوع اختبار العباد في عالم الذرّ ، وتمييزهم بحسب مستوياتهم ودرجاتهم ، وعلى أساس ذاك الامتحان تكون توفيقاتهم ومراتبهم في الدنيا .

الحقيقة الثانية : أنّ الإجابة للإمام الحسين عليه السلام لا تقتصر على إجابة البدن ، بل جميع الأعضاء والجوارح عليها واجب الإجابة والنصرة ، وليس ذلك وحسب ، بل حتّى الرأي والهوى عليهما واجب الإجابة .

ومن الواضح أنّ معنى الإجابة لهذه الأعضاء الجارحية والجانحية لا تتحقّق إلّا بتعظيم الشعائر ؛ لأنّ معنى الإجابة لا تتحقّق لغة ولا عرفاً إلّا

---

(١) أُنظر كامل الزيارات : ص٤٠٣ ـ ٤٠٨ .

بالعمل الظاهر على الجوارح ؛ إذ كيف تتصوّر إجابة القلب ؟ وكيف تتصوّر إجابة السمع والبصر ؟ وكيف تتصوّر إجابة الرأي والهوى ؟ وكيف تلبّي هذه الأعضاء نداء الاستغاثة ؟ واضح أنّ الاجابة فيها لا تتحقّق بحمل السيف والجهاد الحربي ، كما لا يمكن أن يراد منها المعنى المجازي المحمول على المبالغة ، لأنّ المعصوم عليه السلام لا يبالغ في كلامه ، بل يحمل كلامه على المعنى الحقيقي ، وهو الأصل في استعمال الألفاظ في المعاني ، فلابدّ وأن يكون المعنى أنّ للقلب إجابة تناسبه ، وكذا للسمع والبصر ، وهذه الإجابة هي نصرة الإمام في موقفه ، وهذه النصرة تظهر في مراسم الشعائر الحسينية ؛ لأنّها تشترك فيها كلّ الأعضاء والجوارح وجميع الجوانح لدى أدائها من إقامة عزاء وبكاء ونظم شعر وقراءة قصائد وإقامة مجالس أو المشاركة فيها ، وتؤكّد هذه الحقيقة جملة من النصوص الشريفة الواردة في زيارته عليه السلام وهتافات الحبّ ونحوها من مظاهر عاشوراء ، وهذا ما تقتضيه مناسبة الحكم والموضوع .

بداهة أنّ منطوق الاستغاثة في يوم العاشر كان « ألا هل من ناصر ينصرنا ، ألا هل من مغيث يغيثنا ، ألا هل من ذابّ يذبّ عنّا »[1] ولا يمكن أن تتحقّق الاستجابة بمجرّد الحبّ القلبي ، بل لابدّ وأن يظهر القلب

---

(١) أُنظر اللهوف على قتلى الطفوف : ص٦١ ؛ شجرة طوبى : ج٢ ، ص٢١٥ .

النصرة ، وكذا يظهرها السمع ، ويظهرها البصر والرأي والهوى ، ولا يمكن أن تتحقّق هذه مجتمعة إلّا في الشعائر الحسينية ، فإنّها النهج الذي يتضمّن النصرة بكلّ الجوارح والجوانح ، ويكشف عن عمق إيمان المؤمن وصدق حبّه وولائه ، وهذا ما يؤكّده قوله : « ونصرتي لكم معدّة » ولا يمكن أن يكون المؤمن مستعدّاً لنصرته إلّا بصدق الإيمان والحبّ واستحضار الواقعة في عقله وقلبه وجسده ، وهو لا يتحقّق إلّا بتعظيم الشعائر بأنحائها وأصنافها المختلفة ؛ لأنّها جميعاً علّة تامّة للنصرة عرفاً وعقلاً ، وقد ضمّن الشاعر هذا المعنى بقوله :

وما فاتني نصركم باللسان إذا فاتني نصركم باليد[1]

الحقيقة الثالثة : أنّ قوله ﷺ : « إليك كانت رحلتي مع بعد شقّتي » تشبيه آخر بالحجّ ؛ إذ يأتي إليه الناس مع بعد المسافة وشقّ الأنفس ؛ لأجل العبادة وغفران الذنوب وتعظيم الشعائر ؛ إذ قال سبحانه : **﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾**[2] لكن الفرق أنّ الرحلة إلى الإمام الحسين ﷺ مصحوبة بالعزاء وفيضان العبرة ، ومقرونة بالنحيب والصراخ والعويل ، وليس الأمر كذلك في رحلة الحجّ ، وهذه هي الهيئة

---

(١) العمدة : ص١٧٥ ، رقم ٢٦٩ ؛ الغدير : ج٤ ، ص٢٤٢ .

(٢) سورة النحل : الآية ٧ .

التي أفتى الفقهاء باستحبابها في الزيارة .

وقد وردت في فقرة أُخرى : « وارحم صرختي وعبرتي » والصرخة لغة وعرفاً لا تصدق إلّا بالصياح الشديد الذي يبلغ أقصى الطاقة .

وفي فقرة أُخرى يقول : « أنا بكم لجزع ، وأنا بكم لموجع محزون ، وأنا بكم لمصاب ملهوف » والجزع في اللغة والعرف فقدان الصبر على النائبة النازلة(١)، والوجع اسم جامع لكلّ مرض مؤلم ، والجمع أوجاع(٢)، وهو غاية الألم ، فهو أخصّ ؛ لأنّ الألم قد يكون ظاهراً ، وقد يكون مكتوماً ، ولذا عرّفه أهل الحكمة بالشعور بما يضادّ اللذّة ، سواءً أكان شعوراً نفسياً أو خلقياً(٣)، إلّا أنّ الوجع هو الألم الظاهر الذي لا يمكن كتمانه أو إخفاؤه ، والمصاب الذي نزلت به المصيبة ، وهي كلّ مكروه يحلّ بالإنسان(٤)، والملهوف محترق القلب ، المتحسّر والمكروب(٥)، والمضطرّ

---

(١) معجم مقاييس اللغة : ص١٩٧ ، (جزع) ؛ القاموس : ص٦٥٣ ، (جزع) ؛ لسان العرب : ج٨ ، ص٤٧ ، (جزع) .

(٢) معجم مقاييس اللغة : ص١٠٤٤ ، (وجع) ؛ القاموس : ص٧١٠ ، (وجع) ؛ لسان العرب : ج٨ ، ص٣٧٩ ، (وجع) .

(٣) المعجم الوسيط : ج١ ، ص٢٥ ، (ألم) .

(٤) المعجم الوسيط : ج١ ، ص٥٢٧ ، (صوب) .

(٥) أُنظر معجم مقاييس اللغة : ص٢٩٠ ، (لهف) ؛ القاموس : ص٧٨٨ ، (لهف) .

المظلوم ينادي ويستغيث[١].

وتدلّ هذه المفردات على أنّ المطلوب من المؤمن الموالي أن يكون في أقصى حالات التفجّع والجزع على الحسين عليه السلام ومصائبه ، فاقد الصبر ، محترق القلب ، صارخاً باكياً نادباً مكروباً مستغيثاً متألّماً متوجّعاً ، وأن لا تكون هذه هيئته وحالته في ساعة أو أيّام ، بل في كلّ الأوقات والحالات كما تفيده لام التأكيد واسم المفعول اللذان باجتماعهما يفيدان الدوام والاستمرار .

ومن الواضح أنّ المؤمن إذا احترق قلبه لا يمتلك نفسه ، ولابدّ وأن يجزع ويفقد صبره ، وإذا نفذ الصبر لابدّ وأن يكون صارخاً متوجّعاً متألّماً مكروباً مستغيثاً لا يهدأ له بال ، ولا ترقأ له دمعة ، ولا تسكن له نفس حتّى يواسي سيّده ومولاه بكلّ ما عنده من مال وبدن ودم .

وهذه الحالة هي النتيجة الطبيعية لكلّ محترق القلب محزون موجوع ، وكلّما اشتدّ الشعور بالمصاب وزاد احتراق القلب اشتدّت مظاهر المواساة والمشاركة في الألم والجزع ، وهذه الحالة بما لها من صفات ومظاهر لا تعبّر عنها الندوات أو المحاضرات أو مجالس الذكر ، بل مواكب اللطم واللدم والصراخ والإدماء وضرب السلاسل ونحوها من مظاهر عزائية ، وهذه

---

(١) لسان العرب : ج٩ ، ص٣٢٢ ، (لهف) .

هي الأُخرى لم تطفئ إلّا بعض مشاعر المحبّين المحترقين من ألم المصيبة .

والغاية من ذلك كلّه هو تحصيل الدرجات المعنوية وغفران الذنوب وطلب الأجر والإحسان في الدنيا وفي الآخرة ؛ إذ يقول الزائر عند بلوغه القبر منكبّاً عليه : « ياسيّدي أتيتك زائراً .. أتقرّب إلى ربّي بوفودي إليك ، وبكائي عليك ، وعويلي وحسرتي وأسفي وبكائي ، وما أخاف على نفسي رجاء أن تكون لي حجاباً وسنداً وكهفاً وحرزاً وشافعاً ووقاية من النار غداً ، وأنا من مواليكم الذين أُعادي عدوّكم ، وأُوالي وليّكم . على ذلك أحيا ، وعليه أموت ، وعليه أُبعث إن شاء الله »[١].

ونلاحظ هنا أنّ الإمام عليه السلام وصف الموالي بصفتين تشكّل أهمّ أركان الإيمان والعقيدة الصحيحة ، وهما التولّي والتبرّي ، وإنّ هاتين الصفتين تنعكس على كلّ حياة الإنسان حتّى آخرته .

الحقيقة الرابعة : أنّ هذا الشعور والفهم الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن في زيارة الإمام الحسين عليه السلام وإقامة عزائه لا يقتصر على أوقات خاصّة ، أو أيّام من السنة ، بل هو مطلوب شرعاً في جميع حياة المؤمن منذ ولادته إلى مماته ، وإلى ساعة حشره ونشره ؛ لأنّ هذا النهج هو الذي يضمن فيه المؤمن رضا الله سبحانه ورضا رسوله صلى الله عليه وآله ، ويوجب غفران

---

(١) كامل الزيارات : ص٤١٨ ـ ٤١٩ .

الذنوب وعلو الدرجات ، فحياة المؤمن الموالي في نهـجه الاعـتقادي وفي مشاعره ومواقفه منقسمة بين التولّي والتبرّي ، فيوالي أولياء الله سـبحانه وينصرهم ، ويتبرّأ من أعدائه ويعاديهم ، ومن الواضح أنّ الموالي لا يمكن أن يكون معادياً لأعداء الإمام الحسين عليه السلام إلّا بالعمل .

ويتحصّل من منطوق هـذه الفـقرات الشريـفة أنّ تـعظيم الشـعائر الحسينية هو من أجـلى مـصاديق نـصرة الإمـام الحسـين عليه السلام والإجـابة لاسـتغاثته واسـتنصاره ، وهـذه الإجـابة تـتضّمن إعـلان الولاء للإمـام الحسين عليه السلام والبراءة من أعدائه ليس بـالسيف فـقط ، بـل بـالقلب وكـلّ الجوارح والجوانح والتي في مجملها تجـتمع في الشـعائر الحسـينية بأنحـائها المختلفة .

ومن الجهات المشتركة بين تعظيم الكعبة وتعظيم الشعائر الحسـينية هو أنّ الاثنين صارا محلاً لاختبار النـاس وامـتحانهم ، فـبتعظيم الكـعبة وزيارتها يتميّز المؤمن من الكافر والمنافق ، كما يتميّز المطيع من العاصي ، وكذلك في الإمام الحسين عليه السلام وشعائره ، فإنّها كانت ولا زالت السكّة التي تكشف حقائق الناس وتميّزهم .

ففي عاشوراء سقط الآلاف من النـاس في الامـتحان حـينما خـذلوا الإمام الحسين عليه السلام ولم ينصروه ، فضلاً عن الذين شاركوا في قتله ، أو رضوا

بذلك ، وفاز آخرون نصروه وجاهدوا معه ، وفي كلّ عام وحينما تأتي عاشوراء تتجلي فيها حقائق الناس وجواهرهم ، فيتميّز المؤمن عن ضعيف الإيمان ، والذي يقف موقف الناصر المعين الموالي لولي الله والمحارب لأعدائه من الآخر الذي يقف موقف المتفرّج أو المشكّك الذي يخذل الناس ويستهزئ بإيمانهم ومواقفهم البطولية في نصرة الإمام الحسين عليه السلام وقضيّته .

في كلّ عام يفوز أُناس بالإمام الحسين عليه السلام ويخسر آخرون ، وكلّ يحصد جزاء عمله ، فإنّ الله سبحانه أراد للإمام الحسين عليه السلام أن يكون الحدّ الفاصل بين الحقّ والباطل ، وبين الإيمان والشكّ ، وقد كان ولا زال الذين يقفون في وجه الإمام الحسين عليه السلام ويثبّطون الناس عن زيارته أو إحياء شعائره بالكلمة أو الموقف أو الشعار وغير ذلك من أساليب من طبقة الحكّام الظلمة وأصحاب الدنيا الذين لا يريدون للحقيقة أن تظهر ، ولا للحقّ أن ينتصر ، بينما الذين يقفون مع الإمام الحسين عليه السلام في كلّ شؤونه هم المؤمنون والعلماء الربّانيون وأهل الضمائر الحرّة ، وهذا المعنى يؤكّده الإمام الحسين عليه السلام إذ كان يقول في قنوته : « وأعذ أولياءك من الافتتان بي »[1] ومعنى الافتتان هنا الامتحان الذي يوجب فتنة الإنسان وسقوطه ، وهذا

---

(١) بحار الأنوار : ج٨٢ ، ص٢١٤ ، والدعاء مروي عن طريق النائب الخاصّ للإمام الحجّة عجّل الله تعالى فرجه الشريف .

المضمون خاصّ ورد في الإمام الحسين عليه السلام ، وقد ذكر بعض مراجع العصر أنّه لم ير في أي دعاء من أدعية المعصومين عليهم السلام مثل هذا الدعاء[1].

ونلفت النظر هنا إلى حقيقة وهي أنّ الإمام عليه السلام يستعيذ الله سبحانه من أن يمتحن الأولياء به عليه السلام ، ومعنى ذلك أنّ الذين يبتلون بهذا الامتحان هم الموالون للإمام لا غيرهم ، وهو ما تقتضيه القواعد والأُصول ؛ لأنّ الذين لا يؤمنون بأهل البيت والأئمّة عليهم السلام لا يوصفون بأولياء الله ؛ بداهة أنّ من يتولّى الذين بدّلوا وخالفوا النبي صلى الله عليه وآله وعصوه في عترته وأهل بيته عليهم السلام لا يمكن أن يتّصفوا بهذه الصفة ، فالذين يتعرّضون إلى الامتحان بالإمام الحسين عليه السلام هم الموالون ، وأمّا غيرهم فقد فشل في امتحانه الأوّل حينما خذل نبيّه في عترته ، واتّبع غيرهم عليهم السلام .

ومن الواضح أنّ هؤلاء جميعاً يعتقدون بالإمام الحسين عليه السلام كإمام مفترض الطاعة ، وإلّا لم يسمّوا بالأولياء ، فلابدّ وأن يكون امتحانهم بالإمام الحسين عليه السلام هو في شعائره والمراسم المنسوبة إليه ، وقد مرّ عليك بعض الأخبار التي تنصّ على أنّ قوماً يحرّكهم الشيطان وحبّ الدنيا يستهزئون بشعائر الإمام الحسين عليه السلام ، ويشكّكون بها ، ويخذّلون الناس عنها ، وأكّد الأئمّة عليهم السلام أنّ هذا النهج منزلق خطير لا يمكن أن يسلم صاحبه

---

(١) أُنظر إحياء عاشوراء : ص١٤٧ .

من حساب وعقاب ؛ لأنّه في النتيجة يتضامن مع موقف المحاربين للإمام الحسين عليه السلام ، والداعين إلى خذلانه وإن كان الشخص المشكّك أو المستهزئ غير ملتفت إلى هذه النتيجة أحياناً ؛ لأنّ النتائج التكوينية تتبع مقدّماتها ، والعلم والجهل لا يغيّر منها شيئاً .

ويكفي شاهداً على هذا هو أنّ نهج الاستهزاء والتشكيك هو نهج أعداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام الذين يكفّرون المسلمين ، وينسبون الناس إلى البدعة . هؤلاء أقلّ ما يقال عنهم إنّهم جهلاء بالدين وبالموازين العلمية ، فلا ينبغي للمؤمن أن يستمع إليهم ، أو يتأثّر بما يقولون ؛ لأنّهم لا يستهزئون بالشعائر الحسينية فقط ، بل يستهزئون بالكثير من معالم الدين ، ولهم مناهج في محاربة الدين وهتك حرمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتعطيل مفاهيم القرآن والسنّة عن الحياة بدعوات فارغة تخدم أعداء الدين ، وتضرّ بمصالح المسلمين ، وتفرّق كلمتهم .

هذا وأسأل الله سبحانه أن يوفّقنا لأن نستعرض بعض الإشكالات التي يثيرونها حول تعظيم الشعائر الحسينية في الأبحاث القادمة ، ونعرضها على الموازين العلمية والشرعية ، ونناقش محتواها ونتائجها نصرةً للحسين عليه السلام وانتصاراً للحقيقة .

المطلب الثالث

تعظيم الشعائر ضرورة حضارية

إنّ الصفات الحضارية قد تطلق بلحاظ المظاهر المادّية للحياة من قبيل الأبنية والشوارع والحدائق ونحوها ، وهو ما يعبّر عنها بالمدنيّة ، وتسمّى حضارة أيضاً باعتبار أنّها تحظى بصفات الحضر في مقابل البداوة ونحوها ، وقد تطلق على الجانب المعنوي ؛ لأنّ صفات الناس الأخلاقية والفكرية فيها ما يتوافق مع الرقي الإنساني ، وفيها ما يعكس خلاف ذلك من حيث مستوى التفكير ومستوى العمل وأساليب المعاملة ، وهذا هو المقصود في مصطلح الحضارة ، والأوّل إذا أطلقنا عليه عنوان الحضارة فهو من باب المجاز والتسامح ، فالأُمّة المتحضّرة هي التي تملك فكراً ونظاماً للسلوك والمعاشرة يليق بالكمال الإنساني ، والصفة الحضارية في كلّ أُمّة تتقوّم بسيادة خصوصيات الأُمّة في جميع مجالات حياتها ؛ لأنّ الخصوصيات الذاتية لكلّ أُمّة تشكّل هويتها وشخصيتها الحقيقية ، وأبرز هذه الخصوصيات ثلاث هي :

١ ـ أفكارها ومعتقداتها .

٢ ـ أخلاقها وروابطها الاجتماعية .

٣ ـ تأريخها وأصالتها .

فلا يمكن أن تشكّل هويّة حضارية للأُمّة من دون معتقدات تشكّل أفكارها الخاصّة ، وأخلاق تنظّم سلوكياتها ، وتأريخ يربطها بجذورها وأُصولها ، وهذه سمة هامّة تتميّز بها الأُمم الحضارية عن غيرها ، وهي التي تشكّل عوامل النصر والهزيمة في المواجهات والتحدّيات .

ومن هنا نلاحظ أنّ الصراع السياسي والحضاري بين الأُمم يكمن في هذه الخصوصيات دائماً أو غالباً ، فالعدو الخارجي إذا أراد أن يحكّم سيادته وسيطرته على أي أُمّة فإمّا يهزم أفكارها ، أو يحطّم أخلاقياتها ، أو يقطعها من جذورها التأريخية ، والأُمّة المنتصرة لابدّ وأن تحفظ هذه العناصر الثلاثة لكي تتمكّن من مواجهة تحدّياتها ، وهذه قضية حقيقية أثبتها التأريخ ، وينصّ عليها الكتاب والسنّة ، ويقضي بها العقل ، ويقرّها علم النفس الاجتماعي ، فالأُمم المهزومة تهزم أوّلاً في خصوصياتها ، والأُمم المنتصرة حضارياً تنتصر عبر هذه الخصوصيات الثلاث أوّلاً .

ومن هنا تتمسّك كلّ أُمّة بالرموز والمبادئ التي تحفظ هويتها وخصوصياتها ، ومن أعظم الرموز التي تحفظ هوية الأُمّة المسلمة الحضارية هي تعظيم الشعائر الحسينية ، وهذا ما يمكن إدراكه عبر النظر إلى آثارها السياسية والاجتماعية ، وأبرزها ثلاثة :

الأثر الأوّل : تعظيم الشعائر فتح معنوي

أنّ تعظيم الشعائر تتضمّن الفتح المعنوي الذي دلّت عليه النصوص ، فإنّ الإمام الحسين عليه السلام وصف إحياء ذكره وأمره بالفتح ، وهو لا ينطبق إلّا على الآثار والبركات المادية والمعنوية المترتّبة على ذلك ؛ إذ روى ابن قولويه بسنده عن زرارة عن الصادق عليه السلام : « أنّ الحسين عليه السلام كتب وصية لبني هاشم حين خروجه لكربلاء جمعها في جملتين خبريتين يقول فيها : بسم الله الرحمن الرحيم .. أمّا بعد فإنّ من لحق بي استشهد ، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح والسلام »[1].

ولعلّ أقرب المعاني إلى منطوق الحديث هو أنّ بشهادة الإمام الحسين عليه السلام والشهادة معه يكون الفتح ، وليس المقصود الفتح العسكري الذي يحصل بانتصار جيش على جيش ؛ لأنّ هذا لم يحصل في عاشوراء ، وإنّما الفتح المعنوي الذي يوجب انتصار الروح والفكر والأخلاق والقيم على الجيش الآخر وإن كان المنتصر مقتولاً والمهزوم قاتلاً ... وهذا ما يدلّ عليه المعنى اللغوي والعرفي لمفردتي « بلغ » و « الفتح » ، فإنّ معنى البلوغ

---

(١) كامل الزيارات : ص١٥٧ ، ح ٢٠ ؛ وانظر مختصر بصائر الدرجات : ص٦ ؛ مناقب آل أبي طالب : ج٣ ، ص ٢٣٠ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٨٧ ، ح٢٣ .

في اللغة والعرف هو الوصول إلى الشيء[1]، والفتح إزالة الاغلاق والإشكال ، وهو هنا بمعنى النصر والظفر[2]؛ لمناسبة الحكم والموضوع أُطلق عليهما فتح باعتبار أنّه يزيل مغالق العدو ، ويرفع مشكله ، وفيه ورد قوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[3] لأنّه سبحانه نصر النبي وأظفره على خصومه مادّياً ، وفتح عليه من العلوم والهدايات التي هي الذريعة إلى التقرّب والمقامات المحمودة[4].

وتؤكّد الروايات ووقائع التأريخ والوجدان البشري أنّ الإمام الحسين عليه السلام انتصر على دولة بني أُميّة حتّى أزالها ، وصار قدوة كلّ صاحب حقّ وفضيلة يريد أن ينتصر لحقّه ، وكان ولا زال قادة العالم وزعماؤه وبعض كبار الساسة وأصحاب النهضات يستلهمون منه روح الصبر والتحدّي والثبات على المبدأ ، والدفاع عن الحقوق ، وهو

(١) أُنظر معجم مقاييس اللغة : ص١٣٧ ، (بلغ) ؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص١٤٤ ، (بلغ) .

(٢) معجم مقاييس اللغة : ص٨٠٥ ، (فتح) ؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص٦٢١ ، (فتح) ؛ المعجم الوسيط : ج٢ ، ص٦٧١ ، (فتح) .

(٣) سورة الفتح : الآية ٢ .

(٤) أُنظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص٦٢١ ، (فتح) .

مع كلّ ذلك عبرة كلّ مؤمن(١)، وقبره مظهر المعجزات والكرامات الإلهية ، وترابه شفاء الأمراض ، ومشهده مقصد ملايين الخلق ، والزمان والمكان في العالمين العلوي والسفلي مشغول بذكره ، وإقامة العزاء له ، والدعاء لأنصاره وزوّاره ، واللعنة على أعدائه ومخالفيه . وإنّ محبّه وناصره وجيه في الدنيا ووجيه في الآخرة ، وهذا الفتح المبين ليس ممّا يفرضه ميزان العدل في الوجود فقط ، بل هو من الوعود الإلهية للحسين عليه السلام وأنصاره .

فقد روى في الكامل بسنده عن قدامة بن زائدة عن أبيه ـ والحديث طويل نقتطع منه محلّ الشاهد ـ قال : قال علي بن الحسين عليهما السلام : « إنّه لمّا أصابنا بالطف ما أصابنا وقتل أبي عليه السلام وقتل من كان معه من ولده وأُخوته وسائر أهله وحملت حرمه ونساؤه على الأقتاب يراد بنا الكوفة ، فجعلت أنظر إليهم صرعى ولم يواروا ، فيعظم ذلك في صدري ، واشتدّ لما أرى منهم قلقي ، فكادت نفسي تخرج ، وتبيّنت ذلك منّي عمّتي زينب الكبرى بنت علي ، فقالت : مالي أراك تجود بنفسك يابقيّة جدّي وأبي وإخوتي ؟ فقلت : وكيف لا أجزع وأهلع وقد أرى سيّدي وإخوتي وعمومتي وولد عمّي

---

(١) كامل الزيارات : ص٢١٤ ، ح١ ؛ وص٢١٥ ، ح٢ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٨٠ ، ح١١ .

وأهلي مضرّجين بدمائهم ، مرمّلين بالعراء مسلّبين ، لا يكفّنون ولا يوارون ، ولا يعرّج عليهم أحد ، ولا يقربهم بشر ، كأنّهم أهل بيت من الديلم والخزر ؟ فقالت : لا يجزعنّك ما ترى ، فوالله إنّ ذلك لعهد من رسول الله ﷺ إلى جدّك وأبيك وعمّك ، ولقد أخذ الله سبحانه ميثاق أُناس من هذه الأُمّة لا تعرفهم فراعنة هذه الأُمّة ، وهم معروفون في أهل السماوات أنّهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرّقة فيوارونها ، وهذه الجسوم المضرّجة ، وينصبون لهذا الطف علماً لقبر أبيك سيّد الشهداء لا يدرس أثره ، ولا يعفو رسمه على كرور الليالي والأيّام ، وليجتهدنّ أئمّة الكفر وأشياع الضلالة في محوه وتطميسه فلا يزداد أثره إلّا ظهوراً ، وأمره إلّا علواً »[(١)].

ثمّ سأل الإمام عليه السلام عمّته الصدّيقة الصغرى عن عهد رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام في ذلك ، ففصّلت له الحديث رواية عن أُمّ أيمن ، وسألت أمير المؤمنين عليه السلام عن حديث أُمّ أيمن فصدق كلّ ما قيل ، ثمّ قال عليه السلام رواية عن رسول الله ﷺ : « إنّ إبليس لعنه الله في ذلك اليوم ـ أي يوم عاشوراء ـ يطير فرحاً فيجول الأرض كلّها في شياطينه وعفاريته ، فيقول : يامعشر الشياطين قد أدركنا من ذرّية آدم الطلبة ، وبلغنا في هلاكهم الغاية ، وأورثناهم النار إلّا من اعتصم بهذه العصابة ، فاجعلوا شغلكم بتشكيك

---

(١) كامل الزيارات : ص٤٤٥ ، ح١ .

الناس فيهم وحملهم على عداوتهم وإغرائهم بهم وأوليائهم حتّى تستحكم ضلالة الخلق وكفرهم ، ولا ينجو منهم ناج ، ولقد صدق عليهم إبليس وهو كذوب أنّه لا ينفع مع عداوتكم عمل صالح ، ولا يضرّ مع محبّتكم وموالاتكم ذنب »[١].

ومنطوق الحديث يدلّ بالدلالات اللفظية الثلاث على عدّة حقائق :

الحقيقة الأُولى : أنّ قبر الحسين عليه‌السلام من أبرز معالم الدين ومظهر نور الله سبحانه ، وأنّه على مرور الزمان يتعرّض للأذى والظلم ومحاولات الطمس من قبل الظلمة وأشياعهم ، إلّا أنّ الله سبحانه حيث جعله مظهر نوره يعكس المعادلة عليهم ، فكلّما اشتدّت الحرب عليه ازداد علواً وارتفاعاً ، وشاع أمره وذكره ، فيكون الحجّة البالغة على الخلق ، وهذه كرامة خاصّة منحها الله سبحانه للحسين عليه‌السلام تمضي على مخالفة السنن والقوانين التكوينية ؛ لأنّ هذه السنن تقضي بأنّ الظلمة والطغاة إذا دبّروا وخطّطوا وجهدوا لأجل محو حقيقة وطمس آثارها فإنّها تضعف أو تنسى ، وربّما يزيلونها ، لا سيّما إذا استمرّت الحرب قروناً طويلة ، إلّا أنّ الإمام الحسين عليه‌السلام يخرق هذه القاعدة ، فكلّما اشتدّ الضغط على قبره أو أمره فإنّه يزداد ظهوراً وعلواً ، وهذا عهد من مصاديق الوعد الإلهي الذي لا يختلف

---

(١) كامل الزيارات : ص٤٤٨ ، ح١ .

ولا يتخلّف وهو فتح عظيم جعله الإمام الحسين عليه السلام من أهدافه .

الحقيقة الثانية : أنّ الأثر في قولها عليها السلام : « لا يدرس أثره » يراد به العلامة ، واندراسها ذهاب أثرها بسبب تقادم العهد ، والرسم في قولها : « لا يطمس رسمه » يراد به أثر العين ، وطمسه تغيّر صورته ، فالأوّل ناظر إلى جهة العلامية للقبر الشريف ، والثاني ناظر إلى ذات المرقد الطاهر .

ولا شكّ في أنّ علامية القبر تتلخّص في جميع الفضائل والمناقبيات التي اتّسم بها الإمام الحسين عليه السلام ، وقد تعلّق العهد الإلهي بعدم زوالها أو اندراسها مهما طال الزمن وتقادم العهد ، وهي في مجملها تشكّل الهوية الحضارية للأُمّة المسلمة التي تحفظ عقائدها وأخلاقها وأصالتها التأريخية .

فالحرب معها سواء كانت عسكرية أو فكرية أو نفسية أو الاستجابة لدعاتها هي خروج عن النهج الحضاري ، ودعوة إلى الانفصال عن الهوية .

الحقيقة الثالثة : أنّ الحسين عليه السلام وما يتعلّق به من شعائر هو نهج الرحمن ، وهو الطريق الذي يحارب به الشيطان بجنوده وأساليبه ، وفي المقابل التشكيك في ذلك هو نهج الشيطان يوجده بين المؤمنين ليضلّهم عن الطريق القويم ، فإحياء الشعائر الحسينية هو نهج الرحمن والتشكيك بها هو نهج الشيطان ، فعلى المرء أن يرى على أي النهجين يسير .

الأثر الثاني : تعظيم الشعائر إحياء لتأريخ الأُمّة

إنّ المتتبّع لأحداث التأريخ لا سيّما التأريخ الحديث يجد أنّ المجتمع المسلم ابتلي بمحاولات كبيرة مدعومة بإعلام وثقافة وسياسة موضوعة لأجل اجتثاثه عن أُصوله ، وتجريده عن هويته ، والغرض من ذلك هو فصل الأجيال الحديثة عن تأريخها ، والانفصال عن التأريخ ليس يبعد الإنسان عن ماضيه زمانياً ، بل يفصله نفسياً وفكرياً وروحياً عن كلّ ما بناه قادته ورموزه ، وما أشاد آباؤه وأجداده من أمجاد وعناصر قوّة .

ومن الواضح أنّ الجيل الذي لا ماضي له كشجرة لا أرض لها تتقاذفها الرياح من كلّ جانب ، كما أنّ تحضّر المجتمع وثباته واستقراره لا يقاس بشكل البيوت التي يسكنها ، ولا أنواع السيارات والطائرات التي يركبها ، ولا أنواع الأطعمة التي يأكلها ، أو الملابس التي يلبسها ، بل يقاس بتراكم تجاربه ومستوى فكره ورسوخ أُصوله وقواعده .

فالشاب الذي ينفصل عن تأريخه لا يتّخذ من قادته وزعمائه قدوات يتعلّم منهم القيم المعنوية ، بل يتّخذ الرموز التي يصنعها الخصوم ـ كالسياسة الغربية ـ فيقتدي بهم ، وهم في مجملهم يقودونه إلى التفكير في نوع اللباس والطعام وقصّات شعره ونحو ذلك ، فيشغلونه بالتوافه والقشور عن الجذور

والأُصول .

فالذي يتخلّى عن تأريخه سوف لا يجد لاحترام العلم والعالم قيمة ، ولا للحجاب قيمة ، ولا للصلاة والصيام أهميّة ، ولا لصلة الرحم أو مساعدة الفقير أو زيارة المريض أو خدمة المحتاج مكانة أو قدسية ، وإنّما القيمة تكون لما تمليه وسائل الإعلام من نماذج للقيم والمبادئ ، فيعظّم المغنّين والمطربين ، ويحترم الراقصات ومصمّمي الأزياء والمنحرفين من الرياضيين ، كما أنّ حياته الشخصية تسود فيها قيم حبّ الأُنس واللهو واللعب وشرب الخمور والفجور وغيرها من منظومات أخلاقية تأتيه من الغير ، وتروّج لها مؤسّسات إعلامية وثقافية لأجل السيطرة عليه والاستيلاء على بلاده وخيراته .

وبالتالي فإنّ الاستعمار الحديث لا يعتمد على السيطرة العسكرية ، بل على السيطرة الفكرية والأخلاقية ، وهذا ما يبتدئه في أُولى خطواته بقطع الناس عن ماضيهم وأُصولهم التأريخية المشبّعة بالقيم والأخلاق الإسلامية العالية .

وقد ورد تقرير في هذا المجال يقول : إنّ علماء الغرب كانوا ولا زالوا يعدّون دراسات مفصّلة ودقيقة لدراسة الإسلام بشكل عام ، والتشيّع بشكل خاصّ ؛ لأجل التعرّف على حقيقة التشيّع وطرق التعامل مع

الشيعة ! وقد كتب أحد مفكّريهم مقالة يتحدّث فيها عن الجاليات التي قطنت بلاد الغرب هروباً من الاضطهاد والقمع الذي عاشته في بلادها ، فقال : إنّ الكثير من هذه الجاليات ذابت وهضمها المجتمع الغربي بأفكاره ومنظومته الأخلاقية ، إلّا جماعة واحدة استعصت على ذلك ولم تنصهر في ذاك المجتمع ، بل ظلّت محافظة على قيمها وأخلاقها ومنظومتها الاجتماعية وهم الشيعة ، فإنّهم يتمتّعون بمناعة عالية بحيث لا يمكن تذويبهم في المجتمع الغربي ولا فرض أفكاره وقيمه الأخلاقية عليهم ، وعلّل ذلك بسببين :

الأوّل : الإمام الحسين عليه السلام

فإنّ هذا الإمام عليه السلام هو الوقود الذي يزوّد مواليه بالروح والصبر والجهاد ، ويذكّرهم بقيم العدالة والحقّ والانتفاض على الظلم ، ويدلّهم على المحبّة والتماسك واحترام قيم الدين ، ويشدّهم إلى جذورهم التأريخية .

وقد ظلّ المجتمع الشيعي محافظاً على إحيائه للشعائر الحسينية حتّى في بلاد الغرب فحفظ نفسه ، بل تمكّن هو بقوّته المعنوية وبصلابته الفكرية أن يؤثّر على البعض في المجتمع ويدخلهم في الإسلام والتشيّع .

الثاني : المرجعية الدينية

فإنّها الميزان الذي يحفظ للشيعة كيانهم وقوّتهم المعنوية والانشداد إلى تأريخهم وأُصولهم الدينية ، لا سيّما وأنّ المرجعية الشيعية تتمتّع بثلاث مزايا يفتقدها غيرهم من القادة الدينيين ، وهي :

١ ـ العلم والفقاهة في مختلف شؤون الحياة الدينية والدنيوية .

٢ ـ قوّة التقوى والأخلاق بما يجعلها القدوة الحسنة لسائر الناس في مقابل القدوات التي يصنعها الغرب وأتباعهم .

٣ ـ الاستقلال عن الأنظمة السياسية التي غالباً ما تحاول أن تجيّر الدين لمصالحها[١].

فالفرق الحاصل بين المجتمع الذي أذابه الغرب في منظومته الفكرية والأخلاقية والمجتمع الذي لم يتأثّر بالغرب بل أثّر عليه في منظومته يرجع إلى أنّ المجتمع الأوّل منفصل عن تأريخه ، بينما الثاني متمسّك بتأريخه وأُصوله الاعتقادية ، والتحقيقات التي تذعن لهذه الحقيقة كثيرة جدّاً ، وهي حقيقة يقرّها علماء النفس الاجتماعي والتربية ، ويؤكّدها الواقع الخارجي للمجتمعات .

---

(١) أُنظر الإمام الحسين عليه‌السلام عظمة إلهية : ص١٢٣ ـ ١٢٤ .

فإنّ البيت الذي يعقد فيه مجلس للإمام الحسين عليه السلام ، أو تشارك الأُمّ والأب في مجالس العزاء على الإمام الحسين عليه السلام غالباً ما يكون أبناؤه أنق وأقرب إلى التقوى وحسن الأخلاق ، وأكثر خدمة للمجتمع في مجالات الحياة من غيره ؛ لأنّ مجالس الإمام الحسين عليه السلام تهذّب عقلية الأبناء ، وتبني شخصيتهم في منظومة عالية من الأفكار والأخلاق والسلوك الاجتماعي ، وتصيّر أصحابها طاقات منتجة وفاعلة في البعدين الإنساني والحضاري ، والعكس صحيح .

وقد ورد في بعض زيارات الإمام الحسين عليه السلام ما يؤكّد هذه الحقيقة ، ففي زيارة الأربعين الشريفة التي رواها الشيخ في المصباح عن صفوان الجمّال عن الصادق عليه السلام يقول فيها : « بذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة »[١]، وفي التهذيب : « بذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الضلالة والجهالة والعمى »[٢].

وبذل المهجة أي إسالة دم القلب[٣] في غاية الرضا وطيب النفس ؛ لأنّه بذله في رضاه وقربه ومحبّته ، ولذا قال : « فيك » وكلّ هذا البذل

---

(١) مصباح المتهجّد : ص٧٨٨ .

(٢) تهذيب الأحكام : ج٦ ، ص٥٩ ، ح ١٣١ .

(٣) أُنظر معجم مقاييس اللغة : ص٩٣٢ ، (مهج) .

والعطاء أراد به تحقيق هدفين :

أحدهما : إنقاذ عباد الله من الجهالة ، وفي لفظ العباد إشارة إلى عمومية الهدف ، وأنّه لا يختصّ بالمسلمين ، بل يشمل كلّ عباد الله سبحانه .

وثانيهما : إخراجهم من حيرة الضلالة .

وإنّما عبّر بالاستنقاذ للإشارة إلى أنّ معركته عليه‌السلام لم تكن لإرشاد الجاهلين بالجهل البسيط فيعلّمهم طريق الهدى كما كان الحال في دعوة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله لبعض أهل الجاهلية ، وإنّما كانت لإنقاذهم من الجهل المركّب ، وهداية الجاهل المركّب إلى الحقّ أصعب بكثير من هداية الجاهل البسيط ؛ لأنّ الجاهل المركّب يتيقّن بصحّة أفكاره الخاطئة ، ويتمسّك بما قد يعدّه برهاناً أو دليلاً ، فإرجاعه عن ضلالته إلى الصواب أمر صعب عادة . وهذا النهج هو الذي سار عليه الإمام الحسين عليه‌السلام ، وهو ما عبّرت عنه الروايات بالتأويل .

فإنّ مقاتلة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله للكفّار كانت على التنزيل ، وأمّا مقاتلة الإمام الحسين عليه‌السلام فكانت على التأويل ، وذلك لأنّ الناس وقعوا في جهل وضلالة فانقلبت عندهم موازين القيم ، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والحقّ باطلاً والباطل حقّاً ، فضلّ الناس طريق

الصواب بسبب مناهج سياسية وضعها الحكّام الجائرون ضدّ آل محمّد عليهم السلام ، فكان النهج العام قائماً على سبّ علي بن أبي طالب عليه السلام ، وهو الذي ثبّت الدين ، وأشاد دولة الإسلام بسيفه وببطولاته ، وكان تالي تلو النبي صلى الله عليه وآله في سماته الشخصية وصفاته المعنوية باتّفاق جميع الصحابة ، وصار الحاكم يعلن بلزوم هدم الدين ومحو آثاره ، ويتظاهر بالفسق والفجور .

فقد روى ابن أبي الحديد في شرح النهج أنّ معاوية كان ينادم المغيرة ابن شعبة ؛ لأنّه كان يشابهه في الأفعال والصفات . يقول ولده المطرف بن المغيرة : دخلت مع أبي على معاوية ، فكان أبي يأتيه فيتحدّث معه ثمّ ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله ، ويعجب بما يرى منه ؛ إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء ورأيته مغتمّاً ، فانتظرته ساعة ، وظننت أنّه لأمر حدث فينا ، فقلت : مالي أراك مغتمّاً منذ الليلة ؟ فقال : يابني جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم . قلت : وما ذاك ؟ قال : قلت له وقد خلوت به : إنّك قد بلغت سنّاً ! فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً ، فإنّك قد كبرت ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم ، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه ، وإنّ ذلك ممّا يبقى لك ذكره وثوابه ، فقال : هيهات هيهات ! أي ذكر أرجو بقاءه ؟ ملك أخو تيم

فعدل وفعل ما فعل ، فما عدا أن هلك حتّى هلك ذكره ، إلّا أن يقول قائل : أبو بكر ، ثمّ ملك أخو عدي واجتهد وشمّر عشر سنين ، فما عدا أن هلك حتّى هلك ذكره ، إلّا أن يقول قائل : عمر ، وإنّ ابن أبي كبشة ليصاح به كلّ يوم خمس مرّات (أشهد أنّ محمّداً رسول الله) فأي عمل يبقى ؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك ؟! لا والله إلّا دفناً دفنا[١]، وهذا المضمون ذاته صرّح به يزيد بعد عاشوراء وقتل الحسين عليه السلام حيث أظهر شماتته بمحمّد وآل محمّد مستشهداً ببعض الأبيات الدالّة على كفره وعدم إيمانه[٢].

واستمرّت سيرة الحكّام على هتك حرمات الدين واحداً بعد الآخر ، وقد روى ابن الأثير أنّ الوليد بن يزيد اتّخذ له ندماء ، فأراد هشام أن يقطعهم عنه ، فبدلاً من أن يعزله ولّاه الحجّ الذي يعدّ من أبرز معالم الدين ، وجعله حاكماً على مكّة التي هي من أقدس بلاد المسلمين ، وهذا نهج اتّبعه هؤلاء لأجل هتك الدين وانتقاص حرمته . يقول صاحب الكامل : فحمل معه كلاباً في صناديق ، وعمل قبّة على قدر

(١) شرح نهج البلاغة : ج٥ ، ص١٢٩ .

(٢) أُنظر الاحتجاج : ج٢ ، ص٣٤ .

الكعبة ليضعها على الكعبة ، وحمل معه الخمور ، وأراد أن ينصب القبّة على الكعبة ويشرب فيها الخمور[١]. هكذا كان الحكّام يتجاهرون بالكفر ، ويعلنون الفسق والفجور ، وينتهكون أشرف مقدّسات المسلمين ولا يمنعهم مانع .

هذا الضياع والجهالة التي ابتليت بها الأُمّة لم يفضحها ويزيح غشاوتها إلّا دم الإمام الحسين عليه‌السلام وشهادته ؛ لأنّه هزّ ضمير الأُمّة وأرجعها إلى صوابها ، وميّز فيها بين الحقّ والباطل ، وما هو أصيل في الإسلام وما هو دخيل فيه ، وما هو في دين النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وسيرته ، وما هو من سيرة الملوك والأُمراء .

هذه الجهالة وحيرة الضلالة لم تختصّ بذاك الزمان ، بل هي في زماننا اليوم مستحكمة ، ولها سلطة نافذة على العالم ، فإنّ الحضارة الغربية وزخرفها وزبرجها أوقعت العالم في ضياع تامّ على مختلف الأصعدة ؛ إذ يتخفّى وراء مظاهرها المادية المغرية وحياتها المرفّهة الكاذبة مستويات عالية من الضياع الفكري والروحي والظلم السياسي والاقتصادي . هذا

---

(١) الكامل في التاريخ : ج٤ ، ص٤٦٧ ، ذكر بيعة الوليد بن يزيد ؛ تاريخ الطبري : ج٥ ، ص٥٢ .

الضياع الذي يعيشه الغرب انعكس على بلاد المسلمين ، فعاش الناس لا سيّما فئة الشباب المتأثّرين بالشكل الغربي للحياة ضياعاً كبيراً ، ربما تغطّي بعض المظاهر البرّاقة واقعه ، إلّا أنّهم في دواخلهم يعيشون هذا الضياع حقيقة .

ويعزّز هذا النهج أنظمة سياسية تحكم بغير ما أنزل الله سبحانه ، وبقوانين فاسدة وبعيدة عن القيم تتحكّم فى مناهج التعليم وفي وسائل الإعلام وفي تعاليم دوائر الدولة . وممارسات أصحاب القدرة في مجملها تمرّر النهج الغربي للحياة ، وتدعو إلى الانفكاك عن القيم ، وتجرّ الأُمّة إلى الانفصال عن تأريخها وأُصولها الاعتقادية والأخلاقية التي تشكّل جوهرها وهويتها كأُمّة مسلمة ، إلّا أنّ الإمام الحسين عليه السلام بما يمثّل من قيم ومبادئ حقّة وتأريخ ناصع في الجهاد والصبر والصمود في وجه الفساد والانحراف هو المصدر الوحيد المتبقّي للحفاظ على الدين ، ويبقي حضارته حاكمة في الأُمّة بأُصولها وفروعها ومنظومتها الفكرية والأخلاقية ، فتعظيم شعائر الحسين عليه السلام هو ارتباط حقيقي بكلّ هذه القيم والمبادئ الحقّة ، وانتصار للحقوق ، وإحياء للتأريخ المجيد للأُمّة التي تحبّ الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتنتفض ضدّ الظلم والفساد ، وبعبارة أُخرى هو رجوع إلى هوية الأُمّة وخصوصياتها

الحضارية .

وهذا أحد الأسباب التي دعت الغرب إلى محاربة الدين في بلادهم ، فمنعت بعض الدول الحجاب بذرائع كاذبة ، وأسّسوا الجماعات الإرهابية ، وحرّضوها على ممارسة العنف والقتل العام ، وأوجدوا الحروب بين الطوائف وأتباع الأديان كالحرب بين الهندوس والمسلمين ونحوها . كلّ ذلك لأجل إيجاد صدمة من الدين في نفوس المجتمع الغربي ، فلا يسعى لمعالجة ضياعه الفكري والنفسي الذي يعيشه بالإسلام والالتزام بنهجه .

والخلاصة : أنّ الإمام الحسين عليه السلام أحيا الإسلام ، وربط الأُمّة بتأريخها ، وعبّد لها الطريق الذي يقودها إلى الفكر السليم والمواقف الصحيحة ، ويبعدها عن مخاطر الظلم والجور والفساد الفكري والأخلاقي ، فهو الذي حفظ ماضي الأُمّة ، وهو الذي يحفظ حاضرها وتحضّرها ، ويستنقذها من الجهالة وحيرة الضلالة ، وتعظيم شعائره هو إحياء لكلّ هذه المفاهيم والتطلّعات .

الأثر الثالث : تعظيم الشعائر توظيف لطاقات الأُمّة

إنّ من أبرز المعالم الحضارية في أي أُمّة هو توظيف طاقاتها وثرواتها البشرية والمالية والفكرية للارتقاء بالإنسان وإيصاله إلى مدارج الكمال ، وهذا ما تجده جلياً في سياسات بعض الدول وبعض القوانين الدولية ، فإنّها تضع ميزانيات ضخمة وتوظّف الكثير من الخبراء والمؤسّسات لأجل هذا الهدف ، ويعرف ذلك من خلال المدارس والجامعات والمعاهد العلمية والمؤسّسات التربوية والنفسية والإعلامية التي تعمل جاهدة لأجل الارتقاء بالإنسان فكرياً ، كما أنّها تموّل الكثير من المؤسّسات الحكومية والقضائية لأجل توفير الأمن الاجتماعي والحفاظ على الحقوق الخاصّة والعامّة ، وانتزاع عنصر الشر من الحياة الإنسانية أو تحجيم آثاره .

في الوقت نفسه تدعم الكثير من المؤسّسات الإنسانية والدينية لأجل الارتقاء بالمستوى الإنساني بين الناس ، وتحشيد طاقاتهم نحو القيم الأخلاقية الفاضلة ، وتحكيم روح المحبّة والوئام ، ومبادلة الآخرين الشعور بهمومهم وآمالهم ، ومساعدتهم لتحقيق هذه الأهداف ، أو التخفيف من بعض همومهم ، وهذه السياسة والنهج تعدّ من أرقى الأساليب الإنسانية التي تتمتّع بها الدول والمجتمعات المتحضّرة ، وعلى أساسها يقاس مدى تحضّر الدول وحسن سياستها وصدقها واحترامها للإنسان وحقوقه .

ومن الواضح أنّ الإنسان لا يمكنه أن يكون متحضّراً أو مشاركاً في بناء الحضارة ما لم يرتق في فكره ومشاعره وأفعاله وإرادته ؛ لأنّ الضلالة في الفكر تحرفه عن الحقّ ، وجمود مشاعره وأحاسيسه الإنسانية تصيّره كياناً جامداً ذا قلب قاس لا تهزّه عاطفة أو موقف نبيل ، كما أنّ ضعف إرادته وقلّة أعماله يقودانه إلى الإهمال والتفريط بطاقاته ، وهذه ميزة فارقة بين الأُمم المتحضّرة والأُمم غير المتحضّرة ، فإنّ الأُمم غير المتحضّرة قد تتمتّع بفكر سليم ومشاعر عالية ، ولكنّها لا تتمتّع بإرادة سليمة على العمل ولا خطط ولا ممارسات صحيحة في هذا الاتّجاه ، فتتأخّر عن الركب .

ومن هنا ذكر بعض علماء الكلام أنّ مهمّة الأنبياء الذين أرسلهم الله سبحانه لإصلاح البشر وتقويم سلوكهم وأفكارهم تكمن في أمرين :

أحدهما : إكمال العقول بإيصالها إلى مرحلة النضج في التفكير ، فلا تجحد الخالق ، ولا تشرك به شيئاً ، وترى الحقّ ، وتنصف حقوقه ، وهو ما يعبّر عنه أهل المعقول بالكمال النظري للإنسان .

ثانيهما : إكمال النفوس وإيصالها إلى توازنها العملي ، بمعنى أنّهم يرتقون بالإنسان ليمتلك سلطة على التحكّم بإرادته ، فيتحرّك نحو المحاسن ، ويتجنّب القبائح ، فإذا وصل الإنسان إلى النضح الفكري والتوازن الإرادي

وصل إلى قمّة الإنسانية .

وحينذاك يتمتّع بصفة خلافة الله سبحانه في الأرض ، ويمتلك رتبة من مراتب الولاية والسلطة على الأشياء ، وهذه مسألة كلامية نرجئها إلى محلّها ، ونكتفي بما نريد أن نستخلصه منها ، وهي أنّ التحضّر الإنساني هو علّة الحضارة ، وهو غاية المناهج التعليمية والسياسية والإدارية والتشريعية في الأُمم والشعوب ، وقد فشلت الكثير منها عن الوصول إلى هذه الغاية ، فلا زال الإنسان حتّى في الدول الصناعية ضائعاً في فكره ، وقاسياً في نفسه ، ومشغولاً بجمال بدنه وطعامه وشرابه أكثر من انشغاله بجمال فكره وأخلاقه وكمال روحه .

ومن هنا يضجّ العالم بالحروب والفتن والقتل والجرائم الكبرى والصغرى وهضم الحقوق وفساد الأخلاق وكثرة الأمراض وغلبة الرعب والخوف ونحوها من أمراض باتت مزمنة في هذا العصر ، بالرغم من الاهتمام وتوفّر الخطط ورصد الميزانيات الضخمة لمعالجة كلّ ذلك . هذا التفاوت الكبير في المقدّمات والنتائج نجده ضئيلاً في الأُمّة التي تعظّم الشعائر الحسينية ، فإنّ الملايين من الناس على اختلاف مستوياتهم ومراكزهم وانتماءاتهم ينشغلون سنوياً بتعظيم هذه الشعائر المباركة ، ويرتقون فيها إلى مستويات عالية جدّاً في المشاعر الإنسانية والعطاء

الفكري والعملي من دون واعز مالي أو دعاية إعلامية ، ولا توجيه سياسي ، بل حبّاً وتعظيماً للإمام الحسين عليه السلام وما يمثّله من قيم ومبادئ عظيمة .

نجد في الشعائر الحسينية الطبيب والمهندس وأُستاذ الجامعة ورئيس الحزب ومدير الدائرة والعالم والفقيه والإعلامي والمفكّر والتاجر والعامل والفلّاح وطالب الجامعة والطفل والغلام والمرأة والرجل كلّ هؤلاء وأكثر قد وظّفوا أنفسهم لنصرة الحقّ والدفاع عن المظلوم ، وإعلان المحبّة والوئام والتلاحم الاجتماعي ومحاربة الفساد واجتثاث نوازع الشرّ ونشر الكلمة الطيّبة ، أو الاستماع إليها ، وإلى غيرها من مظاهر التحضّر والحضارة ، كما نجد أنّهم يوظّفون أبدانهم وأموالهم الخاصّة وكلّ ما أُوتوا من طاقة وقدرة لإطعام الطعام وإقراء الضيوف ومساعدة المحتاجين والتعاون على البرّ والتقوى ، وحتّى بعض العصاة المذنبين منهم نجدهم يوظّفون أنفسهم لهذه الخدمة ، وهم بهذا القدر من التوظيف يكونون قد تراجعوا عن الشرّ وابتعدوا عن نهجه ، ومالوا إلى الخير واقتربوا من نهجه .

وهذه نتائج مهمّة يجمعها الحسين عليه السلام بما له من طاقة معنوية إلهية تمتلك القلوب وتوظّف الملايين للارتقاء والتسامي الإنساني والحضاري لم

تكن تحصل لولا الشعائر الحسينية واهتمام الناس بتعظيمها ، ونلاحظ أنّ الملايين يوظّفون أنفسهم في هذه الخدمة الربّانية العالية ، ولا تحصل فيها صدامات ولا منازعات ولا مخالفات تستدعي القضاء والقانون ، كما لا تحدث جرائم أخلاقية أو سلوكيات تبتعد عن النهج الإنساني والإسلامي . بينما تعجز دول وحكومات كبرى عن تنظيم مظاهرة فيها معشار ما تنظّمه الشعائر الحسينية من مظاهرات مليونية زاحفة من دون وقوع مثل ذلك ، وهذا شاهد آخر يدلّنا على أنّ الشعائر الحسينية ترتقي بالإنسان إلى مستوى كبير من التحضّر تعجز كلّ إمكانات الدول والحكومات من تحقيقه .

ولو التفت العالم إلى هذه الحقيقة وأدرك آثارها لاهتمّ بتعظيم الشعائر الحسينية ، ودعا الناس إلى تعظيمها ، وأعدّ لها مؤسّسات ودراسات وبرامج مفصّلة لاستثمارها ؛ لأنّها النهج القويم الذي يرتقي بمستوى الإنسان ، ويحقّق الكثير من الغايات التي يصرف لأجلها الملايين ، ويوظّف لها الملايين من الطاقات ، ولو التفت المؤمنون الموالون إلى أنّ الشعائر عوامل قوّة لأمكنهم أن يستثمروا هذه الطاقة الجبّارة التي يمتلكونها بشكل أفضل ، ولسخّروها في خدمة الحياة والحضارة الإنسانية أكثر ، وحرّروا أنفسهم من الجهل والتخلّف والظلم ، وتربّعوا على قمّة المجتمعات المتحضّرة ، وهذه مسؤولية

تلقى على عاتق علماء هذه الأُمّة ومفكّريها وساستها وقادتها أوّلاً ، وقد أشار إليها الإمام الحسين عليه السلام في كتابه الذي وجّهه إلى عشيرته من بني هاشم والذي خاطب من خلاله عموم البشرية : « أمّا بعد فإنّ من لحق بي استشهد ، ومن لم يلحق لم يدرك الفتح »(١).

ولعلّ هذا ما يؤكّده تواتر الكلمات والأخبار والقصص والشواهد المنقولة عن الثقات من الناس والأعاظم فيهم ، والتي تلتقي جميعها على مضمون واحد ، وهو أنّ تعظيم الشعائر الحسينية قضية إلهية كبرى أرادها الله سبحانه أن تكون العلّة التي بها يبقى الدين حيّاً ، وتبقى ببقائه القيم والمبادئ الأخلاقية ، ويرتقي الناس إلى مستوى عال من الفهم والشعور والتوازن الإرادي ، بل بها تتحقّق الكثير من غايات الأنبياء والرسل ، كما أشار إليه الحديث الشريف : « الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة »(٢) وورد في زيارته عليه السلام : « أشهد أنّك قد بلّغت عن الله ما أُمرت به ، ووفيت

(١) كامل الزيارات : ص١٥٧ ، ح٢ ؛ وانظر مختصر بصائر الدرجات : ص٦ ؛ مناقب آل أبي طالب : ج٣ ، ص ٢٣٠ ، بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٨٧ ، ح٢٣ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج١ ، ص٥٩ ، ح٢٩ ؛ كمال الدين : ج١ ، ص٢٦٤ ؛ إعلام الورى : ص ٤٠٠ ؛ بحار الأنوار : ج٣٦ ، ص٢٠٤ ، ح٨ ؛ مدينة المعاجز : ج٤ ، ص٥٢ .

بعهد الله ، وتمّت بك كلماته »[1] وهذه الشهادة تتضمّن الإقرار بما للإمام الحسين عليه السلام من أثر في تربية الناس وتوظيف طاقاتهم نحو الارتقاء الإنساني فكراً وشعوراً وإرادة . وهي الأركان الثلاثة التي يقوم عليها التحضّر والحضارة .

(١) كامل الزيارات : ص٣٨٧ ، ح١٧ .

المطلب الرابع

تعظيم الشعائر ضرورة لتجديد الدين

إنّ الأخبار الواردة عن الأئمّة الطاهرين ﷺ تؤكّد أنّ الدين يبتلى في كلّ مدّة بالتشويه والتحريف من قبل ثلاث فئات : فئة حاكمة تـريد أن تسخّره لمصالحها لأجل أن تحكم ، وفئة أُخرى ضالّة تطلب السلطة والدنيا من خلاله ، وفئة ثالثة جاهلة لا تفهم الدين بموازينه الصحيحة ، فتأخذ منه ما تريد ، وتترك ما لا تريد ، أو تفهمه فهماً منقوصاً فتدخل في الدين ما لا يقرّه الدين ولا يمضيه ، وتشهد وقائع التأريخ على أنّ الأديان السماوية في كلّ زمان ومكان ابتليت بهذا الداء المعضل ، وأكّد القرآن الكريم أنّ التحريف والتزييف لازم الشرائع ، وكان هذا أحد الدواعي لتعزيز الرسالات السابقة بأنبياء ورسل يصحّحون للناس الطريق ، ويهدونهم إلى سـواء السـبيل ، ويفضحون الطغاة والمتجبّرين وأساليبهم الماكـرة ، ويـعيدون الأُمـور إلى نصابها الصحيح كما فصّل القرآن هذه الحـقيقة في قصّة إبـراهـيم ومـوسى

ويوسف عليهما السلام وغيرها .

كما تؤكّد وقائع التأريخ بل والنصوص الشريفة أن نصيب الإسلام من هذه السياسات كان الأوفر ؛ إذ حيكت لتشويهه وتحريفه مؤامرات كبيرة منذ بدء البعثة الشريفة ، واستمرّت مع حياة النبي صلى الله عليه وآله حتّى بعد شهادته وإلى يومنا هذا ، وعلى أساسها استشهد النبي صلى الله عليه وآله وسائر الأئمّة عليهم السلام والكثير من الأولياء والصالحين في هذا السبيل .

ففي رواية إسماعيل بن جابر عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يحمل هذا الدين في كلّ قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين ، كما ينفي الكير خبث الحديد »[(١)].

ولعلّ المراد من (المبطلين) الذين يغالطون في الدين فيحملون نصوصه على خلاف ظاهرها ، أو يتّبعون المتشابه منه لأجل فتنة الناس ، ومن (الغالين) الذين يزيدون في الدين أو ينقصون لأجل مصالحهم ، وهو ما يعبّر عنه بأهل البدع ، ومن (الجاهلين) الذين ينتحلون الدين جهلاً منهم فيشوّهون مبادئه وأحكامه .

ومنطوق الحديث في مجمله يدلّ على وجود حاجة متجدّدة مع الزمان تستدعي العمل لأجل تنزيه الدين من التحريف والتشويه ، ولابدّ

---

(١) وسائل الشيعة : ج٢٧ ، الباب ١١ من أبواب صفات القاضي ، ص١٥١ ، ح٤٣ .

وأن تكون هذه العملية على أيدي أُناس يطمأنّ إلى علمهم وصدقهم وإخلاصهم وتجرّدهم عن المصالح الدنيوية والأطماع ؛ لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه .

وفي رواية جميل بن درّاج عن أبي عبدالله عليه السلام ذكر نماذج لهؤلاء ؛ إذ وردت في رجل انتهك حرمة بعض أصحابه من الفقهاء والعلماء الذين كانوا يهدون الناس إلى الرشاد فقال عنه عليه السلام : « لا قدّس الله روحه ، ولا قدّس مثله ، إنّه ذكر أقواماً كان أبي عليه السلام ائتمنهم على حلال الله وحرامه ، وكانوا عيبة علمه ، وكذلك اليوم هم عندي مستودع سرّي وأصحاب أبي حقّاً إذا أراد الله سبحانه بأهل الأرض سوءاً صرف بهم عنهم السوء ، هم نجوم شيعتي أحياءً وأمواتاً ، هم الذين أحيوا ذكر أبي عليه السلام ، بهم يكشف الله كلّ بدعة ، ينفون عن هذا الدين انتحال المبطلين وتأويل الغالين ، ثمّ بكى » فقلت : من هم ؟ فقال : « من عليهم صلوات الله وعليهم رحمته أحياءً وأمواتاً بريد العجلي وأبو بصير وزرارة ومحمّد بن مسلم »[1].

وفي رواية سليمان بن خالد قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : « ما أجد أحداً أحيا ذكرنا وأحاديث أبي عليه السلام إلّا زرارة وأبو بصير ليث المرادي ومحمّد بن مسلم وبريد بن معاوية العجلي ، ولولا هؤلاء ما كان أحد

---

(١) وسائل الشيعة : ج٢٧ ، الباب ١١ من أبواب صفات القاضي ، ص١٤٥ ، ح٢٥ .

يستنبط هذا . هؤلاء حفّاظ الدين ، وأُمناء أبي عليه السلام على حلال الله وحرامه ، وهم السابقون إلينا في الدنيا والسابقون إلينا في الآخرة »(١).

وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام : « لولا هؤلاء انقطعت آثار النبوّة واندرست »(٢). إلى غير ذلك من الأخبار المتضافرة(٣) ونلاحظ أنّ هذه الأحاديث تتّفق على عدّة حقائق :

الحقيقة الأُولى : أنّ الدين لابدّ له من أُمناء وحملة يدافعون عنه ، وينشرون أحكامه ، ويدفعون عنه أيدي المتلاعبين ، ويفضحون أساليبهم ليبقى صحيحاً نقياً بعيداً عن التشويه والتحريف .

الحقيقة الثانية : أنّ هؤلاء الحملة هم أمان لأهل الأرض ليس في العلم والفكر فقط ، بل من العذاب الذي يمكن أن يصيبهم بسبب الظلم والجور والضلالة ؛ إذ ببركتهم يدفع الله سبحانه السوء عن أهل الأرض ؛ لأنّ مثلهم في الأُمّة كمثل النجوم التي تحفظ توازن الكون ، وبها يستدلّ على الطريق ، وهي في عين الحال زين السماوات .

---

(١) وسائل الشيعة : ج٢٧ ، الباب ١١ من أبواب صفات القاضي ، ص١٤٤ ، ح٢١ .

(٢) وسائل الشيعة : ج٢٧ ، الباب ١١ من أبواب صفات القاضي ، ص١٤٢ ، ح١٤ .

(٣) أُنظر وسائل الشيعة : ج٢٧ ، الباب ١١ من أبواب صفات القاضي ، ص١٤١ ـ ١٤٢ ، ح١١ ، ١٢ ، ١٦ .

الحقيقة الثالثة : أنّهم يتمتّعون بهذه الصفات حتّى بعد مماتهم ، وهذا المقام والرتبة إنّما نالوهما بسببين :

أحدهما : أنّهم يحيون ذكر الأئمّة عليهم السلام ، ويبقونه حيّاً بين الناس .

وثانيهما : أنّ بهم يحيا الدين ويبقى ؛ لأنّهم يفضحون البدع وأهل الباطل ، ويكشفون الزيف والخداع ، ويدعون إلى الحقّ ، وينصرون الحقيقة .

الحقيقة الرابعة : أنّ الدين لا ينفك عن الحاجة إلى من يقوم بهذه المهمّة الإلهية ، وينال بها الفضل في الدنيا والفوز في الآخرة ، فالحاجة إلى تصحيح عقائد الناس وإرشادهم إلى التمسّك بالدين والالتزام بمناهجه وقيمه ضرورة دلّ عليها النصّ ، وأكّدها التأريخ البعيد والقريب ، وهي قضية يشهد بها الوجدان .

وهنا نلفت النظر إلى حقيقة خامسة وهي : أنّ النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام أشادوا بجماعة من العلماء ورواة الحديث ، وشكروا لهم جهودهم ودورهم في حفظ الدين وإبقائه في بعده العلمي ، ودعوا لهم بالفوز والفلاح في الدنيا والآخرة .

وأمّا تعظيم الشعائر الحسينية فدورها في إبقاء الدين وإحياء أمره وتخليد ذكر النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام وسيرتهم وترويج علومهم ومعارفهم لا

يقتصر على البعد العلمي والفكري فقط ، بل يشمل البعد الروحي والمعنوي أيضاً ، والذي يشكّل العلّة المبقية للدين ؛ إذ لولا الشعور والعاطفة والانشداد إلى الدين فإنّ الفكر بمفرده لا يتمكّن من توجيه الناس وإرشادهم ؛ بداهة أنّ أساس أفعال الإنسان وحركاته وسكناته يرجع إلى الحبّ والبغض ، وهذا ما لا يمكن أن تحقّقه المدرسة أو الجامعة أو الكتاب الفقهي ، بل يحقّقه مصاب الحسين عليه السلام ونهجه الأبيّ في رفض الظلم وتحدّي الباطل والجود بالنفس وبكلّ غال ونفيس في سبيل الدين .

وهنا تظهر ضرورة أُخرى لتعظيم الشعائر الحسينية وهي ضرورة إحياء الدين وإذكاء روحه في القلوب والنفوس وإبقائه حيّاً في أُصوله وفروعه وآدابه وسننه ، وتزداد الحاجة إلى هذه الضرورة في هذه الأزمنة أكثر من ذي قبل بسبب انتشار الظلم والفساد في الأرض ، واستيلاء الباطل على أغلب جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، بل يكاد يجزم المرء أنّ الأرض ضاقت بالظلم والجور بما رحبت وعلى الأصعدة كافّة ؛ إذ لم يعد الفساد مسألة عادية ، بل صار سياسة منظّمة تقف وراءها مؤسّسات ومنظّمات عالمية تخطّط له وتدعمه بالمال والنفوذ والإعلام بكافّة الوسائل ، ولم يعد الظلم والجور محصوراً في قصور الملوك والأُمراء ، بل نفذت سيادته في قوانين الدول وأنظمتها الاقتصادية والسياسية والقضائية ،

كما لم يعد التشويه والتحريف مقتصراً على فئة قليلة ، بل صار مفروضاً في مناهج التعليم والتربية والمؤسّسات الثقافية والفكرية ، ويروّج له في وسائل الإعلام جيوش من الإعلاميين والباحثين والخبراء لدوافع سياسية أو فكرية .

هذا الفساد والظلم كلّه بهذه القدرات والإمكانات كيف يمكن للأُمّة أن تحمي نفسها منه ؟ وكيف يمكن للأجيال المسلمة أن تفهم دينها وتتعرّف على مبادئه وأحكامه وتلتزم بها ؟ وكيف لها أن تعلن عن هويتها وخصوصياتها الحضارية ، وتظهر تمسّكها بأُصولها وجذورها التأريخية ؟

هذه جميعاً تتوقّف على وضع مخطّط صحيح ونهج مفصّل وكامل يضع الحلول المناسبة في بعدين :

البعد الخاصّ وهذا أمر يتوقّف على معاهد ودراسات يقوم بها خبراء متخصّصون مدعومون بقوى سياسية وإرادة جماعية في الأُمّة تباشر بالتخطيط والعمل الطويل الأمد ؛ لتصحيح الانحرافات وإرجاع الأُمور إلى نصابها ، ومن الواضح أنّ هذا النهج مهمّة المفكّرين والقادة في الأُمّة أوّلاً .

والبعد العام ، وذلك بتحشيد طاقات الأُمّة وشدّها إلى دينها وأُصولها وحمايتها من المصادرة والتشويه والتجهيل الذي يمارس من قبل الأنظمة والمؤسّسات السياسية المنحرفة ونحوها ، وتحفيز روحها المعنوية ، وتوحيد

كلمتها وتوظيفها في خدمة الحقّ والانتصار لأهله ، وهذا كلّه يجتمع في منهج الشعائر الحسينية ؛ إذ إنّها السبب الذي به يتمّ إبقاء الدين وإحياء الأُمّة وتصحيح مسارها وشدّها إلى أُصولها وتأريخها ، بل يمكن أن تكون هي الحلّ حتّى في البعد الخاصّ إذا وضعت لها الخطط المدروسة .

والحاصل : أنّ حاجة الناس إلى الدين ضرورة لا تنتهي ، وحاجة الدين إلى التصحيح والتنزيه هي الأُخرى لا تنتهي ، والذي يبقي الدين نزيهاً بعيداً عن التحريف والتشويه ، وفي عين الوقت يشدّ الناس إليه هو تعظيم الشعائر الحسينية ، والنتيجة المستخلصة من كلّ ما تقدّم : أنّ بالدين حياة الناس ، وبالحسين عليه السلام وشعائره حياة الدين ، وهذا ما يؤكّده الحديث النبوي : « حسين منّي وأنا من حسين ، أحبّ الله من أحبّ حسيناً »[1]. وما اشتهر من أنّ الإسلام حسيني البقاء[2].

---

(١) الناصريات : ص ٩٠ ؛ كامل الزيارات : ص١١٦ ، ح ١١ ؛ وص١١٧ ، ح١٢ ؛ الإرشاد : ج٢ ، ص١٢٧ ؛ كتاب الأربعين : ص ٤٨٠ ؛ صحيح ابن حبّان : ج١٥ ، ص٤٢٨ ؛ المعجم الكبير : ج٣ ، ص٣٢ ؛ ج٢٢ ، ص٢٧٤ ؛ كنز العمّال : ج١٢ ، ص١١٥ ، ح٣٤٢٦٤.

(٢) أُنظر مقتل المقرّم : ص٣٦٧.

المطلب الخامس

تعظيم الشعائر ضرورة أمنيّة

لابدّ للمؤمن في حياته الدنيوية والأُخروية من أمانين :

أمان يحفظ حياته من مخاطر الدنيا ، وأمان يحفظه في حياته الأُخروية من سوء العاقبة ، فحاجته إلى الأمانين حاجة فطرية أوّلية ؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يعيش مستقرّاً هانئاً مع الخوف والقلق ، ولذا عدّ الباري سبحانه نعمة الأمان كنعمة الطعام والشراب من الحقوق الأوّلية لكلّ إنسان ، وجعل هاتين النعمتين المحور الذي ينبني عليه نظام الطاعة ، بحيث لولاهما لم يكن الباري عزّوجلّ يأمر وينهى ويحاسب على معصية .

وقد لخّص القرآن الحكيم هذه الحقيقة بقوله تعالى : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[1] إذ علّل أمرهم بالعبادة بأنّه وفّر لهم نعمتين هما الإطعام والأمن ، ولعلّ إضافة البيت إلى

---

(١) سورة الإيلاف : الآيتان ٣ ـ ٤ .

اسمه سبحانه « ربّ » يفيد أنّ العبادة لابدّ لها من مظهر ، ومن مظاهرها الكعبة الشريفة ؛ إذ من الواضح أنّ الكعبة بما هي ليست إلّا أحجاراً إلّا أنّ رمزيتها وجهة شعاريتها ونسبتها إلى الباري عزّوجلّ جعلتها من أبرز معالم الدين ، وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته القاصعة حيث قال : « ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً »[1].

ولعلّ قوله : « قياماً » يشير إلى أنّ قيام الناس وقوّتهم ونشوء قدرتهم يتعلّق بتعظيم هذا البيت والحضور عنده وإظهار الخضوع والعبادة لله سبحانه ، وهو ما أكّده قول الصادق عليه السلام : « وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه ، فحثّهم على تعظيمه وزيارته ، وجعله محلّ أنبيائه ، وقبلة للمصلّين إليه »[2].

والخلاصة : أنّ المستفاد من هذه النصوص أنّ نعمة الأمان من النعم الإلهية العظيمة التي تستحقّ مزيد الشكر ، وأنّ تحصيل هذه النعم من الواجبات الفطرية الأوّلية لكلّ إنسان فضلاً عن المؤمن ، ولا شكّ في أنّ

---

(١) نهج البلاغة : ج٢ ، ص١٤٦ ، الخطبة ١٩٢ .

(٢) الكافي : ج٤ ، ص١٩٨ ، ح١ .

حياة الإنسان محفوفة بالمخاطر والآفات المالية والمعنوية والتي تهدّد أمنه في دنياه وآخرته ، كما يستفاد منها أيضاً بأنّ الإنسان لا يعيش حياته دون اختبار وامتحان ، وإنّ أبرز مظاهر الاختبار والامتحان هو تعظيم البيت وأداء حقّ العبادة عنده ، وإنّ السرّ في ذلك يعود إلى أنّ البيت صار معلماً وشعاراً من شعائر الله سبحانه .

ومعنى ذلك أنّ شكر نعمة الأمان وأداء حقّ الطاعة يتقوّم بتعظيم شعائر الله واحترام معالمه سبحانه ، وهذه الحقيقة ليست من مختصّات الكعبة الشريفة ؛ بل تشترك فيها الشعائر الحسينية لأنّها ترتبط بالإمام الحسين عليه السلام ، وقد زادت بنسبتها إلى الإمام الحسين عليه السلام برموز ومعان كبيرة لا تقلّ عن رمزية الكعبة ، أو تفوق عليها من وجوه :

الأوّل : أنّ الحسين عليه السلام هو الذي أحيا الكعبة وأبقاها حيّة يحضرها الناس ، ويطوفون بها ، ولولاه لاندرست آثارها .

الثاني : أنّ الحسين عليه السلام أعظم من الكعبة وأشرف كما يستفاد من الأخبار الشريفة ؛ لأنّه حجّة الله سبحانه وصفيّه ووليّه وحبيبه وابن حبيبه ، وأمّا الكعبة فبيته .

الثالث : أنّ تعظيم شعائر الحسين عليه السلام تتعلّق بالإيمان والاعتقاد بأُصول الدين ؛ لأنّها مجمع الإيمان بالتوحيد والنبوّة والإمامة والمعاد ، بينما

تعظيم الكعبة فهو من المشتركات التي قد يعظّمها ناقص العقيدة والإيمان ، فضلاً عن وجوه أُخرى لأفضلية الإمام الحسين عليه السلام من الكعبة لا يسعها المجال هنا(١).

وبهذا يتّضح أنّ الكثير ممّا لتعظيم الكعبة والحضور عندها وأداء حقّ العبادة فيها من المزايا والخصوصيات ثابتة لتعظيم الشعائر الحسينية ، فهي أمان لأهل الأرض ، ومن أبرز مظاهر العبادة والتقرّب إلى الله سبحانه ، كما أنّها مختبر الناس لتمييز العصاة من المطيعين ، بل في تعظيم الشعائر من الخيرات والبركات ما يفوق بركات الكعبة ، فإنّ تعظيم الشعائر الحسينية سبب لنزول الكثير من الفيوضات الإلهية على الناس ، فمنهم من يدخل الجنّة بالبكاء عليه ، ومنهم من ينال هذا الشرف بإقامة العزاء عليه ، ومنهم بالإبكاء عليه ، ومنهم بالتباكي عليه ، ومنهم بتذكّره حين شرب الماء ، ومنهم بزيارته ، ومنهم بإعانة زوّاره ، ومنهم بالدفن في تربته ، ومنهم بمواساته بألم أو جوع أو عطش أو إدماء إلى غير ذلك من وجوه بركته للناس في الأرزاق والفيوضات الواردة بسببه على من له نسبة إليه بمجاورة أو قراءة تعزية أو حضور مجلس ونحو ذلك(٢).

---

(١) أُنظر الخصائص الحسينية : ص٣٩٩ فما بعد .

(٢) أُنظر المصدر السابق : ص٤٠٢ ـ ٤٠٣ .

ويتحصّل : أنّ الأمان في الدنيا مرهون بتعظيم شعائر الحسين عليه السلام ، كما أنّه في الآخرة كذلك ؛ لأنّ تعظيم هذه الشعائر يدفع عن الإنسان السوء والمكاره ، وينجّيه من الشقاء والتعاسة ، كما أنّه سبب للهداية والصلاح في الدنيا ، وسبب لغفران الذنوب في الآخرة والنجاة من عذاب النار .

وهذا مكفول لكلّ من يؤمن بالإمام الحسين عليه السلام ويعظّم شعائره ، وقد ورد في دعاء الإمام الصادق عليه السلام ـ ودعاء الإمام مستجاب لا محالة ، كما أنّه من مصاديق الوعد الذي يجب الوفاء به ـ المروي عن معاوية بن وهب في ثواب الأعمال أنّه سمع الصادق عليه السلام في مناجاته يدعو لزوّار الإمام الحسين عليه السلام والمشاركين في عزائه الذين أشخصوا أبدانهم وأنفقوا أموالهم في هذا السبيل ، ويقول : « فكافئهم عنّا بالرضوان ، واكلأهم بالليل والنهار ، وأخلف على أهاليهم وأولادهم الذين خلّفوا بأحسن الخلف ، واصحبهم واكفهم شرّ كلّ جبّار عنيد ، وكلّ ضعيف من خلقك شديد ، وشرّ شياطين الإنس والجنّ ، وأعطهم أفضل ما أمّلوا منك في غربتهم عن أوطانهم ، وما آثروا على أبنائهم وأبدانهم وأهاليهم وقراباتهم »(١).

ونلاحظ أنّ دعاء الإمام عليه السلام تضمّن جوامع خير الدنيا والآخرة ، وفيه طلب الرضوان وطلب الإكلاء الذي يتضمّن الطعام والشراب والسعة

---

(١) ثواب الأعمال : ص٩٥ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٨ ، ح٣٠ .

في الرزق والأمان من الأخطار والأضرار ، وفوق ذلك كلّه قضاء الحوائج .

ومن الواضح أنّ الأخطار التي تحيق بالناس على صنفين : أخطار تهدّد الأُمم ، وهي أخطار جماعية إذا عصفت بالأُمّة قد تهلك منها الكثير ، مثل أخطار الأوبئة والأمراض والزلازل والسيول والحروب وتسليط الظلمة على الناس ، وبعض هذه الأخطار عبارة عن عقوبات إلهية ينزلها على الناس إذا اشتركوا في المعاصي ، واتّفقوا على المنكر ، وصار العصيان صفة عامّة في المجتمع ، وفي الأُمم السابقة كان الباري عزّوجلّ يستأصل الأُمم بذنوبها ، ولكن الأُمّة المسلمة فلا يستأصلها العذاب ببركة رسول الله ﷺ ، وإنّ أُمّته أُمّة مرحومة ، ولكن قد يصيبها بابتلاءات عامّة تأكل الأخضر واليابس منها ، وتخلّف وراءها الكثير من الدمار والخراب .

وهناك أخطار خاصّة تهدّد الأفراد العصاة ، وتصيبهم في حياتهم أو في أموالهم وأولادهم ونحو ذلك ، ومن الحكمة الإلهية أنّ الأخطار الفردية أحياناً تكتسب صفة الأخطار العامّة ، فلا تصيب الفرد نفسه ، بل تصيب جماعة بسبب ذنب الفرد وعصيانه ، نظير الشخص المرابي أو شارب الخمر أو قاتل النفس المحترمة ، فإنّه لا ينحصر أثر معصيته بنفسه ، بل ينعكس على الكثير من الأُسر والبيوت ، ويضرّ بالمجتمع أضراراً كبيرة .

ودفع هذه الأخطار يتوقّف على إيجاد صمّامات أمان تحمي الأفراد

والمجتمع ، وتقيهم من الأخطار ، ومن أعظم الصمّامات الإلهية هي تعظيم الشعائر الحسينية ؛ لأنّها تسوق الناس إلى الطاعة ، وتوجب غفران الذنوب ومحو آثار المعاصي ، وتؤكّد وقائع التأريخ أنّ العلماء وأهل الفضل كانوا يعالجون المخاطر الدنيوية بواسطة زيارة الحسين عليه السلام وإقامة مجالس العزاء ، وقد تواتر هذا المضمون عن المئات منهم في الآلاف من الأحداث والوقائع ، **منها** : ما رواه الشيخ الحائري قدس سره مؤسّس الحوزة العلمية بقم المشرّفة قال :

كنت بأمر السيّد المجدّد الشيرازي قدس سره أحضر مع ولده السيّد علي درساً خاصّاً عند الشيخ الميرزا محمّد تقي الشيرازي قدس سره في الطابق الأعلى من دار السيّد ، وذات يوم كنّا في الدرس وإذا بالسيّد الفشاركي يصعد إلى محلّ الدرس ليتحدّث مع الميرزا محمّد تقي الشيرازي ، ويتشاور في معالجة مرض الطاعون الذي عمّ العراق وانتشر ، وأخذ يحصد أرواح الناس ، فأصدر السيّد محمّد الفشاركي قدس سره حكماً عامّاً بوجوب قراءة زيارة عاشوراء وإهداء ثوابها إلى السيّدة نرجس خاتون والدة الإمام صاحب العصر عجّل الله تعالى فرجه ؛ لتكون شفيعة عند ولدها ليشفع عند الله سبحانه برفع هذا البلاء ، ولمّا التزم الناس بهذا الحكم ارتفع الوباء وبعد فترة وجيزة دون تضحيات كبيرة ، بينما بعض غير المؤمنين بهذه الحقيقة ابتلوا بالوباء ، وكانوا يدفنون موتاهم ليلاً خجلاً ، فأخذوا يأتون إلى

الإمامين العسكريين ـ رجاءً للخلاص ـ ويسلّمون عليهما قائلين :

إنّا نسلّم عليك مثل ما يسلّم عليك الشيعة[١].

ومنها : ما روي عن سليمان الأعمش أنّه قال : كنت نازلاً الكوفة ، وكان لي جار وكنت آتي إليه وأجلس عنده ، فأتيت ليلة الجمعة إليه ، فقلت له : ياهذا ما تقول في زيارة الحسين عليه‌السلام ؟ فقال لي : هي بدعة ، وكلّ بدعة ضلالة ، وكلّ ذي ضلالة في النار . قال سليمان : فقمت من عنده وأنا ممتلئ عليه غيظاً ، فقلت في نفسي : إذا كان وقت السحر آتيه وأُحدّثه شيئاً من فضائل الحسين عليه‌السلام فإن أصرّ على العناد قتلته . قال سليمان : فلمّا كان وقت السحر أتيته وقرعت الباب ودعوته باسمه ، فإذا بزوجته تقول لي : أنّه قصد إلى زيارة الحسين عليه‌السلام من أوّل الليل .

قال سليمان : فسرت في أثره إلى زيارة الحسين عليه‌السلام ، فلمّا دخلت إلى لقبر فإذا أنا بالشيخ ساجد لله عزّوجلّ وهو يدعو ويبكي في سجوده ، ويسأله التوبة والمغفرة ، ثمّ رفع رأسه بعد زمان طويل فرآني قريباً منه ، فقلت له : ياشيخ بالأمس كنت تقول : زيارة الحسين عليه‌السلام بدعة ، وكلّ بدعة ضلالة ، وكلّ ذي ضلالة في النار واليوم أتيت تزوره ؟ فقال : ياسليمان لا تلمني ، فإنّي ما كنت أُثبت لأهل البيت إمامة حتّى كانت ليلتي تلك ،

---

(١) قصص عجيبة : ص ٨٠ ؛ عجائب زيارة سيّد الشهداء عليه‌السلام : ص٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

فرأيت رؤيا هالتني وروّعتني ، فقلت له : ما رأيت أيّها الشيخ ؟ قال : رأيت رجلاً جليل القدر لا بالطويل الشاهق ، ولا بالقصير اللاصق ، لا أقدر أصفه من عظم جلاله وجماله ، وبهائه وكماله ، وهو مع أقوام يحفّون به حفيفاً ، ويزفّونه زفّاً ، وبين يديه فارس ، وعلى رأسه تاج ، وللتاج أربعة أركان ، وفي كلّ ركن جوهرة تضيء من مسيرة ثلاثة أيّام ، فقلت لبعض خدّامه : من هذا ؟ فقال : هذا محمّد المصطفى . قلت : ومن هذا الآخر ؟ فقال : علي المرتضى وصي رسول الله ، ثمّ مددت نظري فإذا أنا ناقة من نور ، وعليها هودج من نور ، وفيه امرأتان والناقة تطير بين السماء والأرض ، فقلت : لمن هذه الناقة ؟ فقال : لخديجة الكبرى وفاطمة الزهراء عليهما السلام ، فقلت : ومن هذا الغلام ؟ فقال : هذا الحسن بن علي ، فقلت : وإلى أين يريدون بأجمعهم ؟ فقالوا : لزيارة المقتول ظلماً شهيد كربلاء الحسين بن علي المرتضى ، ثمّ إنّي قصدت نحو الهودج الذي فيه فاطمة الزهراء عليها السلام وإذا أنا برقاع مكتوبة تتساقط من السماء ، فسألت ما هذه الرقاع ؟ فقال : هذه رقاع فيها أمان من النار لزوّار الحسين عليه السلام في ليلة الجمعة ، فطلبت منه رقعة ، فقال لي : إنّك تقول : زيارته بدعة ؟ فإنّك لا تنالها حتّى تزور الحسين عليه السلام ، وتعتقد فضله وشرفه ، فانتبهت من نومي فزعاً مرعوباً ، وقصدت من وقتي وساعتي إلى زيارة سيّد الحسين عليه السلام وأنا

تائب إلى الله تعالى ، فوالله ياسليمان لا أُفارق قبر الحسين عليه‌السلام حتّى تفارق روحي جسدي(١).

ولا يبعد أن تكون الحادثة مكاشفة لا رؤيا ، لا سيّما وأنّها وقعت في ليلة الجمعة التي يرتبط بها عالم الملكوت بعالم الملك ، وتتفتّح أبواب السماء ، والملائكة وأرواح الأنبياء عليهم‌السلام تزدحم على قبر الحسين عليه‌السلام ، ففوج منها هابط وفوج صاعد .

وعلى فرض كونها رؤيا فإنّ أمارات الصدق ومطابقة الواقع عليها بادية ؛ لما ورد عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله أنّ الشيطان لا يتلبّس به ، فمن رآه فقد رآه ، ومطابقتها للمتون الصحيحة المعتبرة الدالّة على أنّ زيارة الحسين تغسل الذنوب وتمحي الخطايا وتدخل العبد الجنّة ، وقد كثرت القصص والحوادث بهذا المضمون وتواترت ، وهو ممّا تعضده الأخبار . نعم حتّى يظهر أثر تعظيم الشعائر على حياة الناس الشخصية والعامّة فإنّه ينبغي أن تتوفّر عدّة شروط :

الأوّل : أن يلجأ الناس إلى الله سبحانه بالتوبة من الذنوب والمعاصي التي هي من أكبر أسباب الابتلاءات والمخاطر .

الثاني : أن يلتجئ الناس إلى الدعاء والتضرّع بعامّتهم في رفع

---

(١) بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٤٠١ ـ ٤٠٢ ، ح١٢ ؛ المنتخب : ص١٩٥ ـ ١٩٦ « بتصرّف » .

الابتلاءات العامّة ، فإذا لا يجتنب أهل المعاصي معاصيهم فإنّ أثر الدعاء يكون أقلّ ممّا إذا تضرّع سائر الناس .

الثالث : أن يثق أهل الدعاء بالاستجابة وبظهور الأثر ، فإذا ظنّوا بذلك أو شكّوا فإنّه قد لا يظهر أثره .

الرابع : أن تكون إقامة الشعائر وتعظيمها بنيّة التقرّب إلى الله سبحانه وغفران الذنوب ونيل الخيرات والبركات ، لا سيّما نيّة رفع البلاء .

فإذا التزم الناس بهذه الشروط فإنّ أثر التعظيم يظهر في دفع كلّ خطر ومعصية ؛ لما عرفت من أنّ الاستجابة وظهور الأثر من مقتضيات الوعد الإلهي ، وهو حتمي الوفاء ، بل فيه وجاهة الحسين عليه السلام ومكانته عند الله سبحانه ، والحسين عليه السلام حبيب الله سبحانه وشهيده ، فلا يردّ الله سبحانه عبداً جعل الحسين عليه السلام شفيعه .

ومن هنا نلاحظ أنّ هذه الخيرات والبركات لا تختصّ بالشيعة والموالين ، بل حتّى غير المسلمين إذا التزموا بذلك ضمن الشروط المذكورة فإنّهم ينالون الكثير من الخيرات والكرامات ، كما تواتر النقل عن ظهور ذلك عند الكثير منهم .

ومن هنا نصّت الأخبار على أنّ زيارته عليه السلام تطيل في العمر ، وتوسّع في الرزق ، وتدفع السوء والمكاره ، في صحيحة محمّد بن مسلم عن أبي

جعفر عليه السلام قال : « مروا شيعتنا بزيارة قبر الحسين عليه السلام فإنّ إتيانه يـزيد في الرزق ، ويمدّ في العمر ، ويدفع مدافع السوء »(١) بل يستفاد من بعض الأخبار أنّ إهمال الزيارة أو التقصير فيها يوجب نقصان العمر والرزق .

ففي رواية منصور بن حازم قال سمعناه يقول : « من أتى عليه حول لم يأت قبر الحسين عليه السلام أنقص الله سبحانه من عمره حولاً ، ولو قلت أنّ أحدكم ليموت قبل أجله بثلاثين سنة لكنت صادقاً ، وذلك لأنّكم تتركون زيارة الحسين عليه السلام ، فلا تدعوا زيارته يمدّ الله في أعمارکم ، ويزيد في أرزاقكم ، وإذا تركتم زيارته نقّص الله من أعماركم وأرزاقكم ، فتنافسوا في زيارته ، ولا تدعوا ذلك ، فإنّ الحسين عليه السلام شاهد لكم في ذلك عند الله سبحانه ، وعند رسوله صلى الله عليه وآله ، وعند أمير المؤمنين عليه السلام ، وعند فاطمة عليها السلام »(٢).

وفي رواية أُخرى : « أنّ من لم يزره فقد حرم خيراً كثيراً »(٣)، وفي رواية أُخرى : « في زيارته الفرج العاجل »(٤)، وفي أُخرى : « أنّ الله

(١) كامل الزيارات : ص٢٨٤ ، ح١ .

(٢) كامل الزيارات : ص٢٨٥ ، ح٢ .

(٣) أُنظر كامل الزيارات : ص٢٨٥ ، ح٣ .

(٤) المصدر نفسه : ص٢٨٥ ، ح٤ .

سبحانه يحيي زائره سعيداً ، ويميته سعيداً ، ويكتبه سعيداً »[١].

وظاهر هذه الأخبار أنّ الآثار المذكورة لا تختصّ بالمؤمنين ، بل تدور مدار عنوان الزائر فتشمل العامي والمسيحي والكافر إن قصده حبّاً وإكراماً ، إلّا أن يقال بالانصراف أو التخصيص بالأدلّة الأُخرى التي قيّدت قبول العمل وأثره بالإيمان والولاية ، لكنّك عرفت أنّ ما ورد في شأن الحسين عليه السلام وتعظيم شعائره ممّا يأبى عن التخصيص والتقييد ، فالحقّ أنّ التمسّك بالإطلاقات والعمومات المذكورة بلا مانع ، لا سيّما وأنّ الآثار المذكورة وضعية تكوينية أو تفضّلية ، وهي لا تنفكّ عن العمل بغضّ النظر عن الاعتقاد .

نعم تضافر في بعض الأخبار أنّ زيارة الحسين عليه السلام هي صلة برسول الله والبرّ به ، وإنّ نتيجة هذه الصلة هي الأمان في الآخرة .

منها : ما روي أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان ذات يوم جالساً وحوله فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فقال لهم : « كيف أنتم إذا كنتم صرعى وقبوركم شتّى ؟ فقال له الحسين عليه السلام : أنموت موتاً أو نقتل ؟ فقال : بل تقتل يابني ظلماً ، ويقتل أخوك ظلماً ، وتشرّد ذراريكم في الأرض ، فقال الحسين عليه السلام : من يقتلنا يارسول الله ؟ قال : شرار الناس . قال : فهل يزورنا

---

(١) المصدر نفسه : ص٢٨٦ ، ح٦ .

بعد قتلنا أحد ؟ قال : نعم يابني طائفة من أُمّتي يريدون بزيارتكم برّي وصلتي ، فإذا كان يوم القيامة جئتها إلى الموقف حتّى أخذ بأعضادها فأخلعها من أهواله وشدائده »(١).

ومنطوقه صريح في الذين يزورون الحسين عليه السلام والعترة الطاهرة ، وهم طائفة من أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله لا جميعهم ، والواقع الخارجي يشهد بأنّ المعني بها هم الشيعة سدّدهم الله سبحانه ؛ لأنّ الوصف المذكور لا ينطبق إلّا عليهم ، وغيرهم من المسلمين ربّما يزورونهم ولكن زيارتهم ليست دائمة ولا عامّة ، وإنّما مقتصرة على قسم منهم لا جميعهم ، كما أنّهم يزورون بعض الأئمّة لا جميعهم .

وبهذا يتّضح المقصود من الفرقة الناجية الموعودة بالجنّة ، وهذا ما تؤكّده رواية أبي جعفر عليه السلام قال : « قال أمير المؤمنين زارنا رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أهدت لنا أُمّ أيمن لبناً وزبداً وتمراً ، فقدّمنا منه فأكل عليه السلام ، ثمّ قام إلى زاوية البيت فصلّى أربع ركعات ، فلمّا كان في آخر سجوده بكى بكاءً شديداً ، فلم يسأله أحد منّا إجلالاً وإعظاماً له ، فقام الحسين عليه السلام وقعد في حجره وقال له : ياأبه لقد دخلت بيتنا فما سررنا بشيء كسرورنا بدخولك ، ثمّ بكيت بكاءً غمّنا فما أبكاك ؟ فقال : يابني أتاني جبرئيل عليه السلام آنفاً

---

(١) كشف الغمّة : ج٢ ، ص٨.

فأخبرني أنّكم قتلى، وأنّ مصارعكم شتّى، فقال ياأبه: فما لمن يزور قبورنا على تشتّتها؟ فقال: يابني أولئك طوائف من أُمّتي يزورونكم فيلتمسون بذلك البركة، وحقيق عليّ أن آتيهم يوم القيامة حتّى أُخلّصهم من أهوال الساعة ومن ذنوبهم، ويسكنهم الله الجنّة »[1].

وقد يقال إنّ هذا الحديث اختلف عن الحديث السابق في أمرين:

أحدهما: الزائرون.

وثانيهما: الغاية.

فغاية الزيارة في الحديث الأوّل هي الصلة لرسول الله ﷺ والبرّ به، وهذا المقام رفيع المستوى لا يدركه إلّا الخواصّ؛ لذا وصف الزائرين بالطائفة، والمعنى أنّ طائفة واحدة من الأُمّة تتّصف بهذه الصفة، بينما الغاية في الحديث الثاني هي التماس البركة، وهي غاية عامّة يطلبها عموم الناس بما فيهم المخالفون؛ لأنّهم يقرّون لهم عليهم السلام بالفضل.

وبهذا يتّضح أنّ ورود الطوائف بصيغة الجمع في الحديث الثاني لا ينافي صيغة المفرد في الحديث الأوّل؛ لأنّ اختلاف الغاية قرينة متّصلة توجب حمل الطائفة في الأوّل على الخواصّ وهم الشيعة، وحمل الطوائف في الثاني على الأعمّ. نعم هم طوائف من الأُمّة لا كلّها، ومعنى ذلك أنّ

---

(١) كامل الزيارات: ص١٢٥ ـ ١٢٦، ح٩؛ أمالي الطوسي: ص٦٦٩، ح١١.

شطراً من الأُمّة لا تحظى بمقام شفاعة النبي ﷺ والمغفرة ودخول الجنّة ، وهؤلاء هم الذين يخالفون العترة ويحاربونهم وينصبون العداء لشيعتهم ، أو يمنعون من زيارتهم .

والحقّ أنّ الزائر بأي واحدة من الغايتين زارهم عليهم السلام فإنّه لابدّ وأن يكون مؤمناً بهم مذعناً لمقاماتهم الإلهية ، ولولا ذلك لم ينل شفاعة النبي ﷺ وإن أُعطي أجر الزيارة وثوابها بملاك أنّ الله سبحانه لا يضيّع أجر من أحسن عملاً ، وهذا ما تعضده الأخبار والارتكاز المتشرّعي ، بل الانصراف ، ففي رواية حمران بن أعين قال : زرت الحسين عليه السلام ، فلمّا قدمت قال لي أبو جعفر عليه السلام : « أبشر ياحمران ، فمن زار قبور شهداء آل محمّد ﷺ يريد بذلك صلة نبيّه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمّه »[1].

وفي رواية الحسن بن علي الوشاء قال : سمعت الرضا عليه السلام يقول : « إنّ لكلّ إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته ، وإنّ من تمام الوفاء وحسن الأداء زيارة قبورهم ، فمن زارهم رغبة في زيارتهم وتصديقاً بما رغبوا فيه كان أئمّتهم شفعاءهم يوم القيامة »[2] وبهذا الحديث يمكن تقييد الأثر في زيارة

---

(١) وسائل الشيعة : ج١٤ ، الباب ٣٧ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٤٢٤ ، ح٣٥ .

(٢) الكافي : ج٤ ، ص٥٦٧ ، ح٢ ؛ من لا يحضره الفقيه : ج٢ ، ص٥٧٧ ، ح٣١٦٠ ؛ وسائل الشيعة : ج١٤ ، الباب ٤٤ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص٤٢٤ ، ح١ .

غير شيعتهم بما إذا كانت عن تصديق ورغبة لا عن طقوس معتادة ، أو عن جمع بين التصديق بهم وبمخالفيهم ممّن غصب حقّهم ؛ لأنّ الجمع المذكور ينفي صدق التصديق بهم والرغبة إليهم ، فتدبّر .

وكيف كان ، فإنّ زيارة الحسين عليه السلام تعدّ من أبرز مظاهر تعظيم الشعائر ، كما أنّها من العناوين التي تتّحد فيها الكثير من مظاهر التعظيم كالحزن والبكاء والتباكي ، والإشخاص بالبدن ، والإنفاق في المال لإقامة العزاء ونحوها .

والخلاصة : أنّ الحياة البشرية تتقوّم بالأمان من الأخطار الدنيوية والأُخروية ، فما لم يضمن الإنسان السلامة فيها لا يمكنه أن يستقرّ أو يهدأ له بال ، ولا ضمان أكثر من صرف مقدار من العمر والجهد والمال في سبيل تعظيم الشعائر .

هذا وهناك خصوصية أمنية أُخرى في الشعائر الحسينية غير متوفّرة في غيرها من شعائر الدين ، وهي أنّها تعطي المؤمن المعظّم لها مكانة عظيمة عند الله سبحانه ، فتجعله آمناً في الآخرة ، وشافعاً مشفّعاً في أهله ومحبّيه ، وهذا ما تواتر مضمونه في الأخبار المعتبرة .

ففي صحيحة عبدالله بن شعيب التميمي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « ينادي مناد يوم القيامة : أين شيعة آل محمّد ؟ فيقوم عنق من الناس لا

يحصيهم إلّا الله تعالى ، فيقومون ناحية من الناس ، ثمّ ينادِ منادٍ : أين زوّار قبر الحسين عليه السلام ؟ فيقوم أُناس كثير ، فيقال لهم : خذوا بيد من أحببتم انطلقوا بهم إلى الجنّة ، فيأخذ الرجل من أحب حتّى إنّ الرجل من الناس يقول لرجل : يافلان أما تعرفني أنا الذي قمت لك يوم كذا وكذا فيدخله الجنّة لا يُدفع ولا يُمنع »[1].

ويدلّ الحديث على أنّ شيعة آل محمّد عليهم السلام مختصّون بخصوصيات في الآخرة يمتازون بها على سائر الناس ، وأنّ زوّار الإمام الحسين عليه السلام هم خصوصيات يمتازون بها على شيعة آل محمّد صلى الله عليه وآله وهي أنّهم ضامنون للجنّة ، وشافعون فيها ، وأنّ شفاعتهم عامّة تشمل كلّ من أرادوا إلّا الناصبي فإنّه لا يدخل الجنّة بأي حال من الأحوال كما نصّت عليه الأخبار[2].

وفي صحيحة محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : « إنّ الحسين عليه السلام صاحب كربلاء قتل مظلوماً مكروباً عطشاناً لهفاناً ، وحقّ على الله عزّوجلّ أن لا يأتيه لهفان ولا مكروب ولا مذنب ولا مغموم ولا عطشان ولا ذو عاهة ثمّ دعا عنده وتقرّب بالحسين عليه السلام إلى الله عزّوجلّ إلّا

---

(١) كامل الزيارات : ص ٣١١ ، ح ٥ .

(٢) أُنظر كامل الزيارات : ص ٣١١ ، ح ٤ .

نفّس الله كربته ، وأعطاه مسألته ، وغفر ذنبه ، ومدّ في عمره ، وبسط في رزقه ، فاعتبروا ياأُولي الأبصار »(١).

ويدلّ الحديث على حقيقتين هامتين :

الأُولى : أنّ في زيارة الإمام الحسين عليه‌السلام يضمن المؤمن جوامع خير الدنيا والآخرة إذا جاءه بهذا القصد والنيّة .

والثانية : أنّ كلّ هذا الخير والبركة التي يحصل عليها الزائر يحصل عليها المعزّي الذي يعظّم شعائر الإمام الحسين عليه‌السلام ، ويتقرّب بالإمام الحسين عليه‌السلام إلى ربّه ، ويرجو بذلك الخير في الدنيا والآخرة بوحدة الملاك ، أو بالأولوية القطعية ؛ لوضوح أنّ الغاية من الزيارة هو الإقرار للإمام الحسين عليه‌السلام بالإمامة والولاية والمواساة والنصرة ، وهذه المضامين مجتمعة في تعظيم شعائره ، بل تؤكّد بعض الأخبار أنّ الذي يشارك الإمام الحسين عليه‌السلام المصاب والحزن يبعث يوم القيامة معه ملطّخاً بدمه .

ففي رواية جابر الجعفي قال : دخلت على جعفر بن محمّد عليهما‌السلام يوم عاشوراء ، فقال لي : « هؤلاء زوّار الله سبحانه ، وحقّ على المزور أن يكرم الزائر . من بات عند قبر الحسين عليه‌السلام ليلة عاشوراء لقي الله يوم القيامة

(١) كامل الزيارات : ص٣١٣ ، ح٥ .

ملطّخاً بدمه ، فكأنّما قتل معه في عـرصته »[1] وقـوله : « هـؤلاء » اسم إشارة للقريب ، وهو بتضمّن الإشارة لأحد معنيين :

إمّا أن يكون الإمام عليه السلام قريباً من كـربلاء ورأى الزوّار غـادين إلى الزيارة وكشف عن مقاماتهم وثوابهم ، أو أنّ الزوّار مرّوا عليه في طريقهم إلى الزيارة ، وعلى كلّ تقدير فإنّ الحديث لا يخلو من إشارة إلى أنّ الزيارة كانت معهودة في زمان الإمام عليه السلام ، وكان النـاس يـقدمون إلى كـربلاء ، ويقيمون عنده ليلة عاشوراء .

وقوله : « زوّار الله » يتوافق مع مضمون الأخبار الكثيرة الدالّة على أنّ زائر الإمام الحسين عليه السلام يـزور الله سـبحانه في عـرشه[2]، وأنّ الإمـام الحسين عليه السلام هو وجه الله ونوره ، وأنّه أشرف معلم من معالم الدين .

وقوله : « لقي الله سبحانه يوم القيامة ملطّخاً بدمه » يـدلّ عـلى أنّ المحشر سيشهد مظاهر للشعائر الحسينية . يظهر الله فيها مـقامات أنـصار الإمام الحسين عليه السلام وأوليائه الذين وظّفوا أعمارهم وأموالهم وأبدانهم لخدمة الإمام الحسين عليه السلام ، وهو ما تـؤكّده الأخـبار المـتضافرة الدالّـة عـلى أنّ الزهراء عليها السلام ستطالب بحقّ الإمام الحسين عليه السلام في الآخرة .

---

(١) كامل الزيارات : ص ٣٢٣ ، ح ١ .

(٢) كامل الزيارات : ص ٣٢٥ ، ح ٧ .

وفي رواية مالك الجهني عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : « من زار الحسين عليه السلام يوم عاشوراء حتّى يظلّ عنده باكياً لقي الله عزّوجلّ يوم القيامة بثواب الفي الف حجّة ، والفي الف عمرة ، والفي الف غزوة ، وثواب كلّ حجّة وعمرة وغزوة كثواب من حجّ واعتمر وغزا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومع الأئمّة الراشدين عليهم السلام » قال قلت : جعلت فداك فما لمن كان في بعد البلاد وأقاصيها ولم يمكنه المصير إليه في ذلك اليوم ؟ قال : « إذا كان ذلك اليوم برز إلى الصحراء أو صعد سطحاً مرتفعاً في داره ، وأومأ إليه بالسلام ، واجتهد على قاتله بالدعاء ... ثمّ ليندب الحسين عليه السلام ويبكيه ، ويأمر من في داره بالبكاء عليه ، ويقيم في داره مصيبته بإظهار الجزع عليه ، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضاً بمصاب الحسين عليه السلام ، فأنا ضامن لهم إذا فعلوا ذلك على الله عزّوجلّ جميع هذا الثواب »(١).

ويدلّ الحديث الشريف على عدّة حقائق :

الحقيقة الأُولى : أنّ زيارة الإمام الحسين عليه السلام تتحقّق مع بعد المكان إذا قصد الزائر الزيارة ، وأظهر السلام ، واجتهد بالتبرّي والدعاء على قاتل الإمام الحسين عليه السلام وظالمه ، وهذا المعنى متحقّق في جميع الشعائر الحسينية ، وهذه جهة أُخرى يمكن أن تزيد من رجحان تعظيم الشعائر ، وينال فيها

---

(١) كامل الزيارات : ص٣٢٥ ـ ٣٢٦ ، ح٩.

المعظّمون أجر زيارة الإمام الحسين عليه السلام فضلاً عن أجر التعظيم ، ومن المتّفق عليه بين الفقهاء والأُصوليين أنّ انطباق أكثر من عنوان ذي مصلحة على العمل الواحد يزيد من فضله ورجحانه .

الحقيقة الثانية : أنّ إظهار البكاء والجزع مطلوب بالصورة الجماعية ، فلا يستحبّ للمؤمن أن يبكي الإمام الحسين عليه السلام وحده فقط ، بل عليه أن يأمر أهله بذلك ، وبهذا يتأكّد الاستحباب ، وهذا نهج تربوي يدعو الإمام عليه السلام الناس إلى اتّباعه ؛ لتكون الشعائر الحسينية ظاهرة اجتماعية في كلّ بيت ودار ، بل وفي كلّ حي ومحلّة ، وفي كلّ مدينة وبلد يقوم بها المؤمنون بإظهار الجزع والحزن ، ويتزاورون ويتلاقون بالبكاء والتعزية .

وفي هذا دعوة صريحة من الإمام عليه السلام إلى إقامة العزاء الحسيني بأُسلوب المواكب والجماعات ، وبالأُسلوب الظاهر في الحزن والجزع ، وليس بالأُسلوب الهادئ الذي يمكن أن يحزن به المؤمن في قلبه ، أو يقيم مجلساً فكرياً أو ندوة علمية أو مؤتمراً للسيرة الحسينية ، على أنّ هذا الأُسلوب هو الآخر مطلوب ومستحبّ من باب أنّه دعوة إلى الخير ، وأمر بالمعروف ، وتعليم وإرشاد ، ولكن الأُسلوب الذي يأمر به الإمام عليه السلام هو مواكب العزاء وإحياء عاشوراء عبر الشعائر التي فيها عويل وبكاء وجزع ،

وعنوان الشعائر لا ينطبق على الندوة والمؤتمر ونحوهما ؛ لما عرفت من معنى الشعيرة لغة وعرفاً وإن انطبق عليها عنوان آخر راجح شرعاً .

الحقيقة الثالثة : أنّ الإمام عليه السلام يدعو المؤمنين إلى إقامة مجالس العزاء في البيوت والمساكن ، وبهذا توجيه ربّاني كبير للمؤمنين للبركات والخيرات الكثيرة التي تنزل على أهل الدار بسبب مجالس العزاء ؛ لأنّ مجالس الإمام الحسين عليه السلام نور وهداية ورحمة ، وتظهر آثار المجالس البيتية على الناس في بعدين :

الأوّل : حماية أهل الدار من الشرور والآفات ، ويمكن ملاحظة هذا على الناس الذين يهتمّون بإقامة مجالس العزاء ، سواء في بيوتهم أو محلّاتهم التجارية أو الحسينيات والمساجد ، فإنّهم أسعد وأيسر حالاً من الكثير من الناس الذين لا يهتمّون بذلك ، بل الملحوظ أنّ أغلب الذين أقاموا هذه المجالس ازدادوا إصراراً عليها ، وواصلوا إقامتها ، ويوماً بعد يوم يقوى إيمانهم وقناعتهم ببركاتها وخيراتها وتأثيرها على حياتهم الشخصية والاجتماعية .

الثاني : إصلاح النفوس والأفكار وحلّ المشكلات الاجتماعية ، فإنّ الكلمة الطيّبة التي تقال في المجالس الحسينية سواء من الخطباء والمبلّغين أو من المشاركين والمواقف الحسنة التي يتّخذها أصحاب هذه المجالس من

شأنها أن تربّي المجتمع ، وتعالج نوازع الشرّ في النفوس ، وإنّ الكثير من الناس يشهدون ولا زالوا يشهدون أثر الشعائر والمجالس في الإصلاح الاجتماعي ، فكم من الناس كانوا لا يصلّون فاستمعوا إلى فضل الصلاة وأحكامها وآثارها المعنوية فصلّوا ، وكم من الناس كانوا مبتلين بمرض الغيبة والتهمة والنميمة والكذب والنفاق قد غيّرتهم كلمات الخطباء والمبلّغين في المجالس ، وكم من الناس كانت لهم مشاكل في بيوتهم أو مع جيرانهم أو مع أصدقائهم وقد تمكّنوا من حلّها عبر المجالس ، وأكتفي هنا بذكر قضيّة وقعت لأحد المؤمنين ، حيث وقع في نزاع مع طرف يملك نفوذاً في السلطة الحاكمة ، فغصبه داره ، وعجز عن الحل وانتزاع حقّه ، ففكّر أن يلتجئ إلى المرحوم السيّد كاظم القزويني ﵀ ليعالج مشكلته عبر المنبر الحسيني بموعظته ومعنويته الحسينية .

يقول السيّد ﵀ : لمّا صعدت المنبر تكلّمت حول الغصب وحرمة الاعتداء على حقوق الناس ، وفصّلت في العذاب الذي يبتلى به الغاصبون في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة ، وكان الغاصب حاضراً في المجلس ، وفي اليوم التالي جاءنى المغصوب منه وقال لي : جزاك الله خيراً فقد جاء جاري الغاصب وردّ لي بيتي تأثّراً بموعظتك[1]، وهذه حقيقة يقرّها الواقع ، فإنّ

(١) أُنظر الإمام الحسين عليه السلام عظمة إلهية : ص١٩٩ ـ ٢٠٠ .

الكثير من التوجيهات والإرشادات التي يتعلّمها الناس وتساهم في حلّ مشاكلهم الخاصّة أو العامّة تتمّ عبر المجالس .

وتؤكّد الوقائع والأحداث أنّ الكثير من الناس اهتدوا إلى الدين أو إلى العمل الصالح ببركة هذه المجالس ، وفي هذا المجال حكي عن أحد الكتّاب غير المسلمين رأيه في دور الشعائر الحسينية في هداية الناس وإصلاحهم فقال :

ويقيم الشيعة المآتم ويبكون فيها على الحسين عليه السلام فأثّرت هذه المآتم إلى حدّ أنّه لم يمرّ عليها زمن طويل حتّى بلغت الأوج في الشرق ، ودخل في هذه الطائفة بعض الوزراء وكثير من الملوك والخلفاء ، فبعضهم أخفى ذلك تقيّة ، وبعضهم أظهره جهاراً[1]، بل أثّرت مواكب التشبيه التي يقيمها المؤمنون لتعكس بعض حوادث عاشوراء في بلاد إيران وقفقاسيا والهند وغيرها ، وجذبت جمعاً كبيراً من الناس فتشرّفوا بالإسلام ، ونذر الكتابيون والوثنيون وعبدة النار والبقر لأهل البيت عليهم السلام ببركتها ، وأخذوا يدفعون في كلّ سنة أموالاً خطيرة إلى الشيعة ليصرفوها في عزاء سيّد الشهداء أرواحنا فداه ، وقد أدّى الحال إلى وضع شركة في تلك البلاد من تجّار النصارى بين أنفسهم وبين سيّد الشهداء عليه السلام ، وكانوا يصرفون

---

(١) أُنظر المجالس الفاخرة : ص٨٧ الهامش ؛ الإمام الحسين عليه السلام عظمة إلهية : ص١٩٧ .

سهمه عليه‌السلام من الربح في عزائه ، وذكر بعض الأعلام أنّه نقل إليه متواتراً بل كما شاهد بنفسه أنّ الكفّار حتّى الوثنيين منهم عند مرور التشبيهات في الشوارع يقفون ويكشفون رؤوسهم احتراماً ، ويبكون بمقتضى الرقّة البشرية ، بل يضربون أحياناً بالأيدي على الرؤوس ضرباً خفيفاً ، وقد جرت عادة عبدة النار في بعض أقطار الهند على صنع شبيه (حجلة القاسم بن الحسن عليهما‌السلام) من خشب وإعدادهم يوم عاشوراء ناراً جزيلاً وحملهم الحجلة أو دخولهم من جانب إلى النار ، وخروجهم من جانب آخر وعدم تأثير النار فيهم ولا في الحجلة[1].

وفوق ذلك كلّه تواتر في الأخبار وفي الشواهد المأثورة أنّ احترام الشعائر الحسينية وإكرامها والمساهمة فيها من أقرب الطرق إلى الله سبحانه ، وأكثرها مقبولية ، وهي أضمن وسائل النجاة والسعادة الأُخروية ، وفي هذا روى أحد مراجع العصر ـ ويبدو من أحداث القضيّة أنّها كانت من مشاهداته الحسّية ـ أنّه كان في كربلاء رجل اسمه عبدالرضا ، ويعمل حفّاراً للقبور ، وكان متديّناً وملتزماً ، وكان في تلك الأيّام يدفنون بعض الموتى في صحن الروضة الحسينية ، فجاؤوا ذات يوم بامرأة كانت تقطن في القرى المحتفّة بكربلاء ، وطلبوا منه أن يدفنها ، وليس لهذه المرأة أحد من المحارم

(١) رسائل الشعائر الحسينية : ج١ ، ص٢١١ ـ ٢١٢ .

يمكن أن ينزلها القبر سوى ولد صغير يعجز عن هذه المهمّة ، وكان آنذاك السرداب تحت صحن الروضة الحسينية واسعاً ومهيّأً لدفن الأموات ، ولم تكن عملية الدفن تستغرق وقتاً طويلاً ؛ لأنّ الدفّان كان يحمل الجسد ويوسّده على التراب ، ويؤدّي بعض المراسم ويخرج ، ولكن لمّا أدخل المرأة أخذ الناس ينتظرون خروجه فلم يخرج ، ولمّا طال الانتظار صاحوا ونادوه فلم يحر جواباً ، فدخلوا السرداب فوجدوا عبدالرضا ملق على الأرض مغمى عليه فأخرجوه ، وبعد أن سكبوا الماء على وجهه أفاق ، وسأل عن ابن المرأة المتوفّاة ، ولمّا حضر الولد سأله عبدالرضا هل كان لأُمّك ارتباط خاصّ بسيّد الشهداء عليه السلام ؟

قال الولد : لا أظن ، إلّا أنّها كانت ملتزمة بواجباتها الشرعية ، وكانت تزور الحسين عليه السلام أسبوعياً ، وكانت تواظب على باقي الزيارات الخاصّة بالإمام عليه السلام في المناسبات ، ولدينا بستان صغير وبعض الأغنام ، وكانت أُمّي تبيع محصول البستان والحليب واللبن لترتزق بها ، ولكنّها كانت في ليالي الجمع تقوم بتوزيع محصول البستان والحليب واللبن مجّاناً على زوّار سيّد الشهداء عليه السلام .

قال عبدالرضا : عندما دخلت السرداب لأُنزل المرأة جهدت كثيراً أن لا تلامس يدي جسدها ، وفي هذه الأثناء وجدت نفسي في حديقة

كبيرة جدّاً وعامرة بالخضار والفواكه والطيور ، ورأيت فيها شخصاً أظنّه الإمام الحسين عليه السلام ، فمن دهشتي أُغمي عليّ ، وسقطت على الأرض[١].

ومن الواضح أنّ هذه الواقعة كانت مكاشفة واتّصالاً بعالم البرزخ الذي أُعدّ لهذه المرأة ، كما أنّ هذا العطاء الإلهي ببركة الإمام الحسين عليه السلام بسبب أعمالها وخدمتها لزوّاره ، ولعلّ الوجه في حصول هذه المكاشفة هو لأجل أن تنقل ، فتكون حجّة على الناس ، وتحثّهم نحو مزيد الارتباط والعمل في سبيل تعظيم الشعائر ، وهذا لطف آخر للإمام الحسين عليه السلام يهدي مواليه وشيعته إلى أمانهم في الدنيا وفي الآخرة .

ونختم الكلام في هذه الحقيقة بما رواه جماعة عن بعض الثقات من تلامذة أُستاذ الكل الشيخ الوحيد البهبهاني قدس سره حيث قال : كنت جالساً في مجلس درسه في المسجد الواقع في الصحن الحسيني الشريف ممّا يلي سمت الرجلين وإذا برجل زائر غريب يبدو عليه أنّه من آذربيجان دخل وسلّم على الأُستاذ وقبّل يده ، ثمّ وضع منديلاً فيه الكثير من حلي النساء وزينتهنّ وقال : اصرف هذه الأموال في أي موضع شئت ، فسأله قدس سره عن سرّها ، فقال :

---

(١) مجلّة نفحات حسينية : عدد محرّم وصفر ١٤٣١هـ، مؤسّسة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الثقافية : ص٣٦.

إنّ لها قصّة عجيبة ، وهي أنّي من بلاد شيروان أو دربند[١]، وسافرت إلى بلاد روسية للتجارة ، وكنت ذا ثروة ومال ، ورأيت في بعض الأيّام امرأة حسناء أخذت بمجامع قلبي ، فلم أملك نفسي إلّا ودخلت على أهلها لأخطبها ، وكان أهلها من وجوه النصارى ، فخطبتها منهم فأبدوا موافقتهم على الزواج ، ولكنّهم تعذّروا بسبب الدين ، فقالوا : إنّك على خلاف مذهبنا فلو دخلت في ديننا زوّجناكها ، فخرجت من عندهم مهموماً أُفكّر في أمري ، ومكثت أيّاماً في حيرة ، ففكّرت أن أتمسّك بالتقيّة فأتظاهر لهم بالقبول وأعمل بأحكام الإسلام خفية ، فذهبت إليهم وأعلنت لهم موافقتي على الشرط فزوّجوني البنت ، ولمّا مضت أيّام ندمت على فعلي فكنت أُوبّخ نفسي ، ووقعت في مضاضة وحيرة ؛ إذ لا يمكنني البقاء على ما أنا عليه ، ولا يمكنني الرجوع إلى بلدي .

ولم يبق لي من شرائع الإسلام شيء أُقيمه هناك إلّا البكاء على سيّد الشهداء عليه آلاف التحية والثناء ، وقد وقع في تلك الأيّام منه عليه السلام محبّة عجيبة ، وأخذت صور عاشوراء ووقائعها تتراءى أمام عيني ، وتمرّ على ذهني مجالس العزاء والمآتم والبكاء ، وكنت أُظهر ذلك ـ وكان الإمام عليه السلام أدركني ولطف بحالي لينجيني ممّا أنا فيه ـ وكانت زوجتي تتعجّب من

---

(١) التردّد من الناقل .

حالتي ؛ إذ لا تعلم لماذا أبكي ، وما هو سرّ حزني وعزائي ؟ ولمّا زادت حيرتها سألتني عن السبب ، وأخذت تلحّ عليّ لأُخبرها عن الحال ، فتوكّلت على الله سبحانه وكشفت لها الحقيقة ، وذكرت لها ثباتي على دين الإسلام وتدثّري جلباب التنصّر لبلوغ المرام ، وذكرت لها قضيّة عاشوراء ومصائب الإمام الحسين عليه السلام ، فوقع في قلبها نور الحسين عليه السلام ومحبّته فأسلمت ، وأخذت تعينني على البكاء والعويل ، فلمّا طابقت سيرتها جمالها ، وحسنت في ظاهرها وباطنها قلت لها : أرى أن نلمّ شعثنا ونهاجر إلى جوار قبره عليه السلام لنحظى بمجاورته والمقام عنده ، فوافقتني وأخذت تجمع ما نحتاج إليه لنرحل ، فما مضى وقت قصير إلّا ومرضت مرضاً شديداً أدّى بها إلى الوفاة ، فاجتمع أهلها وجهّزوها على طريقة النصارى ، ودفنوا معها حليّها وزينتها .. وبقيت متحيّراً في أمري ماذا أصنع حتّى وقع في قلبي أن أُخرج جسدها من اللحد وأحمله معي إلى البلد ، وأُقيم عليها مراسم الإسلام ، فذهبت إلى قبرها ونبشته في جوف الليل ، فوجدت في قبرها رجلاً معفو الشوارب ومحلوق اللحية ، فبقيت مذعوراً متحيّراً من هذه الحادثة العجيبة ، وغلبتني عيناي في تلك الحالة فنمت ورأيت في المنام قائلاً يقول : طِب نفساً وزِد فرحاً ، فإنّ الملائكة حملوا جسد زوجتك إلى أرض كربلاء ، ودفنوها في الصحن الشريف ممّا يلي سمت الرجلين عند

المنارة الطويلة الزرقاء ، وهذا فلان العشّار كان مدفوناً هناك في هذا اليوم نقلوه إلى قبرها ، ووضعوا عنك مؤونة حملها ، فانتبهت فرحاً مستبشراً وعزمت على الرحيل فوراً ، ووفّقني الله سبحانه للوصول وزيارة أبي عبدالله ، وسألت سدنة الصحن المبارك عمّن دفن في الوقت الفلاني في هذا المقام ، فقالوا : العشّار الفلاني الذي ذكر في المنام ، فقصصت لهم الرؤيا فاستجابوا لي وفتحوا القبر ، فدخلت فيه باحثاً عن حقيقة الأمر ، فرأيت زوجتي ملحودة فيه على النحو الذي وضعناها في الثرى ، وهذه حليها وزينتها التي دفنت معها على دين النصارى ، فقبضها الأُستاذ وصرفها في فقراء البلد[1].

(١) دار السلام : ج٢ ، ص١٦٢ ـ ١٦٤ ؛ نور العين : ص٤٤٥ ـ ٤٤٧ .

المطلب السادس

تعظيم الشعائر ضرورة سياسيّة

تؤكّد وقائع التأريخ منذ قديم الأيّام وإلى يومنا هذا ـ والظاهر أنّها ستبقى على ما يستفاد من بعض الأخبار ـ أنّ قضيّة الإمام الحسين عليه السلام وما يتعلّق بها من مظاهر ترتبط بشخص الإمام الحسين عليه السلام أو ترتبط بشخصيته الإلهية كانت ساحة مواجهة وحرب معلنة أو غير معلنة بين جبهتين :

جبهة أهل الحقّ إذ نصروا الإمام الحسين عليه السلام بكلّ ما أُوتوا من قوّة وجهد ، وضحّوا في هذا السبيل بالغالي والنفيس ، وجبهة أهل الباطل بما يمثّلها من حكّام ظلمة ، ودعاة للفكر المادّي ، ومؤسّسات تعمل لإقصاء الدين عن الحياة ، وتسييد الفساد والانحلال الفكري والأخلاقي بدلاً عنه ، وهؤلاء حاربوا الإمام الحسين عليه السلام ، وشكّكوا في نهجه ، ومنعوا الناس من إحياء ذكراه ، وطاردوهم وسجنوهم وقتلوهم بسبب زيارته أو إحياء

شعائره ، وهذا التصنيف بجبهتيه معروف لا يختلف عليه اثـنان ، فـالذين كانوا مع الإمام الحسين ﷺ منذ قديم الأيّام يحيون اسمه وذكراه ، ويعظّمون شعائره ، وضحّوا في هذا السبيل هم الصالحون من العباد والمخلصون لدينهم وأوطانهم ، والذين حاربوا الإمام الحسين ﷺ كانوا من طبقة الحكّام الظلمة وأتباعهم الذين في رقابهم الكثير من الحقوق ، وعلى نهجهم الكـثير مـن علامات الاستفهام ، وتحيط أشخاصهم ومواقفهم شبهات عديدة .

وهذا أمر مدعاة إلى التساؤل عن سبب هذا التباين في المواقف حول الإمام الحسين ﷺ والشعائر المرتبطة به ، ولماذا يـصطف مـعه الصـالحون ويحاربه الطالحون ؟ ولماذا تقع المحاربة على الشعائر الحسينية بالذات ؟

والإجابة عن هذا التساؤل يمكن أن يتّخذ أبـعاداً عـديدة ، ولكـن الكلمة الجامعة التي قد تنضوي تحتها سائر الأبعاد هي أنّ تعظيم الشـعائر الحسينية تتنافى مع مصالح الظالمين ومشاريعهم السياسية ؛ بداهة أنّ الحاكم الظالم وأتباعه لا تهمّهم مصالح الناس وحقوقهم ، كما لا تهمّهم مبادئ الدين وقيمه ، وإنّما الذي يهمّهم ويحرّكهم ويسهر ليلهم ويقلق نهارهم هو الحكم ومصالحه .

ومبادئ السياسة الدنيوية وأخلاق أهـلها تـدلّ عـلى أنّ السـياسي ورجل السلطة والحاكم إذا خرج عن نهج الدين ومال إلى الدنيا فـإنّه لا

يؤيّد شيئاً إلّا إذا كان فيه مصلحة له ، ولا يعارض شيئاً إلّا إذا كانت مصلحته تقتضي المعارضة . هذا هو النهج الغالب على الساسة والحكّام . ومن هنا اشتهر تعريف السياسة في الثقافة الوضعية بأنّها فنّ الممكن(١)، أي الفنّ الذي يربّي صاحبه على الأخذ بالممكن من المصالح المرتبطة به ، ويغضّ الطرف عن غيره ، فإذا خالف الحاكم الظالم شيئاً يقوم به الناس كان لابدّ وأن يتعارض مع مصالحه ، ويصبّ في مصلحة الناس ، وإلّا لم يعارضه .

وإلى فترة غير بعيدة وحينما كانت البلاد الإسلامية تتمتّع بالأصالة الفكرية والاستقلال الثقافي والسياسي كان الساسة الوطنيون والقادة المخلصون يعظّمون الشعائر الحسينية ويشاركون فيها كنهج ديني وسياسي يعزّز كرامة الوطن والمواطن ، ولمّا غزت الثقافة الغربية واستولت على الأنظمة والحكومات ومناهج التعليم والإعلام أخذت تروّج ضدّها ، وفي هذا يقول العلّامة الأميني ﷺ المتوفّى عام (١٣٩٠هـ) : ونحن قد أدركنا زعماء

---

(١) لوحظ في هذا التعريف الجانب التطبيقي الواقعي ، وأمّا من الناحية النظرية فقد عرّفوها بتعاريف أُخرى ترجع في محصّلتها إلى فنّ إدارة المجتمع والدولة .

أُنظر كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم : ج١ ، ص٩٩٣ ، (السياسة) ؛ المنجد : ص٣٦٢ ، (ساس) ؛ المعجم الوسيط : ج١ ، ص٤٦٢ ، (ساس) .

الدين وأعلام الأُمّة ووجوه الناس ورجالات المذهب حتّى الملوك والوزراء والأُمراء منهم قبل نصف قرن وكانوا دائبين على رعاية تلك الهيئة ـ أي اتّخاذ يوم عاشوراء يوم حزن وبكاء شعثاً غبراً بهيئة حزينة شوهد بها رسول الله ﷺ ـ أيّام عاشوراء لم تك ترى أحداً منهم إلّا كاسف البال أشعث أغبر باكي العينين حزناً على الإمام الحسين الشهيد .

ولمّا ألقى التمدّن المزيّف جرانه في المدن راحت تلك السنّة الحسنة المرضية لله ولرسوله ضحية الأوهام ، وتغيّرت البلاد ومن عليها ، فغدا كلّ يعزّ عليه التأسّي بالنبي الأعظم ﷺ والجري على سيرته وسنّته يوم عاشوراء استحياءً من المجتمع المسيّر بيد الاستعمار الوبيلة ، فتركت ونسيت كأن لم تكن[١].

ويؤكّد هذا ما ذكره بعض الكتّاب من أنّ حملة التشكيك بالشعائر أثارتها بعض الصحف البريطانية من خلال مقابلة أجرتها مع بعض السادة في البصرة ، ثمّ نشرتها من غير علم منه ، فأوقعت الناس في اضطراب وشقّت الوسط العلمي والعلماء على قسمين : قسم داعم للشعائر ومؤمن بشرعيتها وبدورها الديني والسياسي في الأُمّة وهم الأكثرية ، وقسم متأثّر بالتشكيك فحرّم بعض مراسمها وهم الأقلّية القليلة جدّاً . يقول : بعد عودة

---

(١) مأتم الإمام الحسين من مصادر أهل السنّة (سيرتنا وسنّتنا) : ص١٩٢ ـ ١٩٣ .

السيّد محمّد مهدي الموسوي القزويني البصري المتوفّى عام (١٣٥٨هـ) من الكويت واستقراره في البصرة سنة (١٣٤٣هـ) نادى بإصلاح بعض الشعائر الحسينية ، وصادف أن زاره أحد مسؤولي أو محرّري صحيفة الأوقات العراقية ، وتباحث معه عن بعض هذه الشعائر فأبدى السيّد رأيه فيها وضرورة تهذيبها من الأُمور الغريبة التي دخلت فيها ، فقام هذا الشخص بنشر بعض هذه المحاور في تلك الجريدة في عددها (١٦١١) تحت عنوان (يوم عاشوراء) دون علم ورضى السيّد[١].

يقول السيّد في رسالته (صولة الحقَ على جولة الباطل) مشيراً إلى ذلك :

حتّى لقد جرت بيني وبين بعض من جاءني محادثة في هذه وغيرها من الديانات وغير الديانات ، وبعد أيّام نشرها على صفحات الأوقات العراقية ، وقد تعرّض لأكثر ما جرت فيه المفاوضة باختصار ، وكان من جملة ما تعرّض إليه هذه المسألة (التشبيهات والمواكب العاشورية) ولو كنت عالماً بأنّه سيتعرّض لها في الجريدة لخطرت عليه ذلك ؛ إذ لا دخ لغير العلماء فيها ، فأجمل فيها بعض التي لصاحب الغرض حملها على حسب

---

(١) رسائل الشعائر الحسينية : ج١ ، ص١٧ ـ ١٨ ، (المقدّمة) .

غرضه)[١].

ومن هذه الكلمات يظهر أنّ الشرارة الأُولى لحركة التشكيك كانت من هذه الجريدة ، وإذا عرفنا منشأ هذه الجريدة وسياستها سيتّضح لنا الهدف السياسي الذي يقف وراء ما نشرته .

يقول السيّد عبدالرزّاق الحسني المتوفّى عام (١٩٩٧م) في كتاب (تاريخ الصحافة العراقية) تحت عنوان الجرائد التي صدرت بيد الاحتلال البريطاني للبصرة وكانت سياسية : الأوقات البصرية : لمّا احتل الجيش البريطاني البصرة في (٢٢) تشرين الثاني (١٩١٤م) وضع يده على ثلاث مطابع للأهالي فيها مضافاً إلى مطبعة الولاية التي صادرها ، وأخذ يطبع فيها نشرة يومية باللغتين العربية والانجليزية عن سير القتال في الشرق والغرب ، وقد تطوّرت هذه النشرة إلى جريدة يومية سياسية أدبية مصوّرة يحرّر فيها (جون فلبي) وغيره من مروّجي السياسة البريطانية ، ولمّا شعرت الحكومة المحتلّة بضرورة وجود جريدة ثابتة تعبّر عن سياستها وتهيّئ الرأي العام في البلاد إلى الأحداث المقبلة أوعزت إلى سليمان بگ الزهير ـ أحد سراة البصرة ـ أن ينشئ جريدة باسمه لهذا الغرض ، فصدرت جريدة (الأوقات

---

(١) صولة الحقّ على جولة الباطل : (ضمن رسائل الشعائر الحسينية) : ج١ ، ص١٨٠ عن تاريخ الصحافة العراقية : ص٧٤ ـ ٧٥ .

البصرية) في أوّل عام (١٩١٥م) ... وكانت الجريدة الجديدة يومية سياسية استبدلت اسمها باسم (الأوقات العراقية) ونقلت إدارتها من البصرة إلى بغداد لتحلّ محلّ جريدة (الأوقات البغدادية) التي عطّلتها الحكومة[١].

ويقول منير بكر في كتابه (الصحافة العراقية) بعد نقله لكلام السيّد الحسني المتقدّم : وكانت خير أداة للإعلان عن سياستهم ، وقد لعب المستر جون فلبي ـ السياسي الانجليزي المعروف ـ دوراً هاماً في تحريرها[٢].

ويقول أيضاً : ولها سياسة معروفة ، فهي خادمة لأغراض السلطات البريطانية ومروّجة لسياسة الحلفاء ، وقد استمرّت في الصدور إلى احتلال بغداد في عام ١٩١٧م .. فالمتصفّح لأعدادها يجد أبناء العالم والبلاغات الحربية تحتلّ معظمها ، فهي أشبه ما تكون بنشرة حربية لخدمة مصالح الانگليز والترويج لسياستهم وحلفائهم[٣]، ويؤكّد هذه الحقيقة ما ذكره بعض الجواسيس الذين زرعهم الغرب في بلاد المسلمين عن خططهم لمحاربة الشعائر واتّهام أهلها ، وتشجيع الحكومات على قمعها[٤]، ولا تخفى على أهل

---

(١) رسائل الشعائر الحسينية : ج١ ، ص٢٠ ، المقدّمة .

(٢) المصدر السابق ، عن الصحافة العراقية : ص٦٨ ، (بتصرّف) .

(٣) المصدر السابق عن الصحافة العراقية : ص١١٣ ، (بتصرّف) .

(٤) أُنظر مذكّرات مستر همفر : ص٥٧ وما بعدها ؛ التأثيرات التركية في المشروع القومي العربي في العراق : ص١١٨ وما بعدها .

الفطنة الدلالات التي تحملها هذه الوقائع في التشكيك بالشعائر .

ونلاحظ أنّ الذين يحاربون الشعائر الحسينية لا يحاربون الكثير من المظاهر السلبية في المجتمع والمفاسد الأخلاقية والإدارية والسياسية التي تعود بالأضرار على الجميع لا يخالفونها ، ولا يمنعون منها ، ولا يعاقبون عليها ، مع أنّها من محرّمات الدين ، وبعضها من ممنوعات القانون ، بل يبرّرونها باسم الحرّية الشخصية ونحو ذلك من حجج وذرائع ، ولكنّهم في عين الحال يخالفون الشعائر الحسينية ، ويشكّكون بها ، ويمنعون منها ، أو يحرّضون على ذلك ، مع أنّها من أُصول العقائد وتقوّي دين الناس ، وتصنع منهم مواطنين صالحين ملتزمين بدينهم وأخلاقهم ، وتوظّف طاقاتهم في النفع العام .

وقد لا يجد الباحث جواباً واضحاً لهذا النهج المتباين في غاياته ودوافعه سوى أنّ تعظيم الشعائر الحسينية وإحياءها في الأُمّة يهدّد الظالمين والفاسدين ، ويبطل مشاريعهم الرامية إلى تحطيم الدين ، أو تجييره لمصالحهم . هذه الغايات ذاتها التي وقفت وراء قتل الإمام الحسين عليه السلام وانتهاك حرمته .

ولذا ورد في زيارته الصادرة من الناحية المقدّسة : « لقد قتلوا بقتلك الإسلام ، وعطّلوا الصلاة والصيام ، ونقضوا السنن والأحكام ، وهدموا

قواعد الإيمان ، وحرّفوا آيات القرآن ، وهملجوا في البغي والعدوان ، لقد أصبح رسول الله ﷺ موتوراً ، وعاد كتاب الله عزّوجلّ مهجوراً ، وغودر الحقّ إذ قهرت مقهوراً ، وفقد بفقدك التكبير والتهليل والتحريم والتحليل والتنزيل والتأويل ، وظهر بعدك التغيير والتبديل والإلحاد والتعطيل والأهواء والأضاليل والفتن والأباطيل »[١] هذه الدواعي والأسباب كلّها تشكّل جوهر سياسة أهل الباطل وأشياعهم وأتباعهم ، ولأجلها قتلوا الإمام الحسين عليه السلام .

ومعنى ذلك أنّ إحياء ذكر الإمام الحسين عليه السلام والتذكير بموقفه الإلهي في عاشوراء هو إحياء لكلّ قيم الدين ، واماتة لكلّ دواعي الجور والباطل ، وقد مرّت عليك بعض الشواهد التي تكشف عن سياسة الحكّام الأمويين والعبّاسيين في محو الدين وتحريف حقائقه والدالّة على أنّ بعض الأُمراء والخلفاء إنّما دخلوا الإسلام من أجل تحريفه وتسخيره للمصالح الدنيوية ، حتّى إنّ في بعض مدن الهند (لاهور) أخذ بعض المتأثّرين بالحكّام الجائرين عشرة الفاروق ، وقد اتّخذوها في مقابل عشرة محرّم يقيمون فيها العزاء ويبكون ثمّ فشلت[٢]؛ لأنّها لم تحمل عناصر النجاح من حقّانية القضية

(١) المزار (لابن المشهدي) : ص٥٠٥ .

(٢) أُنظر الإمام الحسين عليه السلام عظمة إلهية : ص٢٢٣ .

وصدق النيّة ، ومن قبلهم سعى الكثير لإقامة مراسم العزاء على مصعب بن الزبير ليتخّذوها علماً في مقابل شعائر الإمام الحسين عليه السلام ففشلت[1].

---

(١) وهذا ما ذكره جماعة من المؤرّخين ، ففي الكامل : ج٩ ، ص١٥٥ أحداث سنة ٣٨٩هـ : أنّ أهل باب البصرة عملوا يوم السادس والعشرين من ذي الحجّة زينة عظيمة وفرحاً كثيراً ، وكذلك عملوا ثامن عشر من المحرّم مثل ما يعمل الشيعة في عاشوراء ، وسبب ذلك أنّ الشيعة بالكرخ كانوا ينصبون القباب ، وتعلّق الثياب للزينة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة وهو يوم الغدير ، وكانوا يعملون يوم عاشوراء من المأتم والنوح وإظهار الحزن ما هو مشهور ، فعمل أهل باب البصرة في مقابل ذلك بعد يوم الغدير بثمانية أيّام مثلهم ، وقالوا هو يوم دخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر (رض) الغار ، وعملوا بعد عاشوراء بثمانية أيّام مثل ما يعملون يوم عاشوراء ، وقالوا هو يوم قتل مصعب بن الزبير . علماً أنّ مقتله كان في سنة ٧١هـ في جمادى الآخرة .

وفي تاريخ الإسلام للذهبي : ج٢٧ ، ص٢٥ : « حوادث سنة تسع وثمانين وثلاثمائة »: وجعلت السنية بإزاء عاشوراء يوماً بعده بثمانية أيّام إلى مقتل مصعب بن الزبير ، وزارت قبره بمسكن كما يزار قبر الحسين ، وأقامت السنية هذا الشعار القبيح زماناً طويلاً ، فلا قوّة إلّا بالله .

وقال في ج٢٨ ، ص١٣ في أحداث سنة ٤٠٢هـ الاحتفال بعيد الغدير : ويوم الغدير معروف عند الشيعة ، ويوم الغار لجهلة السنّة في شهر ذى الحجّة بعد الغدير بثمانية أيّام اتّخذته العامّة عناداً للرافضة ، فعمل الغدير في هذه السنة والغار في ذى الحجّة ، لكن بطمأنينة وسكون ، وأظهرت القينات من التعليق شيئاً كثيراً ، واستعان السنة ⟵

. . . .

⬅ بالأتراك ، فأعاروهم القماش المفتخر والحلي والسلاح المذهّب .

وقال في ج٢٩ ص١٤ في أحداث سنة ٤٢١هـ : الاحتفال بيوم الغدير ويوم الغار : ما يقرب ممّا تقدّم .

وقال ابن العماد كما نقل عنه السيّد العاملي في المواسم والمراسم : ص١١٤ ـ ١١٥ : تمادت الشيعة في هذه الأعصر بعمل عاشوراء ، وباللطم والعويل ، وبنصب القباب والزينة وشعار الأعياد يوم الغدير ، فعمدت غالية السنة ، وأحدثوا في مقابلة يوم الغدير الغار ، وجعلوه بعد ثمانية أيّام من يوم الغدير ، وهو السادس والعشرون من ذي الحجّة ، وزعموا أنّ النبي ﷺ وأبا بكر اختفيا حينئذ في الغار ، وهذا جهل وغلط ، فإنّ أيّام الغار إنّما كانت بيقين في صفر وفي أوّل شهر ربيع الأوّل ، وجعلوا بإزاء يوم عاشوراء ـ بعده بثمانية أيّام ـ يوم مصعب بن الزبير ، وزاروا قبره يومئذ بمسكن ، وبكوا عليه ، ونظروه بالحسين ؛ لكونه صبر وقاتل حتّى قتل ، ولأنّ أباه ابن عمّة النبي ... إلى أن يقال : ودامت السنة على هذا الشعار القبيح مدّة سنين ... » .

ومن البدع الأُخرى التي واجهوا بها يوم عاشوراء يوم الجمل ، فقد ذكر ابن كثير قائلاً : وفي سنة (٣٦٣هـ) في عاشوراء وقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنّة والرافضة ـ على حدّ قوله ـ وذلك أنّ جماعة من أهل السنّة أركبوا امرأة وسمّوها عائشة وتسمّى بعضهم بطلحة وبعضهم بالزبير وقالوا : نقاتل أصحاب علي ، فقتل بسبب ذلك من الفريقين خلق كثير . أُنظر البداية والنهاية : ج١١ ، ص٢٧٥ .

بل روى الكراجكي وعماد الدين الطبري قضايا عجيبة في هتك حرمة الحسين عليه السلام

⬅

ومواصلة لنهج العداء تؤكّد وثائق التاريخ أنّ بني أُميّة جعلوا من قتل الحسين عليه السلام عيداً يحتفلون به ، ورفعوا من شأن الذين شاركوا في قتله ، ولقّبوهم بألقاب خاصّة عدّوها أوسمة يفتخرون بها ، وجعلوها مفتخراً لذراريهم ، ففي تحفة الأبرار : لمّا استشهد الإمام الحسين عليه السلام صار جيش الشاميين يقرؤون ليزيد سورة (إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً) وصاروا يظهرون الفرح والسرور لغلبة جيش يزيد ونكبة آل نبي الله ، ولقد كتب يزيد إلى أطراف مملكته يخبرهم بفتحه ، فأغرى الناس بمعاداة آل الكساء ، فصاروا بجهلهم وتهافتهم على الدنيا يبتدعون أشياء يستحقّون بها دخول النار ، ومن جملة بدعهم أنّهم صاروا إذا دخل المحرّم أظهروا في العشرة الأُولى منه الفرح والسرور ، فإذا كانت ليلة العاشر منه خضّبوا أقدامهم ، وانصرفوا إلى السماع والغناء ، وبعض البلاد كانوا يعدّون المحرّم كالعيد ، ويسمّونه يوم المحيا ، وينصرف مشايخ الصوفية في ذلك اليوم إلى استماع الضرب بالدفوف والمزامير والغناء(١).

⬅ ـ بما يندى لها جبين كلّ حرّ فضلاً عن المؤمن ـ يعجز القلم واللسان عن بيانها . أُنظرها في التعجّب : ص١١٥ ؛ وكامل البهائي : ج٢ ، ص١٢٢ وانظر روضات الجنّات : ج٣ ، ص٢٨٧ ، ترجمة (خلف بن عبدالملك القرطبي) .

(١) تحفة الأبرار : ص٢٩٤ .

وقد أسّس هذا النهج ابن زياد في الكوفة أيضاً ؛ إذ روي أنّه جعل بيت عائلة الحسين عليه السلام خارج الكوفة بعد أن أخذوهم مسبيين ؛ ثمّ أمر أهل الكوفة أن يخضّبوا ويتزيّنوا ويقضوا تلك الليلة بالطرب والفرح ، ويزيّنوا البلاد للفتح الذي فتحه ابن زياد ليزيد ، ويعدّوا العدّة لدخول السبايا بالفرح والشماتة ، ولمّا أدخلوهم في صبيحة اليوم التالي جعلوا يضربون الدفوف والطبول ، وينفخون في الأبواق .

قال جديلة الأسدي : رأيت أهل البيت مهتكات الجيوب ، مخمّشات الوجوه ، يلطمن الخدود ، داخلات الكوفة(١).

وبمثل هذا فعل يزيد لمّا أدخلهم الشام(٢).

ومن النهج العام للمعاداة والنصب الذي اتّبعته النواصب ـ والناس على دين ملوكها ـ أنّ جماعة منهم أعانوا على قتل الإمام الحسين عليه السلام ، فأُوقفت لهم ولأولادهم الأوقاف ، وصار أولادهم يبجّلون من قبل أُولئك النواصب وأطلقوا عليهم الألقاب كأوسمة .

من هؤلاء (بنو المكبّرين) وهم أحفاد المكبّر الذي لمّا أُتي برأس الإمام الحسين عليه السلام إلى دمشق كان يسير أمام الرأس ويكبّر فرحاً بفتح

(١) أُنظر تذكرة الشهداء : ص٤٥٢ .

(٢) أُنظر منتهى الآمال : ج١ ، ص٧٥٨ .

يزيد .

ومنهم (بنو حامل القضيب) أحفاد الذي جلب القضيب ليزيد فقرع به ثنايا الإمام الحسين عليه السلام وشفته الشريفة ، وهي موضع تقبيل الرسول وفاطمة وجبرئيل عليهم السلام .

ومنهم (بنو الطست) أحفاد الذي وضع الرأس المبارك للإمام الحسين عليه السلام في الطست وجاء به إلى يزيد .

ومنهم (بنو السنان) أحفاد الذي حمل الرأس المبارك لأبي عبدالله عليه السلام على السنان من العراق إلى الشام .

ومنهم (بنو النعل) أحفاد الذين أجروا خيولهم على صدر الإمام الحسين عليه السلام وظهره فرضّوهما ، ثمّ إنّ أُولئك الملعونين قلعوا نعل خيولهم ، وأخذوا يتبرّكون بها ، ويضعونها على الأبواب والحيطان .

يقول البيروني : لقد فعلوا بالحسين ما لم يفعل في جميع الأُمم بأشرار الخلق من القتل بالسيف والرمح والحجارة واجراء الخيول[1]، وقد وصل بعض هذه الخيول إلى مصر فعلّقت نعالها وسمّرت على أبواب الدور تبرّكاً ، وجرت بذلك السنّة عندهم ، فصار أكثرهم يعمل نظيرها ويعلّق على

(١) الآثار الباقية : ص٣٢٩ ؛ وانظر مقتل المقرّم : ص٣٠٣ .

أبواب الدور[١].

ومنهم (بنو السرج) وهم أولاد الذين أسرجوا خيولهم لدوس جسد الحسين عليه السلام ومنهم (بنو السراويل) وهم أولاد الذي سلب سراويل الحسين عليه السلام[٢].

ومنهم (بنو الملحي) وهم أولاد الذين ذروا الملح على جسد الحسين عليه السلام[٣].

ومنهم (بنو الفردجي) أحفاد الذي خرج برأس الإمام الحسين عليه السلام إلى بوّابة الفردج خارج دمشق .

ومنهم (بنو الفتحي) أحفاد الذين كانوا يقرأون (إنّا فتحنا) بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام شكراً منهم بفتح يزيد وقتل الإمام الحسين عليه السلام[٤].

وتدلّ الأخبار على أنّ هذا النهج استمرّ مدّة طويلة من الزمان ، ويشهد له ما ذكره الشيخ عماد الدين الطبري بعد أن استعرض النهج الأموي في الاحتفال بعاشوراء ومراسم الفرح التي كان يقيمها المخالفون

---

(١) التعجّب : ص١١٦ ؛ وانظر مقتل المقرّم : ص٣٠٣ .

(٢) التعجّب : ص١١٦ .

(٣) كامل البهائي : ج٢ ، ص١٢٣ .

(٤) تحفة الأبرار : ص٢٩٥ ـ ٢٩٦ ، (بتصرّف) .

بقتل الحسين عليه السلام قال :

بيد أنّ الأمر ـ بحمد الله ومنّه ـ قد انعكس في هذه الأيّام في ممالك العراق وخراسان ، بل وفي بلاد الهند ، فتذكر هناك مناقب أهل بيت سيّد المرسلين على المنابر ومدائحهم ، ويلعن أعداؤهم[1]، وهذا يشير إلى انفتاح الوضع السياسي وتجاوز الشيعة ظروف التقية حتّى تمكّنوا من ذلك .

وقد ظلّت هذه السنة عند المجاهرين بعدائهم لأهل البيت عليهم السلام كالأيّوبيين الذين أحيوا مراسم الفرح والسرور بقتل الحسين عليه السلام أيّام حكومتهم .

وفي هذا قال بعض المؤرّخين : أنّهم اتّخذوا يوم عاشوراء عيداً وتزيّنوا في ذلك اليوم وأقاموا الولائم . بينما اتّخذه الشيعة يوم عزاء وكانوا ينوحون ويبكون كما أنّهم تجنّبوا الزينة فيه[2].

وقال أبو ريحان البيروني : فأمّا بنو أُميّة فقد لبسوا فيه ما تجدّد وتزيّنوا واكتحلوا وعيّدوا وأقاموا الولائم والضيافات ، وأطعموا الحلاوات والطيّبات ، وجرى الرسم في العامّة على ذلك أيّام ملكهم ، وبقي فيهم بعد

---

(١) تحفة الأبرار : ص٢٩٤ .

(٢) عجائب المخلوقات في حاشية حياة الحيوان : ج١ ، ص١١٥ ؛ نظم درر السمطين : ص٢٣٠ ؛ وانظر الشيعة في ايران : ص٣٤٣ .

زواله عنهم ، وأمّا الشيعة فإنّهم ينوحون ويبكون أسفاً لقتل سيّد الشهداء فيه[١].

وأقرّ ابن تيمية بأنّ هذه كانت بدعة سياسية يراد بها محاربة الشيعة وأهل البيت عليهم السلام[٢].

ونصّت زيارة عاشوراء الشريفة على أنّ بني أُميّة اتّخذوا ذلك اليوم مناسبة للفرح والسرور ، وأنّ هناك أُمماً تتبعهم وتشدّ من أزرهم على هذا النهج المعادي لله ورسوله .

وسعى بنو العبّاس لمحاربة قبر الإمام الحسين عليه السلام وقتل زوّاره ، وهدموا البيوت والأسواق التي كانت تحفّ بمرقده الشريف عدّة مرّات في قضايا معروفة ومفصّلة[٣].

وأمّا في العصور المتأخّرة والحديثة فالأمر جلي لا يخفى على البصير ، لا سيّما في عهد بهلوي في ايران وحكومة البعث في العراق ، فضلاً عن الأنظمة السياسية الأُخرى وبعض المؤسّسات الفكرية والإسلامية التي تدور في فلكها ، والملحوظ أنّ هذه الحرب اتّخذت بعدين :

---

(١) الآثار الباقية : ص ٣٢١ .

(٢) أُنظر اقتضاء الصراط المستقيم : ص ٣٠١ ؛ الشيعة في ايران : ص ٣٤٣ .

(٣) أُنظر البحار : ج ٤٥ ، ص ٣٩٠ ـ ٤٠٩ .

أحدهما : الحرب العلنية بالمنع والقمع لمن يقوم بهذه المراسم .

وثانيهما : الحرب الخفية عبر حملات التشويه والتشكيك بها وتخذيل الناس عنها ، ولعلّ هذه أخطر من الأُولى ؛ لأنّها تفسح المجال لأهل الباطل في أن يتخفّوا وراءها بوجوه عديدة وشعارات مختلفة قد تنطلي على بسطاء الناس ، وقد اتّهم البعثيون الشعائر الحسينية بأنّها رجعية ليخدعوا الشباب المتطلّعين إلى المستقبل ، ويقطعوهم عن أُصولهم التأريخية ، وادعى الشيوعيون ومن تأثّر بهم أنّها خرافات ؛ لأجل جرّ دعاة الثقافة إليهم ، وادّعى البعض حرمتها ، وأنّها بدعة في الدين ؛ لكي يوحي للمتدينين بعدم مشروعيتها ، وادّعى البعض أنّها تتنافى مع التحضّر والحياة الجديدة ؛ ليقطع بعض محبّي الحضارة الحديثة بألوانها الكاذبة وخداعها عنها ، وإلى غير ذلك من دعاوى وهجومات تكثر عادة في أيّام محرّم ، وتشتدّ في أيّام عاشوراء حينما يتهيّأ المؤمنون لإحياء عاشوراء ، وفي عين الحال يغضّون الطرف عن الكثير من مظاهر التخلّف والجهل والفساد التي تعجّ في العالم الإسلامي ، ويسكتون عن الكثير من المظالم والمفاسد التي صرخ الإمام الحسين عليه‌السلام بوجهها وضحّى بما يملك لأجل رفضها ومحاربتها .

هذا التناقض في المواقف والشعارات يكفي لكشف دواعي هذه الحرب .

ومن هنا قال المرجع الديني الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء ﷺ المتوفّى عام (١٣٧٣هـ) : ما أحسب وضعها ـ أي الشعائر الحسينية ـ في مجال السؤال والتشكيك إلّا دسيسة أموية أو نزعة وهّابية ، يريدون أن يتوصّلوا بذلك إلى إطفاء ذلك النور الذي أبى الله إلّا أن يتمّه ولو كره الكافرون[1].

وسنعقد للإجابة عن الإشكالات فصلاً إن شاء الله تعالى ، ونعرضها على التقييم العلمي والنقاش المحايد ، ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الكلمات الصادرة عن جماعة من أهل الفكر والقلم من غير المسلمين تعكس نظرة الآخرين إلى الإمام الحسين عليه السلام والشعائر الحسينية ودورها الكبير في إحياء الدين والحفاظ على كيان المجتمع الإنساني فضلاً عن الإسلامي ودورها السياسي الكبير في فضح هذه السياسة الشيطانية .

منها : ما قاله السير بيرسي سايكس في كتابه تأريخ إيران في الصفحة (٥٤٢) بعد تفصيل واقعة عاشوراء وأحداثها حيث قال :

إنّ هذه الفاجعة كانت أساساً لتمثيل المسرحية الأليمة سنوياً ليس في ايران التي تعتبر العقيدة الشيعية مذهباً رسمياً لها ، بل في كثير من البلاد الآسيوية التي يتيسّر فيها وجود المسلمين ، وقد شاهدت هذه المأساة تمثّل أمامي مرّات عديدة ، ولذلك يمكنني أن أعترف وأقرّ بأنّ الاستماع إلى ولولة

---

(١) رسائل الشعائر الحسينية : ج ١ ، ص ١٠٤ المقدّمة .

النساء الصارخة ومشاهد الحزن الذي يغشى الرجال كلّهم يؤثّر تأثيراً عميقاً في المرء ، بحيث لا يسعه إلّا أن يصبّ نقمته على الشمر ويزيد بن معاوية بقدر ما يصبّه سائر الناس الحاضرين ... والحقيقة أنّ هذه المسرحية الأليمة تدلّ على قوّة عاطفية جامحة تمتلئ بالحزن والأسى الذي لا يمكن أن يقدّر بسهولة ، وإنّ المناظر التي شهدتها بأُمّ رأسي ستبقى غير منسية في مخيّلتي ما دمت على قيد الحياة .

ومن الواضح أنّ بقاء الحدث في الذاكرة ملازم لبقاء أسبابه ودواعيه ، وتحفيز مبادئه وقيمه ، وهذه غاية مهمّة تحقّقها الشعائر الحسينية في العالم .

ومنها : ما ذكره الفيلسوف الألماني وأكبر مؤرّخي الإفرنج المسيو ماربين في رسالته (الثورة الكبرى أو السياسة الحسينية) وبعد حديث مفصّل عن الإمام الحسين عليه‌السلام ومكانته في الإسلام ودوره الكبير في إبقاء الإسلام حيّاً في القلوب والنفوس وفضح السياسات الظالمة لبني أُميّة وغيرهم على طول التأريخ . يقول :

من المعلوم أنّ أُمّة تلقى عليها هذه التعاليم ـ أي عبر مجالس الإمام الحسين عليه‌السلام وإقامة العزاء على مصائبه ـ من المهد إلى اللحد في أي درجة تكون في الملكات العظيمة والسجايا العالية . نعم تكون حائزة كلّ سعادة وشرف ، ويكون كلّ فرد منها جندياً حقيقياً مدافعاً عن عزّ قومه

وفخرهم . هذه هي نكتة التمدّن الحقيقي للأُمم اليوم . هذا هو تعليم معرفة الحقوق . هذا هو معنى تدريس أُصول السياسة .

نحن الأُوربيين بمجرّد أن نرى للقوم حركات ظاهرية في مراسمهم الوطنية أو الدينية منافية لعاداتنا ننسبها إلى الجنون والتوحّش ، ونحن غافلون عن أنّنا لو سبرنا غور هذه الأعمال لرأيناها عقلية سياسية ، كما نشاهد ذلك في هذه الفرقة ـ أي الشيعة ـ بأحسن وجه ، والذي يجب علينا هو أن ننظر إلى حقائق عوائد كلّ قوم ، وإلّا فإنّ أهل آسيا أيضاً لا يستحسنون كثيراً من عوائدنا ، ويعدّون بعض حركاتنا منافية للآداب ، ويسمّونها بعدم التهذيب بل بالوحشية ، وعلاوة على تلك المنافع السياسية التي ذكرناها فإنّهم يعتقدون أنّ لهم في إقامة مآتم الحسين عليه السلام درجات عالية في الآخرة .

وليس لواحدة من الروابط الروحانية التي بين المسلمين اليوم تأثير في نفوسهم كتأثير إقامة مآتم الحسين عليه السلام ، فإذا دام انتشار وتعميم إقامة هذه المآتم بين المسلمين مدّة قرنين لابدّ أن تظهر فيهم حياة سياسية جديدة ، وأنّ الاستقلال الباقي للمسلمين اليوم نصف أسبابه هو اتّباع هذه النكتة ـ أي المآتم ـ وسنرى اليوم الذي يتقوّى فيه سلاطين المسلمين تحت ظلّ هذه الرابطة ، وبهذه الوسيلة سيتّحد المسلمون في جميع أنحاء العالم تحت

لواء واحد ؛ لأنّه لا يرى في جميع طبقات الفرق الإسلامية من ينكر ذكر مصائب الحسين ﷺ وينفر منها بسبب ديني ، بل للجميع رغبة طبيعية بطور خاصّ في أداء هذه المراسم المذهبية ، ولا يرى في المسلمين المختلفين في العقائد سوى هذه النكتة الاتّحادية إلى آخر كلامه[1].

وقد تضمّن هذا القول تنبّؤاً بمستقبل أيّام المسلمين إذا التزموا بالإمام الحسين ﷺ والشعائر المرتبطة به ، لا سيّما الحكّام والمحكومات بتحقيق طموحاتهم في وحدة الكلمة ، والانتصار لقضاياهم العادلة .

في مورد آخر يقول الحكيم الألماني المسيو « ماربين » في كتابه (السياسة الإسلامية) تحت عنوان (ترقّيات فرقة الشيعة المحيّرة للعقول) فبعد أن يوعز أسباب قوّة الشيعة وبقائهم بالرغم من الظلم المستمرّ عليهم والحصارين السياسي والاقتصادي اللذين يعانون منهما على طول التاريخ إلى إيمانهم بالحسين ﷺ وتمسّكهم بنهجه ، وإحيائهم لذكره ، وتعظيم شعائره . يقول : إنّا لم نر في سائر الأقوام ما نراه في شيعة الحسين من الحسّيّات السياسية والثورات المذهبية بسبب إقامة عزاء الحسين ، وكلّ من أمعن النظر في رقي شيعة علي الذين جعلوا إقامة عزاء الحسين شعارهم في

---

(١) جريدة الحبل المتين العدد الثامن والعشرون ، السنة الثامنة ، بتأريخ ٧ محرّم ١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م .

مدّة مائة سنة يذعن بأنّهم فازوا بأعظم الرقي ، فإنّه لم يكن قبل مائة سنة من شيعة علي والحسين في الهند إلّا ما يعدّ بالأصابع ، واليوم هم في الدرجة الثالثة من حيث الجمعية إذا قيسوا بغيرهم ، وكذلك هم في سائر نقاط الأرض ، وإذا قسنا دعاتنا ـ أي المسيحيون ـ مع تلك المصارف الباهظة والقوّة الهائلة بالشيعة نرى دعاتنا لم يحظوا بعُشر ترقيات هذه الفرقة وإن كان قسسنا تحزّن القلوب بذكر مصائب المسيح ، ولكن لا بذلك الشكل والأُسلوب المتداول بين شيعة الحسين ، ويغلب على الظنّ أنّ سبب ذلك هو أنّ مصائب الحسين أشدّ حزناً وأعظم تأثيراً من مصائب المسيح ، وإنّي أعتقد بأنّ بقاء القانون الإسلامي وظهور الديانة الإسلامية وترقّي المسلمين هو مسبّب عن قتل الحسين وحدوث تلك الوقائع المحزنة .

وهكذا ما نراه اليوم بين المسلمين من حسن السياسة وإباء الضيم ما هو إلّا بواسطة عزاء الحسين ، وما دامت في المسلمين هذه الملكة والصفة لا يقبلون ذلّاً ، ولا يدخلون في أسر أحد . ينبغي لنا أن ندقّق النظر في ما يذكر من النكات الدقيقة الحيوية في مجالس إقامة العزاء ، ولقد حضرت دفعات في المجالس التي يذكر فيها عزاء الحسين في إسلامبول مع مترجم فسمعتهم يقولون :

الحسين الذي كان إمامنا ومقتدانا ومن تجب طاعته ومتابعته علينا لم

يتحمّل الضيم ، ولم يدخل في طاعة يزيد ، وجاد بـنفسه وعـياله وأولاده وأمواله في سبيل حفظ شرفه وعلو حسبه ومقامه ، وفـاز في قـبال ذلك بحسن الذكر والصيت في الدنيا والشفاعة يـوم القـيامة والقـرب مـن الله ، وأعداؤه قد خسروا الدنيا والآخرة ، فرأيت وبعد ذلك وعـلمت أنّهـم في الحقيقة يدرّس بعضهم بعضاً علناً ، بأنّكم إن كنتم شيعة الحسين وأصحاب شرف ، إن كنتم تطلبون السيادة والفخر فلا تدخلوا في طاعة أمثال يزيد . لا تحملوا الذلّ ، بل اختاروا الموت بعزّة عن الحياة بذلّة حتّى تفوزوا بحسن الذكر في الدنيا والآخرة ، وتحظوا بالفلاح .

ومن المعلوم حال الأُمّة التي تلق إليها أمثال هذه التعاليم من المهد إلى اللحد في أي درجة تكون من الملكات العظيمة والسجايا العالية . نعم هكذا أُمّة تحوي كلّ نوع من أنواع السعادة والشرف ، ويكون جميع أفرادها جنداً مدافعين عن عزّهم وشرفهم . هذا هو التمدّن الحقيقي اليوم . هذا هو طريق تعليم الحقوق . هذا هو معنى تدريس أُصول السياسة[1].

ويؤكّد كلّ ذلك بقوله : نظراً إلى ترقّي هذه الطائفة في مدّة قليلة بدون إجبار أصلاً يمكن القول بأنّه لا يمضي قرن أو قرنان حتّى يزيد عددها على

---

(١) أُنظر نظرة دامعة حول مظاهرات عاشوراء « ضمن رسائل الشعائر الحسينية » : ج١ ، ص٢٤٨ ـ ٢٥٠ .

عدد سائر فرق المسلمين ، والعلّة في ذلك هي إقامة هذه المآتم ـ أي المآتم الحسينية ـ التي جعلت كلّ فرد من أفرادها داعية إلى مذهبه .

اليوم لا توجد نقطة من نقاط العالم يكون فيها شخصان من الشيعة إلّا ويقيمان فيها المأتم ، ويبذلان المال والطعام ، ورأيت في بندر (مارسل) في الفندق شخصاً واحداً عربياً شيعياً من أهل البحرين يقيم المأتم منفرداً جالساً على الكرسي بيده الكتاب يقرأ ويبكي ، وكان قد أعدّ مائدة من الطعام ففرّقها على الفقراء .

هذه الطائفة تصرف في هذا السبيل الأموال على قسمين ، فبعضهم يبذلون في كلّ سنة من أموالهم خاصّة في هذا السبيل بقدر استطاعتهم ما يقدّر بالملايين ، والبعض الآخر من أوقاف خصّصت لإقامة هذه المآتم ، وهذا المبلغ طائل جدّاً ، ويمكن القول بأنّ جميع فرق المسلمين منضمّة بعضها إلى بعض لا تبذل في سبيل مذهبها ما تبذله هذه الطائفة ، وموقوفات هذه الفرقة هي ضعفا أوقاف سائر المسلمين أو ثلاثة أضعافها .

كلّ واحد من هذه الفرقة بلا استثناء سائر في طريق الدعوة إلى مذهبه ، وهذه النكتة مستورة عن جميع المسلمين حتّى الشيعة أنفسهم ، فإنّهم لا يتصوّرون هذه الفائدة من عملهم هذا ، بل قصدهم الثواب الأُخروي ، ولكن بما أنّ كلّ عمل في هذا العالم لابدّ أن يظهر له بطبيعته أثر

فهذا العمل أيضاً يؤثّر ثمرات للشيعة .

ومن جملة الأُمور التي صارت سبباً في ترقّي هذه الفرقة وشهرتها في كلّ مكان هو إراءة أنفسهم بالرأي الحسن ، بمعنى أنّ هذه الطائفة بواسطة مجالس المآتم وعمل الشبيه واللطم والدوران وحمل الأعلام في مأتم الحسين عليه السلام جلبت إليها قلوب باقي الفرق بالجاه والاعتبار وقوّة الشوكة .

ومن جملة الأُمور التي صارت مؤيّدة لفرقة الشيعة في التأثير في قلوب سائر الفرق هو إظهار مظلومية أكابر دينهم ، وهذه المسألة من الأُمور الطبيعية ؛ لأنّ كلّ أحد بالطبع ينتصر للمظلوم ، ويحبّ غلبة الضعيف على القوي[١].

وقريب من هذا المضمون ذكره الدكتور جوزيف الفرنسي الذي يعدّ من مشاهير مؤرّخي فرنسا في كتابه (الإسلام والمسلمون) في معرض تفصيله لفلسفة العزاء وإقامة المآتم الحسينية وآثارها السياسية والاجتماعية على الشيعة وغيرهم[٢].

---

(١) أُنظر الذريعة : ج٢٢ ، ص٢٤ : « مقتل أبي عبدالله الحسين عليه السلام للسيّد ميرزا حسن ابن السيّد علي القزويني » ؛ رسائل الشعائر الحسينية : ج١ ، ص٢٤٨ .

(٢) أُنظر نظرة دامعة حول مظاهرات عاشوراء « ضمن الشعائر الحسينية » : ج١ ، ص٢٤٥ ـ ٢٤٨ .

ومنها : ما ذكره بعض المراجع الكبار من قضيّة وقعت له مع أحد كبار المبشّرين المسيح . قال حينما كنّا ندرس العلوم الدينية في العراق سافرت يوماً مع بعض الأصدقاء إلى بغداد ، فسمعنا بوجود مبشّر مسيحي اسمه (انستاس كرمل) يبشّر بالنصرانية ، وله محاضرات في هذا الشأن ، فغيّرنا ملابسنا الخاصّة (العمّة والجبّة والعباءة) وذهبنا إلى منزله لنستمع ما يقول ، وكانت عنده جماعة حاضرة ، فبدأ المبشّر بالكلام وبعد ما أنهى محاضرته وخرج الناس هممنا بالخروج، لكنّه دعانا للبقاء، ثمّ بدأ يسألنا فقال:

من أي البلاد أنتم ؟ فأجبناه بجواب مبهم وقلنا : نحن من أهل البلد ، فقال : لا ، إنّ أشكالكم ومظهركم ينفي ما تقولون ، ويدلّ على أنّكم من أصحاب الشأن ، فقلنا : في الواقع نحن من طلبة العلوم الدينية (الحوزة) .

فقال لي : هل أنت سيّد أم شيخ ؟ قلت له : بل أنا سيّد ، فقال : أُريد أن أُحدّثك بصراحة وأعترف لك بحقيقة قد لا تسمعها من غيري أبداً .. قلت : وما هي ؟ قال : أنا رجل مسيحي بل ومبشّر بالمسيحية ، ولكن نبيّكم الذي تعتقدون به من أعظم الرجال وأذكاهم . قلت : وكيف ؟ قال : لأنّه ترك بين أظهركم عدّة أُمور من شأنها أن تبقي الإسلام حيّاً ، بل وفي تقدّم وانتشار مستمر . قلت : وما هي هذه العوامل ؟ قال :

أوّلاً : القرآن ، فهو يتلى بينكم ليلاً ونهاراً .

ثانياً : السادة الأشراف ذرّية النبي ، فإنّ عيسى المسيح على عظمته لم يترك لنا أي علامة تذكّر به . أمّا أنتم السادة في أي مجلس تجلسون وفي أي شارع تمشون فإنّ سيادتكم علامة تذكّر بالنبي ، وتشير إليه ؛ لأنّكم ذرّيته .

ثالثاً : مشاهد الأئمّة التي تجمع حتّى الناس البعيدين حولها ، وتشدّها إلى تأريخ الإسلام وإلى نبيّه .

ورابعاً : الشعائر الحسينية ومجالس العزاء ، ثمّ قال : أُنظر أنّي أصرف الكثير من الجهود والأموال وآتي للناس بكلّ ما يرغّبهم للحضور عندي من طعام وشراب ومع ذلك لم يحضر مجلسي سوى عشرة أنفار لا أكثر ، أمّا أنتم فبمجرّد أن ترفعوا راية واحدة باسم الحسين عليه السلام يجتمع حولها خلق كثير من الناس عن إرادة ورغبة وشوق ، ولا يريدون منكم جزاءً ولا شكوراً ، بل هم يتبرّكون في الحضور في مجالسكم ، كما يطلبون الشفاء وقضاء الحوائج ممّا توزّعونه من شاي وماء ، ويتبرّعون من أموالهم من أجل ذلك ، ونبيّكم بقي حياً كما بقي دينكم بهذه الأُمور التي تذكر دائماً بالدين والأخلاق والفضيلة . والشواهد الواردة بهذا الشأن والتي تشيد بعظمة الشعائر الحسينية ودورها في إحياء الإسلام فكراً وروحاً وإبقاء الهوية الإسلامية للأُمّة كثيرة جدّاً ، وتفوق حدّ التواتر ، بل هي من المسلّمات التي يشهد بها الوجدان والبرهان .

ويؤكّد ذلك البحث الذي صدر مؤخّراً عن الاستخبارات الامريكية تحت عنوان (التخطيط لرسم منظومة معلومات حول عقيدة الشيعة) وقد ذكر أنّ غالبية المسلمين وأنظمتهم السياسية والاجتماعية ذابوا في النموذج الغربي إلّا الشيعة الإمامية ، فإنّهم لم يذوبوا إلى الآن ، وعلّل ذلك بالإمام الحسين عليه السلام وشعائره ، واعترف بأنّه أكبر عامل يشدّ الشيعة للتمسّك بمذهبهم وعدم الانخراط في النموذج الغربي .

وينصّ البحث على أنّ هذا الرمز المعنوي الكبير يشيع في أتباعه الإباء والعزّة في الهوية ممّا يجعلهم مستقلّين ، وأعزّة غير ذائبين ولا خائفين ، مع أنّ أساليبهم سلمية ولكنّهم في عزّة وإباء .

ثمّ يدعو الساسة الغرب وأتباعهم إلى محاربة الشعائر الحسينية ؛ لأنّها الطريق الوحيد لتذويب المجتمع الشيعي ، ويقول : إنّ أفضل طريقة في محاربة الشعائر بما فيها ذكر الحسين عليه السلام وزيارته هي أن نحرّك أقلاماً داخلية منهم ، ونجعلها تهاجم الشعائر وتتّهمها بالخرافية والأُسطورية ، وأنّها أُمور عبثية ولغوية ولا فائدة منها لكي يقتنع بذلك ضعفاء الإيمان والمتأثّرين بالثقافة الغربية ، فيشكّلوا القوّة الضاغطة التي تدعو إلى التخلّي عنها[1].

---

(١) أُنظر الشعائر الحسينية (فقه وغايات) : ص١١٦ ـ ١١٧ .

وقريب من هذا ورد في مذكّرات الدكتور مايكل برانت المعاون الأوّل لرئيس المخابرات الأمريكية والعضو الأساس في محاربة الشيعة في الوكالة المذكورة ؛ إذ أفشى فيه أسراراً خطيرة تكشف عن ملامح الخطّة في محاربة شيعة آل محمّد ﷺ تتضمّن تخصيص ميزانية كبيرة لمحاربة المرجعية الدينية وتضعيف مكانتها بين الشيعة ، والتشكيك في جدوائيّة الشعائر الحسينية والاستخفاف بممارسيها ، وكشف أنّ من أساليبهم في ذلك تحريك المتشدّدين السنّة لتكفير الشيعة وخلق حرب طائفية وإعداد الشخصيات وأشخاص من ضعاف النفوس والإيمان من الشيعة أنفسهم لبثّ الشكوك حول المراجع والشعائر الحسينية لإثارة الخلافات والمشاجرات الداخلية بينهم[1].

ويكفي الالتفات إلى ما يبثّ عبر بعض الفضائيات من برامج وتقوية أحزاب الشرّ لإشاعة الفوضى والقتل والدمار بين الشيعة بالخصوص في مثل العراق وغيره من بلدان العالم الإسلامي مع السكوت الرسمي العالمي والاقليمي بما له من مؤسّسات لمعرفة صدق ما ورد في المذكّرات المذكورة .

ويتحصّل ممّا تقدّم : أنّ الحفاظ على هوية المجتمع والدفاع عن وجوده وحقوقه يتقوّم بأُسلوبين : الجهاد بمعناه المصطلح والجهاد بالكلمة والفكر والثقافة والتحشيد الفكري والمعنوي وتوظيف الطاقات في خدمة

---

(١) لماذا التطبير : ص١٨٣ .

قضاياه العادلة .

ومن الواضح أنّ الأوّل متعذّر عادة لعدم توفّر شروطه الشرعية والاجتماعية ، والأُسلوب المتاح في جميع الأوقات والأمكنة بالنسبة لعموم الناس هو الثاني ، والنهج الأقوى والأقوم في هذا السبيل هو الشعائر الحسينية والحفاظ عليها وتوارثها جيلاً بعد جيل ، وهذا أحد مصاديق الفتح الذي وعد به سيّد الشهداء عليه السلام الناس .

وتؤكّد الأخبار الصحيحة الواردة عن أئمّة الهدى عليهم السلام أنّ النصر في محصّلة الصراع السياسي هو للحسين عليه السلام ولأنصاره ؛ لأنّ نصر الإمام الحسين عليه السلام هو وعد الله سبحانه ، والله موف وعده ، وقد ورد ثبوت نصرهم في دعاء الإمام الصادق عليه السلام الذي تقدّم ، حيث يقول : « واكفهم شرّ كلّ جبّار عنيد ، وكلّ ضعيف من خلقك وشديد ، وشرّ شياطين الإنس والجن »[1] ولا شكّ في أنّ دعاء الإمام عليه السلام مستجاب ، بل دلّت النصوص على أنّ أنصار الحسين عليه السلام وزوّاره ينظر الله إليهم نظرة رحيمة ، ويدعو لهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويصافحهم كما تصافحهم الملائكة[2].

وبالرغم من كلّ الحروب التي شنّت على قبر الإمام الحسين عليه السلام فإنّ

(١) ثواب الأعمال : ص٩٥ ؛ كامل الزيارات : ص٢٢٨ ، ح٢ .

(٢) ثواب الأعمال : ص٩٦ ؛ كامل الزيارات : ص ٢٣٠ ، ح ٤ .

الله سبحانه جعل قبره مزاراً لأنبيائه وملائكته ولسائر الناس ، وهذا نصر إلهي آخر للحسين عليه السلام على أعدائه ، فقد جاء في حديث سنده من السلسلة الذهبية عن الرضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « كأنّي بالقصور قد شيّدت حول قبر الحسين عليه السلام ، وكأني بالحامل تخرج من الكوفة إلى قبر الحسين عليه السلام ، ولا تذهب الليالي والأيّام حتّى يسار إليه من الآفاق ، وذلك عند انقطاع ملك بني مروان »[١].

ولا يبعد أن يكون المراد من ملك بني مروان المعنى الحقيقي والمعنى الكنائي فيشمل كلّ من يشترك مع بني مروان في الظلم والجور ، ولا مانع من استعمال اللفظ في أكثر من معنى بالدلالة التضمّنية بل والمطابقية على ما حقّقناه في الأُصول ، ويؤكّد صدق هذا الإخبار بالغيب الوقوع الخارجي لا سيّما في مثل هذه الأيّام ، حيث يزحف إلى قبره عشرات الملايين من جميع صنوف الناس ومستوياتهم يتحدّون الموت والإرهاب وكلّ ما يلاقونه من أذى وضرّ يطلبون من الله الأجر ، ويقومون بواجب النصرة والمواساة للإمام الحسين عليه السلام .

وقد مرّ عليك حديث السيّدة زينب عليها السلام للإمام السجّاد عليه السلام ما يؤكّد صدق هذه الحقيقة[٢]، وسيأتيك المزيد عن ذلك .

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج١ ، ص٥٣ .

(٢) كامل الزيارات : ص٤٤٤ ـ ٤٤٨ ، ح١ .

المبحث الثاني

العناوين الفقهية العامّة لتعظيم الشعائر الحسينيّة

قد عرفت في البحث الكبروي الذي أسّس قواعد تعظيم الشعائر الدينية أنّ الآيات والروايات متضافرة في الدلالة على محبوبية تعظيم الشعائر شرعاً، وأنّ هذا العنوان ينطبق على تعظيم الشعائر الحسينية انطباقاً تامّاً ، ونؤكّد هنا وجود أكثر من عنوان عام آخر ثبت بالأدلّة القاطعة مطلوبيته الشرعية بنحو الوجوب في بعض مراتبه ، والاستحباب في مراتبه الأُخرى، ممّا ينطبق على الشعائر الحسينية من باب انطباق الكلّي على الفرد، بل انطباق الكلّي على أظهر المصاديق وأجلاها . نتعرّض إليها في هذا المبحث[1] لتكون الأصل العام الذي يتمسّك به لدى فقدان الدليل الخاصّ على بعض الشعائر إذا افترضنا عدم وجوده ، ومن هنا قدّمنا البحث فيه على البحث في تفاصيل الاستدلال على كلّ شعيرة من الشعائر الحسينية بأدلّتها الخاصّة والذي نستعرضه في الفصل التالي إن شاء الله تعالى .

---

(١) سنأتي إلى دلالة كلّ شعيرة من الشعائر الحسينية بأدلّتها الخاصّة إن شاء الله تعالى .

العنوان الأوّل

تعظيم شعائر الله

إذ وردت آيات عديدة أوجبت على الناس تعظيم شعائر الله ، ووعدت على تعظيمها الثواب والخير والبركة ، ووصفت المعظّمين لها بأنّهم أتقياء القلوب .

منها : قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[1] وهذه الآية تثبت كبرى كلّية مفادها أنّ تعظيم شعائر الله سبحانه من تقوى القلب الذي هو من مراتب تقوى الله سبحانه ، وهي تدلّ بإحدى الدلالات اللفظية الثلاث[2] على وجوب تعظيم الشعائر الحسينية ؛ لأنّها من مصاديق شعائر الله .

أمّا الكبرى فتستفاد من أربعة أُمور :

---

(١) سورة الحجّ : الآية ٣٢ .

(٢) أي الدلالة المطابقية والتضمّنية والتلازمية .

الأمر الأوّل : أنّ الآية ظاهرة في جملة خبرية في مقام الانشاء فتفيد الوجوب ، أو ظاهرة في جملة خبرية محضة ، إلّا أنّ القرينة العقلية المحتفّة بها توجب حملها على الوجوب ، وذلك لأنّ إخبار المولى عن الحقيقة الحسنة وإرجاعها إلى العنوان الواجب وهو التقوى يكشف عن محبوبيتها الملزمة عنده ، وكلّ محبوب ملزم يحبّ وقوعه في الخارج ؛ إذ من المسلّمات عند العدلية أنّ الأحكام الشرعية تتبّع الحسن الذاتي والمحبوبية المولوية ، فكلّ حسن يأمر به الشرع ، وكلّ قبيح ينهى عنه ، وعلى هذا فحتّى إذا كانت الآية متضمّنة لجملة خبرية ، فإنّ القرينة العقلية توجب حملها على الإنشاء فتفيد الوجوب لأنّه مقتضى الأصل ؛ إذ الاستحباب يحتاج إلى دليل كما حقّق في الأُصول .

والخلاصة : أنّ منطوق الآية الشريفة يدلّ على أنّ تعظيم شعائر الله سبحانه ينشأ من تقوى القلب ، فيدلّ بالملازمة العقلية أو بالدلالة التضمّنية على أنّها مطلوبة شرعاً .

الأمر الثاني : أنّ الشعائر جمع شعيرة أُضيف إلى لفظ الجلالة من باب التشريف ، والمراد كلّ ما يشعر بالله سبحانه ، ويذكّر الناس به وبآياته ونعمه كالكعبة المشرّفة ، فإنّها تسمّى بيت الله لأنّها المحلّ الذي يشعر بالله ويذكّر الناس به ، والمسجد كذلك .

وقد مرّ عليك في البحث الكبروي أنّ الشعيرة ليست حقيقة شرعية ولا متشرّعية ، بل هي حقيقة لغوية أو عرفية ؛ لأنّه ليس للشرع تأسيس معنى جديد للشعيرة يغاير معناها اللغوي والعرفي ، كما أنّ الفقهاء لم يصطلحوا للشعيرة مفهوماً يغاير المعنى المذكور .

والمعنى الجامع للشعيرة هي العلامات التي تشعر بالله سبحانه[1]، ومادّة الإشعار تتقوّم بركنين هما : الشعور الحاصل في نفس المعظّم للشعائر ، ونقل هذا الشعور إلى الآخرين وإشعارهم به ، فلذا لا تكون الشعائر شعائر إلّا إذا كانت ظاهرة على الجوارح وتشعر الناس بالله سبحانه .

الأمر الثالث : أنّ شعائر الله سبحانه على قسمين : بعضها حقائق تكوينية تنشأ من الواقع كالكعبة المشرّفة وشخص النبي صلى الله عليه وآله والقرآن الكريم ، وبعضها الآخر جعلية اعتبارية تنشأ من اعتبار الشارع كالمسجد ومنبره والأضاحي في الحجّ ، فإنّها تتميّز عن غيرها ، وتصبح معالم مشعرة بالله سبحانه بالنيّة والاعتبار والعناوين الطارئة .

والمطلوب من الناس هو تعظيم هذه الشعائر وإظهار التقديس

---

(١) أُنظر معجم مقاييس اللغة : ص٥٠٧ ، (شعر) ؛ لسان العرب : ج٤ ، ص٤٠٩ ، (شعر) ؛ مجمع البحرين : ج٣ ، ص٣٤٩ ، (شعر) .

والاحترام لها ، والتعظيم يتضمّن زيادة التفخيم والتكبير لها كمّاً وكيفاً على ما هو المتبادر من معنى التعظيم[١]، ومن الواضح أنّ التعظيم من الأُمور الاختيارية المقدورة لجميع الناس ، فلذا وقعت في حيّز التكليف والمطلوبية الشرعية .

الأمر الرابع : أنّ الآية وصفت تعظيم الشعائر بأنّها من تقوى القلوب ، وهذا الوصف يشعر بالعلّية ، أي أنّ القلوب التقيّة هي التي تعظّم شعائر الله سبحانه ، وهذا ممّا يشهد به الوجدان فضلاً عن النصّ والبرهان .

وتوضيح ذلك : أنّ القلب هو القوّة التي تقف وراء سائر أفعال الإنسان وتصرّفاته ، وهذه الأفعال لا تخلو إمّا أن تكون أفكاراً ومعتقدات وآلتها العقل ، إلّا أنّ مقرّها ومستودعها القلب ، فإذا جزم العقل بالنتائج الفكرية والاعتقادية يرسلها إلى القلب لتستقرّ فيه ، ولذا توصف الأفكار بالإيمان والمعتقد بها بالمؤمن ونتائجها يقينية ، والإيمان واليقين من حالات القلب .

وإمّا أن تكون أفعالاً خارجية يؤدّيها الإنسان بجوارحه كالسمع والبصر والنطق والمشي ونحوها ، وهذه الأُخرى منشؤها القلب ؛ لأنّ هذه أفعال اختيارية وتصدر من الإنسان عن إرادة واختيار ، والقلب هو محلّ

(١) أُنظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص٥٧٣ ، (عظم) .

الإرادة ومنشؤها .

وإمّا أن تكون ملكات نفسية وأخلاقاً وهذه الأُخرى مركزها القلب ، فالقلب هو أساس كلّ تصرّفات الإنسان وسلوكياته ، ولذا يخضع لقانون الثواب والعقاب ، ويتدخّل في صحّة الأعمال وفسادها ، ويقع متعلّقاً للتكليف في الحبّ والبغض والإيمان والكفر والرضا والسخط والنيّة ونحوها ، وقد تواترت النصوص على أنّ صحّة العمل تتوقّف على النيّة ، وأنّ الأعمال تتبع النيّات ، وأنّ الجزاء كذلك ؛ لأنّ لكلّ امرئ ما نوى والنيّة من أفعال القلب(١).

ومن هنا وصفت الآية القلوب بالتقوى ، وهي في اللغة مأخوذة من الصون والوقاية والحذر(٢)، ويراد منها الخشية والخوف ممّا يؤثم ، وتقوى الله سبحانه خشيته ، وتتحقّق بامتثال أوامره واجتناب نواهيه(٣). سمّيت بذلك لأنّها تصون صاحبها من العقاب والطرد من الرحمة ، وتقوى القلوب في تعظيم شعائر الله سبحانه يتحقّق بتعظيمها على مستوى الاعتقاد باحترامها وتكريمها وصونها من النواقص الفكرية ، كما يكون على مستوى

---

(١) أُنظر تفصيل ذلك في بحار الأنوار : ج ٧٠ ، ص ١٨٥ وما بعدها .

(٢) معجم مقاييس اللغة : ص ١٠٦١ ، (وقى) ؛ القاموس : ص ١٢٣٣ ، (وقى) .

(٣) أُنظر المعجم الوسيط : ج ٢ ، ص ١٠٥٢ ، (وقى) .

الأخلاق بتعظيمها في النفس وإجلالها في الأحاسيس والمشاعر ، وأمّا على مستوى العمل فبإظهار الاحترام والتقديس والإشعار بذلك ؛ لأنّ تعظيم كلّ شيء بحسبه .

وإطلاق الآية يشمل الثلاثة إلّا أنّ المنصرف منها عرفاً هو الملكة نظير العدالة ، بل ورد عن النبي ﷺ : « التقوى هاهنا »[1] وأشار إلى صدره المبارك ، أي أنّ محلّ التقوى هو القلب ، فتكون كسائر الملكات النفسانية التي محلّها القلب ، وتظهر على الجوارح كالشجاعة والكرم والعدالة ، حينما يقال فلان شجاع يراد منه شجاعة القلب ، وتنعكس هذه الشجاعة على جوارحه ، فيقتحم المخاطر ولا يخاف أو يتردّد في المواقف الصعبة ، ومثله يقال في العدالة ، فإنّ العدالة عبارة عن ملكة نفسية تلزم صاحبها بفعل الطاعات واجتناب المعاصي ، فحقيقة العدالة ليست الطاعة والمعصية ، بل القوّة القلبية التي تحثّ صاحبها على فعل الأوّل وترك الثاني .

ومن الواضح أنّ صفة التقوى لا تكون ملكة إلّا إذا ترسّخت في النفس ، وصارت مستقرّة ، فهي ليست صفة عرضية مؤقّتة ربّما تتوقّف على مستوى الشعور ، ولا حالة من الحالات تحصل في بعض المواقف المؤقّتة ، بل هي صفة راسخة تظهر آثارها على سلوك العبد وتصرّفاته ،

---

(١) الأمالي : (للطوسي) : ص٥٣٦ .

ولذا لا يمكن أن يكون الشجاع جباناً والكريم بخيلاً والعادل فاسقاً ، ولو وقع ذلك كشف عن أنّ صفته النفسية لم تكن في مستوى الملكة ، بل في مستوى الحال أو العرض .

والنتيجة الحاصلة من هذه المقدّمة هي أنّ الآية المباركة وصفت تعظيم شعائر الله سبحانه بأنّها من تقوى القلوب ، وهذه التقوى القلبية لا تحصل إلّا إذا كانت على مستوى الملكة الراسخة التي قد تضعف ولكنّها لا تزول ، وهذه الأُخرى لا تكون ملكة إلّا إذا كانت التقوى في العقيدة وفي الأخلاق وفي العمل ، فيدلّ على أنّ الذين يعظّمون شعائر الله سبحانه هم أتقياء القلوب ، وصفتهم أنّهم يعظّمون شعائر الله سبحانه على مستوى العقيدة فلا يشكّكون فيها ، أو يصفونها بما لا يليق في أمرها ، ويعظّمونها على مستوى العمل ، فيظهرون احترامها على جوارحهم وتقديسها وتفخيمها وتكبيرها . وإنّ هذه الصفة تكون صفتهم الملازمة التي لا تفارقهم في زمان أو مكان .

هذه دلالة الآية بحسب المنطوق ، وأمّا بحسب المفهوم فتدلّ على أنّ الذين لا يعظّمون شعائر الله سبحانه أو يستهينون بها أو يشكّكون في مكانتها ليسوا على تقوى القلب .

هذا من حيث الكبرى ، وهي تتضمّن دلالة منطوقية تثبت أنّ تعظيم

شعائر الله من تقوى القلوب ، ودلالة مفهومية مفادها أنّ عدم تعظيم شعائر الله ليس من تقوى القلوب .

وأمّا الصغرى وهي أنّ الشعائر الحسينية هي من شعائر الله سبحانه فهي من المسلّمات التي قامت عليها الضرورة والنصّ كتاباً وسنّةً وإجماعاً ، بل هو أعظم شعيرة إلهية ؛ لأنّ الإمام الحسين عليه السلام حجّة الله ووليّه وصفيّه ونجيّه واسمه وحبيبه وسرّه وكتابه الناطق وقتيله ووتره وثأره وكرامته ورحمته وإرادته وعرشه وحرمته ، وغيرها من الأوصاف العظيمة التي نصّت عليها الأخبار المعتبرة[1] الدالّة على هذه الأوصاف وأكثر ، فشعائر الإمام الحسين عليه السلام أيضاً من شعائر الله سبحانه ، وعليه يتشكّل قياس من الشكل الأوّل ينتج الحكم في تعظيم الشعائر الحسينية :

صغراه : أنّ شعائر الإمام الحسين عليه السلام من شعائر الله تعالى ، وكبراه : أنّ تعظيم شعائر الله تعالى من تقوى القلوب ، فتكون النتيجة أنّ تعظيم شعائر الإمام الحسين عليه السلام من تقوى القلوب ، فكلّ ما ثبت من أحكام وآثار لتعظيم شعائر الله تعالى يثبت لتعظيم شعائر الإمام الحسين عليه السلام .

ويترتّب على هذه الحقيقة عدّة نتائج :

---

(١) أُنظر مفاتيح الجنان : ص٥١٥ ، الزيارة الثانية المخصوصة ، وص٥١٧ ، الزيارة الثالثة المخصوصة .

النتيجة الأُولى : أنّ القلوب التقيّة هي التي تعظّم شعائر الإمام الحسين عليه السلام .

النتيجة الثانية : أنّ القلوب غير التقية تستهين أو تشكّك بها ، فضلاً عن القلوب التي تتّهمها بالأوصاف المنافية للتعظيم .

النتيجة الثالثة : أنّ أتقياء القلوب يتمتّعون بالتقوى الاعتقادية والنفسية والعملية ، وارتكاب بعض المعظّمين للشعائر لبعض المخالفات الأخلاقية أو الشرعية لا يخلّ بهذه الصفة ؛ لأنّ إثبات الشيء لا ينفي ما عداه ، وعليه تكون دلالة الآية ناظرة إلى أحد معنيين :

المعنى الأوّل : أنّ الأكثرية من المعظّمين للشعائر الحسينية هم أتقياء القلوب ، فلا يصدر منهم ما ينافي هذه التقوى ، وهذا لا يخلّ بكليّة الكبرى ؛ لأنّ الأصل العام في كلّ قاعدة كلّية أن يكون لها استثناءات ، والقواعد تؤسّس على حسب الغالب لا الاستيعاب الكامل كما حقّق في محلّه ، وإلّا لم يبق قاعدة أو قانون حاكم ، ومن هنا اشتهر القول بأنّ لكلّ قاعدة استثناء وما من عام إلّا وقد خصّ .

المعنى الثاني : أنّ الذين يعظّمون الشعائر يتّصفون بتقوى القلب من جهة تعظيم الشعائر ، وغالباً ما تكون مخالفاتهم ناشئة من هفوات وتسويل من الشيطان مؤقّت سرعان ما يعودون إلى صوابهم ؛ لأنّ جاذبية الإمام

الحسين عليه السلام والقوّة المعنوية في شعائره تمنع أصحابها عادة من الاستمرار على العصيان ، وحتّى من يستمرّ منهم فإنّه سرعان ما يتوب ويرجع ولو في أُخريات عمره ، كما تشهد به الأخبار المنقولة بالتواتر عن المؤمنين والصالحين .

والخلاصة : أنّ اتّصاف المعظّمين للشعائر بتقوى القلب لا يمنع من ارتكاب بعضهم للمخالفة الشرعية أو الأخلاقية أحياناً ؛ لأنّ تقوى القلب لا تعني العصمة ، وإنّما هي مقتض لعدم وقوع المخالفة لا علّة تامّة ، وواضح أنّ المقتضي يؤثّر أثره دائماً إلّا إذا ابتلي بالمانع ، ومن هنا قلنا إنّ الذين يعظّمون الشعائر غالباً ما يوفّقون للعمل الصالح .

النتيجة الرابعة : أنّ المطلوب شرعاً من عموم المؤمنين تعظيم الشعائر الحسينية ونشرها وتكثيرها وتنميتها وتطويرها والمواصلة عليها في كلّ زمان ومكان ؛ لأنّها من تقوى القلوب ، والذي وقع متعلّقاً للتكليف هو التعظيم الذي يعني التفخيم كمّاً وكيفاً . ولا يخفى ما في هذه الصفة أي التقوى من الدلالة على الفوز الأُخروي ؛ لأنّ العاقبة للمتّقين .

النتيجة الخامسة : أنّ الجمع المضاف والإطلاق في الآية يدلّان على مطلوبية تعظيم جميع أنحاء الشعائر الحسينية وأصنافها ، والضابطة فيها هو الصدق العرفي ، فكلّ ما صدق عليه عرفاً أنّه من الشعائر مطلوب تعظيمه ،

وفيه الأجر والمثوبة ، والأمر لا ينحصر بالشعائر المعروفة في هذه الأزمنة ، بل حتّى الشعائر التي يمكن أن تستحدث في المستقبل إذا انطبق عليها العنوان المذكور يشملها الحكم ؛ لما حقّق في محلّه من أنّ الأحكام مجعولة على نحو القضية الحقيقية[1] التي لا تتقيّد بزمان أو مكان أو أشخاص ، ولا يخرج من هذا العموم والإطلاق إلّا بدليل قاطع ، فلو قيل بخروج بعض الشعائر فإنّ على القائل إثباته بالدليل ، وعلى فرض الشكّ فإنّ أصالتي العموم والإطلاق حاكمتان ما دام لم يثبت المخصّص أو المقيّد .

وهنا نلفت النظر إلى أنّ ما يقال في تعظيم شعائر الله يقال فى تعظيم حرمات الله الذي ورد الأمر به في مثل قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ**﴾[2] فإنّها أيضاً في مقام تأسيس كبرى كلّية مفادها وجوب تعظيم حرمات الله سبحانه ، وأمّا الصغرى وهى أنّ شعائر الإمام الحسين عليه‌السلام من حرمات الله فثابتة بالضرورة والإجماع ، بل النصوص الكثيرة الدالّة على أنّ الإمام الحسين عليه‌السلام هو مظهر عزّة الله وكرامته ، وهو عرشه وآيته ووجهه ، فيتشكّل القياس المنطقي من الشكل الأوّل ، وتكون نتيجته وجوب تعظيم شعائر الإمام الحسين عليه‌السلام .

---

(١) في مقابل القضية الخارجية التي تتقيّد بالقيود الثلاثة المذكورة .

(٢) سورة الحجّ : الآية ٣٠ .

والوجوب يستفاد من كون الآية جملة خبرية في مقام الانشاء ، أو هي جملة خبرية محضة كاشفة عن المطلوبية الشرعية ، أو مستفادة من الوصف بناءً على ثبوت المفهوم له ، فإنّ مفهوم قوله : ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ يفيد أنّ عدم تعظيم حرمات الله سبحانه لا خير فيه ، ولازمه أن يكون فيه الشرّ ؛ إذ لا يوجد ضدّ ثالث يتوسّط بين الخير والشرّ يمكن افتراض وجوده عند انتفاء أحدهما ، كما هي الضابطة في الضدّين اللذين لا ثالث لهما .

ويتحصّل ممّا تقدّم : أنّ عنوان الشعائر الالهية وكذا الحرمات الإلهية ينطبقان على الشعائر الحسينية انطباق الكلّي على الفرد ، والطبيعة على مصداقها ، فكلّ ما تعلّق بهذين العنوانين من أوامر وأحكام وآثار يتعلّق بالشعائر الحسينية ، وكلّ ما يقال في تعظيم الشعائر الحسينية من قبل المعترضين ـ يقال في تعظيم الشعائر الإلهية لأنّهما مظهران لحقيقة واحدة .

العنوان الثاني
المعروف

فإنّ هذا العنوان بحسب مدلوله اللغوي والعرفي والشرعي يشمل الشعائر الحسينية بالدلالة المطابقية أو التضمّنية أو التلازمية بحسب اختلاف المراتب والمصاديق .

وقد نصّ الكتاب العزيز على الكبرى الواجبة فيه بمثل قوله تعالى : ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(١).

وتقريب الدلالة : أنّ الآية أمرت بتصدّي جماعة من الناس يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كما هو مفاد صيغة الأمر ، ونصّت على أنّ المتصدّين يجب أن يكونوا من المؤمنين لا من غيرهم كما تفيد (من) التبعيضية المضافة إلى ضمير الخطاب الموجّه إلى المسلمين ،

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٤ .

والدعوة إلى الخير تشمل كلّ ما يصدق عليه خير عرفاً ، وكذا المعروف .

وهذان العنوانان يشملان الشعائر الحسينية بالضرورة ، بل هما الغاية التي نهض لأجلها الإمام الحسين عليه السلام ، حيث كتب في وصيّته حين خروجه إلى الجهاد : « وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي صلى الله عليه وآله ، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر »[1].

كما أنّ الشعائر الحسينية تتضمّن سائر المعاني المنضوية تحت عنوان الخير والمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأنّها تتضمّن الكلمة الطيّبة ، والموعظة الحسنة ، ونصرة الحقّ ، ومحاربة الباطل ، والدعوة إلى الإيمان بالتوحيد ، والنبوّة والإمامة والتمسّك بهنّ ، وتحذّر من الآخرة وعذابها ، وتحثّ الناس على التزام طريق الحقّ واجتناب طريق الباطل وغير ذلك من العناوين المقدّسة ليس فقط في الشرع الإسلامي الحنيف ، بل عند جميع المذاهب والأديان والمعتقدات الوضعية ، والشاهد على هذا الوجدان ، بل الضرورة والإجماع فضلاً عن النصوص الكثيرة[2].

والخلاصة : أنّ امتثال فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

---

(١) بحار الأنوار : ج ٤٤ ، ص ٣٢٩ ؛ عوالم العلوم (عوالم الإمام الحسين عليه السلام) : ص ١٧٩ .

(٢) أُنظر المزار (للمفيد) : ص ٤٠ ، باب زيارة النصف من رجب .

يتحقّق بتعظيم الشعائر الحسينية ، كما أنّ إحياء هذه الفريضة ـ أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ يتحقّق بإحياء الشعائر ؛ لتوافق المبادئ والغايات بينها .

فيتشكّل قياس حملي من الشكل الأوّل . صغراه : أنّ تعظيم شعائر الإمام الحسين عليه السلام أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، وكبراه : أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب شرعاً ، ونتيجته : أنّ تعظيم شعائر الإمام الحسين عليه السلام واجب شرعاً .

وعليه تكون كلّ شعيرة من الشعائر من مصاديق الواجب التخييري أو يكون المجموع من حيث المجموع واجباً عينياً ؛ إذ يجب على كلّ مؤمن أن يعظّم الشعائر بما يمكنه وإن أمكن أن تكون المصاديق مستحبّة ؛ لأنّ اختيار المصداق موكول إلى المكلّف نفسه ، نظير الأمر بالصلاة ؛ فإنّ الواجب هو أداء الصلاة إلّا أنّ اختيار المصداق الذي يمتثل به المكلّف الأمر بالصلاة موكول إلى المصلّي نفسه ، وحينئذ تتمايز المصاديق بين ما هو فاضل وأفضل ، أو مستحبّ وأكثر استحباباً ، كالصلاة في المسجد بالقياس إلى الصلاة في البيت ، والصلاة جماعة بالقياس إلى الصلاة فرادى .

نعم المستفاد من منطوق الآية المباركة ـ باعتبار دخول الشعائر تحت عنوان المعروف ـ أنّ التصدّي لتعظيم الشعائر الحسينية من مصاديق

الواجب الكفائي ؛ إذ لا يجوز لجميع الأُمّة ترك تعظيمها ، كما لا يجوز لها ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإذا تصدّى لها جماعة من المؤمنين ـ بما يكفي تصدّيهم في إحياء ذكرى الإمام الحسين عليه السلام وإظهار نصرته باللسان والعمل وإعلان التبرّي واللعن من أعدائه ـ سقط التكليف عن الباقين ، وإلّا أثموا جميعاً .

ويستفاد من آيات أُخرى كقوله تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1] أنّ تعظيم الشعائر الحسينية من أبرز مظاهر الخير والبركة في الأُمّة ، وأنّ الآية وصفت المسلمين بخير أُمّة بسبب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وإذا تحقّق هذا الوصف في تعظيم الشعائر الحسينية دلّ بالتضمّن أو الملازمة على أنّها منشأ الخير في الأُمّة ، وهو ما يستفاد من كثير من النصوص ، ويؤكّده الوجدان والواقع الخارجي ؛ إذ إنّ تمسّك الأُمّة بتعظيم الشعائر الحسينية هو الذي ضمن لها دوام الطاعة والتحرّر من ضيم الجهل والظلم والخلاص من جور السلاطين ، كما حفظ للأُمّة المسلمة هويتها وتأريخها ومعتقداتها كما عرفته في المبحث الأوّل .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

العنوان الثالث
التولّي والتبرّي

وهما عنوانان مختلفان في المفهوم والمصداق . لا يكتمل إيمان المؤمن إلّا بهما ، والمراد بالأوّل التولّي لأولياء الله ، وبالثاني التبرّي من أعداء الله ، وقد نصّ الكتاب العزيز وكذا السنّة على أنّ التولّي لأولياء الله من الواجبات ، والتبرّي من أعدائه كذلك .

في الحديث الصادقي عليه السلام في مقام بيان شرائع الدين قال : « وحبّ أولياء الله واجب ، والولاية لهم واجبة ، والبراءة من أعدائهم واجبة ، ومن الذين ظلموا آل محمّد صلى الله عليه وآله وهتكوا حجابه .. والولاية للمؤمنين الذين لم يغيّروا ولم يبدّلوا بعد نبيّهم واجبة ، مثل : سلمان الفارسي ، وأبي ذرّ الغفاري ، والمقداد بن الأسود الكندي ، وعمّار بن ياسر ، وجابر بن عبدالله الأنصاري ، وحذيفة بن اليمان ، وأبي الهيثم بن التيهان ، وسهل بن حنيف ، وأبي أيّوب الأنصاري ، وعبدالله بن الصامت ، وعبادة بن الصامت ،

وخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين ، وأبي سعيد الخدري ، ومن نحا نحوهم وفعل مثل فعلهم ، والولاية لأتباعهم والمقتدين بهم وبهداهم واجبة »[١].

وقريب منه ورد في رواية الفضل بن شاذان عن الرضا عليه السلام فيما كتبه للمأمون العبّاسي يشرح له محض والإسلام الذي يدور عليه الدين والتديّن ، وعدّ منها : « البراءة من الذين ظلموا آل محمّد صلى الله عليه وآله وهمّوا باخراجهم وسنّوا ظلمهم وغيّروا سنّة نبيّهم والبراءة من الناكثين والقاسطين والمارقين الذين هتكوا حجاب رسول الله صلى الله عليه وآله ونكثوا بيعة إمامهم .. وحاربوا أمير المؤمنين وقتلوا الشيعة رحمة الله عليهم واجبة ... والولاية لأمير المؤمنين والذين مضوا على منهاج نبيّهم ولم يغيّروا ولم يبدّلوا »[٢].

ولتولّي أولياء الله مظاهر ومصاديق عديدة :

منها : المودّة والولاية لهم ؛ إذ جعلها الباري عزّوجلّ أجر الرسالة وثمرة جهاد النبي صلى الله عليه وآله وجهوده ؛ إذ قال سبحانه : ﴿**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[٣] ولا شكّ في أنّ مجازاة النبي صلى الله عليه وآله على تبليغه الرسالة وهداية الأُمّة من الواجبات التي يتّفق عليها العقل والفطرة بملاكات

---

(١) الخصال : ص ٦١٠ ، ح ٩ ؛ بحار الأنوار : ج ١٠ ، ص٢٢٦ ـ ٢٢٧ ، ح ١ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج ٢ ، ص ١٣٥ ، ح ٣ ؛ بحار الأنوار : ج ١٠ ، ص٣٥٨ ، ح ١ .

(٣) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

عديدة :

أحدها : وجوب شكر المنعم .

وثانيها : مجبولية النفس الإنسانية على حبّ من أحسن إليها .

وثالثها : وجوب دفع الضرر المحتمل الناشئ من عدم التولّي والتبرّي.

ورابعها : وجوب التنزّه عن الظلم الناشئ من عدم التولّي والتبرّي لما فيه من بخس لحقوق النبي ﷺ والانتقاص من شأنه ، وجميعها من الملاكات التي يستقلّ العقل بالحكم بحسنها فيتبعه حكم الشرع بمقتضى قانون الملازمة ؛ لأنّها في سلسلة علل الأحكام لا معلولاتها .

والإثبات بعد النفي يدلّ على الحصر ، فيدلّ على أنّ مصداق الشكر ومقابلة الإحسان بمثله منحصر بمودّة آل محمّد عليهم السلام وإظهار الولاية لهم ؛ لأنّهم قربى النبي ﷺ باتّفاق المسلمين ، ولا شكّ في أنّ من المودّة هم التأسّي بهم ، وإظهار الفرح لفرحهم ، والحزن لحزنهم ، بل مواساتهم ومعايشة آلامهم وأتراحهم بالشعور النفسي وبالإحساس البدني من القضايا التي يحكم العقل بحسنها ، والعقلاء يمدحون فاعلها ، ويحكمون باستحقاقه الأجر والمثوبة عليها .

وقد تقدّم منّا أنّ الآية أمرت بمودّتهم عليهم السلام لا محبّتهم ؛ لأنّ المودّة أبلغ من الحبّ ؛ لأنّها عبارة عن الحبّ الظاهر على الجوارح ، بخلاف المحبّة فإنّها

أعمّ .

ومنها : الاتّباع في العمل ، وهو ما يعبّر عنه بالاقتداء والتأسّي ، وفي الآيات الشريفة عبّر عنه بالتولّي ؛ إذ قال سبحانه : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(١).

فإنّ التولّي مصدر بمعنى اسم الفاعل ، ولا يتحقّق إلّا بالطاعة والاتّباع ، ولذا فسّر في المجمع قوله : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ﴾ بالقيام بطاعته ﴿وَرَسُولَهُ﴾ باتّباع أمره ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالموالاة والنصرة(٢).

وقد وصفهم بحزب الله لأنّهم يجتمعون على نصرة دين الله وإقامة حدوده وإرساء قواعده ، والحزب الجماعة الذين تجتمع قلوبهم وأعمالهم على أمر واحد وفيهم قوّة وصلابة(٣)، ولذا وصفهم بالغلبة ؛ لأنّ أي جماعة تحمل هذه الصفات تكون غالبة .

ومن الواضح أنّ هذه الخصوصيات تنطبق في تعظيم الشعائر الحسينية ؛ إذ يقوم بها جماعة تجتمع قلوبهم وأعمالهم على محبّة الإمام

---

(١) سورة المائدة : الآية ٥٦ .

(٢) مجمع البيان : ج٣ ، ص٣٦٤ ، تفسير الآية المزبورة .

(٣) أُنظر مجمع البيان : ج٣ ، ص٣٦٠ ؛ المعجم الوسيط : ج١ ، ص١٧٠ ، (حزب) ؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص٢٣١ ، (حزب) .

الحسين ﷺ ونصرته والدفاع عن حقّه وكرامته ، وتلعن أعداءه والظالمين له ، والتي هي الأُخرى نصرة لدين الله وكرامته .

ولذا لابدّ وأن تكون الأُمّة التي تعظّم شعائر الإمام الحسين ﷺ وتحترم مكانتها أن تكون غالبة غير مغلوبة ، ومنتصرة في نهاية المطاف ، كما أنّها تتّصف بأنّها حزب الله الذين ضمنوا قبول أعمالهم ومكافأتهم بالحسنى . وقد مرّ عليك في الضرورتين الدينية والسياسية لتعظيم الشعائر الحسينية ما يعزّز هذه الحقيقة .

ومنها : التبرّي من أعدائهم ومخالفتهم في القول والعمل ، وهو ما نصّ عليه قوله تعالى : **﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾**[1] وقوله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾**[2].

إذ من الواضح أنّ الذين يحادّون الله ورسوله ويعادونهما ليسوا بمؤمنين ، فلا يجوز للمؤمن أن يودّهم ويتولاّهم في عمله ، وبالمفهوم المخالف يثبت وجوب محاددتهم ومحاربتهم .

وأمّا الآية الثانية فنهت بالمنطوق الصريح عن تولّي من غضب الله

---

(١) سورة المجادلة : الآية ٢٢ .

(٢) سورة الممتحنة : الآية ١٣ .

عليهم ، وطردهم من رحمته ، وهاتان الصفتان : أي المحاددة لله ورسوله والمبغوضية الإلهية هما صفات أعداء الإمام الحسين عليه‌السلام الذين حاربوه ، وانتهكوا حرمته ، وقتلوه ، ولا يمكن أن يعدّ المؤمن نفسه مؤمناً من دون محاربتهم وإظهار معاداتهم والبراءة منهم ، كما لا يمكن أن يكون مؤمناً وهو لا يتولّى الإمام الحسين عليه‌السلام ، ولا يظهر حبّه واتّباعه له .

ولا شكّ أنّ الإظهار بمعنييه الإيجابي أي التولّي والسلبي أي التبرّي يتحقّق في أجلى صوره ومعانيه في الشعائر الحسينية ؛ لما فيها من إظهار المودّة والحبّ للإمام الحسين عليه‌السلام ، والنصرة لمواقفه الربّانية ، وإظهار اللعنة والبراءة من أعدائه .

ومن الثابت بالضرورة والإجماع بل والنصوص الكثيرة أنّ التولّي والتبرّي من الواجبات العينية على كلّ مكلّف ، فإذا انحصر طريقها بتعظيم الشعائر الحسينية تكون واجبة عيناً على جميع العباد ، وإلّا كانت واجبة من جهة أنّها أحد أفراد الواجب التخييري ، ومستحبّة لانطباق الكثير من العناوين المستحبّة عليها كالمواساة والدعوة إلى الخير ونحوه ، فتأمّل .

العنوان الرابع

إحياء أمر آل محمّد عليهم السلام

وقد تواتر هذا المضمون في الأخبار الكثيرة الواردة عن أئمّة الهدى عليهم السلام ، ورواها أجلّاء الأصحاب في الكتب المعتبرة كأمالي الصدوق والخصال وعيون أخبار الرضا عليه السلام ومعاني الأخبار والمحاسن وبصائر الدرجات ومزار المشهدي ومستطرفات السرائر وقرب الاسناد ونحوها .

ومن هذه الأخبار ما رواه معتب مولى أبي عبدالله عليه السلام قال : سمعته يقول لداود بن سرحان : « ياداود أبلغ مواليّ منّي السلام ، وإنّي أقول : رحم الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكر أمرنا ، فإنّ ثالثهما ملك يستغفر لهما . إن اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر ، فإنّ في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياء لأمرنا ، وخير الناس من بعدنا من ذاكر بأمرنا ، ودعا إلى ذكرنا »[1].

ومنها : رواية الفضيل عن أبي عبدالله عليه السلام قال له : « تجلسون

---

(١) بشارة المصطفى : ص ١٧٥ .

وتحدّثون ؟ » قال : نعم جعلت فداك . قال : « إنّ تلك المجالس أُحبّها ، فأحيوا أمرنا ، يافضيل فرحم الله من أحيا أمرنا ، يافضيل : من ذكرنا أو ذُكرنا عنده فخرج من عينه مثل جناح الذباب غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر »(١).

ومنها : رواية العقرقوفي قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول لأصحابه وأنا حاضر : « اتّقوا الله وكونوا أُخوة بررة ، متحابّين في الله ، متواصلين متراحمين ، تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه »(٢).

ونلاحظ أنّ هذه الأخبار تتّفق على عدّة أُمور :

الأمر الأوّل : أنّ الاجتماع والتلاقي في المجالس التي تعقد لذكر آل محمّد عليهم السلام مطلوب شرعاً ، ودعا إليه الأئمّة عليهم السلام ، وصرّحوا بأنّه موضع محبّتهم ودعائهم ، وهذا يدلّ على أنّ مجالس ذكرهم والتذكير بمناقبهم وفضائلهم وذكر مصائبهم تحظى بعناية ورحمة إلهية كبيرة تمحى فيها الذنوب ، ويستجاب الدعاء ، وتقضى بها الحوائج ، وهذا أمر معروف مشهور لدى عموم المؤمنين ، ومتواتر في النقل جيلاً عن جيل .

الأمر الثاني : إنّ إحياء أمرهم عليهم السلام مطلوب ، بل مأمور به كما تفيده

---

(١) السرائر : ج٣ ، ص٦٢٦ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٨٢ ، ح١٤ .

(٢) الكافي : ج٢ ، ص١٧٥ ، ح١ ؛ مشكاة الأنوار : ص٣٢٠ .

صيغة الأمر في قولهم : « أحيوا أمرنا » وهذا مطلوب آخر غير الاجتماع في المجالس ، فالمجالس التي تعقد لإحياء أمرهم عليهم السلام يجتمع فيها عنوانان راجحان شرعاً ، هما الاجتماع والتلاقي وإحياء أمرهم عليهم السلام .

ويعضد ذلك ما ورد في رواية هشام بن الحكم عن الإمام الصادق عليه السلام في بيان بعض وجوه الحكمة في الحجّ ؛ إذ قال : « محفل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا ـ إلى أن قال ـ ولتعرف آثار رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتعرف أخباره ، ويذكر ولا ينسى »[١]، فإنّه دالّ على أنّ إبقاء ذكر النبي صلى الله عليه وآله حاضراً في النفوس والأذهان غاية إلهية كبيرة شرّع لأجلها الحجّ ، وهي أهمّ من الحجّ ؛ لأنّها بمنزلة العلّة المبقية له ، فلو نسي النبي صلى الله عليه وآله ومحي ذكره محي الإسلام وبضمنه الحجّ ، ونلاحظ أنّ هذه الغاية ذاتها منطبقة على إحياء عاشوراء وذكرى الإمام الحسين عليه السلام .

ومن الواضح أنّ المراد من إحياء أمرهم إحياء شأنهم ، كما هو مدلول لفظ الأمر في اللغة والعرف والمركوز في نفوس المتشرّعة ، فإنّ الأمر في اللغة هو الشأن وجمعه أُمور[٢]، وإطلاقه على الأمر بمعنى الطلب ناشئ من ملاحظة جهته الصدورية ، لوضوح أنّ الطلب لا يتمتّع بصفة الأمر الملزم

---

(١) وسائل الشيعة : ج٢٧ ، الباب ٨ من أبواب صفات القاضي ، ص٩٧ ، ح٦٦ .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص٨٨ ، (أمر) ؛ القاموس : ص٣٢٤ ، (أمر) .

إلّا إذا صدر ممّن له شأن الأمر . هذا بناءً على أنّ الشأن هو المعنى الجامع وأنّ الطلب يرجع إليه .

وكيف كان فإنّ الظاهر من قولهم عليهم السلام : « أحيوا أمرنا » هو ما يتعلّق بشؤونهم من مقامات إلهية وفضائل معنوية وعلوم ربّانية وتذكير بمناقبهم ومصائبهم ، ومن الواضح أنّ الشعائر الحسينية من أجلى مظاهر هذا الإحياء والتذكير .

الأمر الثالث : أنّ المطلوب في عقد المجالس وإحياء أمرهم عليهم السلام ذكر مصائبهم والظلامات التي وقعت عليهم والتذكير بها والبكاء عليها ، وإنّ هذا البكاء ولو في أدنى مراتبه ـ وهو الشعور بالحزن وخروج الدمع ولو بقدر ذبابة ـ فإنّه يوجب غفران الذنوب ، كما يشير إليه قول الإمام الصادق عليه السلام في خبر فضيل : « من ذكرنا أو ذُكرنا عنده فخرج من عينه مثل جناح الذباب »[1].

ومن الواضح أنّه بيان لمطلوبية العمل والتشويق إليه بلسان بيان أجره وجزائه ؛ بداهة أنّ من يرغب بغفران الذنوب لابدّ وأن يسلك سبيله ، وهو ذرف الدمع عليهم عليهم السلام .

ولا يخفى أنّ إطلاق الأمر بالإحياء مع عدم ورود بيان من الشرع في

---

(١) السرائر : ج٣ ، ص٦٢٦ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٨٢ ، ح١٤ .

تفسير معناه وحدوده يعني أنّ الأمر موكول إلى العرف ، فكلّ أُسلوب يراه العقلاء أنّه من مراسم الإحياء كان مشمولاً بالأمر ، سواء كان في زمن النبي ﷺ والأئمّة ﷺ أو سيحدث في المستقبل .

الأمر الرابع : أنّ الذين يقومون بذكرهم والبكاء عليهم وإحياء أمرهم هم خير الناس بعد الأئمّة ﷺ ، كما نصّ عليه قول الإمام الصادق ﷺ في خبر معتب : « خير الناس من بعدنا من ذاكر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا »(١) ولعلّ المراد من قوله : « ودعا إلى ذكرنا » أنّه لا يغفل عن ذكرهم ، بل دائم الذكر لهم ويدعو الآخرين إلى ذكرهم ، وإذا انصرف عن ذلك أحياناً فإنّه سرعان ما يعاود ذكرهم ويذكّر بهم ، وهذا ما نجده ظاهراً في حياة الكثير من المؤمنين الذين انصرفوا في إحياء الشعائر المتعلّقة بهم ﷺ ، ويعقدون لهم مجالس الذكرى التي تشيد بفضائلهم ، وتذكر الناس بسيرتهم في أيّام أفراحهم ﷺ ، ومجالس العزاء التي تذكّر بمصائبهم وأحزانهم في الأيّام المناسبة لشهادتهم ، وهذا المعنى يؤكّد ما تقدّم بيانه في الضرورة الدينية من أنّ توظيف النفس لخدمة آل محمّد ﷺ والانشغال بزياراتهم وتعظيم الشعائر المتعلّقة بهم لا يتوفّق إليه كلّ أحد ، بل هو نوع من الاصطفاء الربّاني يستخلص له الله سبحانه المقرّبين من عباده .

ومن مجموع هذه الدلائل تثبت كبرى كلّية مفادها : أنّ إحياء

---

(١) بشارة المصطفى : ص ١٧٥ .

أمرهم عليهم السلام مطلوب شرعاً ، وفيه الأجر والثواب وغفران الذنوب ، كما تثبت أنّ المطلوب في الإحياء أن يكون بصورة جماعية يشترك فيها عموم الناس ، فيتلاقون ويجلسون ويتحدّثون ويذكّر بعضهم بعضاً ، ويبكون على مصائب آل محمّد عليهم السلام ، وهذا النحو من الإحياء هو المعهود في الشعائر الحسينية من مجالس عزاء ومواكب لطم ونحوهما ، وهذا يدلّ على أنّ مراسم العزاء المرسومة عند الشيعة في الجملة ليست من مبتكرات الناس ، ولا منتقلة إليهم من مجتمعات أُخرى ، بل هو نهج أسّسه الأئمّة عليهم السلام، ودعوا الناس إليه . نعم ربما استحدث الناس بعض الأساليب الجديدة إلّا أنّ أُصول العزاء ورسومه منهم عليهم السلام .

ونلاحظ أنّ ثبوت صغروية إحياء الشعائر الحسينية لهذه الكبرى لا تحتاج إلى دليل ؛ لأنّها ملازمة للكبرى للاتّحاد المصداقي بينهما ؛ بداهة أنّ الإمام الحسين عليه السلام من آل محمّد عليهم السلام ، فإحياء أمرهم هو إحياء لأمر الإمام الحسين عليه السلام ، وإحياء أمره عليه السلام إحياء لأمرهم .

ومن هنا يترتّب على إحياء الشعائر الحسينية كلّ ما يترتّب على إحياء أمرهم عليهم السلام من الآثار والأحكام ، ولا شكّ في أنّ إحياء أمرهم عليهم السلام واجب ؛ لأنّه من الأُصول التي يقوم عليها الإيمان والعقيدة ، فيكون إحياء الشعائر الحسينية كذلك . إمّا لأنّه من المقدّمات التي يتوقّف عليها الواجب ، بناءً على أنّ إحياء شعائر الإمام الحسين عليه السلام مقدّمة وجودية لإحياء

أمرهم عليهم السلام ، أو من باب أنّ الحكم المتعلّق بالطبيعة يسري إلى الفرد ؛ للاتّحاد المصداقي بين أمر الإمام الحسين عليه السلام وأمر سائر آل محمّد عليهم السلام .

وما ورد في بعض الأخبار من تفسير الأمر الوارد في قولهم : « أحيوا أمرنا » بتعلّم علومهم وتعليمها للناس لا يخلّ بالنتيجة التي ذكرناها ، وذلك لوجهين :

أحدهما : أنّه ناظر إلى التسمية ولم ينظر إلى الطريق ، وإحياء الشعائر الحسينية طريق إلى تعلّم هذه العلوم ، فلا تنافي بين المدلولين ، كما أنّه طريق لتعليم الناس ، وقد مرّ عليك أنّ الشعائر الحسينية تربّي الأجيال على الفضيلة والإيمان والصبر والثبات من أجل الحقّ ومحاربة الباطل ، وهذه من أشرف العلوم وأسماها .

ثانيهما : أنّ علومهم عليهم السلام تتضمّن الأحداث والمصائب التي مرّت عليهم لما فيها من هتك لحرماتهم وتجاوز على حقوقهم .

إذن من الواضح أنّ المنصرف من علومهم هو ما كان يتعلّق بمقاماتهم الإلهية وعلومهم الربّانية من قبيل رواياتهم وآرائهم ومواقفهم ، وهذه جميعاً تتضمّنها الشعائر الحسينية وتروّجها وتدعو الناس إليها كما هو واضح .

ولا يخفى أنّ إطلاق الأمر بإحياء أمرهم عليهم السلام يتناول في مدلوله إحياء الشعائر المرسومة في زمنهم عليهم السلام والمستجدّة التي قد يقتضيها الزمان أوالمكان وتتّخذ وسيلة لإحياء أمرهم عليهم السلام بالشروط التي تقدّم بيانها في الباب الأوّل.

العنوان الخامس

مواساة الإمام الحسين عليه السلام

إنّ مطلوبية المواساة من الضرورات الأوّلية التي يتّفق على حسنها ومحبوبيتها جميع العقلاء والمتشرّعة ، وقد جرت عليها سيرة أنبياء الله وأوليائه عليهم السلام وسائر المؤمنين(1)، ويعدّ الإنسان المواسي لغيره في أعلى

(1) ففي غزوة تبوك تخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوم من أهل ثبات وبصائر لم يكن يلحقهم شكّ ولا ارتياب ، ولكنّهم قالوا : نلحق برسول الله صلى الله عليه وآله ، منهم أبو خثيمة وكان قوياً وكانت له زوجتان وعريشتان(*) فكانت زوجتاه قد رشتا عريشتيه وبرّدتا له الماء ، وهيّئتا له طعاماً ، فأشرف على عريشته ، فلمّا نظر إليهما قال : والله ما هذا بانصاف رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، قد خرج في

(*) العريش ما يستظلّ به ، وغالباً ما يكون من القصب ، معجم مقاييس اللغة : ص٧٢٥٠ ، (عرش) ؛ المعجم الوسيط : ج٢ ، ص٥٩٣ ، (عرش) .

. . . .

الصخ(*) والريح وقد حمل السلاح مجاهداً في سبيل الله وأبو خثيمة قوي قاعد في عريشته وامرأتين حسناوين ، لا والله ما هذا بانصاف ، ثمّ أخذ ناقته فشدّ عليها رحله فلحق برسول الله ﷺ .. فجزاه النبي خيراً ودعا له .

وكان أبو ذرّ ﵁ تخلّف عن رسول الله ﷺ ثلاثة أيّام ، وذلك أنّ جمله كان أعجف ، فلحق بعد ثلاثة أيّام به ، ووقف عليه جمله في بعض الطريق ، فتركه وحمل ثيابه على ظهره ، فلمّا ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل فقال رسول الله ﷺ : « كن أبا ذرّ » فقالوا : هو أبو ذرّ ، فقال رسول الله ﷺ : « ادركوه بالماء فإنّه عطشان » فأدركوه بالماء ، ووافى أبو ذرّ رسول الله ومعه أداوة ـ إناء صغير من جلد يتطهّر به ويشرب ـ فيها ماء ، فقال رسول الله ﷺ : « ياأبا ذرّ معك ماء وعطشت ؟ » فقال : نعم بأبي أنت وأُمّي انتهيت إلى صخرة وعليها ماء السماء فذقته فإذا هو عذب بارد ، فقلت : لا أشربه حتّى يشربه حبيبي رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله : « رحمك الله .. تعيش

(*) الصخ الصوت عند القرع ، والصخة صوت الحجر إذا قرعت ، والصاخة الصيحة العظيمة التي تصمّ الأُذن ، المعجم الوسيط : ج ١ ، ص ٥٠٨ ، (صخ) والمراد به هنا صوت الأقدام والحوافر ونحوها التي تقرع صخور الأرض ، أو صوت منادي الجهاد الذي يصمّ الآذان ، والأوّل أقرب لمناسبته مع الريح ، وهي الهواء إذا تحرّك ، وفي المفردات أنّ الريح تستعمل في العذاب لا سيّما في القرآن .

مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص ٣٧٠ ، (روح) .

درجات السمو الإنساني والأخلاقي ، ويتّفق سائر العقلاء على مدحه والإشادة به ولو كانت النيّة والقصد بدافع إنساني ، فما بالك بمواساة الإمام الحسين عليه السلام حجّة الله ووليّه وسيّد الشهداء وسيّد شباب أهل الجنّة ومشاركته فيما نابه من الأذى والضرّ في سبيل الله ؟ فإنّ مواساته توجب علو الدرجات ومزيد القربات والمثوبات ، ويعدّ المواسي له في أشرف مقامات الطاعة لله ورسوله صلى الله عليه وآله .

هذا كلّه من جهة البناء العقلائي ، وأمّا في الشرع فإنّ محبوبية المواساة ورجحانها من الضرورات إذا كانت مواساة المؤمن للمؤمن ولو بمثل المعاش والرزق ، بل يستفاد من بعض الأخبار أنّ ترك المواساة من القبائح ، ففي حديث المعلّى بن خنيس عن الصادق عليه السلام : « إنّ ري الإنسان مع ظمأ أخيه المؤمن من الإجحاف بحقّه » ولما عدّ حقوق المؤمن على أخيه قال في خامسها : « أن لا تشبع ويجوع ، ولا تروى ويظمأ ، ولا تلبس ويعرى »[1].

⬅ وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك ، وتدخل الجنّة وحدك » .

أُنظر تفسير القمي : ج١ ، ص٢٩٣ ـ ٢٩٤ ؛ بحار الأنوار : ج٢١ ، ص٢١٥ ، ح٢ .

(١) الكافي : ج٢ ، ص١٦٩ ، ح٢ ؛ وسائل الشيعة : ج١٢ ، الباب ١٢٢ من أبواب أحكام العشرة ، ص٢٠٥ ، ح٧.

وفي رواية الحارثي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « إنّ من حقّ المؤمن على المؤمن المودّة له في صدره ، والمواساة له في ماله ، والخلف له في أهله ، والنصرة له على من ظلمه »(١). وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام : « فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايتنا وولايتنا بولاية الله »(٢).

هذا كلّه فيما يتعلّق بمواساة المؤمن في شؤون الدنيا ، فما بالك إذا كانت المواساة لحجّة الله ووليّه فيما يتعلّق بأُمور الدين ؟ ولا شكّ في أنّ من أسمى صور المواساة ومطلوبيتها شرعاً مواساة الإمام الحسين عليه السلام بما نزل به من آلام ومصائب ، وقد تواترت النصوص التي تشيد بالمواسين للحسين عليه السلام والمشاركين له في محنه ومصائبه ، وتعدّ مواساتهم في المحلّ الأعلى من الصفات الإنسانية المحبوبة شرعاً .

منها : ما ورد عن محمّد بن مسلم عن أبي عبدالله عليه السلام في بيان الحالة التي يجب أن يكون عليها زائر الإمام الحسين عليه السلام ؛ إذ يذكر فيها الإمام عليه السلام جملة من الصفات المعنوية الباطنة والظاهرة ، ويلزم الزائر بالالتزام بها ، ويعدّ منها المواساة . يقول عليه السلام : « يلزمك الغسل قبل أن تأتي الحائر ، ويلزمك الخشوع وكثرة الصلاة والصلاة على محمّد وآل محمّد ، ويلزمك

---

(١) وسائل الشيعة : ج١٢ ، الباب ١٢٢ من أبواب أحكام العشرة ، ص٢٠٧ ، ح١٠ .

(٢) وسائل الشيعة : ج١٢ ، الباب ١٢٢ ، من أبواب أحكام العشرة ، ص٢٠٨ ، ح١١ .

التوقّي لأخذ ما ليس لك ، ويلزمك أن تغضّ بصرك ، ويلزمك أن تعود إلى أهل الحاجة من إخوانك إذا رأيت منقطعاً ، والمواساة »[١].

والمواساة في اللغة والعرف : مشاركة الغير فيما نابه من أذى أو ضرّ[٢].

ومواساة الأُخوان مشاركتهم ومساهمتهم في الرزق والمعاش ، ولا يكون إلّا عن كفاف ، فإن كان عن زيادة وفضلة فلا[٣].

ومنها : الأخبار المتضافرة الداعية إلى مواساة الإمام الحسين عليه السلام في زيارته ، ومشاركة الزائر بعض حالاته ، كرواية علي بن الحكم عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « إذا أردت زيارة الحسين عليه السلام فزره وأنت كئيب حزين مكروب شعث مغبرّ جائع عطشان ، فإنّ الحسين عليه السلام قتل حزيناً مكروباً شعثاً مغبرّاً جائعاً عطشاناً »[٤] ومثلها رواية كرام بن عمرو عنه عليه السلام[٥].

والشعث متغيّر الشعر ومتلبّده . يقال أشعث رأسه وبدنه أي اتّسخ

---

(١) كامل الزيارات : ص٢٥١ ، ح١ .

(٢) أُنظر القاموس : ص١١٥٩ ، (أسى) ؛ لسان العرب : ج١٤ ، ص٣٧ ، (أسا) ؛ المعجم الوسيط : ج١ ، ص١٨ ، (أسا) .

(٣) مجمع البحرين : ج١ ، ص٢٨ ، (أسا) .

(٤) كامل الزيارات : ص٢٥٢ ، ح٣ .

(٥) كامل الزيارات : ص٢٥٢ ، ح٤ .

فهو أشعث[١]، والمغبرّ الذي يعلوه الغبار حتّى صار لونه كلونه[٢]، وقيل هو المغبرّ في الزيارة ، أي الجادّ في طلبها والمقبل عليها . سمّي بذلك من باب التشبيه كأنّه من حرصه وسرعته يثير الغبار ، ويتلوّن بلونه فلا يبالي[٣]، وكلاهما دالّ على المطلوب ، ويراد به الكناية عن عدم الاهتمام بالمظهر الجميل والتزيّن لدى الإقدام عليه ؛ لأنّ المفروض بالمؤمن الموالي أن يواسي إمامه في حالته الصعبة ، ولا يكتفي بمجرّد الزيارة ، ولذا ورد الذمّ لمن يقدم للزيارة ويجلب معه الطعام الفاخر والشراب ، ويتهيّأ لها بحمل الأمتعة[٤].

وفي رواية المفضّل بن عمر قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : « يزورون خير من أن لا يزوروا ، ولا يزورون خير من أن يزوروا » . قال : قلت : قطعت ظهري . قال : « تالله إنّ أحدكم ليذهب إلى قبر أبيه كئيباً حزيناً وتأتونه أنتم بالسفر ، كلّا حتّى تأتونه شعثاً غبراً »[٥].

---

(١) القاموس : ص ١٧٠ ، (شعث) .

(٢) معجم مقاييس اللغة : ص ٧٨١ ، (غبر) ؛ القاموس : ص ٤١٧ ، (غبر) .

(٣) المعجم الوسيط : ج ٢ ، ص ٦٤٣ ، (غبر) .

(٤) كامل الزيارات : ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ ، ح ١ ، ح ٢ ، ح ٣ .

(٥) المزار (للمفيد) : ص ٩٧ ـ ٩٨ ، ح ٣ ؛ المزار (لابن المشهدي) : ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ ، ح ٣ .

ونلاحظ أنّ الإمام عليه السلام ميّز بين نوعين من الزوّار ، زوّار يأتونه زيارة ، وزوّار يأتونه مواساة ، ولا تكون الزيارة كاملة تامّة في فضلها ودرجاتها وآثارها إلّا إذا كانت مع المواساة ، وذلك بأن يكون الزائر أشعث أغبر ، أي بلا تزيّن وتجميل ولا استعداد مسبق كالاستعداد لأجل السياحة والسفر الترفيهي .

ومن الواضح أنّ الزائر لا يكون أشعث أغبر في زيارته إلّا إذا كان جادّاً مسرعاً مهرولاً ، أو ماشياً من مسافات طويلة لاطماً وباكياً وصارخاً بالحزن والمصيبة ، وهذه هي الهيئة التي يظهر بها الموالون في عزاء سيّد الشهداء عليه السلام .

وتؤكّد هذه الصورة الواردة في الرواية ما ذكرناه من أنّ مراسم العزاء المعهودة لدى الشيعة هو نهج أسّسه الأئمّة عليهم السلام ، وليست مستورثة من أقوام وبلاد أُخرى .

ومنطوق الروايتين يدلّ على حقيقتين هامّتين :

الأُولى : أنّ المواساة للإمام الحسين عليه السلام قضية حقيقية لا خارجية لا تتقيّد بزمان أو مكان ، بل هي مطلوبة في كلّ وقت ومن كلّ أحد .

الثانية : أنّ المواساة لا تتّخذ شكلاً واحداً ، بل لكلّ أحد أن يختار الأُسلوب الذي يواسي به إمامه . نعم السنخية والتشابه بين ما نزل

بالإمام عليه السلام وما يريد به مواساته مطلوب ، فبعض المؤمنين يواسونه من جهة جوعه وعطشه فيجوعون ويعطشون ، وبعضهم يواسيه من جهة تأذّيه بحرارة الشمس ، والبعض الآخر يواسيه بجروحه وآلامه فيدمي نفسه شعوراً منه بما نزل فيه من ألم ومواساة بدمه وجروحه وهكذا .

ومنها : ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في مدح أبي الفضل العبّاس عليه السلام وتعداد جملة من أوصافه السامية ، وعدّ من أسماها وأجلاها مواساته للإمام الحسين عليه السلام . إذ يقول في زيارته المروية عن المفيد وابن طاووس رحمهما الله عن أبي حمزة الثمالي : « أشهد لقد نصحت لله ولرسوله ولأخيك ، فنعم الأخ المواسي »[١] وهي تدلّ على أنّ المواساة من الصفات المشرّفة حتّى مدح بها الإمام عليه السلام عمّه العبّاس عليه السلام ، وقد ورد هذا الوصف لا بالصيغة ذاتها بل بالمضمون في زيارته عليه السلام في يوم عرفة أيضاً[٢].

ومنها : ما ورد في زيارة عاشوراء غير المشهورة والتي هي من الزيارات المعتبرة ، وتضاهي الزيارة المشهورة المتداولة في الأجر والثواب ،

---

(١) المزار (للمفيد) : ص١٢٤ ؛ المزار (لابن المشهدي) : ص٣٩١ ؛ المزار (للشهيد الأوّل) : ص١٧٧ .

(٢) إقبال الأعمال : ج٢ ، ص٦٦ ، وفيه : « أشهد لقد نصحت لله ولرسوله ولأخيك فنعم الأخ الصابر المجاهد المحامي الناصر » . .

رواها المحدّث النوري الطبرسي ﷺ نقلاً عن المزار القديم يقول فيها :

« السلام عليك ياأبا عبدالله الحسين وعلى من ساعدك وعاونك وواساك بنفسه ، وبذل مهجته في الذبّ عنك »[١] والإطلاق والعموم فيها يشمل من واساه وذبّ عنه في حياته وبعد شهادته ، فكلّ من يواسيه ويذبّ عنه في سائر الأزمنة والأمكنة هو من أنصاره ، ويشمله السلام والدعاء ، ولم يقتصر هذا المدلول على هذه الفقرة من الزيارة ، بل في خاتمتها ورد « واجعل لي قدم صدق عندك مع الحسين وأصحاب الحسين عليه السلام الذين واسوه بأنفسهم ، وبذلوا دونه مهجهم ، وجاهدوا معه أعداءك ابتغاء مرضاتك »[٢].

وقوله : « واجعل لي قدم صدق » يتضمّن طلب الاتّحاد في الموقف الذي وقفه أنصار الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء ، وأن يكون الزائر في قلبه وعمله معهم ، فلو بذل المؤمن وقته وجهده ، أو جاع وعطش ، أو ذرف دمعه ، أو أخرج دمه بقصد المواساة والتضامن مع الحسين وأنصاره في الموقف ومشاركة لهم في الأذى والألم الذي نزل بهم يكون مأجوراً عند الله

---

(١) مستدرك الوسائل : ج ١٠ ، الباب ٨٦ من أبواب المزار وما يناسبه ، ص ٤١٤ ، ح ١٦ .

(٢) أُنظر المزار (لابن المشهدي) : ص ٤٨٤ ؛ مصباح المتهجّد : ص ٧٧٥ ؛ مفاتيح الجنان : ص ٥٤١ .

سبحانه ، بل ويحظى بمقام محمود عنده مع الإمام الحسين وأصحابه عليهم السلام.

وهذا ما يؤكّده قولهم عليهم السلام في الزيارة التي رواها ابن المشهدي عنهم عليهم السلام ، والتي يزار بها الإمام الحسين وسائر الأئمّة عليهم السلام : « بأبي وأُمّي ياآل المصطفى إنّا لا نملك إلّا أن نطوف حول مشاهدكم ، ونعزّي فيها أرواحكم على هذه المصائب العظيمة الحالّة بفنائكم ، والرزايا الجليلة النازلة بساحتكم التي أثبتت في قلوب شيعتكم القروح ، وأورثت أكبادهم الجروح ، وزرعت في صدورهم الغصص ، فنحن نُشهد الله أنّا قد شاركنا أولياءكم وأنصاركم المتقدّمين في إراقة دماء الناكثين والقاسطين والمارقين وقتلة أبي عبدالله سيّد شباب أهل الجنّة عليه السلام يوم كربلاء بالنيّات والقلوب ، والتأسّف على فوت تلك المواقف التي حضروا لنصرتكم ، والله وليي يبلغكم منّي السلام »[١].

ونلاحظ أنّها دالّة على أنّ المشاركة في النيّة والقلب والتأسّف توجب المشاركة بالعمل ، فما بالك بالمشاركة معهم بألم الجوع والعطش ؟ أو بالاحتراق بحرارة الشمس بالمشي حافياً ؟ أو تعفير الخدّين على التراب الساخن ؟ أو بإخراج الدم ؟ أو خمش الوجه ونحوه ؟ باعتبار أنّ هذه الآلام والمصائب بعض ما نزل بهم عليهم السلام فيواسيهم المؤمن بها .

---

(١) المزار (لابن المشهدي) : ص٢٩٩ .

فلا يشترط في المواساة المشاركة الزمانية أو المكانية ، وإنّما تتحقّق بالمشاركة في الشعور النفسي والاستحضار القلبي ، أو بالمشاركة بالأذى والألم ولو بعد مئات السنين وآلافها ، بل وتتحقّق المواساة لسيّد الشهداء عليه السلام بالخصوص حتّى قبل وقوع الواقعة ، وهذا من موارد الاستثناء الذي خصّ الباري عزّوجلّ به الإمام الحسين عليه السلام ؛ إذ قبل من أنبيائه عليهم السلام مواساتهم للإمام الحسين عليه السلام قبل ولادته ، مع أنّ المواساة لغيره عليه السلام لا تتحقّق إلّا من قبل اللاحق للسابق .

وقد تواتر في الأخبار الكثيرة أنّ كلّ واحد من الأنبياء عليهم السلام كان إذا أصابته مصيبة صبر عليها تأسّياً بالإمام الحسين عليه السلام ، ومن هذا القبيل ما رواه الصدوق رحمه الله في العلل وابن قولويه رحمه الله في الكامل عن الصادق عليه السلام في أكثر من رواية أنّ إسماعيل الذي قال الله تعالى في كتابه : ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً**﴾[1] لم يكن إسماعيل بن إبراهيم ، بل كان نبيّاً من الأنبياء بعثه الله عزّوجلّ إلى قومه فأخذوه فسلخوا فروة رأسه ووجهه ، فأتاه ملك عن الله تبارك وتعالى فقال : إنّ الله جلّ جلاله بعثني إليك فمرني بما شئت ، فقال : لي أُسوة بما يصنع

(١) سورة مريم : الآية ٥٤ .

بالحسين عليه السلام[١]، وهذا الحديث يؤكّد المسانخة والتشابه في المواساة ، كما يتضمّن الإشارة إلى بعض المصائب التي نزلت بسيّد الشهداء عليه السلام ممّا لم يذكر أو لم يعهد ذكره وروايته ، ويلتفت إليه اللبيب النابه .

ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام للحسين عليه السلام : « ياأبا عبدالله أُسوة أنت قدماً »[٢].

وقوله : « قدماً » يقرأ بقرائتين ، بضمّ القاف وهو ظرف مكان أي قُدّام بمعنى أمام ، ويراد به الرائد الذي يتقدّم غيره ويكون قدوة له . يقال تقدّم القوم أي سبقهم في الشرف أو الرتبة فصار قُدّامهم ، وربّما تقرأ بالكسر فيكون من أسماء الزمان . يقال كان قِدْماً أي في الزمان القديم[٣]، وهو هنا يتضمّن معنيين :

أحدهما : أنّه ثبت منذ قديم الأيّام أنّك أُسوة وقدوة لسائر الأنبياء ؛ لأنّ كلّ ما لاقاه الأنبياء من الأذى هو بعض ما لقيه الإمام الحسين عليه السلام ،

---

(١) كامل الزيارات : ص١٣٧ ، ح١ ؛ علل الشرائع : ج٢ ، ص٢٧٢ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٢٣ ، ح١ .

(٢) كامل الزيارات : ص٧١ ، ح٢ ؛ وانظر بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٢٧ ، ح٧ ؛ الخصائص الحسينية : ص٥١٢ ؛ عوالم العلوم (عوالم الإمام الحسين عليه السلام) : ص١٥٢ ، ح١٣ .

(٣) أُنظر المعجم الوسيط : ج٢ ، ص٧٢٠ ، (قدم) .

فهو عليه السلام مشارك جميع الأنبياء في مصائبهم ولم يشاركوه في كلّ مصائبه ، وهذا أحد معاني وراثته للأنبياء الذي تضافر التعبير عنها في زياراته الشريفة(١).

وثانيهما : أنّ الأنبياء والأولياء منذ القديم كانوا يتأسّون بذكر مصيبتك ، ولا تنافي بين المعنيين ، وكلاهما يدلّان على المطلوب .

وتدلّ الأخبار المعتبرة على أنّ الكثير من الصحابة والتابعين واسوا الحسين عليه السلام بعد شهادته ، وحثّوا الناس على مواساته ، ومن هذا القبيل ما رواه الطبري فقال : لمّا ورد نعي الحسين عليه السلام جلس عبدالله بن جعفر ـ وقد استشهد له ولدان مع خالهما ـ للعزاء ، وأقبل الناس يعزّونه ... ثمّ قال : والله لو شهدته لأحببت أن لا أفارقه حتّى أُقتل معه ، والله إنّما لممّا يسخى بنفسي عنهما ويهوّن عليّ المصاب بهما أنّهما أُصيبا مع أخي وابن عمّي مواسين له صابرين معه ، ثمّ أقبل على جلسائه فقال : الحمد لله عزّوجلّ عليّ بمصرع الحسين إن لا يكن آست حسيناً يدي فقد آساه ولداي(٢).

ولم يكن هذا القول عن عاطفة ، بل عن معرفة وإيمان بما للمواساة من

---

(١) أُنظر على سبيل المثال كامل الزيارات : ص٤٠١ ، ح٢٣ .

(٢) تاريخ الطبري : ج٤ ، ص٣٥٧ ، وانظر مقتل المقرّم : ص٣٤٠ ؛ ومقتل أبي مخنف : ص١٦٦ .

فضل في الحبّ والولاية وأداء الواجب ، فإنّ عبدالله بن جعفر رضوان الله عليه لم يكن رجلاً عادياً ، بل هو صحابي جليل بايع رسول الله ﷺ مع الحسن والحسين عليهما السلام وهم أصغر من بايع ؛ إذ كانوا بعمر الأطفال ، كما أنّه من أصحاب أمير المؤمنين والحسن عليهما السلام(١).

وقد نصّ النبي ﷺ على أنّه وليّه في الدنيا والآخرة(٢)، وأقرّ له معاوية وأمثاله بأنّه يشبه رسول الله في مشيه وخلقه وخُلقه ، وإنّه من مشكاته(٣).

وأقرّ له عثمان بالعلم والخير والحكمة(٤)، وله من الكلام ما يدلّ على عمق رؤيته وبصيرته في الأُمور ، فضلاً عن صلابة معتقده وموقفه في الشدائد(٥).

ويتحصّل من كلّ ما تقدّم : أنّ المواساة للإمام الحسين عليه السلام من الأُصول والعناوين العامّة المطلوبة شرعاً ، وفيها الأجر والثواب ، بل هي من علامات الولاية والنصرة ، ولم تحدّد الأخبار الشريفة صيغة واحدة

---

(١) عمدة الطالب : ص٣٦ ؛ قاموس الرجال : ج٦ ، ص٢٨٦ ، الرقم (٤٢٣٨) .

(٢) تذكرة الخواص : ص١٩١ .

(٣) الأغاني : ج١١ ، ص٧١ .

(٤) أُنظر الخصال : ص١٣٥ ؛ شرح نهج البلاغة : ج٦ ، ص٢٩٧ .

(٥) أُنظر قاموس الرجال : ج٦ ، ص٢٨٧ ، الرقم (٤٢٣٨) .

للمواساة ، بل حثت عليها بكلّ أصنافها ، ومعنى ذلك أنّ الأمر موكول إلى كلّ واحد من المؤمنين في أن يختار الأُسلوب الذي يواسي به مولاه ، فبعضهم يواسيه بجوعه ، وبعضهم بعطشه ، وبعضهم بغباره وشعثه ، وبعضهم يواسيه بألمه وجروحه ، والكلّ عند الله سبحانه مواساة ، وهو مقبول ومأجور صاحبه عليه .

ومن هنا يظهر أنّ الشعائر الحسينية بشتّى صنوفها وأشكالها مشمولة بعنوان المواساة ؛ لأنّها متضمّنة للعديد من النوائب التي نزلت بالإمام الحسين عليه‌السلام في يوم عاشوراء .

نعم المواساة من العناوين القصدية التي تتوقّف على القصد والنيّة ، ويكفي فيها النيّة الإجمالية أو الارتكازية ، فإذا نوى المعظّمون للشعائر الحسينية إحياء الشعائر نالوا أجره ، وإذا ضمّوا إليه نيّة المواساة تضاعف أجرهم ؛ لانطباق عنوانين راجحين على عملهم ، وهذا ما تؤكّده صحيحة محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : « كان علي بن الحسين عليه‌السلام يقول : أيّما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي عليهما‌السلام دمعة حتّى تسيل على خدّه بوّأه الله بها في الجنّة غرفاً يسكنها أحقاباً ، وأيّما مؤمن دمعت عيناه دمعاً حتّى يسيل على خدّه لأذى مسّنا من عدوّنا في الدنيا بوّأه الله مبوأ صدق في الجنّة ، وأيّما مؤمن مسّه أذى فينا فدمعت عيناه حتّى يسيل دمعه

على خدّيه من مضاضة ما أُوذي فينا صرف الله عن وجهه الأذى ، وآمنه يوم القيامة من سخطه والنار »[١].

وقوله : « مسّه أذى » يشمل ما كان الأذى بسبب استذكار المصيبة أو بسبب إنزال الأذى بالنفس لأجل الاستشعار والمواساة لما نالهم .

(١) تفسير القمي : ج٢ ، ص٢٩١ .

العنوان السادس

التأسّي والاقتداء بأولياء الله سبحانه

التأسّي والاقتداء بالصالحين من العباد من الضرورات التي قامت عليها سيرة العقلاء في مختلف جوانب الحياة ، فضلاً عن سيرة المتشرّعة والمتديّنين في كلّ شريعة ودين ؛ لأنّ الإنسان بطبعه الأوّلي مجبول على حبّ الخير والتمثّل به والاقتداء بأهله كما حقّق في محلّه ، وقد قامت الضرورة العقلية على حسنه ، وتواترت النصوص الشرعية في الكتاب والسنّة على وجوبه ؛ إذ قال سبحانه في معرض بيان مهام الأنبياء وسيرتهم والإرشاد إلى اتّباعهم : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ﴾[1]، ومنطوقه صريح في وجوب الاقتداء بسيرتهم عليهم السلام ، وكون الخطاب موجّه لرسول الله صلى الله عليه وآله كما احتمل استناداً إلى الظهور لا يمنع من الدلالة على ما نحن فيه ؛ لأنّ المورد لا يخصّص الوارد ، على أنّه لو كان مختصّاً به صلى الله عليه وآله لدلّ على وجوب الاقتداء

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٩٠ .

على سائر المكلّفين بضميمة واحدة من ثلاث قواعد هي : الأولوية القطعية وأصالة الاشتراك في التكاليف وافتقار الحصر بالخصوصيات إلى الدليـل ، والقواعد اللبّية كحكم العقل والارتكاز المتشرّعي والإجماع المتضافرة على أنّ الاقتداء بالأنبياء عليهم السلام في نفسه عنوان حسن عقلاً ومحبوب شرعاً .

وأصرح منها قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَـنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَـثِيراً﴾[1] ولا يخـفى أنّ الاقـتداء والتأسّي لدى الاستعمال العرفي قد يطلق أحدهما مكان الآخر ، ولكن إذا افترقا في العبارة فلابدّ من وجود فرق بـينهما ، نـظير مـا قـيل في الفـقير والمسكين ، وإذا لاحظنا الآيتين معاً نلاحظ أنّ الأُولى أمرت بالاقتداء ، بينما الثانية بالتأسّي باعتبار أنّها جملة خبرية في مقام الانشاء ، ولعلّ الحكمة في ذلك تعود لوجهين :

أحدهما : وجود الفرق بين الاقتداء والتأسّي ، فإنّ الأوّل هو اتّباع الغير والأخذ بطريقه ومنه القياد ، بينما الثاني هو اتّباع الغير مـع التـلبّس بصفاته وتقمّص شخصيته على ما أفاده أهل اللغة[2].

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢١ .

(٢) أُنـظر مـفردات ألفـاظ القـرآن الكـريم : ص٧٦ ، (أسـا) ؛ مـجمع البـحرين : ج١ ، ص٣٣٥ ، (قدا) .

ومن الواضح أنّ الاقتداء يناسب الهدى ، وهو الدلالة بلطف واسترشاد . يقال هدى فلان فلاناً أي أرشده ودلّه على الطريق[1] وفي التنزيل ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[2] وعليه فإنّ دلالة القدوة سواء كانت بنحو إراءة الطريق أو الإيصال إلى المطلوب فإنّها تكون من الخارج ، وهو أنسب بمقام النبي ﷺ ؛ لأنّه أشرف الأنبياء ، وأعلاهم منزلة ، فاتّباعهم لا يكون إلّا بالسيرة والطريقة التي قرّرها الباري عزّوجلّ لهم ، ولا يناسبها التأسّي ؛ لأنّ الأشرف لا يتقمّص شخصية الأدنى ، بخلاف اتّباع المؤمنين له ﷺ ، فإنّها قد تقع بمستوى الاقتداء ، وقد تقع بما هو أعمق منها وهو التأسّي وتقمّص شخصيته في الفضائل والمحاسن ؛ ليكون المؤمن محمّدياً في خصاله ومحاسنه .

وثانيهما : أنّ التأسّي مستبطن لمعنى الحزن والأسى ، بخلاف الاقتداء ، فالأُسوة في اللغة تطلق على القدوة وعلى ما يتعزّى به ، ومنه المأساة ، وهي الحوادث المتضمّنة للحزن والأسى ، وقولهم فلان آسى أخاه

(١) معجم مقاييس اللغة : ص١٠٢٧ ، (هدي) ؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ص٨٣٥ ، (هدى) .

(٢) سورة البلد : الآية ١٠ .

بمصيبته أي واساه وعزّاه وسلّاه[١].

ومن الواضح أنّ ما يجب على المؤمن ليس مجرّد الاقتداء بالنبي ﷺ بمعنى الاسترشاد بهديه المبارك، بل حبّه وحبّ عترته الطاهرة عليهم السلام وتقديم حبّهما على نفسه وأهله وعشيرته على ما نصّت به الأخبار الشريفة، ومصداقية هذا الحبّ تتجلّى باتّباعهم في الأحزان ومشاطرتهم في الآلام، وهذا أنسب بمعنى التأسّي.

والخلاصة: أنّ المؤمنين أُمروا بالتأسّي برسول الله ﷺ ليتّبعوه في الفكر والعمل والحبّ، ويشاركوه فيما يصيبه من حزن وبلاء، ومن هنا تقيّد الإتّساء بمن كانوا يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً، وهي صفات أصحاب الدرجات العالية في الإيمان، بينما أُمروا بالاقتداء بنهج الأنبياء عليهم السلام لأجل الاسترشاد والاستزادة منهم، وعلى كلا التقديرين فإنّ الاقتداء والتأسّي بالأنبياء والصالحين واجب على المؤمن في القول والعمل، والأمر من حيث الكبرى بديهي لا يحتاج إلى مزيد بيان أو إقامة برهان، وأمّا من حيث الصغرى فالذي يستفاد من الروايات المعتبرة أنّ أولياء الله سبحانه من أنبياء وأئمّة عليهم السلام وملائكة كانوا ولا زالوا ينصبون العزاء على الإمام الحسين عليه السلام، ويندبونه صباحاً ومساءً، بل المستفاد من الأخبار الشريفة

(١) المعجم الوسيط: ج١، ص١٩، (أسى).

أنّ ملائكة الله سبحانه مسخّرة للعزاء على الحسين عليه السلام وخدمة أنصاره ومواليه ، وقد تقسّمت أدوارهم على مهام عديدة ؛ إذ هم طوائف عديدة .

منهم : الملائكة المجاورون لقبره الشريف شعثاً غبراً شغلهم البكاء عليه ، فهم يبكون الليل والنهار ، وعددهم أربعة آلاف ملك(١).

ومنهم : المنادون على قبره كلّ صباح : « ياباغي الخير أقبل إلى خالصة الله عزّوجلّ ترحل بالكرامة ، وتأمن الندامة »(٢) فتنعطف عليه الملائكة .

ومنهم : زوّاره الذين يأتونه ويبكون عليه ويبقون عنده ، ثمّ يصعدون إلى الملأ الأعلى ، وعددهم أربعة آلاف ، ويأتي في اليوم الثاني غيرهم بهذا العدد أيضاً(٣).

ومنهم : التي توسم زوّاره بميسم نور الله هذا زائر قبر خير الشهداء ، فيعرفون يوم القيامة بهذا النور ، ويأخذ النبي صلى الله عليه وآله وجبرئيل بأعضادهم(٤).

---

(١) كامل الزيارات : ص١٧٢ ، ح١٤ ؛ أمالي الصدوق : ص٦٤ ، ح٤ .

(٢) كامل الزيارات : ص٢٤٢ ، ح٣ ، وفيه : « ياطالب الخير ... » ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٦٧ ، ح٥٧ .

(٣) كامل الزيارات : ص٣٥٢ ، ح٨ ؛ بحار الأنوار : ج٩٨ ، ص٥٦ ، ح٢٢ .

(٤) كامل الزيارات : ص٤٤٧ ، ح١ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص١٨٢ ، ح٣٠ .

ومنهم : الذين يأخذون دموع الباكين عليه ويجمعونها لهم ، وفي الحديث أنّهم يتلقّون الدموع المصبوبة فيمزجونها بماء الحيوان فيزيد عذوبته(١).

ومنهم : أنصاره الذين استأذنوا الله في نصرته لمّا حاصره الأعداء واشتدّ عليه الأمر ، فأذن لهم ، فمكثوا يستعدّون ويتأهّبون ، فلمّا نزلوا رأوه قتيلاً لما اقتضته حكمة الباري عزّوجلّ ، فقالت الملائكة : ياربّ أذنت لنا في الانحدار ونصرته ، فانحدرنا وقد قبضته ، فأوحى إليهم : الزموا قبّته حتّى ترونه وقد خرج فانصروه ، وابكوا عليه على ما فاتكم من نصرته ، فمكثوا هناك يبكون ، فإذا خرج في الرجعة كانوا من أنصاره(٢).

ومنهم : الضاجّون إلى الله في أمره ـ وهم جميع الملائكة ـ بضجيج واحد ، وذلك لمّا وقع عليه السلام طريحاً تطؤه الخيول بحوافرها ، وتعلوه الطغاة ببواترها ، ثمّ قطع رأسه الشريف ، وهو ما ورد عن أبي جعفر عليه السلام قال : « ضجّت الملائكة كلّهم ضجّة واحدة بالبكاء والنحيب ، وقالوا : إلهنا وسيّدنا يفعل هذا بالحسين صفيّك وابن نبيّك وخيرتك من خلقك ، فأوحى

(١) بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٣٠٥ ، ح١٧ ؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام : ص٣٦٩ ؛ الخصائص الحسينية : ص٤٦٦ .

(٢) كامل الزيارات : ص١٧٩ ، ح٢٠ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٢٢٥ ، ح١٨ .

الله إليهم قرّوا ملائكتي ، فوعزّتي وجلالي لأنتقمنّ منهم ولو بعد حين »[١] إلى غيرهم من أصناف الملائكة وطوائفهم وهي كثيرة فصّلتها الأخبار ، ولكلّ طائفة منها وظيفة في خدمته عليه السلام وخدمة زوّاره ومناصريه والبكاء عليه[٢]، بل المستفاد من بعض الأخبار أيضاً أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وفاطمة عليها السلام يقيمون العزاء ، ويطلبون بثأر الإمام الحسين عليه السلام في ساحة المحشر[٣] في هيئة عجيبة ، ففي بعض الأخبار أنّ فاطمة عليها السلام تأتي المحشر ومعها قميص الحسين عليه السلام ملطّخاً بدمه[٤]، وتقول : « ياربّ أرني الحسن والحسين ، فيتمثّل لها الحسين عليه السلام قائماً ليس عليه رأس[٥] وأوداجه تشخب دماً ، فإذا رأته صرخت صرخة ويصرخ رسول الله صلى الله عليه وآله لصرختها ، وتصرخ الملائكة لصراخها »[٦] ولعلّ هذا أحد معاني أنّه ثار الله .

---

(١) علل الشرائع : ج١ ، ص١٩٢ ؛ أمالي الطوسي : ج٢ ، ص٢٣ .

(٢) أُنظر الخصائص الحسينية : ص٤٦٢ وما بعدها .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج١ ، ص٢٨ ـ ٢٩ ؛ ثواب الأعمال : ص٢١٩ .

(٤) أمالي المفيد : ص ١٣٠ ؛ بحار الأنوار : ج٤٣ ، ص٢٢٤ ، ح١١ ؛ المنتخب للطريحي : ص١٨٧ .

(٥) بحار الأنوار : ج٤٣ ، ص٢٢٢ ، ح٨ ؛ وج٧ ، ص١٢٧ ، ح٦ .

(٦) ثواب الأعمال : ص٢١٧ ؛ بحار الأنوار : ج٧ ، ص١٢٧ ، ح٦ ؛ وج٤٣ ، ص٢٢٢ ، ح٨ .

وفي بعض الروايات يـقبل الحسـين عليه السلام ورأسه بيده ، فـإذا رأتـه شهقت عليها السلام شهقة لا يبقى أحد في المحشر ملك مقرّب ولا نبي مـرسل ولا مؤمن إلّا بكى ، ثمّ تأخذ في التظلّم وترفع القميص بيدها وتقول : « إلهي هذا قميص ولدي »(١) فعند ذلك ينتقم الله من قتلة الحسين عليه السلام وأولادهم وأولاد أولادهم الراضين بأفعال آبائهم ، ثمّ تخرج زبانية سود من ملائكة جهنّم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب ، ويلقونهم في الجحيم ، فيقول الأبناء ياربّ إنّا لم نحضر الحسين ، فيقول الله لزبانية جهنّم خـذوهم بسيماهم .. فإنّهم كانوا أشدّ على أولياء الحسين من آبـائهم الذيـن حـاربوا الحسـين فقتلوه(٢).

وتؤكّد الأخبار أنّ كلّ نبي من الأنبياء بكى على الإمام الحسين عليه السلام، وانفجع لمـصيبته ، وواساه بدمه ، وبـعضهم بـولده مـن آدم عليه السلام إلى النـبي الخاتم صلى الله عليه وآله(٣)، بل تواتر في مضمون الأخبار أنّ الله سبحانه أخبر أنـبياءه وملائكته ، ونعى لهم الإمام الحسين عليه السلام ، وفصّل في مصائبه لهم فأفجعهم

---

(١) أمالي المفيد : ص ١٣٠ ؛ وانظر بحار الأنوار : ج٤٣ ، ص ٢٢١ ، ص ٢٢٤ ؛ الخصائص الحسينية : ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

(٢) بحار الأنوار : ج٤٣ ، ص٢٢٦ ، ح١٣ .

(٣) بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٤٢ ـ ٢٤٤ ، ح٣٧ ، ح٤٣ .

بذكره ، وسألوا الله سبحانه مواساته ومشاركته في البلاء تحصيلاً للأجر والقرب منه سبحانه[١]، كما ورد ذكر لمصيبته في الكتب السماوية المختلفة[٢].

وأكتفي هنا بذكر بعض الشواهد الواردة عن إحياء الأئمّة عليهم السلام وملائكة السماء لأمر الإمام الحسين عليه السلام وتذكره والتذكير به وإقامة العزاء عليه بما يكفي حجّة ودليلاً للمؤمن في التأسّي والاقتداء بهم لإقامة شعائره والتفاني في إحيائها طلباً لخير الدنيا والآخرة .

ويكفي في إثبات أنّ نهج تعظيم الشعائر الحسينية ليس جديداً أو مستحدثاً بل أسّسه أولياء الله في السماء والأرض ، وأنّ الله سبحانه وحججه الطاهرين عليهم السلام أرادوا من المؤمنين أن يقتدوا بهذا النهج ، ويواصلوه في كلّ زمان ومكان .

منها : حديث الرضا عليه السلام المعتبر سنداً والذي تقدّم وقد فصّل فيه الإمام عليه السلام ما نزل بهم من انتهاك الحرمة وظلم وأذى حتّى قال عليه السلام : « إنّ يوم الحسين عليه السلام أقرح جفوننا ، وأسبل دموعنا ، وأذلّ عزيزنا بأرض كرب وبلاء ... أورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء ، فعلى مثل الحسين عليه السلام

---

(١) بحار الأنوار : ج ٤٤ ، ص ٢٢٣ ـ ٢٤٥ ، ح ١ ، ح ٤٤ ؛ الخصال : ص ٥٨ ، ح ٧٩ .

(٢) أمالي الصدوق : ص ١٢١ ، ح ٤ ؛ بحار الأنوار : ج ٤٤ ، ص ٢٢٤ ، ح ٢ ، ح ٣ ، ح ٥ .

فليبك الباكون »(١).

وحكي عليه السلام عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه كان إذا دخل شهر المحرّم لا يرى ضاحكاً ، وكانت الكآبة تغلب عليه(٢).

وقوله عليه السلام : « أورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء » يدلّ على أنّهم عليهم السلام دائماً في حزن ومصيبة ، وكلّ إمام يحييها في عصره ، وهي اليوم مصيبة حجّة الدهر وناموس العصر ولي الله الأعظم الحجّة المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف .

كما أنّ قوله عليه السلام : « فعلى مثل الحسين عليه السلام فليبك الباكون » يدلّ على مطلوبية ذلك في كلّ زمان ومكان .

ومنها : ما ثبت متواتراً أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام ما انفك حزيناً باكياً أكثر من أربعين سنة ، وأنّه ما رئي ضاحكاً من بعد مصائب كربلاء حتّى استشهد ، بل تؤكّد الأخبار المعتبرة أنّه كلّما حضره الطعام أو الشراب كان يبكي بمرارة ، وينشج نشيج الثكلى على ما حلّ بوالده وأنصاره ، وكلّما رأى الماء أو رأى بهيمة تسق كان يبكي في الملأ العام ، ويتحدّث عمّا جرى على الإمام الحسين عليه السلام من مصائب مفجعة للقلوب حتّى عدّ من البكّائين

---

(١) أمالي الصدوق : ص١٩٠ ، ح٢ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٨٣ ، ح١٧ .

(٢) أمالي الصدوق : ص١٩١ ، ح٢ .

الخمسة[١].

وورد عن الإمام الصادق عليه‌السلام : « أنّ الإمام زين العابدين عليه‌السلام بكى على أبيه أربعين سنة ـ على رواية ـ صائماً نهاره ، وقائماً ليله ، فإذا حضر الإفطار وجاء غلامه بطعامه وشرابه فيضعه بين يديه فيقول : كل يامولاي ، فيقول : قتل ابن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله جائعاً ، قتل ابن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله عطشاناً ، فلا يزال يكرّر ذلك ويبكي حتّى يبتلّ طعامه من دموعه ، ثم يمزج شرابه بدموعه ، فلم يزل كذلك حتّى لحق بالله عزّوجلّ »[٢].

وفي سياق آخر قيل له : إنّك لتبكي دهرك ، فلو قتلت نفسك لما زدت على هذا[٣].

وروي في أكثر من مصدر أنّه عليه‌السلام كان يبكي عند شرب الماء حتّى يمتزج الماء بدم عينه[٤]، وهو فعل يعد طبيعياً لشخص كالإمام السجّاد عليه‌السلام على مصيبة كمصيبة الإمام الحسين عليه‌السلام .

---

(١) أُنظر كامل الزيارات : ص٢١٣ .

(٢) اللهوف على قتلى الطفوف : ص٢٤٦ ؛ لواعج الأشجان : ص٢٤٦ ؛ العوالم (عوالم الإمام الحسين عليه‌السلام) : ص٤٤٩ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص١٤٩ .

(٣) بحار الأنوار : ج٤٦ ، ص١٠٩ ، ح١ .

(٤) أُنظر مراسم عاشوراء : ص٦١ ؛ نصرة المظلوم : ص٦٣ ؛ وانظر رسائل الشعائر الحسينية : ج١ ، ص٣٧١ .

وهذه السيرة المفجوعة للإمام عليه السلام تكشف عن مدى اهتمامه عليه السلام بمواساة والده في الجوع والعطش والدم ، وهي في عين الحال تؤسّس نهجاً للمواساة وذكر الإمام الحسين عليه السلام وما حلّ به عند كلّ طعام وشراب يعرض للمؤمنين الموالين ، وهذا النهج من شأنه أن يستحضر الإمام الحسين عليه السلام ، ويذكر به في كلّ مكان وزمان ، فلا تخلو حياة الناس من ذكره ومن البكاء عليه ، وفي ذلك توجيه ربّاني كبير في هداية الناس وشدّهم إلى أُصولهم وحقوقهم وهويتهم الدينية .

وقد قرّر عليه السلام هذا النهج في أُسرة آل محمّد عليهم السلام كما ورد في الأخبار المعتبرة ، وفي رواية البرقي بسنده عن عمر بن على بن الحسين عليه السلام قال : « لمّا قتل الحسين بن علي عليه السلام لبس نساء بني هاشم السواد والمسوح ، وكن لا يشتكين من حرّ ولا برد ، وكان علي بن الحسين عليه السلام يعمل لهنّ الطعام للمأتم »(١).

وهو دالّ على رجحان لبس السواد على الإمام الحسين عليه السلام ، وتحمّل الحرّ والبرد في عزائه ، وإطعام الطعام في المآتم ، وظاهر الخبر أنّ هذا كان الأُسلوب الغالب على حياتهم عليهم السلام وليس في فترة وجيزة .

ومنها : ما رواه الكليني رحمه الله بسنده المعتبر عن أبي عبدالله عليه السلام قال :

---

(١) المحاسن : ج٢ ، ص٤٢٠ .

« قال لي أبو جعفر الباقر عليه السلام : أوقف لي من مالي كذا وكذا . النوادب تندبني عشر سنين بمنى أيّام منى »(١).

وهو دالّ على عدّة أُمور :

الأوّل : جواز وقف المال وبذله لأجل إقامة العزاء والمأتم .

الثاني : جواز أن يكون الندب عليهم عليهم السلام حتّى في حياتهم ، وهذا استثناء خاصّ لهم ؛ لأنّ البكاء على الميّت لا يكون إلّا بعد موته ، إلّا أنّ البكاء على مصائب الأئمّة عليهم السلام يصحّ حتّى في حياتهم ، وفي ذلك حكمة بالغة لما في البكاء عليهم من التعريف بمقاماتهم الربّانية وكشف الأسرار والخفايا التي يسعى الحكّام الظلمة إلى إخفائها .

وقد ورد هذا عن الإمام الرضا عليه السلام أيضاً ، فقد روى الشيخ الصدوق رحمه الله عنه عليه السلام أنّه قال : « إنّي حيث أرادوا الخروج من المدينة جمعت عيالي فأمرتهم أن يبكوا عليّ حتّى أسمع ، ثمّ فرّقت فيهم اثني عشر الف دينار ، ثمّ قلت : أما إنّي لا أرجع إلى عيالي أبداً »(٢).

---

(١) الكافي : ج٥ ، ص١١٧ ، ح١ ؛ تهذيب الأحكام : ج٦ ، ص٣٥٨ ، ح١٠٢٥ ، وفيه : « لنوادب تندبني » .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج٢ ، ص٢١٧ ـ ٢١٨ ، ح٢٨ ؛ وانظر بحار الأنوار : ج٤٩ ، ص٥٢ ، ح٥٨ .

ومن هنا ورد في زيارته المأثورة : « ... السلام على من أمر أولاده وعياله بالنياحة عليه قبل وصول القتل إليه »[١]. وهذا ما يؤكّده إخباره عليه السلام لدعبل الخزاعي ـ حينما قرأ عنده قصيدته التائية ـ بوفاته ومحلّ قبره، وأضاف على قصيدته بيتين من الشعر[٢].

الثالث : أنّ المطلوب في البكاء عليهم عليهم السلام الاستمرار ، ويجب أن يدوم بالسنوات لا بالأيّام ، وأن يكون البكاء في الملأ العام ، لا سيّما في المواضع والأزمنة المهمّة التي يجتمع فيها الناس ؛ ليكون الحزن والبكاء ظاهرة اجتماعية فيها التبليغ والإرشاد والتعليم ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ التظاهر والإراءة للآخرين في مراسم العزاء على الأئمّة عليهم السلام لا يخلّ بالعمل .

الرابع : مطلوبية إقامة العزاء على سائر الأئمّة عليهم السلام ورجحان التوجّع لهم وإحياء ذكرهم والتذكير بهم ، وهو النهج الذي درجت عليه شيعتهم جيلاً بعد جيل في إحياء المناسبات المذكّرة بهم .

هذا كلّه في إحياء ذكر الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام والتذكير بمصيبته ، فما بالك بما يتعلّق بإحياء ذكر الإمام الحسين عليه السلام والتذكير بمصيبته التي صرّح الأئمّة عليهم السلام بأنّها أعظم المصائب ، وأن لا يوم كيومه ؟

---

(١) بحار الأنوار : ج٩٩ ، ص٥٣ ، ح١١ .

(٢) بحار الأنوار : ج٤٩ ، ص٢٣٩ ، ح٩ .

وأمّا ما ورد في إقامة الملائكة العزاء على سيّد الشهداء عليه السلام ليلاً ونهاراً وفي جميع الأوقات فهو معروف ، ومضمونه متواتر في الأخبار المعتبرة .

منها : ما ورد في الزيارة الجامعة لأئمّة المؤمنين التي رواها صاحب المزار الكبير عن الأئمّة عليهم السلام يقول فيها : « بل يتقرّب أهل السماء بحبّكم ، وبالبراءة من أعدائكم ، وتواتر البكاء على مصابكم ، والاستغفار لشيعتكم ومحبّيكم »[1] وفيه دلالة على أنّ لأهل السماء تولّي وتبرّي كما هو لأهل الأرض ، كما أنّ أهل السماء جميعاً مكلّفون بذلك ، ومتفرّغون للبكاء على مصائب الأئمّة عليهم السلام ، وإقامة العزاء عليهم ، والاستغفار لشيعتهم ، ويُعزّز هذا المضمون ما ورد في دعاء الندبة الشريف بصيغة الأمر المؤكّد : « فعلى الأطائب من أهل بيت محمّد وعلي صلّى الله عليهما وآلهما فليبك الباكون ، وإيّاهم فليندب النادبون ، ولمثلهم فلتذرف الدموع ، وليصرخ الصارخون ، ويعجّ العاجّون ، وليضجّ الضاجّون »[2].

ومنطوقه ظاهر في التدرّج في الحزن والعزاء ابتداءً من الأدنى وهو البكاء إلى الأعلى وهو الضجّ ؛ ليدلّ على مطلوبية جميع المراتب ، ويزداد الأجر والتعظيم كلّما علت الرتبة ، فالبكاء يطلق على من دمعت عيناه

---

(١) المزار الكبير : ص٢٩٤ .

(٢) المزار (لابن المشهدي) : ص٥٧٨ .

حزناً[١]، والندب البكاء على الرجل مع تعداد محاسنه ، والنادبة هي المرأة التي تفعل ذلك والجمع نوادب[٢]، وذرف الدموع إسالتها . يقال ذرفت العين أي جرى دمعها[٣]، والصراخ الصياح الشديد باستغاثة وجد[٤]، والضجّ رفع الصوت بالصياح والإثارة ، ومنه قولهم عجّ إلى الله بالدعاء وعجّ بالتلبية في الحجّ[٥]، والضجّ أيضاً الجلبة والصياح عند المكروه والمشقّة والجزع[٦].

ولا يخفى ما في صيغة الجمع المذكّر هنا من الدلالة على مطلوبية العزاء بشكل جماعي يشارك فيه الجميع ، ويصطحب الضجّ والصراخ والعويل كما هو المتداول المعهود في مراسم العزاء بين المؤمنين . هذا كلّه في الحزن على عموم آل محمّد عليهم السلام ، وأمّا ذكر الإمام الحسين عليه السلام فله خصوصية خاصّة عند الباكين من أنبياء وأولياء ومؤمنين ، بل والملائكة حتّى إنّهم لازموا

---

(١) المعجم الوسيط : ج ١ ، ص ٩٧ ، (بكي) .

(٢) معجم مقاييس اللغة : ص ٩٨٤ (ندب) ؛ المعجم الوسيط : ج ٢ ، ص ٩١٠ ، (ندب) .

(٣) لسان العرب : ج ٩ ، ص ١٠٩ ، (ذرف) ؛ مجمع البحرين : ج ٥ ، ص ٦٠ ، (ذرف) .

(٤) مجمع البحرين : ج ٢ ، ص ٤٣٧ ، (صرخ) ؛ المعجم الوسيط : ج ١ ، ص ٥١٢ ، (صرخ) .

(٥) لسان العرب : ج ٢ ، ص ٣١٨ ، (عجج) ؛ معجم مقاييس اللغة : ص ٦٣١ ، (عج) .

(٦) لسان العرب : ج ٢ ، ص ٣١٢ ، (ضجج) ؛ المعجم الوسيط : ج ١ ، ص ٥٣٤ ، (ضج) .

قبره عليه السلام للبكاء عليه كما ستعرف .

ومنها : صحيحة ربعي بن عبدالله قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام بالمدينة : أين قبور الشهداء ؟ فقال عليه السلام : « أليس أفضل الشهداء عندكم ؟ والذي نفسي بيده إنّ حوله أربعة آلاف ملك شعثاً غبراً يبكونه إلى يوم القيامة »[1] وورد هذا المضمون في روايات عديدة ومعتبرة[2].

ولا يخفى ما في الخبر من الإلفات إلى قبر الإمام الحسين عليه السلام وصرف النظر عن غيره من قبور الشهداء ؛ لما في قبر الإمام الحسين عليه السلام من الفضل وعلو المقام ، ووصف الملائكة بالشعث والغبر لا يستقيم إلّا إذا كانوا في مجلس عزاء متواصل بحيث يتلوّنون بألوان الغبار ، ويظهر عليهم التلبّد واتّساخ اللباس .

ومنها : صحيحة أبي حمزة الثمالي عن الصادق عليه السلام قال : « إنّ الله وكّل بقبر الحسين عليه السلام أربعة آلاف ملك شعث غبر يبكونه من طلوع الفجر إلى زوال الشمس ، فإذا زالت هبط أربعة آلاف ملك ، وصعد أربعة آلاف ملك ، فلم يزل يبكونه حتّى يطلع الفجر »[3] ويتضمّن هذا الحديث بعض

---

(١) كامل الزيارات : ص٢١٧ ، ح٢ ؛ ثواب الأعمال : ص٩٧ .

(٢) كامل الزيارات : ص١٧١ ـ ١٧٢ ، ح١ ، ح٢ ، ح٣ ، ح٤ .

(٣) كامل الزيارات : ص١٧٥ ، ح١٣ .

ما أشار إليه الحديث السابق ، ويدلّ على أنّ أفواج الملائكة صاعدة نازلة ليس لأجل شيء سوى مواساة الإمام الحسين عليه‌السلام وإقامة العزاء على مصابه .

ومنها : صحيحة محمّد بن حمران قال : قال أبو عبدالله عليه‌السلام : « لمّا كان من أمر الإمام الحسين عليه‌السلام ما كان ضجّت الملائكة إلى الله بالبكاء ، وقالت : يفعل هذا بالحسين عليه‌السلام صفيّك وابن نبيّك ؟ قال : فأقام الله لهم ظلّ القائم عليه‌السلام وقال : بهذا أنتقم لهذا »[1] ويدلّ الحديث على أنّ ملائكة الله برمّتها ضجّت لقتل الإمام الحسين عليه‌السلام ، والضجيج هو الصياح عند المكروه والمشقّة والجزع إذا كان بصورة جماعية كما هو مفاده لغة[2] وعرفاً .

وفي رواية الريّان بن شبيب عن الإمام الرضا عليه‌السلام : « لقد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعة آلاف لنصره فوجدوه وقد قتل ، فهم عند قبره شعث غبر إلى أن يقوم القائم عليه‌السلام ، فيكونون من أنصاره ، وشعارهم يالثارات الحسين عليه‌السلام »[3]، وهؤلاء الأربعة آلاف غير المتراوحين على قبره

---

(١) الكافي : ج١ ، ص٤٦٥ ، ح٦ .

(٢) معجم مقاييس اللغة : ص٥٧٣ ، (جزع) ؛ لسان العرب : ج٢ ، ص٣٦٢ ، (جزع) .

(٣) إقبال الأعمال : ج٣ ، ص٢٩ ؛ عيون أخبار الرضا عليه‌السلام : ج١ ، ص٢٣٣ ، ح٥٨ ؛ أمالي الصدوق : ص١١٢ ، ح٥ ؛ بحار الأنوار : ج٤٤ ، ص٢٨٥ ، ح٢٣ .

عروجاً ونزولاً ، وهم في عزاء دائم ومصيبة إلى قيام القائم عجّل الله تعالى فرجه .

وصف الإمام الصادق عليه‌السلام حالتهم في الزيارة الواردة عنه بطريق صحيح يقول عليه‌السلام : « اللهمّ إنّي أستشفع إليك بولد حبيبك وبالملائكة الذين يضجّون عليه ويبكون ويصرخون لا يفترون ولا يسأمون .. لا تغيّرهم الأيّام ولا يهرمون ، في نواحي الحير يشهقون ، وسيّدهم يرى ما يصنعون وما فيه يتقلّبون . قد انهملت منهم العيون فلا ترقأ ، واشتدّ منهم الحزن بحرقة لا تطفأ »[1].

ومن الواضح أنّ الضجيج والصراخ يدلّ على احتشاد الجموع في العزاء وشدّته ، ولو تجاوز الناس حُجُب الأبدان أو اتّصلوا بعالم ما وراء الحسّ لسمعوا ضجيجهم ، بل وشاهدوهم وهم يندبون ويصرخون .

وأمّا الشهيق فله أكثر من معنى .

منها : ترديد البكاء في الصدر .

ومنها : أنّه صوت المكروبين .

ومنها : الأنين الشديد المرتفع جدّاً .

(١) كامل الزيارات : ص ٤١٩ .

ومنها : ترديد النفس وصوت البكاء من الحلق[١].

وتتضمّن الفقرة الشريفة ثلاث دلالات أُخرى :

الأُولى : أنّ الملائكة مجتمعون في نواحي الحير ، وهي أطراف مرقده الطاهر يمكثون في الحزن والعزاء لا يفترون ولا يهرمون .

الثانية : أنّ سيّدهم وسيّد الشهداء عليه السلام ينظر حالهم وحالاتهم ، والنظر هنا يحتمل النظر الحقيقي أي المشاهدة والمعاينة ، ويحتمل أن يكون النظر المجازي كناية عن اللطف والعناية بهم ، ولا مانع من الجمع إذ لا تنافي بينهما .

وبالجملة فإنّ الفقرة الشريفة تدلّ على أنّ سيّد الشهداء عليه السلام دائم الحضور بروحه وجسده البرزخي عند قبره يشهد زوّاره ، وينظر المعزّين والباكين عليه ، ويرعاهم بالعناية واللطف ، ويسمع كلامهم ، ويردّ سلامهم ، ويشفع لهم في قضاء حوائجهم ، كما تضافر هذا المعنى في الكثير من النصوص المعتبرة .

الثالثة : أنّ هذا الحزن والعزاء الشديدين والمتواصلين مستمرّان وبحرقة لا تطفأ إلى يوم يبعثون .

---

(١) أنظر لسان العرب : ج١٠ ، ص١٩١ ـ ١٩٢ ، (شهق) ؛ مجمع البحرين : ج٢ ، ص٥٥٦ ، (شهق) ؛ المعجم الوسيط : ج١ ، ص٤٩٨ ، (شهق) .

وهذه من الحقائق التي لا تختصّ بمعتقدات الشيعة ، بل يذعن لها حتّى غيرهم ؛ إذ روى علماء الجمهور روايات كثيرة في هذا المجال نكتفي منها بما أخرجه ابن المغازلي الواسطي في المناقب : أنّ حول قبر الحسين أربعين الف ملك شعثاً غبراً يبكون عليه إلى يوم القيامة[١]، وفي لفظ الشيخ أبي بكر الزاغوني سبعين الف ملك[٢].

وواضح أنّ اتّخاذ الله تبارك وتعالى مشهد الإمام الحسين عليه السلام الطاهر دار حزن وبكاء لملائكته إلى يوم القيامة ، وادّخار دمه في الملأ الأعلى منذ أن رفعه إليه الإمام الحسين عليه السلام المفدّى بكفّيه يوم عاشوراء ولم تنزل منه قطرة ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله يوم عاشوراء دمه ودم أصحابه في زجاجة ورفعها إلى السماء . كلّ هذه تومئ إلى أنّ أمد الحزن والبكاء على الإمام الحسين عليه السلام السبط يمتدّ إلى يوم العرض الأكبر ، والعبرات تسكب إلى يوم يقام للإمام الحسين عليه السلام العزيز مأتم عام ـ يجمع الله الخلق فيه في صعيد واحد ـ يساهم فيه كلّ البرية ؛ إذ الرزية رزية محمّد صلى الله عليه وآله ، وهو سيّد البشر ، وذلك لمّا تحشر الصدّيقة أُمّ القتيل فاطمة بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله ومعها ثياب مصبوغة بدم كما جاء فيما أخرجه ابن المغازلي في المناقب والجنابذي الحنبلي

---

(١) أُنظر مأتم الإمام الحسين من مصادر أهل السنّة (سيرتنا وسنّتنا) : ص١٨٨ ـ ١٨٩ .

(٢) أُنظر مقتل الحسين (للخوارزمي) : ج٢ ، ص١٩٦ .

ابن الأخضر في معالم العترة مرفوعاً عن طريق أمير المؤمنين علي عليه السلام : « تحشر ابنتي فاطمة يوم القيامة ومعها ثياب مصبوغة بدم الحسين عليه السلام ، فتتعلّق بقائمة من قوائم العرش فتقول : ياربّ أُحكم بيني وبين قاتل ولدي ... فيحكم لابنتي وربّ الكعبة »[١].

هذا ما يتعلّق بالملائكة ، وأمّا ما يتعلّق بالحور وسكّان الجنان وغيرها فلا يسع المجال للتعرّض إليه هنا ، وإنّما نكتفي باستعراض بعض الأخبار ، فقد روى ابن قولويه رحمه الله بسنده عن محمّد بن علي عليهما السلام قال : « لمّا همّ الحسين عليه السلام بالشخوص عن المدينة أقبلت نساء بني عبدالمطّلب فاجتمعت للنياحة حتّى مشى فيهنّ الحسين عليه السلام ، فقال : أنشدكنّ الله أن تبدين هذا الأمر معصية لله ولرسوله ، فقالت له نساء بني عبدالمطّلب : فلمن نستبقي النياحة والبكاء ؟ فهو عندنا كيوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة ... فننشدك الله جعلنا الله فداك من الموت ياحبيب الأبرار ... وأقبلت بعض عمّاته تبكي وتقول : أشهد ياحسين لقد سمعت الجنّ ناحت بنوحك وهم يقولون :

فإنّ قتيل الطف من آل هاشم   أذلّ رقاباً من قريش فذلّت

---

(١) أُنظر مسند زيد بن علي : ص٤٦٠ ؛ بحار الأنوار : ج٣٧ ، ص٧٠ ، ح٣٨ ؛ مأتم الإمام الحسين عليه السلام من مصادر أهل السنّة (سيرتنا وسنّتنا) : ص١٨٩ ـ ١٩٠ .

حبيب رسول الله لم يك فاحشاً أبانت مصيبتك الأُنوف وجلّت

وقلن أيضاً :

ابكوا حسيناً سيّداً ولقتله شاب الشعر

ولقتله زلزلتم ولقتله انكسف القمر

واحمرّت آفاق السماء من العشيّة والسحر

وتغبّرت شمس البلاد بهم وأظلمت الكور

ذاك ابن فاطمة المصاب به الخلائق والبشر

أورثتنا ذلّاً به جدع الأُنوف مع الغرر »[١]

ونلاحظ أنّ مضامين الأبيات متطابقة مع ما ورد في الأخبار المعتبرة فضلاً عمّا حظيت به الحكاية من تقرير الإمام عليه السلام .

وتضافرت الأخبار في بكاء الجن ودوام عزائها على الحسين عليه السلام إلى يوم القيامة ، ومثلها الحيوانات أيضاً بكت الحسين وناحت عليه وتبرّأت من قاتليه . نكتفي هنا بروايتين في الحمام الراعبي .

الأُولى : رواية السكوني عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « اتّخذوا الحمام الراعبية[٢] في بيوتكم ، فإنّها تلعن قتلة

---

(١) كامل الزيارات : ص١٩٥ ـ ١٩٦ ، ح٨.

(٢) الراعبي جنس من الحمام ، والأُنثى راعبية . قيل متولّد بين الورشان والحمام ، وقيل ←

الحسين عليه السلام »[1].

والثانية : رواية داود بن فرقد قال : كنت جالساً في بيت أبي عبدالله عليه السلام فنظرت إلى الحمام الراعبي يقرقر طويلاً ، فنظر إليّ أبو عبدالله عليه السلام فقال : « ياداود تدري ما يقول هذا الطير ؟ » قلت : لا والله جعلت فداك . قال : « تدعو على قتلة الحسين عليه السلام فاتّخذوه في منازلكم »[2] وفي ذلك دلالة على أنّ الحيوان له إدراك وشعور وحب وبغض وحزن وبكاء .

ومن الواضح أنّ الأمر باتّخاذ الحمام في المنازل يفيد الوجوب ، ولولا القرائن اللبّية كالارتكاز أو الاعراض الدلالي من قبل الفقهاء أو قيام السيرة على الندب الموجبة لحمل ظاهر الأمر على خلاف ظهوره لأمكن لقائل أن يحكم بوجوب اتّخاذ هذا الصنف من الحمام في البيوت ؛ لأنّه من مظاهر الايمان والتولّي لأولياء الله والتبرّي من أعدائهم ، ومن أسباب ذكر

⊃ متولّد بين الفاختة والحمامة . مجمع البحرين : ج٢ ، ص٧١ ، هامش رقم (١) والصحيح هو أنّه صنف خاصّ كسائر الأصناف له مزايا تفترق عن سائر الحمام كما يعرفه أهل الخبرة .

(١) الكافي : ج٦ ، ص٥٤٧ ، ح١٣ ؛ كامل الزيارات : ص١٩٨ ، ح١ .

(٢) الكافي : ج٦ ، ص٥٤٧ ، ح١٠ ؛ كامل الزيارات : ص١٩٨ ، ح٢ .

الحسين عليه السلام والبكاء عليه .

وفي خطبة الإمام زين العابدين عليه السلام حينما رجع من كربلاء إلى المدينة حكى هذه الحقيقة بقوله : « وهذه الرزية التي لا مثلها رزية ، أيّها الناس فأي رجالات منكم يسرّون بعد قتله ؟ أم أي فؤاد لا يحزن من أجله ؟ أم أيّة عين منكم تحبس دمعها وتضنّ عن انهمالها ؟ فلقد بكت السبع الشداد لقتله ، وبكت البحار بأمواجها ، والسماوات بأركانها ، والأرض بأرجائها ، والأشجار بأغصانها ، والحيتان ولجج البحار ، والملائكة المقرّبون وأهل السماوات أجمعون »[1] وفيه دلالة صريحة على أمرين :

أحدهما : انعدام السرور بعد قتل الحسين عليه السلام ، والمراد السرور الحقيقي الباعث على هدوء البال وطيب الرقاد وصفاء العيش وسكون القلب ، وهو إمّا من باب الأثر الوضعي لقتله عليه السلام ، أو النتيجة الطبيعية لسيادة الظلم والجور على الحياة العامّة .

ثانيهما : أنّ الوجود برمّته بكى على الحسين عليه السلام من أهل الأرض وأهل السماء ، وفي رواية ابن أبي فاختة دلالة أوسع ؛ إذ لم تخبر عن بكاء أهل الأرض والسماء ، بل أخبرت عن أهل الجنّة وأهل النار وحتّى ما لا

---

(١) اللهوف على قتلى الطفوف : ص٨٤ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص١٤٨ ؛ عوالم العلوم (عوالم الإمام الحسين عليه السلام) : ص٤٥٩ ، ح٨.

يرى من الموجودات . قال : كنت أنا وأبو سلمة السرّاج ويونس بن يعقوب والفضيل بن يسار عند أبي عبدالله جعفر بن محمّد عليه السلام فقلت له : جعلت فداك إنّي أذكر الحسين بن علي فأي شيء أقول إذا ذكرته ؟ فقال : « قل : صلّى الله عليك ياأبا عبدالله تكرّرها ثلاثاً » ثمّ أقبل علينا وقال : « إنّ أبا عبدالله الحسين عليه السلام لمّا قتل بكت عليه السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهنّ وما بينهنّ ، ومن ينقلب في الجنّة والنار ، وما يرى وما لا يرى »[1].

وفي رواية زرارة أشار الإمام الصادق عليه السلام لبعض أنحاء البكاء المذكور فقال : « يازرارة إنّ السماء بكت على الحسين عليه السلام أربعين صباحاً بالدم ، وإنّ الأرض بكت أربعين صباحاً بالسواد ، وإنّ الشمس بكت عليه أربعين صباحاً بالكسوف والحمرة ... وكان جدّي إذا ذكره بكى حتّى تملأ عيناه لحيته ، وحتّى يبكي لبكائه رحمة له من رآه ، وإنّ الملائكة عند قبره ليبكونه فيبكي لبكائهم كلّ من في الهواء والسماء من الملائكة ... وما من باك يبكيه إلّا وقد وصل فاطمة وأسعدها عليه ، ووصل رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأدّى حقّنا ، وما من عبد يحشر إلّا وعيناه باكية إلّا الباكين على جدّي الحسين عليه السلام فإنّه يحشر وعينه قريرة ، والبشارة تلقاه والسرور بيّن على

---

(١) أمالي الطوسي : ج١ ، ص٥٣ ؛ بحار الأنوار : ج٤٥ ، ص٢٠١ ، ح٣.

وجهه »[١].

ونلاحظ من مجموع هذه النصوص أنّ سيرة أولياء الله سبحانه قائمة على إحياء ذكر الإمام الحسين عليه السلام والاشتراك في إقامة العزاء عليه وبشكل جماعي مشتمل على العويل والصراخ والضجيج لا فردي أو صامت ، وأنّ في إحياء ذكره وعزائه مزيد الفضل والتقرّب إلى الله سبحانه .

فيدلّ على أنّ الله سبحانه يحبّ للمؤمنين أن يقتدوا بأنبيائه وأوليائه ، ويتأسّوا بهم في ذلك فيحيوا شعائر الإمام الحسين عليه السلام ، ويقيموا له المآتم ، وينصبوا العزاء في كلّ زمان ومكان .

فيثبت هنا أصل عام يفيد مشروعية الشعائر الحسينية ومطلوبية إقامتها بشكلها الجماهيري المشتمل على مختلف أساليبها وأنواعها .

(١) كامل الزيارات : ص ٨٠ ، ح٦ ؛ بحار الأنوار : ج ٤٥ ، ص٢٠٦ ، ح١٣ ؛ عوالم العلوم (عوالم الإمام الحسين عليه السلام) : ص٤٦٢ ، ح١٦ .

العنوان السابع

مسالمة أولياء الله ومحاربة أعدائهم

هذان عنوانـان : الأوّل يـتضمّن المحـبّة والولاء والطـاعة والاتّـباع والثـاني يـتضمّن البـغض والمخـالفة والنـدية والحـرب ، وقـد تـواتـر ورودهما في النصوص لفظاً ومـعنى مجـتمعين ، فما ذكـرت المسـالمة لآل محمّد عليهم‌السلام في حـديث أو دعـاء أو زيـارة إلّا وقـرن مـعها ذكـر المحـاربة والمعاداة لأعدائهم عليهم‌السلام ، وذلك لأنّ أحدهما مكمّل للآخـر ومـتمّم لغـايته ومضمونه ؛ إذ لا يمكـن أن يكـون الإنسـان مسـالماً لآل محـمّد ومسـالماً لأعدائهم ، أو مسالماً لآل محمّد ولا يحارب أعداءهم ؛ لأنّ مسالمة أعدائهم وعدم محاربتهم من حيث المبدأ والنتيجة واحد ، فلا يمـلك المـؤمن إلّا أن يجمع الأمرين معاً أن يسالم أولياء الله ويحارب أعداءه ، وقـد أسّس هـذا النهج بالنصّ الصريح رسـول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله في روايـات عـديدة وردت بـطرق الفريقين :

منها : قوله ﷺ لعلي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام الوارد بطرق متعدّدة للجمهور : « أنا حرب لمن حاربكم ، وسلم لمن سالمكم »[١] وفي نصّ آخر : « أنا سلم لمن سالمتم ، وحرب لمن حاربتم »[٢] كما ورد هذا النصّ في علي أمير المؤمنين كثيراً إذ قال ﷺ في ملأ أصحابه : « ياعلي سلمك سلمي وحربك حربي »[٣].

وتواتر هذا النصّ والمضمون أيضاً في الإمام الحسين عليه السلام بالخصوص، لا سيّما في زياراته المخصوصة والمطلقة ، ومن أشهرها ما ورد في زيارة عاشوراء التي تتضافر القرائن على اعتبارها « أنّي سلم لمن سالمكم ، وحرب لمن حاربكم ، وولي لمن والاكم ، وعدو لمن عاداكم »[٤] وورد هذا المضمون في زيارته في عيدي الفطر والأضحى ، وفي زيارته في ليالي القدر ، وفي زيارته في الأوّل من رجب وفي نصفه والنصف من شعبان ، كما ورد في زيارة وارث ، وفي زيارة العبّاس المشهورة وغيرها

(١) مسند أحمد : ج٢ ، ص٤٤٢ ؛ مستدرك الحاكم : ج٣ ، ص١٤٩ ؛ مجمع الزوائد : ج٩ ، ص١٦٩ .

(٢) سنن ابن ماجة : ج١ ، ص٥٢ ؛ وانظر فضائل سيّدة النساء : ص٢٩ .

(٣) شرح الأخبار : ج٢ ، ص٨٧ ؛ بحار الأنوار : ج ٤٠ ، ص١٧٧ ، ح٥٩ .

(٤) مصباح المتهجّد : ص٧٧٥ .

من الزيارات ، والأحاديث التي توجب القطع واليقين بمطلوبية هذين العنوانين شرعاً من كلّ مؤمن على سبيل الواجب العيني التعييني ، فلا يختصّان بزمان أو مكان أو بفرد أو جماعة ، وهذا ممّا اتّفقت عليه كلمة أهل القبلة .

ومن الواضح أنّ المسالمة والمحاربة من الموضوعات العرفية التي يحدّدها العرف ، وهما لا يتحقّقان بالحالة القلبية فقط ، بمعنى أن يكون المؤمن في قلبه مسالماً لهم وفي قلبه محارباً لأعدائهم ، بل يشترط فيهما الإظهار على الجوارح ، فالمسالمة تتحقّق بإظهار الحبّ والطاعة لهم أحياءً وأمواتاً ، والحرب لا تصدق لغة وعرفاً إلّا بظهورها في الأفعال وعلى الجوارح ؛ بداهة أنّ السلم في مقابل الحرب ، فلابدّ للحرب من مظاهر وأساليب يظهرها الشخص المحارب ، وهي عادة تتحقّق بطريقين :

الأوّل : الحرب الجسدية ، وتتمّ بمقاتلة الأعداء جسدياً .

الثاني : الحرب الفكرية ، وتتمّ بالقضاء على نهج الأعداء وأفكارهم ومعتقداتهم ، والثانية أهمّ من الأُولى باتّفاق أهل العقل والمعرفة . ويقابل ذلك المسالمة ، فالمسالمة الجسدية تتحقّق بالوقوف إلى جنب أولياء الله سبحانه ونصرتهم بالجهاد والقتال ، والمسالمة الفكرية بنصرة نهجهم

وأفكارهم بالالتزام بها وترويجها في المجتمع .

والواجب على المؤمن أن يكون مسالماً لأولياء الله بسيفه إن اقتضت الحاجة وتوفّرت شروط الجهاد كأنصار الإمام الحسين عليه السلام ، وبفكره ومواقفه ، كما يكون محارباً لأعداء الله ومقاتلاً لهم في ساحات الجهاد في وقت الجهاد ، ومحارباً لهم في المواقف والنهج الفكري والسياسي ، وهذا الثاني أقوى وأشدّ وأبلغ تأثيراً كما هو واضح ، ومن هنا ركّز النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام على هذين المفهومين معاً ، وجعلوهما وجهين لحقيقة واحدة .

وعليه فإنّ الذي لا تتهيّأ له فرصة محاربة أعداء الإمام الحسين عليه السلام ومقاتلتهم جسدياً لم يعدم فرصة محاربتهم فكرياً ، وذلك بإبطال أفكارهم وفضح مواقفهم وإعلان البراءة منهم ومن أفعالهم ، كما أنّ الذي لم تتهيّأ له فرصة الدفاع عن الإمام الحسين عليه السلام ونصرته بسيفه فيفديه بروحه ومهجته فإنّه لم يحرم من فرصة نصرته بفكره ومواقفه وإعلان التضامن والتأييد لمواقف الإمام الحسين عليه السلام والالتزام بنهجه الديني والسياسي .

وهذا كلّه مجتمع في تعظيم شعائره وإحياء ذكره ، فإنّ إحياء الشعائر الحسينية يتضمّن إحياء ذكر الإمام الحسين عليه السلام وتخليد مواقفه والتذكير بنهجه ومبادئه ، كما يتضمّن إعلان الحرب على أعدائه ومواصلة العمل

لإفشال مشروعهم السياسي والفكري في الظلم والجور والفساد ، ولا يوجد نهج هو أقرب إلى الحرب الجسدية في محاربة أعداء الإمام الحسين عليه السلام من إحياء مواقف الإمام الحسين عليه السلام والتعلّم من نهجه وإحياء شعائره والبكاء عليه ومواساته بالغالي والنفيس ؛ لأنّ الشعائر الحسينية تتضمّن كلّ أساليب الحرب سوى أنّها بلا سيف ولا قتال ، وقد عرفت أنّ الشعائر طريق أسّسه النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام لمحاربة بني أُميّة وبني العبّاس والحكّام الظلمة الذين على شاكلتهم ، واتّخذوه نهجاً حموا به الدين ، وأحيوا أحكامه ، وأسقطوا به مشاريع الحكّام الظلمة في طمس معالم الدين وهدمها . وهذا ما أكّدته الزيارة الشريفة المعروفة بالناحية ، التي وردت من ولي العصر والزمان أرواحنا فداه إلى أحد الأبواب ، وقد رواها العلّامة المجلسي عن الشيخ المفيد رحمه الله[1]، كما رواها صاحب المزار الكبير[2]، والسيّد المرتضى وابن طاووس رحمه الله[3]، فقد قال فيها مخاطباً جدّه الشهيد المظلوم : « السلام عليك ... سلام من قلبه بمصابك مقروح ، ودمعه عند ذكرك مسفوح ... فلئن أخّرتني الدهور وعاقني عن نصرك المقدور ولم أكن لمن

(١) بحار الأنوار : ج١٠١ ، ص٣١٨ ، ح٨.

(٢) المزار الكبير : ص٧١٩ ـ ٧٤٤.

(٣) أُنظر الدعاء والزيارة : ص٧٥٢.

حاربك محارباً ولمن نصب لك العداوة مناصباً فلأندبنّك صباحاً ومساءً ، ولأبكينّ عليك بدل الدموع دماً حسرةً عليك وتأسّفاً ، وحسرة على ما دهاك وتلهّفاً حتّى أموت بلوعة المصاب وغصّة الاكتياب »[١].

ومنطوقها صريح في أنّ البكاء والندبة ومواصلة نهج العزاء والمآتم هو الطريق الثاني لمناصرة الحسين عليه‌السلام ومواساته والاقتداء بنهجه الربّاني ، فمن تعذّر عليه نصره بالسيف وبذل المهجة بسبب مانع التقدير الإلهي يمكنه نصره بمحاربة أعدائه بطول ذكره وإحياء أمره بالحزن والمصيبة .

ونلاحظ أنّ الإمام عليه‌السلام ينصّ على أنّ ندبته لجدّه المظلوم مستمرّة في كلّ الأوقات صباحاً ومساءً ، وأنّ بكاءه ليس بالدموع بل بالدم ؛ لأنّ هذا طريق الأنبياء في الإصلاح وفتح العقول والقلوب وهدايتها إلى الحقّ ؛ إذ لا تصل نهضة إلى غايتها من دون عزم ومواصلة وصبر واستقامة .

واللام في قوله : « ولأبكينّ عليك » تفيد أنّ غاية البكاء والندبة هوذات الإمام الحسين عليه‌السلام ، وهي مرتبة عالية جدّاً من مراتب الحزن التي لا يدركها إلّا الأولياء والأصفياء ، فليس بكاؤهم عليهم‌السلام لأجل تحصيل الثواب ، ولا لأجل دخول الجنّة أو الشفاعة ، بل لأنّ الحسين عليه‌السلام قيمة إلهية عظمى فالبكاء يكون له لا عليه .

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٠١ ، ص ٣٢٠ ، ح ٨ .

كما أنّ (حتّى) في قوله : « حتّى أموت بلوعة المصاب » يحتمل أن تكون غاية للأجل ، فتفيد استمرار التحسّر والتلهّف والعزاء حتّى يدرك الباكي أجله ، ويحتمل أن تكون غاية للبكاء ، فتدلّ على محبوبية مواصلة البكاء ولو أدّى إلى موت الباكي ، ولا تنافي بين المعنيين ؛ لاختلاف مقامات الباكين وتفاوت مراتب المعرفة والحزن .

وبذلك يتّضح أنّ إحياء الشعائر الحسينية تعدّ ضرورة دينية وسياسية تحيي الدين ، وتحفظ معالمه ، وتحارب الظلم ، وتبيد أهله ، وهي من العناوين الواجبة على كلّ مسلم بالوجوب العيني التعييني .

ويتحصّل من كلّ ما تقدّم : أنّ هناك أكثر من عنوان فقهي عام تضافرت الأدلّة على وجوبه العيني أو الكفائي ، أو تضافرت على استحبابه . هذا فضلاً عمّا لهذه العناوين من الفضائل والقيم المعنوية التي ترتقي بأهلها إلى مراتب الإيمان العالية التي تنطبق على الشعائر الحسينية انطباق الكلّي على الفرد والطبيعة على المصداق ، وهذا يكفي دليلاً للمؤمنين في مقام التنجيز والإعذار على مشروعية الشعائر الحسينية ومطلوبية المشاركة فيها وتعظيمها بمختلف ألوان التعظيم كما يكفي حجّة على المخالفين .

هذا كلّه من حيث الضرورات والعناوين الفقهية العامّة ، وسنفصّل

الكلام في الجزء الثالث في أقسام الشعائر الحسينية وأدلّة كلّ قسم منها ومناقشة الإشكالات التي تثار حولها ونقدها علميّاً إن شاء الله تعالى ، وهو الجزء الأخير من هذا البحث .

والحمد لله أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً

وصلّى الله على الحسين عليه السلام وعلى أنصار الحسين وأصحابه

ورحمة الله وبركاته

فهرس الجزء الثاني

الباب الثاني

في تنقيح صغرى فقه الشعائر الدينية

المبحث التمهيدي

في دواعي البحث ومشروعيته ورسالته وتاريخه

٩ ـ ٧٢

الفصل الأوّل

المعرفة بالحسين عليه السلام وخصوصياته الإلهية

٧٣ ـ ٢٣١

الفصل الثاني

في المنشأ الشرعي والعقلائي للشعائر الحسينية

٢٣٣ ـ ٤٥٧

المبحث الأوّل

في ضرورات تعظيم الشعائر الحسينيّة

٢٣٥ ـ ٣٧٦

المبحث الثاني

العناوين الفقهية العامّة لتعظيم الشعائر الحسينية

٣٧٧ ـ ٤٥٧